عصر المأمون

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

الجزء الثاني

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعى

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثانى

[الطبعة الرابعة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

فهرس

المجلد الثانى من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول — عصر بنى أمية

ملحق الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

مُلحق

الكتاب الأول

باب المنثور

ذكرنا فى مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثانى الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعُنينا عناية خاصّة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة أنموذجا أمويّا ، ومن أبى الربيع محمد بن الليث وبشّار بن بُرْد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مَسْعدة وأبى نُوَاس نموذجا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون،الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام،وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلّا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء. وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ — رسالتا أبى بكر وعلىّ

قال أبو حيّان على بن محمد التّوحيدىّ البَغْدادىّ [(١)] : سَمَرْنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بِشْر المَرْوَرُّوذىّ ببغداد، فتصرف فى الحديث كلَّ متصرَّف، وكان غزير الرواية،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدِّراية، بجرى حديثُ السَّـقيفة، فركب كلٌّ مركبًا، وقال قولا، وعرّض بشيء، ونزَع الى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبى بكر الصـدّيق[1]، رضى الله عنه، الى على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، وجواب علىّ عنها، ومبايعته إياه عَقِيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة : لا والله ؛ فقال : هى والله من بنات الحقائق، ومخبّـآت الصنادق، ومنذ حفِظتُها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنّى بيده . وقال : لا أعرِف رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدّة غوص . فقال له العبّادانىّ : أيها القاضى، فلو أتممتَ المِنّـة علينا بروايتها ! أَسْمِعْنـاها، فنحن أوعى لك من المهلّبىّ، وأوجبُ ذِمَاما عليك، فاندفع وقال :

حدّثنا الخُزاعىّ بمكة عن أبى مَيْسرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسى بن دَوْأب بن المتأّح ، قال سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول : لمـا آستقامت الخـلافة لأبى بكر رضى الله عنـه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها ويسّر

---

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة صاحب رسول الله وأوّل خليفة له فى الإسلام وخطيب يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين وبضعة أشهر . ونشأ من أكرم قريش خلقا ، وأرجحهم حلما ، وأسماهم يدا ، وأشدّهم عفة . وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها . صحب رسول الله قبل النبوّة . وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به ، ولذلك سمّى الصدّيق ، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معه الى المدينة مؤثرا صحبته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوّته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب ، وارتدّت عن الإسلام ، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، بجرّد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الإسلام ، وساقهم توا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر . وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله فصيحا بليغا ، خطيبا مفوّها ، حاضر البديهة ، قوى الحجة ، شديد التأثير ، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم ؛ فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة . وكانت وفاته سنة ١٣ ﻫ ومدّة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلكُّؤٌ وشِماس (١) ، وتهمّم (٢) ونفاس (٣) ، فكره أن يتمادى الحالُ فتبدوَ العورة ، وتشتعلَ الجمرة ، وتتفرقَ ذاتُ البَيْن ؛ فدعاني بحضرته في خَلْوة ، وكان عنده عمر ابن الخطّاب رضي الله عنه وحدَه ، فقال : يا أبا عُبيدة ، ما أيْمن ناصيتَك ، وأبْين الخيرَ بين عينيك ، وطالما أعزّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحلّ المغبوط ؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود : "لكل أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عُبيدة" ، ولم تزل للدين مُلتَجا ، وللمؤمنين مُرْتَجى ؛ ولأهلك ركنًا ، ولإخوانك رِدْءا . قد أردتُك لأمرٍ خَطَره مَخُوف ، وإصلاحُه من أعظم المعروف ، ولئن لم يَنْدَمِلْ جرحُه بيَسارك ورِفْقك ، ولم تَجُبَّ (٤) حيّتَه بُرقيتك ، وقع اليأس ، وأعضل البأس ؛ واحتيج بعد ذلك الى ما هو أمرّ منه وأعْلق ، وأعْسر منه وأغلق ؛ والله أسأل تمامَه بك ، ونظامَه على يديك . فتأتَّ (٥) له أبا عُبيدة وتلطَّف فيه ، وانصحْ لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العِصَابة غيرَ آلٍ جَهْدا ، ولا قالٍ حَمْدا ، والله كالئُك وناصرُك ، وهاديك ومبصِّرك ، ان شاء الله . امضِ الى عليّ واخفِضْ له جناحَك ، واغضُضْ عنده صوتَك ، واعلم أنه سُلالة أبي طالب ، ومكانُه ممّن فقدْناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانُه ، وقل له : البَحْر مَغْرَقة ، والبرّ مَفْرَقة ، والجوّ أكْلف (٦) ، والليل أغْدف (٧) ، والسماء جَلْواء (٨) ، والأرض صَلْعاء (٩) ، والصعود متعذّر ، والهبوط متعسّر ، والحقّ عَطُوف رَءُوف ، والباطل عَنُوف عَسُوف ، والعُجْب قَدَّاحةُ الشرّ ، والضِّغْن رائدُ البوَار ، والتعريض شِجَار الفتنة ، والقِحَة تَقُوبُ العداوة ، وهذا الشيطانُ متكئٌ على شِماله ، متحيِّلٌ بيمينه ، نافخٌ حِضْنَيْه (١٠) لأهله ، ينتظر الشَّتَات والفُرْقة ، ويَدِبّ بين الأمة بالشَّحْناء والعداوة ، عناداً لله عز وجل

---

(١) الشماس : المعاداة والمعاندة . (٢) تهمم الشيء : طلبه وتحسّسه . (٣) نافس في الشيء منافسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) تأتّى فلان للأمر : تهيأ له وأتاه من وجهه .

(٦) الجو أكلف : أسود تعلوه حمرة . (٧) الليل أغدف : مرخ سدوله مظلم . (٨) السماء جلواء : مصحية . (٩) خالية لا شجر فيها . (١٠) أي مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أوّلا، ولآدمَ ثانيا، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودِينِه ثالثا، يُوَسْوِس بالفُجُور، ويُدْلِي بالغرور، ويمَنّي أهـلَ الشرور . يُوحِي الى أوليائه زُخْرُفَ القول غُروراً بالباطل، دأْباً له مُنْذُ كان على عهد أبينا آدمَ صلى الله عليه وسـلم، وعادةً له منـذُ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر، لا مَنْجَى منه إلا بعضّ الناجذ على الحق، وغَضّ الطَّرْف عن الباطل، ووَطْء هَامَة عدوّ الله بالأشدّ فالأشدّ، والآكدِ فالآكد، وإسلامِ النفس لله عز وجل فى ٱبتغاء رضاه. ولا بدّ الآن من قول ينفع إذا ضرّ السكوت وخِيفَ غِبُّه، ولقد أرشدك مَنْ أفاء(١) ضالَّتَك، وصافاك من أحيا مودّته بعتابك، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثر البقاءَ معك ، ما هذا الذى تُسَوّل لك نفسُك، ويَدْوَى به قلبُك، ويلتوى عليه رأيُك، ويتخاوصُ(٢) دونه طَرْفُك، ويَسْرِى فيه ظَعْنُك، ويَتَرَادُ معه نَفَسُك، وتكثر عنـده صُعَدَاؤُك، ولا يَفِيضُ به لسانُك. أعُجْمةٌ بعـد إفصاح ! أتلبيسٌ بعـد إيضاح ! أدينٌ غيرُ دين الله ! أخُلُق غيرُ خلق القرآن ! أهَدْيٌ غيرُ هَـدْيِ النبي صلى الله عليه وسـلم ! أمثلى "تَمْشِى(٣) له الضَّرَاءَ وتَدِبُّ له الخَمَرَ! " أم مثلُك يَنْقبِض عليه الفضاء، ويُكْسَف فى عينه القمر! ما هذه القَعْقَعة بالشِّنَان(٤) ! وما هذه الوَعْوعة باللسان ! إنك والله جِدُّ عارِف بٱستجابتنا لله عز وجل ولرسـوله صلى الله عليه وسـلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنـا وأولادنا وأحبّتنا ، هجرةً الى الله عز وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيـه فى كِنّ الصِّبَا ، وخِدْرِ الغَرَارة ، وعُنْفُوان الشَّبِيبة ، غافلٌ عمـا يَشِيب ويَرِيب، لا تَعِي ما يُرَاد ويُشَاد، ولا تحصّل ما يُسَاق ويُقَاد، سِوَى ما أنت جارٍ عليـه الى غايتك التى اليها عُدِل بك، وعندها حُطّ رَحْلُك، غيرَ مجهول القـدر ولا مجحود الفضـل؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعَانِي أحوالا تُزِيل الرَّوَاسى، ونُقَاسِى أهوالا تُشِيب النَّوَاصى، خائضين غِمَارَها، راكبين تَيّارَها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَج(٥) عِيابَها، ونُحْكِم آسَاسَها، ونبرِم

---

(١) أفاء : أرجع . (٢) يتخاوص : يغضّ من بصره . (٣) الضراء : الاستخفاء . والخمر : ما واراك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه . (٤) الشنان جمع شن وهو القربة الخلَق الصغيرة . والقعقعة : الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا . (٥) نشرج عيابها : ننضدها ونضم بعضها الى بعض . والعياب : جمع عيبة، وهى زنبيل من أدم تجعل فيه الثياب .

أَمْرَاسِها[١]، والعيونُ تَحْدِجُ بالحسد ، والأنوفُ تَعْطِس بالكِبْر ، والصدور تَسْتَعِر بالغَيْظ ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشِّفَار تُشْحَذ بالمكْر ، والأرض تَميد بالخوف ؛ لا ننتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع فى نَحْرِ أمرٍ إلا بعد أن نَحْسُوَ الموتَ دونه ، ولا نبلغ مُرَادًا إلا بعد الإياس من الحياة عنده ، فَادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأمّ ، والخال والعم ، والمال والنَّشَب ، والسَّبَد[٢] واللَّبَد ، والهِلَّة[٣] والبِلَّة ، بِطِيب أَنْفُسٍ ، وقُرَّة أَعْيُن ، ورَحْبِ أَعْطَان ، وثَبَاتِ عزائم ، وصحة عقول ، وطَلَاقة أَوْجُه ، وذَلَاقة أَلْسُن ؛ هذا مع خَفِيَّات أسرار ، ومكْنونات أخبار ، كنتَ عنها غافلا ، ولولا سِنُّك لم تكن عن شىء منها ناكِلا ، كيف وفؤادُك مَشْهوم[٤] ، وعُودُك مَعْجُوم ! .

والآن قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيرَ لك ، وجعل مرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ؛ فارتقبْ زمانَك ، وقلِّص أَرْدانَك ، ودَع التقعُّس والتجسُّس لمن لا يَظْلَعُ لك اذا خطا ، ولا يتزحزح عنك اذا عَطَا[٥] ؛ فالأمر غَضّ ، والنفوسُ فيها مَضّ ، وإنك أَدِيمُ هذه الأمة فلا تَحْلَمْ[٦] لجاجا ، وسيفُها العَضْب ، فلا تَنْبُ اعوجاجا ، وماؤها العَذْب فلا تَحُلْ أُجاجا . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لى : « يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجَاحِشُ[٧] عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفَّجُ[٨] اليه ، هو لمن يقال هو لك لا لمَنْ يقول هو لى » .

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهْر ، فذكر فِتيانًا من قريش ، فقلت : أين أنت من علىّ ؟! فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكره لفاطمة مَيْعَةَ شبابه ، وحَدَاثة سنّه . فقلت له : متى كنَفْتَه يدُك ، ورَعَتْه عينُك ، حَفَّت بهما البركة ، وأُسْبِغت عليهما النعمة ؛ مع كلامٍ كثيرٍ خاطبتُه به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك لا حَوْجاء[٩]

(١) جمع مرس ككتف وهو الحبل . (٢) السبد : الشعر . واللبد : الصوف . (٣) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشىء ، فالهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة من البلل والخير . (٤) مشهوم (بالشين المعجمة) : ذكىّ متوقد . (٥) عطا : مدّ اليك عنقه وأقبل نحوك . (٦) حلم الجلد (من باب فرح) : فسد وتنقّب . (٧) أى يغالبه ويدافع عنه . (٨) يتطلع اليه ويفتخر به .
(٩) أى ما كنت عرفت منك شيئا .

ولا لَوْجاء، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأجد رائحةَ سِواك، وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر، فلم يكن مُعرِضا عن غيرك: وإن كان قال فيك فما سكت عن سِواك، وإن تلجلج فى نفسك شىء فهَلُمّ، فالحكم مرضىّ، والصواب مسموع، والحقّ مُطَاع . ولقد نُقِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل، وهو عن هذه العِصابة راض، وعليها حَذِر، يسرّه ما سرّها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويُرْضيه ما أرضاها، ويُسْخطه ما أسخطها. أمَا تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه (١)، إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزية، وأفرده بحالة ! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدًى بَدَدا، عَبَاهِلَ (٢) مَبَاهِل، طَلَاحَى مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقَ ولا واقٍ، ولا هادىَ ولا حادى ! كلا ! والله ما آشتاق الى ربه تعالى ولا سأله المَصير الى رضوانه وقُربه، إلا بعد أن ضرَب المَدَى، وأوضح الهدى، وأبان الصُّوَى (٣)، وأمَّن المسالك والمطارح، وسهّل المبارك والمَهَايع (٤)، وإلا بعد أن شَدَخَ يافوخَ (٥) الشرك بإذن الله، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَع أنفَ الفتنة فى ذات الله، وتفَل فى عين الشيطان بعون الله، وصَدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد، فهؤلاء (٦) المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالونى لك وأشاروا عندى بك، فأنا واضع يدى فى يدك، وصائر الى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العونَ على مَصَالحهم، والفاتحَ لمَغَالقهم، والمرشدَ لضالّتهم، والرادعَ لغَوَايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاونُ على البرّ والتقوى، والتناصُر على الحق . ودَعْنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ، ونلقَ الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضِّغْن .

(١) سجرائه : أصدقائه . (٢) عباهل مباهل (بالباء الموحدة فى الكلمتين) : مهملة . (٣) الصوى : الأعلام . (٤) المهايع : الطرق . (٥) اليافوخ (يهمز ولا يهمز) جزء الرأس الذى يتحرك فى الطفل .
(٦) فى صبح الأعشى : «فهذه» .

وبعد، فالناس ثُمامةٌ فارفُق بهم وآحنُ عليهم ولِنْ لهم، ولا تُشْقِ نفسَك بنا خاصة فيهم، وآترك ناجمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشرّ واقعا، وبابَ الفتنة مُغْلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تَبِيع، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عُبَيْدة: فلما تأهّبتُ للنهوض، قال عمر رضى الله عنه: كُنْ لدى الباب هُنيهةً فلى معك دورٌ من القول؛ فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحِقنى بوجه يَنْدَى تهلّلا، وقال لى: قل لعلىّ: الرقادُ مَحْلَمَة، والهوى مَقْحَمة، ومامنّا إلا له مقامٌ معلوم، وحق مشاعٌ أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم، وإن أكيَس الكَيْس من منح الشاردَ تألُّفا، وقاربَ البعيدَ تلطُّفا، ووَزَنَ كلَّ شىء بميزانه، ولم يَخلِطْ خبرَه بعيانه، ولم يجعل فِتْرَه مكانَ شِبْره، دِيناً كان أو دُنيا، ضلالًا كان أو هُدى. ولا خيرَ فى علم مستعمَلٍ فى جهل، ولا خيرَ فى معرفة مَشُوبةٍ بنُكْر. ولسنا بجِلْدة رُفْغ(١) البعير بين العِجَان والذنب. وكُلُّ صَالٍ فبناره، وكل سيلٍ فإلى قَرَاره. وما كان سكوت هذه العصابة الى هذه الغاية لعِىّ وشِىّ(٢)، ولا كلامُها اليوم لفَرَق أو رِفْق. وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذى كِبر، وقصَم ظهر كل جبّار، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بعدَ الحق إلا الضلال. ما هذه الخُنْزُوانة(٣) التى فى فَرَاش رأسك! ما هذا الشَّجا المعترض فى مَدَارج أنفاسك! ما هذه القَذَاة التى تَغَشَّت ناظرَك! وما هذه الوَحَرة(٤) التى أكلت شَرَاسيفَك! وما هذا الذى لَبِستَ بسببه جلدَ النَّمِر، وآشتملتَ عليه بالشَّحْناء والنُّكْر! ولَسْنا فى كِسْرويّة كِسْرى، ولا فى قيصريّة قيصر! تأمَّلْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جَزَرًا لسيوفنا، ودريئةً لرِماحنا، ومرمىً لطِعاننا، وتبعاً لسلطاننا؛ بل نحن فى نور نبوّة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأَثَرة رحمة، وعُنوان نِعمة،

(١) الرفغ: أصل الفخذ من باطن. والعجان: الاست. يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشائر ليست حقيرة مهينة.

(٢) الشىّ بالكسر إتباع لعىّ.

(٣) الخنزوانة: الكبر.

(٤) الوحرة (بالتحريك): والحقد العداوة والشراسيف: جمع شرسوف، والشرسوف مقط الضلع.

وظلّ عصمة، بين أمة مهديّة بالحق والصدق، مأمونة على الرّتق والفتق، لها من الله قلبٌ أبيّ، وساعدٌ قويّ، ويدٌ ناصرة، وعينٌ باصرة. أتظن ظنا يا علي أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مُفتاتا على الأمة خادعًا لها أو متسلّطا عليها! أتُراه حلّ عقودها وأحال عقولها! أتُراه جعل نهارها ليلا، ووزنها كيلا، ويقظتها رُقادا، وصلاحها فسادا! لا والله! سَلا عنها فولهت له، وتطامن لها فلصقت به، ومال عنها فمالت إليه، واشمأزّ دونها فاشتملت عليـه، حَبْوةً حَبَاه الله بها، وعاقبةٌ بلّغه الله إليها، ونعمةٌ سَرْبَله جمالها، ويدٌ أوجب الله عليـه شكرها، وأمّةٌ نظر الله به إليهـا. والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخِيَرة. وإنك بحيث لا يُجْهَل موضعُك من بيتِ النبوة، ومَعْدِن الرسالة، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمَنْكِبٍ أضخمَ من منكبك، وقُرْبٍ أمسّ من قرابتك، وسنّ أعلى من سـنّك، وشَيبةٍ أروعَ من شيبتك، وسـيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية وفرعٌ فى الإســلام، ومواقفَ ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا سَاقَة، ولا تَضْرِب فيها بذراع ولا إصـبع، ولا تخرُج منها ببازلٍ ولا هُبَع[1]. ولم يزل أبو بكر حبّة قلب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وعِلاقة نفســه، وعَيْبة سِرّه، ومَفْزَع رأيه ومشورته، وراحةَ كفّه، ومَرْمَق طَرْفه. وذلك كله بمحْضَر الصـادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرتُه مغنيةٌ عن الدليل عليــه. ولعمرى إنك أقربُ الى رسول الله صلى الله عليه وســلم قرابةً، ولكنه أقربُ منك قربةً، والقرابةُ لحم ودم، والقُرْبةُ نفس ورُوح. وهذا فرق عرَفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليــه أجمعون. ومهما شَكَكْتَ فى ذلك، فلا تشكّ أن يدَ الله مع الجماعة، ورضوانَه لأهل الطاعة. فادخُل فيما هو خيرٌ لك اليوم وأنفعُ لك غدا، والفِظْ من فيك ما يَعْلَق بلهاتك، وانفُثْ سخيمةَ صدرك عن تُقاتك، فإن يكُ فى الأمد طولٌ، وفى الأجل فُسْحة، فستأكله مريئا أو غيرَ مرىء، وستشربه هنيئا أو غير هنىء، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيسًا منك، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعًا فيك، يَمُضّ إهابَك[2]، ويَعْرُك أديمَك[3]،

(١) البازل: الجمل القوى الذى دخل فى سنته التاسعة. والهبع: الفصيل الذى ينتج فى الصيف فيكون ضعيفا.

(٢) يمض إهابك: يحرق جلدك. (٣) يعرك: يدلك.

ويُزرِى على هَدْيك . هنالك تقرَع السنّ من ندم، وتجرّع المـاءَ ممزوجا بدم، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك ، فتودّ أن لو سُقِيتَ بالكأس التى أبيتَها ، ورُددتَ إلى حالتك التى آستغويتَها . ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغهُ، وغيبٌ هو شاهدُه، وعاقبةٌ هو المرجوّ لسرّائها وضرّائها، وهو الولىّ الحميد، الغفور الودود .

قال أبو عُبَيدة : فتمشّيت مترمّلا أنوء كأنما أخطُو على رأسى، فَرَقًا من الفُرقة، وشَفَقًا على الأمّة، حتى وصلتُ الى علىّ (١) رضى الله عنه فى خَلَاء، فابثثتُه بثّى كلّه، وبرِئتُ إليه منه، ورَفَقْت به . فلمـا سمعها ووعاها ، وسَرَتْ فى مفاصلِه حُمَيّاها ، قال : "حلّت معلوطة (٢)، وولّت مخروطة (٣)"، وأنشأ يقول :

إحدى لياليكِ فهِيسِى هِيسِى (٤) ✱ لا تنعَمِى الليـلةَ بالتَّعرِيسِ

نعمْ يا أبا عبيـدة ، أكلُّ هـذا فى أنفس القوم ، ويُحِسّون به ، ويضطغنون (٥) علىّ ! قال أبو عبيدة: فقلت: لا جواب لك عندى، إنما أنا قاضٍ حقَّ الدِّين، وراتقٌ فتق المسلمين، وسادٌّ ثُلمة الأمّة، يعلم الله ذلك من جلجلان (٦) قلبى، وقرارة نفسى .

---

(١) هو أمير المؤمنـين أبو الحسن على بن أبى طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسـلم . وزوج ابنته . ورابع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطباء من المسلمين .

ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعا لا يشق له غبار . أيدا جليدا . شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك . وأبلى فى نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يبله أحد . ولمـا قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بنى أمية غضبا منهـم لمقتل عثمان وقلة عنايتـه بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم ، فحـدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم الى طائفتين فتحاربوا مدّة من غير أن يستتب الأمر لعلى أو معاوية حتى قتـل أحد الخوارج عليا غيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علما وزهدا وشدّة فى الحق : وهو إمام الخطباء من العرب على الاطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدّة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوّطة : مقتحمة من غير روية . (٣) مخروّطة : مسرعة . (٤) هيسى : سيرى أىّ سير كان .

(٥) أى ينطوون على الضغن وهو الحقد . (٦) جلجلان قلبى ، أى حبته .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعُودى فى كِنّ هـذا البيت قصدًا للخلاف، ولا إنكارًا للمعروف ، ولا زِرايةً على مسلم، بل لمـا قد وقَذَنِى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِرَاقه، وأودعنِى من الحزن لفَقْده . وذلك أنى لم أشهد بعده مَشْهدًا إلا جدّد علىّ حزنا، وذكّرنى شجنا . و إن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرق، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله، وأسلم لعلمه ومَشيئته، وأمره ونهيه . على أنى ما علمت أن التظاهر علىّ واقع، ولا عن الحق الذى سيق إلىّ دافع . و إذ قد أُفْعِمَ الوادى بى ، وحُشِد النادى من أجلى ، فلا مرحبًا بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّنى . وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عقـد وسالف عهد ، لشَفَيْتُ غيظى بخِنْصَرى وبِنْصَرى ، وخُضْتُ لجُتَّه بأَخْمَصِى ومَفْرِق، ولكننى مُلْجَمٌ إلى أن ألقَ الله ربى، وعنـده أَحْتسِب ما نزل بى . و إنّى غادٍ إلى جماعتكم، فمبايعٌ صاحبكم، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم، لِيَقْضِىَ الله أمرا كان مفعولا .

قال أبو عُبَيدة : فعدتُ إلى أبى بكر رضى الله عنه فقصَصْتُ عليه القولَ على غَرّه[1]، ولم أختزل شيئا من حُلْوه ومُرّه ، وبكّرت غُدوةً إلى المسجد، فلما كان صباحُ يومئذ و إذا علىّ مخترق الجماعةَ إلى أبى بكر رضى الله عنهما فبايعه، وقال خيرا، ووصف جميلا، وجلس زَمِيتا[2]، واستأذن للقيام فمضى وتبعه عمر مُكْرِمًا له ، مستأثرا لمـا عنده .

فقال علىّ رضى الله عنـه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً، ولا أتيتهُ فَرِقاً، ولا أقول ما أقول تَعِلّة . و إنّى لأعرف منتهى طَرْفى، ومَحَطّ قَدَمى، ومَنْزَع قوسى، وموقَع سهمى؛ ولكن قد أَزَمْتُ على فَأْسِى[3] ثِقةً بربى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنـه : كَفْكِف غَرْبَك، واستوقف سِرْبَك ، ودَع العِصِىّ بِلِحَائها، والدِّلاءَ على رِشَائها . فإنّا من خَلْفِها ووراثها، إن قَدَحْنا أَوْرَيْنا، و إن مَتَحْنا أَرْوَيْنا،

(١) على غرّه، أى كما هو وكما قص علىّ . (٢) زميتا : حليما وقورا . (٣) يقال : أزم الفرس على فأس اللجام اذا عضها وقبض عليها . وفأس اللجام : الحديدة المعترضة منـه فى الحنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنا أدمَيْنا . ولقد سمعتُ أماثيلكَ التي لغَزْتَ بها عن صدرٍ أُكِل بالجَوَى، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتِك ما إن سمعتَــه نَدِمتَ على ما قلتَ . وزعمتَ أنك قعدتَ في كِنِّ بيتِـك لمـا وَقَذَك به رسول الله صلى الله عليـه وسلم من فقــده ، فهو وَقَذَك ولم يَقِذْ غيرَك ! بل مصابُه أعظم وأعم من ذلك، وإن من حق مُصابه ألّا تَصْدع شَمْل الجماعة بفُرْقةٍ لا عصامَ لها، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان في بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تَداعتْ علينا في صبح نهـار لم نلتقِ في مسائه . وزعمتَ أن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرةُ دينـه ، ومؤازرةُ أوليائه ومعاونتهـم . وزعمت أنك عكَفتَ على عهد الله تجمع ما تفرّق منه، فمن العكوف على عهد الله النصيحةُ لعِبَاد الله، والرأفةُ على خلق الله، وبذل ما يَصْلُحون به، ويَرْشُدون عليه. وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهرَ واقعٌ عليك، وأيُّ حقٍّ لُطَّ[١] دونك! . قد سمِعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سرًا وجهرا ، وتقلّبتَ عليه بطنا وظهرا، فهل ذكرتْ أو أشارتْ بك، أو وجدتَ رِضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر؟ أو أومأ بعينه أو همّ في نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك، وعادوا كفّارا زهدًا فيك، وباعوا الله تحاملًا عليك؟ . لا والله! لقد جاءني عَقِيل ابن زِيَاد الخَزْرجي في نَفَرٍ من أصحـابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقوب الخَزْرجيّ وقالوا : إن عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعُم أنه أولى بها من غيره، ويُنكِر على من يَعقِد الخلافة؛ فأنكرتُ عليهم، ورددتُ القولَ في نَحْرهم حيث قالوا: إنه ينتظر الوَحْيَ ويتوكَّف[٢] مناجاةَ الملك ؛ فقلت : ذاك أمرٌ طواه الله بعـد نبيه محمد صـلى الله عليه وسـلم أكان الأمر معقودًا بأُنْشوطة[٣] ، أو مشدودًا بأطراف لِيطَة[٤] ؟ كلّا! والله لا عجماءَ بحمد الله إلا أفصحتْ، ولا شَوْكاءَ إلا وقد تفتّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك : «ولولا سالف عهد وسابق عقد، لشفَيْتُ غيظي» وهل ترك الدينُ لأهله أن يَشفُوا غيظَهم بيدٍ أو بلسان؟ تلك جاهليةٌ وقد استأصل الله شأفتَها واقتلع جُرثومتَها، وهوّر ليلَها، وغوّر سيلَها، وأبدل منها الرَّوحَ والريحان، والهُدَى والبرهان.

(١) لط : جحد . (٢) يتوكف : ينتظر . (٣) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها، إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت . (٤) الليطة قشرة القصبة التي تليط بها أي تلزق .

وزعمت أنك مُلْجَم، ولعمرى إن من اتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حَفْص، والله مابذلتُ مابذلتُ وأنا أريد نكثه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِولاً عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عنـد الله مَنْ آثر النفاق، واحتضن الشقاق، وفى الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل فى جميع الحوادث. ارجع يا أبا حفص الى مَجْلِسك ناقعَ القلب، مبرودَ الغليل، فسيحَ اللَّبان[1]، فصيحَ اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدّ الأَزْر، ويحطّ الوِزْر، ويَضَع الإِصْر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنـه : فانصرف علىّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

⁂

٢ — ومن كلام عائشة[2] رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلتْ الى أَزْفَلة[3] من الناس، فلما حضروا، أسدلتْ أستارَها، وعَلَتْ وِسادَها، ثم قالت : أبى، وما أبِيَـهْ ! أبِى والله لا تَعْطُوه[4] الأيدى، ذاك طودٌ مُنِيف، وفرعٌ مَدِيد، هيهات، كذبتِ الظنون! أَنْجح إذ أَكْدَيتم، وسَبَق إذ وَنَيتم، سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمـد . فتى

(١) اللبان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوّة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعمائة درهم، وكانت أحب نسائه إليه، وكنيتها أم عبد الله، كنيت بابن أختها أسماء، ولها خطب ووقائع . وكانت من أكبر العاملات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقا وأحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلا بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .
(٣) الأزفلة : الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناله .

قريش ناشئا، وكهفها كهلا، يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب شعبها، ويلم شعثها، حتى حليته قلوبها، ثم استشرى فى دين الله فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيه ما أمات المبطلون. وكان رحمه الله غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجى النشيج، فانقضت اليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها، وفوقت سهامها، وانتثلوه غرضا، فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه[1]، حتى اذا ضرب الدين بجرانه، ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا، اختار الله لنبيه ما عنده، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه، ومد طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، واضطرب حبل الإسلام، ومرج عهده وماج أهله، وبغى الغوائل، وظنت رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزها، ولات حين الذى يرجون، وأنى والصديق بين أظهرهم! فقام حاسرا مشمرا، فجمع حاشيتيه ورفع قطريه، فرد رسن الإسلام على غربه، ولم شعثه بطبه، وانتاش الدين فنعشه، فلما أراح الحق على أهله، وقرر الرءوس على كواهلها، وحقن الدماء فى أهبها، أتته منيته، فسد ثلمته بنظيره فى الرحمة، وشقيقه فى السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب، لله در أم حملت به ودرت عليه! لقد أوحدت به، ففنخ[2] الكفرة وديخها، وشرد الشرك شذر مذر، وبعج الأرض وبخعها، فقاءت أكلها، ولفظت خبأها[3]، ترأمه ويصدف عنها، وتصدى له ويأباها. ثم وزع فيها فيئها وودعها كما صحبها. فأرونى ماذا ترتئون، وأى يومى أبى تنقمون: أيوم إقامته اذ عدل فيكم، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم. ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت: أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا؟ قالوا: اللهم لا.

---

(١) على سيسائه، أى على دأبه وعادته. (٢) فنخ: غلب وقهر. (٣) خبأها: ما غاب عنها.

* * *

٣ — كلمة أم الخير بنت الحريش [١]

ومن كلام أمّ الخير بنت الحُرَيْش البارقية يوم صِفِّين فى الانتصار لعلىّ رضى الله عنه :

يُروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أمّ الخير بنت الحُرَيْش البارقية برَحْلها، وأعلمه أنه مُجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب اليها فاقرأها الكتابَ، فقالت : أمّا أنا فغيرُ زائغة عن طاعة ولا معتلّة بكذب! ولقد كنتُ أُحبّ لقاءَ أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صـدرى . فلما شيّعها وأراد مفارقتَها قال لها : يا أمّ الخير، إن أمير المؤمنـين كتب الىّ أنه يجازينى بقولكِ فىّ بالخير خيرا وبالشرّ شرا ، فما عندك؟ قالت : يا هذا لا يُطْمِعنّك برُّك بى أن أَسُرّك بباطل، ولا تؤيسْك معرفتى بك أن أقول فيك غيرَ الحق . فسارت خيرَ مَسِير حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع حرمه ثلاثا ، ثم أدخلها عليـه فى اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه، فقالت : السلام عليـك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ قال لها : وعليك السلام ياأم الخير، وبالرغم منك دعوتنى بهذا الاسم؛ قالت : مَهْ ياأمير المؤمنين ! فإن بديهة السلطان مَدْحَضة لـمايجب علمه ولكل أجلٍ كتاب؛ قال : صدقتِ، فكيف حالك ياخالة؟ وكيف كنتِ فى مَسيرك ؟ قالت : لم أزل فى عافية وسلامة حتى صرتُ اليك فأنا فى مجلس أنيق، عند ملك رفيق؛ قال معاوية : بحسن نيتى ظفِرتُ بكم؛ قالت : يا أمير المؤمنين أعيـذُك بالله من دَحْض المقال وما تُرْدى عاقبتُـه ، قال : ليس هـذا أردنا ، أخبرينى كيف كان كلامك يوم قُتِـل عمار بن ياسر؟ قالت : لم أكن والله زوّرته [٢] قبلُ ولا رويته بعدُ ، وإنما كانت كلماتٌ نفثهنّ لسانى حين الصّدْمة، فان شئتَ أنْ أُحدث لك مقالا غير ذلك فعلتُ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى أصحابه فقال : أيُّكم يحفظ كلام أم الخير؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد؛ قال : هاتِه؛ قال : نعم كأنى بها يا أمير المؤمنين فى ذلك اليـوم عليها

(١) منقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زوّر الكلام فى نفسه : هيأه .

بُرْدٌ زَبِيدِىّ كثيف الحاشية، وهى على جمل أَرْمَكَ(١) وقد أُحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفر، وهى كالفحل يَهدر فى شِقْشِقته تقول :

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ! ان الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليـل ، ونوّر السبيل ، ورفع العَلَم ، فلم يدعكم فى عَمْياءَ مُبْهمة ! ولا سوداءَ مُدْلهِمّة ، فالى أين تريدون رحمكم الله ! أفِرارًا عن أميـر المؤمنين ، أم فِرارًا من الزّحف ، أم رغبـةً عن الاسـلام ، أم ارتدادًا عن الحق ! أمَا سمعتم الله عزّ وجلّ يقول : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

ثم رفعت رأسها الى السماء وهى تقول :

قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يا ربّ أَزِمَّةُ القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألِّف القـلوبَ على الهـدى . هَلُمُّوا رحمكم الله الى الإمام العـادل ، والوصىّ الوفىّ ، والصِّدِّيق الأكبر! إنها إحَنٌ بَدْرِيّه ، وأحقاد جاهليّه ، وضغائن أُحُديّه ، وثَب بها معاوية حين الغفلة ليُدْرِك بها ثاراتِ بنى عبد شمس .

ثم قالت : قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . صبراً معشرَ المهاجِرِين والأنصار، قاتلوا على بصـيرةٍ من ربكم ، وثباتٍ من دينكم ، وكأنى بكم غدًا قد لَقِيتم أهـلَ الشأم كحُمُرٍ مُستنفِرة ، فَرّتْ من قَسْوَرة ، لا تدرى أين يُسْلَكُ بها من فِجَاج الأرض ، باعوا الآخرةَ بالدنيا ، واشـتَرُوا الضلالةَ بالهدى ، وباعوا البصيرةَ بالعمى ، وعمـا قليلٍ ليُصْبِحُنّ نادمين ، حين تَحُلّ بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ! إنه والله مَنْ ضلّ عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنـة نزل فى النار . أيها الناس ، إن الأكياس استقصروا عمرَ الدنيا فرفضوها واستبطـئوا مدّة الآخرة فسعَوْا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطُلَ الحقوق ، وتُعطَّل الحدود ، ويظهرَ الظالمون ، وتقوَى كلمةُ الشيطان ، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه ، فالى أين تريدون ــ رحمكم الله ــ عن ابن عم رسول الله صـلى الله عليه وسلم

(١) جمل أرمك : لونه لون الرماد .

وزوج ابنتــه وأبى ابنيه؟ خُلق من طِينته، وتفرّع عن نَبْعته، وخصّــه بسِرّه، وجعـله باب مدينته، وأعلَمَ بحبه المسـلمين، وأبان ببغضه المنافقـين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونتـه، ويمضى على سَنَن استقامته، لا يعرّج لراحة اللذات . وهو مُفَلِّق الهام، ومكسِّر الأصنام، إذ صـلّى والناس مُشْرِكون، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتَل مُبارِزِى بَدْر، وأفنى أهـلَ أُحُد، وفرّق جَمْع هوازن ؛ فيالهـا وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا، ورِدّة وشِقاقا . وقد اجتهدتُ فى القول، وبالغتُ فى النصيحة، وبالله التوفيـق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يا أمّ الخير ما أردتِ بهـذا إلا قتلى ! والله لو قتلتُـك ما حَرِجتُ فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجْرِىَ الله ذلك على يَدَىْ من يُسعدنى الله بشقائه ؛ قال : هيهاتَ يا كثيرة الفضول، ما تقولين فى عثمان بن عفان؟ قالت : وما عَسَيْتُ أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال : إيهاً يا أم الخير، هذا والله أصلكِ الذى تبنين عليه؛ قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردتُ بعثمان نقصا، ولقد كان سبّاقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله؟ قالت : وما عسى أن أقول فى طلحة، اغتِيل من مأمنه، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ . قال : فما تقولين فى الزبير؟ قالت : يا هذا لا تَدَعْنى كَرَجيع الصَّبِيغ يُعْرَكُ فى المِرْكَن[1]؛ قال : حقًّا لتقولِنّ ذلك وقد عزمتُ عليك؛ قالت : وما عَسَيتُ أن أقول فى الزبير ابنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسـلم وحَوَارِيِّه، وقد شهد له رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم بالجنة، ولقد كان سبّاقا إلى كل مَكْرُمة فى الإسلام . وإنى

(١) المركن : الإجانة وهى إناء تغسل فيه الثياب . ويعرك : يحك . والرجيع المردود . أى لا تجعلنى كالثوب المصبوغ يحك فى الإناء مرة بعد أخرى لإخراج صبغه منه : تشبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعـد مرة لاستخراج ما فى نفسها بمـا يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها .

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قريشا تحدث أنك من أحلمها، أن تَسَعَنِي بفضل حلمك، وأن تُعْفِيَنِي من هذه المسائل، وآمض لما شئتَ من غيرها؛ قال: نعم وكرامةً، قد أعفيتُكِ؛ وردّها مكرّمة إلى بلدها .

٭٭٭

٣ — كلمة الزرقاء[١] بنت عدىّ

ومن كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانية ما قالته يوم صِفِّين أيضا :

يروى أنها ذُكرتْ عند معاوية يوما، فقال لجلسائه : أيُّكم يحفَظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين، قال : فأشيروا علىّ فى أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال : بئس الرأى! أيحسُنُ بمثلى أن يقتل آمرأة! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثِقة من ذوى مَحْرَمها وعِدّة من فُرْسان قومها، وأن يمهّد لها وِطاءً لينا، ويسترها بستر خَصِيف[٢]، ويُوَسّع لها فى النفقة . فلما دخلتْ على معاوية، قال: مرحباً بِكِ وأهلا! قَدِمتِ خيرَ مَقْدَم قَدِمه وافد، كيف حالكِ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة! قال : كيف كنتِ فى مَسِيرِك؟ قالت : ربيبةَ بيتٍ أو طِفلا ممهَّدا؛ قال : بذلكِ أمرناهم. أتدرين فيم بعثتُ إليكِ؟ قالت : وأنّى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيبَ إلا الله عز وجل؛ قال: ألستِ الراكبةَ الجمل الأحمر، والواقفةَ بين الصفّيْن بصِفّين تحُضّين الناس على القتال، وتُوقدين الحربَ؟ فما حملك على ذلك؟ قالت : يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِرَ الذَّنَب، ولن يعود ما ذهب؛ والدهر ذو غِيَر، ومن تفكّر أبصر، والأمرُ يحدُثُ بعده الأمر؛ قال

---

(١) هى الزرقاء بنت عدىّ بن غالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدّة خطب تحرّض الناس فيها على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب الى عامله بالكوفة باستدعائها، فأحضرت اليه، وبعد محاورة بينه وبينها سألها حاجتها، فقالت : «يا أمير المؤمنين، آليت على نفسى ألا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا» ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة .

(٢) خصيف : غليظ .

لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أُنسيتُه، قال: لكني أحفظه، لله أبوكِ حين تقولين:

أيها الناس، اِرعَوُوا وارجِعُوا! إنكم أصبحتم فى فتنةٍ غَشَّتكم جلابيبَ الظلم، وجارت بكم عن قصد المَحَجة. فيالها فتنةً عمياء، صَمَّاء بَكْماء، لا تسمع لناعقها، ولا تَسْلَسُ لقائدها. إن المصباح لا يُضىء فى الشمس، والكواكب لا تُنير مع القمر، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد. ألا مَنْ استرشد أرشدناه، ومَنْ سألَنا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالّته فأصابها! فصبرًا يامعاشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص، فكأنْ قد اندمل شَعْبُ الشَّتات، والتأمت كلمةُ التقوى، ودَمَغ الحقُّ باطلَه! فلا يجهلن أحدٌ فيقول: كيف العدلُ وأنَّى! ليقضى الله أمرًا كان مفعولا. ألَا وإن خِضاب النساء الحِنَّاء، وخِضابَ الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خيرٌ فى عواقب الأمور. إيهًا الى الحرب قُدُمًا غيرَ ناكصين ولا مُتَشاكِسين.

ثم قال لها: يازرقاء، لقد شَرِكْتِ عليًّا فى كل دم سَفَكه، قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، فمثلُك من بشّر بخير وسَرّ جليسه، قال: ويسُرّك ذلك؟ قالت: نعم سُرِرتُ بالخبر فأنَّى لى بتصديق الفعل! فضحك معاوية وقال: لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حبكم له فى حياته! أذكرى حاجتَك، قالت: يا أمير المؤمنين، آليتُ على نفسى ألَا أسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلبة، قال: صدقتِ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا.

٤ — عِكْرِشة بنت الأطرش

ومن كلام عِكْرِشة بنت الأطرش ما قالته يوم صِفِّين أيضا:

يُروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عُكّاز لها، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست، فقال لها معاوية: الآن صرتُ عندكِ أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا علىٌّ حىّ! قال:

ألستِ المتقلِّدة حمائل السيف بصِفّين وأنت واقفة بين الصفّين تقولين : أيها النـاس ، عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلَّ اذا اهتديتم . إن الجنة لا يحزَن من قطَنها، ولا يهرَم من سكنها، ولا يموت من دخلها ؛ فابتاعوها بدارٍ لا يدوم نعيمُها، ولا تنصرم همومُها . وكونوا قومًا مستبصِرين فى دينهم ، مستظهِرين على حقِّهم ؛ إن معاوية دلَف إليكم بعجم العرب ، لا يفقَهون الإيمـان، ولا يدرُون ما الحكمة . دعاهم الى الباطل فأجابوه ، واسـتدعاهم إلى الدنيـا فلبّوه . فاللهَ اللهَ عبادَ الله فى دين الله ! وإياكم والتَّوا كُلَ فإن ذلك ينقض عُرَى الإسلام ، ويُطفئ نورَ الحق . هذه بَدْرٌ الصغرى ، والعقَـبة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار، امضـوا على بصيرتكم ، واصـبِروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدًا وقد لقِيتم أهلَ الشأم كالحُمُر الناهقة تقصَع قصعَ البعير[1] .

ثم قال : فكأنى أراكِ على عصاكِ هذه قد انكفأ عليكِ العسكران يقولون هذه عِكرِشة بنت الأطرش ، فإن كدتِ لَتقتُلين أهل الشأم لولا قدَرُ الله ، وكان أمر الله قدَرًا مقدورا ، فما حملكِ على ذلك؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كرِه أمرًا لا يحبّ إعادته ؛ قال : صدقتِ ، فاذكرى حاجتك ؛ قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتُرَدّ على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُجبَر لنا كَسِير ، ولا يُنعَش لنا فقير ؛ فإن كان عن رأيك فمثلُك من انتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فمـا مثلُك من استعان بالخوَنة ، ولا استعمل الظَّلَمة ؛ قال معاوية : يا هـذه ، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغورٌ تنفتق ، وبحور تندفق ؛ قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقًّا فجعـل فيه ضررا لغيرنا وهو علّامُ الغيوب ؛ قال معاوية : هيهاتَ يا أهل العراق ، نبّهكم علىٌّ فلن تُطاقوا . ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

---

(١) يقال : قصع البعير بجرته يقصع قصعا : مضغها .

٦ — رسالة لعبد الحميد الكاتب [١]

كتب عبد الحميد [٢] بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولاه [٣] :

أما بعـدُ ، فإنّ أميرَ المؤمنين — عند ما اعتزم عليه من توجيهك الى عدوّ الله الجِلْف الجافي الأعرابيّ ، المتسكّع فى حَيْرة الجهالة ، وظُلَم الفتنة ، ومهاوِى الهَلَكة ، ورَعاعه الذين عاثُوا فى أرض الله فسادًا ، وانتهكوا حُرْمةَ الإسـلام استخفافا ، وبدلوا نعمة الله كفرا ، واستحلّوا دِماءَ أهل سِـلْمه جهلا — أحبَّ أن يَتعهّـد اليك فى لطائِف أمورك ، وعَوامّ شُؤونِك ، ودخائِل أحوالِك ؛ ومُصْطَرَف تنقُّلك عَهْـدا يحمِلُك فيه أدبَه ، ويَشْرَع لك به

---

(١) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٥ (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ ولاء ، الشامى دارا ، شيخ الكتّاب الأوائل ، وأوّل من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر ، وتخرج فى البلاغة والكتابة على ختنه أبي العـلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقلة من اليونانية . وكان عبـد الحميد فى أوّل أمره معلم صبيان يتنقل فى البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليه أرمينية وانتدابه لتسكين فتنتها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهـل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكرا وسجد أصحابه إلا عبـد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال : ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا! قال : إذا تطير معى ؛ قال : الآن طاب لى السجود وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دولته ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجا يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليـه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدّة ؛ فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوّى وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تحوجهم إلى حسن الظن بك ؛ فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى و إلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعـد وفاتى ؛ فقال له : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، وما عنـدى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غـدرة * فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

وبقى معه حتى قتل مروان سـنة ١٣٢ هـ ففر واختبأ عنـد صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو فى بيته ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، وخاف عبـد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقـال : ترفقوا بنا فإن كلا منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العـلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبـد الحميد إلى السفاح فقتله سـنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى .

عِظَتَه ، و إن كنتَ بحمد الله من دِينِ الله وخِلافتِه بحيث آصطنعك الله لوِلاية العهد مختصًّا لك بذلك دون لُحْمَتك وبَنِى أبيك . ولولا ما أمرَ الله تعالى به دالًّا عليه ، وتقدّمتْ فيه الحكماءُ آمِرِين به : من تقديم العِظَة، والتذكيرِ لأهل المعرفة، وإن كانوا أُولِى سابقةٍ فى الفضل وخِصِّيصاء فى العِلم، لاْعتمدَ أميرُ المؤمنين على آصطناع الله إيّاك وتفضيلِه لك بما رآك أهلَه فى محلّك من أمير المؤمنين، وسبْقِك الى رغائبِ أخلاقِه، وآنتزاعِك محمودَ شيمِه، وآستيلائِك على مَشابِه تدبيرِه . ولو كان المؤدِّبون أخذوا العلمَ من عِند أنفسِهم ، أو لُقِّنوه إلهامًا من تلقائِهم ولم تُصِبهم تعلّموا شيئًا من غيرهم ، انحلْناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلةٍ قصّر بها عنهم خالِقُهم المستأثِرُ بعلم الغيب عنهم بوَحْدانيّته فى فردانيّته وسابقِ لاهُوتيّته ، آحتجابًا منهم لتعقُّبٍ فى حكمه ، وتثبُّتٍ فى سلطانه وتنفيذِ إرادته ، على سابق مشيئته . ولكن العالمَ الموفّقَ لخير، المخصوص بالفضل، المحبُوَّ بمزيّة العلم وصفوته، أدركه مُعانًا عليه بلطف بحثه، وإذلال كنَفه، وصحّة فهمه، وهَجْرِ سآمته .

وقد تقدّم أميرُ المؤمنين إليك، آخذًا بالحجّة عليك ، مؤدِّيا حقّ الله الواجبَ عليه فى إرشادك وقضاءِ حقّك، وما ينظر به الوالد المَعْنِيُّ الشفيق لولَده . وأميرُ المؤمنين يرجو أن ينزّهك الله عن كل قبيح يَهُشّ له طمَع، وأن يَعْصِمك من كلّ مكروهٍ حاقَ بأحد، وأن يحصِّنك من كلّ آفة آستولتْ على آمرئ فى دِين أو خُلُق، وأن يبلّغه فيك أحسنَ ما لم يزل يعوِّده ويُرِيه من آثار نعمة الله عليك، ساميةً بك الى ذِروة الشرف، متبجحةً بك بَسْطةُ الكرم، لائحةً بك فى أزهر معالى الأدب، مُورِثةً لك أنفَسَ ذخائر العزّ، والله يستخلف عليك أميرُ المؤمنين ويسأل حِياطتَك ، وأن يعصمك من زيْغ الهوى، ويُحضرك داعىَ التوفيق ، مُعانًا على الإرشاد فيه، فإنه لا يُعين على الخير ولا يوفِّق له إلا هو .

اِعلم أن الحكمة مسالكَ تُفضى مضايقُ أوائلِها بمن أمَّها سالكًا، وركِب أخطارها قاصدًا، الى سَعَة عاقبتِها، وأمْنِ سَرْحِها، وشرفِ عِزِّها . وأنها لا تُعار بسُخْف الخفّة، ولا تُنشأ بتفريط الغفلة ، ولا يُتعدَّى فيها بامرئ حدُّه . وربما أظهرتْ بسطةُ الغِنَى

مستورَ العيب . وقد تلقَّتك أخلاقُ الحكمة من كل جهةٍ بفضلها، من غير تعب البحث فى طلبها، ولا مُتطاوَلٍ لمناولة ذِرْوتها ؛ بل تأثلتَ منها أكرمَ نبعاتها، وآستخلصتَ منها أعتقَ جواهرِها ؛ ثم سموتَ الى لُبابِ مُصاصِها (١) ، وأحرزتَ مُنْفِسَ ذخائرها ، فآقتعِد ما أحرزتَ، ونافِسْ فيما أصبتَ .

وآعلم أن آحتواءَك على ذلك وسَبْقَك إليه بإخلاصِ تقوى الله فى جميع أمورك مُؤْثِرًا لها، وإضمارِ طاعته منطوِيًا عليها، وإعظامِ ما أنعم الله به عليك شاكرًا له، مرتبطًا فيه للمزيد بحسن الحِياطة له والذَّبِّ عنه من أن تدخُلك منه سآمةُ مَلال ، أو غفلةُ ضَياع ، أو سِنَةُ تهاون، أو جَهالةُ معرفة، فإن ذلك أحقّ ما بُدِئَ به ونُظِر فيه، معتمِدا عليه بالقوّة والآلة والعُدّة والآنفراد به من الأصحابِ والخاصّة . فتمسَّكْ به لاجئًا إليه، وآعتمِد عليه مؤثِرا له، وآلتجئ إلى كَنَفه متحيِّزًا إليه : فإنه أبلغُ ما طُلِب به رضا الله وأنجحُه مسألةً، وأجزله ثوابا ، وأعوده نفعا ، وأعمّه صلاحا ؛ أرشدك اللهُ لحظّك ، وفهّمك سَداده ، وأخذ بقلبك إلى محمودِه . ثم آجعل لله فى كل صباحٍ يُنعِم عليك ببلوغه، ويُظهِر منك السلامة فى إشراقه ، من نفسك نصيبًا تجعله له شكرا على إبلاغه إيّاك يومَك ذلك بصحّةِ جوارح وعافيةِ بَدَن، وسبُوغ نِعَم، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — جزءا تُردِّد رأيَك فى آيه، وترتّل (٢) لفظك بقراءته ، وتُحضِره عقلَك ناظِرًا فى مُحكَمه، وتتفهّمه مفكرا فى مُتشابِهه : فإن فى القرءان شِفاءَ الصدور من أمراضها ، وجِلاءَ وساوِس الشيطان وصَحَاصِحه (٣) ، وضِياءَ مَعالم النُّور، تبيانا لكل شىء وهُدى ورحمة لقومٍ يؤمِنون . ثم تعهّدْ نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مِغلاق الحسنات، ومِفتاح السيئات، وخَصم العقل .

وآعلم أن كل أهوائك لك عدوٌّ يحاوِل هَلَكتك، ويعترِض غفلتك ، لأنها خُدَع إبليس، وخَواتِل مكره، ومصايدُ مكيدته ؛ فاحذرها مجانِبا لها، وتوقَّها محترِسا منها؛ وآستعِذ

(١) المصاص : خالص كل شىء .

(٢) كذا فى صبح الأعشى وفى مفتاح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره « وتزين » .

(٣) الصحاصح : جمع صحصح وهو طائر أشهب يصيد الجنادب ؛ شبه وسوسة الشيطان به . وفى بعض المؤلفات « وسفاسفه » .

بالله عزّ وجلّ من شرها، وجاهدها إذا تناصرتْ عليك بعزمٍ صادق لا وَنْيَـة[١] فيه، وحزم نافذ لا مَثْنَوِيّة[٢] لرأيك بعد إصداره، وصدقٍ غالبٍ لا مطمعَ فى تكذيبـه، ومضاءةٍ صارمة لا أناة معها، ونيّةٍ صحيحةٍ لا خَلْجَةَ شكٍّ فيها : فإن ذلك ظِهْرِىٌّ صـدقٍ لك على رَدعها عنك، وقمعها دون ما تتطلّع إليـه منك، فهى واقِيةٌ لك سُخْطة ربّك، داعيـة إليك رضا العامّةِ عنك، ساترة عليك عيب من دونك، فازدنْ بها متحلّيا، وأصب بأخلاقك مواضعَها الحميـدة منها، وتوقَّ عليها الآفة التى تقتطِعُك عن بلوغها، وتقصّر بك دون شأوها : فإن المؤونة إنما آشتدّت مستَصْعِبة، وفَدَحت باهظةً أهلَ الطلب لأخلاق أهل الكرم المنتحلين سموَّ القـدْر، بجهالةِ مواضِع ذميم الأخلاق ومحمودها، حتى فرّط أهـلُ التقصير فى بعض أمورهم، فدخلتْ عليهم الآفات من جهاتٍ أمنُوها، فنُسبوا إلى التفريط، ورضُـوا بذلّ المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عَمِهين عن دَرَج الشرف، ساقطين دون منزلة أهـل الحِجا . فحاوِل بلوغَ غاياتهـا مُحرِزا لهـا بسبْق الطلب إلى إصابة الموضع، محصِّـنا أعمالك من العُجب : فإنه رأس الهوى، وأوّل الغواية، ومَقَاد الهَلَكة؛ حارسًا أخلاقك من الآفات المتّصـلة بمساوى الألقاب وذميم تنابُزِها، من حيث أتت الغفـلة، وآنتشر الضَّـياع، ودخَل الوَهْن . فتوقَّ غُلُوب الآفاتِ على عقلك، فإن شـواهد الحق ستُظهِر بأماراتهـا تصديقَ آرائك عنـد ذوى الحِجـا حالَ الرأيِ ومَخْضِ النظر . فاجتلبْ لنفسـك محمودَ الذِّكر وباقِيَ لسانِ الصّـدق بالحذر لمـا تقدّم إليك فيـه أمير المؤمنين، متحرِّزا من دخول الآفاتِ عليك من حيث أمنك وقِلّة ثقتك بمُحْكَمها : من ذلك أن تملك أمورَك بالقصد، وتدارِىَ جُندك بالإحسان، وتصونَ سِرَّك بالكِتمان، وتداوِىَ حِقـدك بالإنصاف، وتذلّلَ نفسك بالعدل، وتحصّنَ عيوبك بتقويم أوَدك، وتمنَع عقلك من دخول الآفاتِ عليـه بالعُجب المُرْدِى . وأناتَك فوقِّها المَلالَ وفوتَ العمـل، ومضاءتَك فدرِّعها رويّةَ النظر وآكْنُفها بأناة الحِلم . وخلوتَك فآحرُسها من الغفلة وآعتمادِ الراحة، وصَمْتك

(١) لا ونية : لا توانى . (٢) أى لا استثناء .

فانفِ عنه عِيَّ اللفظ ، وخَفْ سوء القالَة ؛ وٱستماعَك فأرعِه حُسن التفهّم ، وقوِّه بإشهاد الفِكر ؛ وعطاءَك فٱمْهَد له بيوتاتِ الشرف وذوى الحسب ، وتحرّزْ فيه من السَّرَف وٱستطالة البَذْخ وٱمتنانِ الصنيعة ؛ وحياءَك فٱمنعه من الخجَـل وبلادةِ الحَصَر ؛ وحِلمَـك فَزَعْه عن التهاون وأحْضِره قوّةَ الشكيمة ؛ وعقوبتَـك فقصِّرْبها عن الإفراط ، وتعمَّد بها أهلَ الٱستحقاق ؛ وعفوَك فلا تُدخِله تعطيلَ الحقوق ، وخذْ به واجبَ المفترَض ، وأقِم به أَوَد الدِّين ؛ وٱستئناسَك فٱمنع منه البَذَاء وسوء المُنَاقثة(١) . وتعهّدك أمورَك فخُذّه أوقاتا ، وقدِّره ساعاتٍ لاتَستفرِغ قوّتَك ، ولا تستدعى سآمتَك ؛ وعزَماتِك فٱنفِ عنها عجَلةَ الرأى ، ولجاجةَ الإقدام ؛ وفرحاتِك فٱشكُمْها عن البَطَر ، وقيِّـدها عن الزَّهْو ؛ وروْعاتِك فحُطْها من دَهَش الرأى وٱستِسلام الخضـوع ؛ وحذَراتِك فٱمنعها من الجبن ، وٱعمِد بها الحزم ؛ ورجاءَك فقيِّده بخوف الفائت ، وٱمنعه من أمْنِ الطَّلب .

هذه جوامعُ خِلال ، دخّالُ النقص منها واصلٌ إلى العقل بلطائف أبنه ، وتصاريف حوِيله(٢) ، فأَحْكِمها عارفًا بها ، وتقدّم فى الحِفظ لها ، معتزِما على الأخْذ بمراشدها والٱنتهاءِ منها إلى حيث بلغتْ بك عِظةُ أمير المؤمنين وأدَبُه إن شاء الله .

ثم ٱتكن بطانتُك وجلساؤك فى خلواتك ودخلاؤك فى سِرِّك ، أهلَ الفقه والورع من خاصّة أهل بيتك ، وعامّة قوّادك ممن قد حنّكته السنُّ بتصاريف الأمور ، وخبَطته فصالُها بين فراسن(٣) البُزَّل منها ، وقلّبته الأمور فى فنونهـا ، وركب أطوارها ، عارفًا بمحاسن الأمور ومواضع الرأى وعينِ المشورة ، مأمونَ النصيحة ، منطوِيَ الضمير على الطاعة . ثم أحْضِرهم من نفسك وقارًا يستدعى لك منهم الهيبة ، وٱستئناسا يعطف إليك منهم المودّة ، وإنصاتا يُقِلّ إفاضتهـم له عندك بما تكره أن يُنشر عنك من سَخافة الرأى وضَياع الحزم . ولا يَغْلِبنّ عليك هواك فيصرِفك عن الرأى ويقتطِعك دون الفِكر . وتعلّم أنك وإن خلوتَ بِسرّ

(١) يقال : ناقث فلان فلانا بالكلام : آذاه .

(٢) الحويل : الحذق والقدرة على التصرف .

(٣) الفراسن : واحدها فرسن وهو طرف خف البعير .

فألقيتَ دونه سُتورك، وأغلقتَ عليه أبوابك، فذلك لا محالةَ مكشوفٌ للعامة، ظاهرٌ عنك وإن آستترت بربّما ولعلّ وما أُرى إذاعة ذلك وأعلم، بما يرون من حالاتِ من ينقطع به فى تلك المواطن. فتقدّمْ فى إحكام ذلك من نفسك، وآسدُد خلله عنك: فإنه ليس أحدٌ أسرعُ إليه سوء القالة ولغَطُ العامة بخيرٍ أو شرٍّ ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحتَ به من دينِ الله والأملِ المرجُوّ المنتظرِ فيك. وإيّاك أن يَغمِز فيك أحدٌ من حاشيتك وبطانة خدَمتك بضَعْفةٍ يجد بها مَساغا إلى النطق عندك بما لا يَعتَرِلك عيبُه، ولا تخلو من لائمتِه، ولا تأمنُ سوء الأُحدُوثة فيه، ولا يرخُص سوءُ القالة به إن نجمَ ظاهرا أو علَنَ باديا، ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروْا منك إصغاء إليها وقبولا لها وترخيصا لهم فى الإفاضة بها. ثم إيّاك وأن يُفاض عندك بشىء من الفُكاهات والحكاياتِ والمِزاح والمَضاحِك التى يَستخِفّ بها أهلُ البِطالة، ويتسرّع نحوها ذَوُو الجهالة، ويجد فيها أهلُ الحسد مقالا لعيب يُذيعونه، وطعنًا فى حقّ يجحدونه، مع ما فى ذلك من نقْص الرأى، ودَرَن العِرض، وهدْم الشرف، وتأثيل الغفْلة، وقوّة طِباع السوءِ الكامنةِ فى بنى آدم كَكُمُون النار فى الحجر الصَّلْد، فاذا قُدِح لاح شررُه، وتلهّب ومِيضُه، ووَقَد تضرمه. وليست فى أحد أقوى سطوةً، وأظهرَ توقُّدا، وأعلى كُمونا، وأسرَع إليه بالعيب وتطرُّق الشَّيْنِ منها لمَن كان فى مِثل سِنّك: من أغفال[1] الرجال وذوى العُنفُوان فى الحداثة الذين لم يقع عليهم سِمَات الأمور، ناطقا عليهم لائحُها، ظاهرا فيهم وَسْمُها، ولم تمحّضهم شهامتُها، مظهرةً للعامة فضلَهم، مُذيعة حسنَ الذكر عنهم، ولم يبلُغ بهم الصِّيت فى الحُنكة مستمَعا يدفعون به عن أنفسهم نواطِقَ ألسُن أهل البَغى، ومَوادَّ أبصار أهل الحسد.

ثم تعهّدْ من نفسك لطيفَ عيب لازم لكثيرٍ من أهل السلطان والقدرة: من إبطار[2] الذرع ونخوة الشّرف والتيه وعيب الصّلَف، فإنها تُسرع بهم الى فسادٍ وتهجين

(١) الأغفال جمع غفل وهو الذى لم يجرب الأمور.

(٢) يقال: أبطره ذرعه اذا حمله فوق ما يطيق. وفى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٠١) «إبطال الذرع». وقد توقف فيها مصححه.

عقولهم فى مواطنَ جمّة، وأنحاء مُضْطَرِفة، منها قلة اقتدارهم على ضبط أنفسهم فى مواكبهم ومسايرتهـم العامّة : فمن مُقَلْقِل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تَزدهيه الخفّة، ويُبطره إجلابُ الرجال حوله ؛ ومن مُقْبِل فى موكبه على مداعبة مُسايره بالمفاكهة له والتضاحُك إليه، والإيجاف فى السير مَرَحا، وتحريك الجوارح متسرّعا يخال أن ذلك أسرعُ له وأحثُّ لمطيتـه . فلتَحْسُنْ فى ذلك هيئتُـك، ولتَجْمُل فيه دَعتك ؛ وليَقِلَّ على مُسايرك إقبالُك إلا وأنت مطرق النظر، غيرُ ملتفتٍ إلى محدِّث، ولا مقبل عليه بوجهك فى موكبك لمحادثته، ولا مُوجِف فى السير مقلقِل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض ؛ فإن حسنَ مسايرة الوالى واتّداعه فى تلك الحالة دليلٌ على كثير من غُيوب أمره ومستَتِر أحواله .

واعلم أن أقواما يتسرّعون إليك بالسِّعاية، ويأتونك على وجه النصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويُوطئونك عَشْوة الحيرة : ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامّة بموضعهـم منك فى القبول منهـم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظِّنّـة ؛ فلا يَصِلَنَّ إلى مشافهتـك ساعٍ بشُبهة، ولا معروفٌ بتهمة، ولا منسوبٌ إلى بدعة فيعرِّضـك لإيتاغ[١] دينك، ويحملك على رعيّتك بما لا حقيقةَ له عندك، ويُلحمك[٢] أعراضَ قوم لا علم لك بدَخلهم[٣] ، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُتَنَصِّحا . وليكن صاحبُ شُرْطتك المتولّى لإنهاء ذلك هو المنصوبَ لأولئك، والمستمعَ لأقاويلهم، والفاحصَ عن نصائحهم ؛ ثم ليُنْهِ ذلك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك من غير أن يَظْهر ذلك للعامة : فإن كان صوابا نالتك خِيَرتُه، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فَرْطةً سعى بها كاذب، فنالت الساعىَ منها أو المظلـومَ عقوبةٌ، أو بدَر من وَالِيك إليه عقوبةٌ ونَكَل، لم يَعْصِب[٤] ذلك الخطأُ بك ولم تُنْسَب إلى تفريط، وخلوتَ من موضع الذمّ فيـه مُحْضِرا إليه ذهنك وصوابَ رأيك .

---

(١) أوتغ دينه بالإثم : أفسده . (٢) ألحمه عرض فلان : أمكنه منه يشتمه . (٣) دخل الرجل (بالفتح والكسر) : نيته ومذهبه . (٤) لم يعصب أى لم يلحق .

وتقدّمْ الى من تُولّى ذلك الأمرَ وتعتمد عليه فيه ألا يُقْدِم على شيء ناظرًا فيه، ولا يحاول أخْذَ أحدٍ طارقًا له، ولا يُعاقِبَ أحدا مُنَكِّلا به، ولا يُخَلّىَ سبيلَ أحد صالحًا عنه لإصحار براءته وصحّة طريقته، حتى يرفع إليك أمرَه، ويُنْهِي إليك قضيّته على جهة الصّدق، ومَنْحَى الحق، ويقين الخبر، فإن رأيتَ عليه سبيلا لمَحْبَس أو مجازًا لعقوبة، أمرتَه بتولّى ذلك من غير إدخاله عليك، ولا مشافهةٍ لك منه؛ فكان المتولّىَ لذلك ولم يَجرِ على يديك مكروهُ رأْىٍ ولا غِلظةُ عقوبة. وإن وجدتَ إلى العفو عنه سبيلا، أو كان مما قُرِف به خليًا، كنتَ أنتَ المتولّىَ للإنعام عليه بتخليةِ سبيله، والصفح عنه بإطلاق أسره؛ فتوليتَ أجرَ ذلك واستحققتَ ذُخْره، وأنطقتَ لسانَه بشكرك، وطوّقتَ قومَه حمدَك، وأوجبتَ عليهم حقّك؛ فقرنْتَ بين خَصْلتين، وأحرزْتَ حُظوتيْن: ثوابَ الله فى الآخرة، ومحمودَ الذكرِ فى الدنيا.

ثم إيّاك أن يصلَ إليك أحدٌ من جندك وجلسائك وخاصّتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك، أو حاجةٍ يَبْدَهُك بطلبها، حتى يرفعَها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفتَه لذلك ونصبتَه له، فيعرضَها عليك مُنْهِيا لها على جهة الصّدق عنها، وتكونَ على معرفة من قدْرِها: فإن أردتَ إسعافَه بها ونجاحَ ما سألَ منها، أذِنتَ له فى طلبها، باسطًا له كنَفك، مُقبِلا عليه بوجهك؛ مع ظهور سرورك بما سألك، وفُسْحة رأى وبَسْطة ذَرْع، وطِيبِ نفس. وإن كرِهتَ قضاء حاجته، وأحببتَ ردّه عن طَلِبته، وثقُل عليك إجابتُه إليها وإسعافُه بها، أمرتَ كاتبك فصفَحه[2] عنها، ومنعه من مواجهتك بها؛ نخفّت عليك فى ذلك المؤونةُ، وحَسُن لك الذِّكْرُ، ولم يُنْشَر عنك تجهُّم الردّ، وينلْك سوءُ القالة فى المنع، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ أنت منها برِيء الساحة.

وكذلك فليكن رأيُك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرُّسل، فلا يَصِلَنّ إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك، وعِلْم ما قَدِم له عليك، وجِهةِ ما هو مكلّمك

(١) أى لوضوح براءته، فى حديث علىّ: فأصحر لعدوّك، أى كن من أمره على أمر واضح.
(٢) صفحه عنها، ردّه عنها.

به ، وقدّرِ ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليـك ، فأصدرتَ رأيك فى حوائجه ، وأجلتَ فكرك فى أمره ، وآخترتَ معترِما على إرادتك فى جوابه ، وأنفذتَ مصدور رويّتك فى مَرجوع مسائله قبـل دخوله عليك ، وعلمِه بوصول حاله إليك ، فرفعتَ عنك مؤونةَ البديهة ، وأرخيتَ عن نفسك خِناق الرَّويّة ، وأقدمتَ على ردّ جوابه بعـد النظر وإجالة الفِكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلّمك بخلافِ ما أنهى إلى كاتبك وطوى عنه حاجته قِبَلك ، دفعته عنك دَفعا جميلا ، ومنعته جوابك منعا وديعـا ، ثم أمرتَ حاجبَك بإظهار الجفوة له والغِلْظة عليـه ، ومنْعه من الوصول إليك ؛ فإن ضَبْطَك لذلك مما يحكِم لك تلك الأسباب ، صارفًا عنك مؤونتها ، ومسهِّلا عليك مُستَصْعَبَها .

احذرْ تضييعَ رأيك وإهمالَك أدبَك فى مسالك الرضا والغضب وآعتوارهمـا إياك ، فلا يَزْدَهِيَنّك إفراطُ عُجب تستخِفّك روائعُه ، ويستهويك مَنظرُه ، ولا يَبْـدُرَنّ منك ذلك خَطأً ونَزَق خِفّـة لمكروه إن حلّ بك ، أو حادثٍ إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظِهْرىّ مَلجأ تحرِز به من آفاتِ الردى ، وتستَعْضِده فى مُهِمٍّ[1] نازلٍ ، وتتعقّب به أمورك فى التـدبير . فإن آحتجتَ إلى مادّة من عقلك ، ورويّةٍ من فِكرك ، أو آنبساطٍ من منطِقك ، كان آنحيازُك إلى ظِهْريّك مُزدادا ممـا أحببتَ الآمتياح منـه والآمتيار ، وإن آسـتدبرتَ[2] من أمورك بوادرَ جهـل أو مضىّ زلل أو معاندةَ حقّ أو خطلَ تدبيرٍ ، كان ما آحتجتَ إليه من رأيك عذرا لك عند نفسك ، وظِهْريًّا قويًّا على ردّ ما كرهت ، وتخفيفًا لمؤونة الباغين عليك فى القالة وآنتشار الذكر ، وحِصْنا من غُلُوب الآفاتِ عليك ، وآستعلائها على أخلاقك .

وآمنعْ أهلَ بطانتك وخاصّةَ خدمك من آستلحام أعراض النـاس عندك بالغِيبَة ، والتقرّبِ اليك بالسّعاية ، والإغراءِ من بعضٍ ببعض ؛ أو النميمةِ اليك بشىء من أحوالهم

(١) فى صبح الأعشى : « وتستعضد فى موهم النازل » . وفى رسائل البلغاء : «وتستعهده فى مهم نازل» . وآخترنا من العبارتين ما يناسب المقام .

(٢) كذا فى صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلغاء ، ولعله وإن ابتدرت ... الخ .

المستَترة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجْه النّصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغُ بك سموّا الى مَنالةِ الشرف ، وأعونُ لك على محمود الذكر، وأطلقُ لعِنان الفضل فى جَزالة الرأى وشرف الهمة وقوة التدبير .

وآملِك نفسَك عن الأنبساط فى الضحك والأنفهاق ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتحلِّه : فإن ذلك ضَعْف عن مِلْك سَوْرَة الجهل ، وخروجٌ من آنتحال آسم الفضل . وليكن ضَحِكك تبسُّما أو كَشْرا فى أحايينِ ذلك وأوقاته ، وعند كلّ رائع مستَخِفٍّ مُطرِب ، وقطوبُك إطراقا فى مواضع ذلك وأحواله ، بلا عَجَلة الى السّطوة ، ولا إسراعٍ الى الطِّيرَة ، دون أن تكتُفها روِيّةُ الحلم ، وتملِك عليها بادِرة الجهل .

اذا كنتَ فى مجلس مَلَك ، وحيث حضور العامّة مجلسَك ، فإياك والرمىَ بنظرك الى خاصٍّ من قُوّادك ، أو ذى أثَرة عنـدك من حشمك . وليكن نظرُك مقسوماً فى الجميع ، و إراعتُك سمعَك ذا الحديث بِدَعةٍ هادئة ، ووقارٍ حسن ، وحضورِ فَهْم مجتمع ، وقِلّة تضجّر بالمحدِّث ، ثم لا يبرح وجهُك الى بعض حرسك وقوّادك متوجها بنظرٍ ركين ، وتفقّدٍ محض . و إن وجّه اليك أحد منهم نظره محدِّقا ، أو رماك ببصره مُلِحّا ، فاخفض عنه إطراقا جميلا باتّداع وسكون . و إيّاك والتسرّعَ فى الإطراق ، والخِفّةَ فى تصريف النظر ، والإلحاحَ على من قصد إليك فى مخاطبته إيّاك رامقًا بنظره .

واعلم أن تصفُّحك وجوه جلسائك وتفقّـدك مجالِسَ قوّادك من قوّة التدبير ، وشهامةِ القلب ، وذكاء الفِطنة ، وآنتباه السِّنة . فتفقّد ذلك عارفا بمن حضَرك وغاب عنك ، عالمـا بمواضعهم من مجلسك ، ثم آعْدُبهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التى منعَتْهم من حضور مجلسك ، وعاقتهم بالتخلّف عنك .

إن كان أحدٌ من حشمك وأعوانك تثِق منه بغيبِ ضمير ، وتعرِف منه لينَ طاعة ، وتُشرِف منه على صحة رأى ، وتأمَنه على مشورتك ، فإيّاك والإقبالَ عليه فى كلّ حادثٍ يَرِد عليك ، والتوجّهَ نحوه بنظرك عند طوارِق ذلك ، وأن تُرِيَه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجةٌ اليه مُوحِشة ، أو أن ليس بك عنه غِنًى فى التدبير، أو أنك لاتقضى دونَه رأيا، إشراكًا منك له فى رويّتـك، وإدخالا منك له فى مشُورتك، وآضطرارا منـك الى رأيه فى الأمر يَعْرُوك: فإن ذلك من دخائل العيوب التى ينتشر بها سوءُ القالة عن نظرائك، فانفها عن نفسـك خائفا لاعتلاقها ذِكرك، وآحجُبها عن رويّتك قاطعا لأطماع أوليائك عن مثلها عِندك، أو غُلُوّهم عليها منك .

وآعلم أن للشورة موضعَ الخَلْوة وآنفرادَ النظر، ولكل أمرٍ غاية تُحيط بحدوده، وتجمعُ معالمَه . فابغِها مُحْرِزا لها، ورُمْها طالبـا لنَيلها، وإيّاك والقصورَ عن غايتها أو العجزَ عن دَرْكها، أو التفريط فى طلبها . إن شاء الله تعالى .

إيّاك والإغرامَ عن حديثٍ مّا أعجبك، أو أمرٍ مّا آزدهاك بكثرة السؤال، أو القطعَ لحديث مَن أرادك بحديثه حتى تنقُضَه عليه بالخوْض فى غيره أو المسألةَ عما ليس منه : فان ذلك عند العامّة منسوب الى ســوء الفهم وقِصَر الأدب عن تناوُل محاسن الأمور والمعرفة بمساويها ، ولكن أنصت لمحدّثك وأرْعه سمعَك حتى يعلم أن قد فهمتَ حديثه، وأحطتَ معرفةً بقوله ؛ فان أردتَ إجابتَه فعن معرفةٍ بحاجته وبعد علمٍ بطَلِبته ؛ وإلا كنتَ عند آنقضاء كلامه كالمتعجّب من حديثه بالتبسّم والإغضاء، فأجْزَى عنك الجواب، وقطَع عنك ألسُن العَتْب .

إيّاك وأن يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، أو تضَجُّر ممّن حضرك؛ وعليك بالتثبُّت عند سَوْرة الغضب ، وحَمِيّــة الأنَف ، وملَال الصبر : فى الأمر تستعجل به والعملِ تأمُر بإنفاذه؛ فان ذلك سُخْف شائن، وخِفّة مُرْدِيَة ، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكونِ الريح ، والرّفض لحشو الكلام ، والتَّرْك لفضوله والإغرامِ بالزيادات فى منطقك، والترديدِ للفظك : من نحو آسمع ، وآفهم عنّى، ويا هَنَاه، وألا ترى، أو ما يُلْهَج به من هــذه الفضول المقصّرة بأهل العقل، الشائنــة لذوى الحِجـا فى المنطِق، المنسوبة إليهم بالعِىّ، المُرْدية لهم بالذكر . وخصالٌ من معَايب الملوك ، والسُّوقة عنها غبيّةٌ

النظرِ إلّا من عرفها من أهل الأدب ، وقلّما حاملٌ لها ، مضطَلع بها ، صابرٌ على ثقلها ، آخذٌ لنفسه بجوامعها ، فآنفِها عن نفسك بالتحفّظ منها ، وآملِكْ عليها آعتيادَك إياها معتنِيا بها ، منها كثرةُ التنخُّم ، والتبصُّق ، والتنحُّع ، والتَّوَباء ، والتمطّى ، والجُشاء ، وتحريك القَدَم ، وتنقيضُ الأصابع[1] ، والعبثُ بالوجه واللّحية أو الشارب أو المِخْصَرة أو ذؤابة السيف ، أو الإيماضُ بالنظر ، أو الإشارةُ بالطَّرْف إلى بعض خَدَمك بأمرٍ إن أردتَه ، أو السِّرار فى مجلسك ، أو الآستعجال فى طَعْمك أو شُرْبك . وليكن طَعْمك متّدِعا ، وشُرْبك أنفاسا ، وجَرْعك مصّا . وإياك والتسرّعَ إلى الأيمان فيما صَغُر أو كَبُر من الأمور ، والشّتيمةَ بقول : يابْنَ الخَنَاه ، أو الغميزة[2] لأحدٍ من خاصّتك بتسويغهم مُقَارَفَة الفُسُوق بحيث محضرُك أو دارُك وفناؤك : فان ذلك كله مما يقبُح ذكرُه ، ويسوء موقعُ القول فيه ، وتحمَّلُ عليك معايبُه ، وينالك شينُه ، وينتشر عليك سوءُ النبإ به . فآعرِفْ ذلك متوقّيا له ، وآحذَره مجانبا لسوء عاقبته .

آستكثِرْ من فوائد الخير : فانها تنشُر المحمدة ، وتُقيل العثرة ؛ وآصبِر على كَظْم الغيظ : فانه يورث الراحة ، ويؤمِّن الساحة ؛ وتعهّد العامّة بمعرفة دَخْلهم ، وتبطّن أحوالهم ، وآستثارةِ دفائنهم ؛ حتى تكون منها على رأْىِ عَيْن ، ويقينِ خِبْرة ؛ فتُنعِش عديمَهم ، وتجبُر كسيرهم ، وتُقيم أوَدَهم ، وتعلِّم جاهلهم ، وتستصلح فاسدَهم : فان ذلك من فعلك بهم يورثك العزّة ، ويقدّمك فى الفضل ، ويبقى لك لسان الصّدق فى العاقبة ، ويُحرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويردّ عليك عواطفهم المستنفِرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك .

قِسْ بين منازل أهل الفضل فى الدّين والحِجا والرأى والعقل والتدبير والصِّيت فى العامّة ، وبين منازل أهل النّقص فى طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مُباهاة النّسب ، وآنظُرْ بصحبة أيّهم تنال من مودّته الجميل ، وتستجمع لك أقاويلَ العامّة على التفضيل ، وتبلُغ درجةَ الشرف فى أحوالك المتصرِّفة بك . فاعتمِد عليهم مُدْخِلا لهم فى أمرك ، وآثرْهم بمجالستك لهم مستمِعًا منهم ؛ وإيّاك وتضييعَهم مفرّطا ، وإهمالهم مضيّعا .

(١) يقال : أنقض أصابعه : صوّت بها وليس فى كتب اللغة نقض بالتضعيف . (٢) الغميزة : المطعن .

هذه جوامع خصال قد لخَّصها لك أميرُ المؤمنين مفسِّرا، وجمع لك شواذَّها مؤلِّفا، وأهداها إليك مُرْشِـدا ، فقِف عند أوامِرِها ، وتَناهَ عن زواجِرها ، وتثبَّتْ فى مجامعها، وخُذْ بوثائِق عُرَاها، تَسْلَم من معاطب الرّدى، وتَنَـلْ أنْفَس الحظوظ ورغيبَ الشّرف ؛ وأعلى دَرَج الذّكر، وتأثَّل[1] سَـطْر العزّ . والله يسأل لك أميرُ المؤمنين حُسْنَ الإرشاد، وتتابُعَ المزيد، وبلوغَ الأمل ، وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غِبْطة يُسوِّغُك إيّاها، وعافيةٍ يُحلُّك أكنافَها، ونعمةٍ يُلهِمُك شكرها : فإنه الموفِّق للخير ، والمعينُ على الإرشاد ؛ منه تمامُ الصالحات ، وهو مُؤْتِى الحسنات ، عنده مفاتيحُ الخير ، وبيـده المُلْك وهو على كلّ شىءٍ قـديـر .

فاذا أفضيتَ نحو عدُوّك ، واعتزمتَ على لقائهم، وأخذْتَ أُهْبة قتالهم ، فاجعلْ دِعامَتك التى تلجأ اليها، وثِقتَك التى تأمل النجاةَ بها، ورُكْنَك الذى ترتجى منالةَ الظَّفَر به وتكْتَهِف[2] به لمعالق الحذَر، تقوى الله مستشعِرًا لها بمراقبتـه ، والاعتصام بطاعتـه متبِعًا لأمره، مجتنبًا لسُخْطه، محتذِيًا سُنّته، والتوقِّى لمعاصيه فى تعطيل حدوده، أو تَعدِّى شرائعه؛ متوكِّلا عليه فيما صَمَدْتَ له ، واثقًا بنصره فيما توجّهت نحوه، متبرئا من الحوْل والقوّة فيما نالك من ظَفَـر وتلقَّاك من عِزّ، راغبًا فيما أهاب[3] بك أميرُ المؤمنين إليه من فضل الجهاد؛ ورمَى بك اليـه محمودَ الصبر فيه عند الله من قتال عدوّ المسلمين، أَكْلَبِهم[4] عليه وأظهرِه عداوة لهم، وأفدحه ثِقْلا لعامّتهم ، وآخَذِه بِرِبقهم ، وأعلاه عليهم بَغْيا، وأظهَرِه عليهم فِسقا وفجورا ، وأشـدّه على فَيْئهم الذى أصاره الله لهم وفتَحه عليهم مؤونةً وكَلًّا[5] . والله المستعانُ عليهم ، والمستنصَر على جماعتهم، عليه يتوكّل أمير المؤمنين، وإياه يستصْرِخ عليهم ،وإليه يفوّض أمره،وكفى بالله وليّا وناصرا ومُعينا، وهو القوىّ العزيز .

ثم خُذْ من معك من تُبَّاعك وجندك بكَفّ معَرَّتهم، وردّ مشتعِل جهلهم، وإحكام ضَياع عملهـم ، وضمّ متَنَشّر قواصِيهم، ولَمّ شعَث أطرافهم، وتقييـدِهم عمّن مرّوا به من

(١) تأثل : تثبت . (٢) اكتهف الكهف : دخله . (٣) أهاب بك : دعاك .
(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله اذا اشتد وألح . (٥) الكل : الثقل .

أهل ذِمّتك وملّتك بحُسن السيرة، وعفاف الطُّعمة، ودَعَةِ الوَقار، وهَدْى الدَّعة، وجِمَام المستجمّ، محكما ذلك منهم، متفقّدا لهم تفقُّدك إيّاه من نفسك. ثم آصْمِد لعدوّك المتسمّى بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المنتحل ولايةَ الدّين مستحلاًّ لدماء أوليائه، طاعنًا عليهم، راغبا عن سُنّتهم، مفارقا لشرائعهم، يبْغيهم الغوائلَ، وينْصب لهم المكايد، أضْرم حِقدًا عليهم، وأرصَد عداوةً لهم، وأطْلبَ لغرّات فُرَصهم من التُّرك وأمم الشِّرك وطواغى الملل، يدعو الى المعصية والفُرقة، والمُروق من دين الله الى الفتنة، مخترعا بهواه للأديان المنتحَلة والبِدع المتفرّقة خَسارا وتخسيرا، وضَلالا وتضليلا، بغير هدًى من الله ولا بيان. ساء ما كسبتْ له يداه وما اللهُ بظلّام للعبيد، وساءَ ما سوّلتْ له نفسُه الأمّارةُ بالسوء، واللهُ من ورائه بالمرصاد: ﴿ وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصِّنْ جندك، وآشْكُمْ نفسك بطاعة الله فى مجاهدةِ أعدائه، وآرجُ نصرَه، وتنجّز موعوده، متقدّمًا فى طلب ثوابه على جهادهم، معتزمًا فى آبتغاء الوسيلةِ إليه على لقائهم: فإن طاعتك إيّاه فيهم، ومراقبتَك له ورجاءَك نَصْرَه مسهِّلٌ لك وُعورَه، وعاصمُك من كل سُبّة، ومُنجيك من كل هُوّة، وناعِشُك من كلّ صَرْعة، ومُقيلك من كل كَبْوة، ودارئٌ عنك كلّ شبهة، ومُذْهِب عنك لَطخة كلّ شك، ومُقوّيك بكل أيْدٍ[1] ومكيدة، ومُعِزّك فى كل مُعترَكِ قتال، ومؤيّدك فى كل مَجْمع لقاء، وكالِئُك عند كل فتنةٍ مُغْشِيَة[2]، وحائطك من كل شبهة مُرْدِية؛ واللهُ وليُّك وولىّ أمير المؤمنين فيك، والمستخلَف على جندك ومن معك.

اِعلم أن الظَّفَر ظَفَران: أحدُهما – وهو أعمّ منفعةً، وأبلغُ فى حسن الذكر قالةً، وأحوطُه سلامةً، وأتمّه عافيةً، وأحسنُه فى الأمور وأعلاه فى الفضل شرفًا، وأصحّه فى الرَّوِيّة حَزْما، وأسلمُه عند العامّة مَصْدرا – ما نيل بسلامة الجنود، وحُسن الحِيلة، ولُطف المكيدة ويُمْن النَّقيبة، وآستنزال طاعةِ ذوى الصُّدوف بغير إخطار الجيوش فى وَقدة جَمْرة الحرب،

(١) الأيد: القوة. (٢) أى مدلهمة سوداء، من قولهم: أغشى الليل اذا أظلم.

ومبارزةِ الفرسان فى معترَك الموت، وإن ساعدَتك طلوُق الظَّفَر، ونالك مزيد السعادة فى الشرف، ففى مُخاطرة التَّلَف مكروهُ المصائب، وعَضاضُ السيوف وألَم الجراح، وقِصاص الحروب وسِجالها بمُغاورَة[1] أبطالِها. على أنك لا تدرِى لأىّ يكون الظَّفَر فى البديهة، ومَنِ المغلوبُ بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص. فحاوِلْ إصابةَ أبلَغِهما فى سلامة جندك ورعيّتك، وأشهَرِهما صِيتًا فى بُدُوّ تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألُفة وليّك وعدُوّك، وأعونهما على صلاح رعيّتك وأهل مِلّتك، وأقواهما شكيمةً فى حَزْمك، وأبعدِهما من وَصْم عزمك، وأعلَقِهما بزِمام النجاة فى آخرتك، وأجزلِها ثوابا عند ربّك.

وآبدأ بالإعذار إلى عدوّك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمْرِ الجماعة وعِزّ الألفة، آخذًا بالحجة عليهم، متقـدّمًا بالإنذار لهم، باسطًا أمانَك لمَنْ لجأ إليك منهم، داعيًا لهم اليه بألْيَن لفظك وألطَف حِيَلك، متعطّفا برأفتك عليهم، مترفّقا بهم فى دُعائك، مشفِقا عليهم من غَلَبة الغَوَاية لهم وإحاطة الهَلَكة بهم، منفذا رُسُلَك إليهم بعد الإنذار: تَعِدُهم إعطاءَ كلّ رغبة يَهَشُّ إليها طَمَعُهم فى موافقة الحقّ، وبَسْط كل أمان سألُوه لأنُفسِهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم، موطِّنًا نفسَك فيما تبسُط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبرِ على ما أعطيتَهم من وثائق عَقْدك، قابلًا توبةَ نازِعهم عن الضَّلالة، ومُراجعةَ مُسِيئهم الى الطاعة، مُرصِدا لمُنْحاز إلى فئة المسلمين وجماعتِهم إجابةً إلى مادعوتَه إليه وبصّرتَه إيّاه من حقّك وطاعتك، بفضل المنزِلة، وإكرام المَثْوَى، وتشريف الجاه. وليَظْهَرْ من أثَرك عليه وإحسانك إليه ما يرغَب فى مثله الصادفُ عنك، المُصِرُّ على خِلافك ومعصيتك؛ ويدعو[2] إلى آعتلاق حبْل النجاة وما هو أملَكُ به فى الآعتصام عاجلا، وأنجى له من العِقاب آجلا، وأحوطُه على دِينه ومهجته بدْءًا وعاقبةً؛ فإن ذلك مما يَستَدْعى به من الله نصرَه عليهم، ويعتضِدُ به فى تقديمه الحجّة إليهم، مُعْذِرا أو مُنْذِرا، إن شاء الله.

---

(١) المغاورة: المقاتلة. (٢) كذا فى صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضى معمولا لهذا الفعل اما ضميرا أو اسما ظاهرا.

ثم أذكِ عيونَك على عدوّك متطلّعا لعلم أحوالهم التى يتقلّبون فيها، ومنازلهم التى هم بها، ومطامعهم التى قد مَدُّوا أعناقهم نحوها، وأىُّ الأمور أدعى لهم إلى الصّلح، وأقودُها لرضاهم إلى العافية، وأسهلُها لاستنزال طاعتهم، ومن أىّ الوجوه مَأْتاهم : أمِنْ قِبَل الشدّة والمُنافرة والمكيدة والمُباعدة والإرهاب والإيعاد، أم التّرغيب والإطماع؛ متثبّتا فى أمرك، متخيّرا فى رويّتك، مستمكنا من رأيك، مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنّكتهم للسّنّ، وخبطتهم التجربة، ونجّذتهم الحروبُ، مُتَشَزِّنًا[(١)] فى حربك، آخذا بالحزم فى سوء الظن، مُعِدّا للحذر، محترسا من الغِرّة؛ كأنّك فى مسيرك كلّه ونزولك أجمع مُواقِفٌ لعدوّك رأْىَ عينٍ تنتظر حملاتهم، وتخوّف كرّاتهم، مُعِدّا أقوى مكايدك، وأرهبَ عَتادك، وأنكأ جِدّك، وأجدَّ تشميرك؛ معظّما أمر عدوّك لأعظمَ مما بلغك، حَذِرا يكاد يُفرِط: لتُعِدّ له من الاحتراس عظيما، ومن المكيدة قويّا، من غير أن يَفْثَأك[(٢)] ذلك عن إحكام أمورك، وتدبير رأيك، وإصدار رويّتك، والتأهّب لما يحزُبك؛ مصغّرا له بعد استشعار الحذر، واضطمار الحزم، وإعمال الرّويّة، وإعداد الأُهْبة. فإن ألفيتَ عدوّك كليلَ الحدّ، وَقِمَ[(٣)] الحزم، نَضيض[(٤)] الوفْر، لم يضرُرْك ما اعتددتَ له من قوّة وأخذت له من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جُرأةً عليه، وتسرّعا إلى لقائه. وإن ألفيتَه متوقّد الحرب، مُستكثِف الجمع، قوِىَّ التّبَع، مُستَعلِىَ سَوْرة الجهل، معه من أعوان الفتنة وتبَع إبليس من يُوقِد لهَبَ الفتنة مُسَعِّرا، ويتقدّم الى لقاء أبطالها متسرّعا، كنت لأخْذك بالحزم، واستعدادك بالقوّة، غيرَ مُهين الجند، ولا مفرِّط فى الرأى، ولا متلهّف على إضاعة تدبير، ولا محتاج الى الإعداد وعجلة التأهّب مبادرةً تدهشك، وخوفًا يُقلقك. ومتى تغترَّ بترقيق المرقّقين، وتأخذ بالهُوَينا فى أمر عدوّك لتصغير المصغّرين، ينتشر عليك رأيُك، ويكون فيه انتقاضُ أمرك ووهْنُ تدبيرك، وإهمالٌ للحزم فى جندك،

---

(١) تشزّن للأمر : استعدّ له .

(٢) يفثأك (بالفاء والثاء المثلثة) أى يكسرك ويؤخرك . (٣) كذا فى صبح الأعشى . ولعلها موقوم الحزم أى مقهورة أو لعلها محرّفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة . (٤) نضيض : قليل . والوفر : المال .

وتضييعٌ له وهو مُمكن الإصحار، رَحْب المَطْلَب، قوِىّ العِصمة، فسيحُ المضْطَرب ؛ مع مايدْخُل رعيّتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبْط مراكزهم، لما يروْز فيه من آستنامتك الى الغرّة، وركُونك الى الأمن، وتهاوُنك بالتدبير ؛ فيعود ذلك عليك فى آنتشار الأطراف، وضياع الأحكام، ودخول الوهن بما لايُستقال محذوره، ولا يُدفَع مخُــوفُه .

إحفَظْ من عيونك وجواسيسك ما يأتُونك به من أخبار عدوّك . وإيّاك ومعاقبة أحد منهم على خَبَرٍ إن أتاك به آتهمته فيه أو سُؤتَ به ظنًّا وأتاك غيرُه بخلافه، أو أن تكذّبه فيه فتردّه عليــه، ولعلّه أن يكون قد مَحَضَك النصيحةَ وصدَقَك الخبرَ وكذَبَك الأوّلُ، أو خرج جاسُوسُك الأوّل متقدّما قبل وصول هذا من عند عدوّك، وقد أبرموا لك أمرا، وحاولوا لك مكيدة وأرادوا منك غِرّة فازْدَلفوا إليك فى الأُهْبة، ثم آنتقض بهم رأيُهــم وآختلف عنه جماعتُهــم، فأرادوا رأيا، وأحدثوا مكيــدة، وأظهروا قوة، وضربوا موعِدا، وأمّوا مَسلَكا لمَدَدٍ أتاهم، أو قوّةٍ حدثت لهم، أو بصيرةٍ فى ضلالةٍ شغلتهم ؛ فالأحوالُ بهم متنقّلة فى الســاعات، وطوارق الحادثات . ولكن آلْبَسْهم جميعا على الآنتصاح، وآرضَخْ لهم بالمطامع، فإنّك لن تستعبِدَهم بمثلها . وعِدْهُم جَزَالة المثاوب، فى غير ما آستِنامة منــك إلى ترقيقهم أمْرَ عدوّك، والاغترارِ إلى ما يأتُونك به دون أن تُعمِل رويّتك فى الأخذ بالحزم، والاستكثار من العُــدّة . وآجعلهم أوثق من تقدِر عليــه، وآمَنَ من تسكُن إلى ناحيته ؛ ليكون ما يُبرِم عدوّك فى كل يوم وليلة عنــدك إن آستطعتَ ذلك، فتنقُضَ عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأتيَهم من حيث أمِنُوا، وتأخذَ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعدَّ لهم بمثل ماحذِروا .

وآعلم أن جواسيسَك وعيونك ربما صدَقُوك وربما غشُّوك، وربما كانوا لك وعليك : فنصحُوا لك وغشّوا عدوّك، وغشّوك ونصحوا عدوّك ؛ وكثيرا مايصدُقُونك ويصدُقُونه . فلا تَبْدُرَنّ منك فَرْطَة عقوبةٍ إلى أحد منهــم، ولا تعجَل بسوء الظن إلى من آتّهمتَه على

ذلك، وآستنزل نصائحهم بالمباحة والمنالة[١]، وآبسُط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذتَ من قوله أخْذَ العامل به والمتبع له، أو عملتَ على رأيه عَمَلَ الصادر عنه، أو رددتَه عليه ردَّ المكذِّب به، المتهم له، المستخِفّ بما أتاك منه، فتُفسِدَ بذلك نصيحتَه، وتَستدعِى غشَّه، وتجترَّ عداوته. وآحذرْ أن يُعرَفوا فى عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع. وليكن منزلُهم على كاتب رسائلك وأمينِ سرِّك، ويكون هو الموجِّه لهم، والمُدخِل عليك من أردتَ مشافهتَه منهم.

وآعلمْ أن لعدوّك فى عسكرك عيونًا راصدة، وجواسيسَ متجسّسة[٢]، وأنه لن يقع رأيه[٣] عن مكيدتك بمثل ما تكايده به، وسيحتال لك كآحتيالك له، ويُعِدّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه، ويحاولك كمحاولتك إياه فيما تقارعه عنه، فاحذرْ أن يُشْهَر رجلٌ من جواسيسك فى عسكرك فيبلُغَ ذلك عدوَّك ويعرف موضعَه، فيُعِدّ له المَراصد، ويحتال له بالمَكايد. فإن ظَفِر به فأظهر عقوبتَه، كَسَر ذلك ثِقاتِ عيونك، وخذلهم عن تطلُّب الأخبار من معادنها، وآستقصائها من عيونها، وآستعذاب آجتنائها من ينابيعها، حتى يصيروا إلى أخذها ممّا عَرَض من غير الثقة ولا المُعاينة، لَقْطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المُرْجِفة. وآحذرْ أن يعرِف بعضُ عيونك بعضا: فإنك لا تأمَن تواطُؤَهم عليك، ومُمالأتهم عدوَّك، وآجتماعَهم على غِشّك، وتطابُقَهم على كذبك، وإصفاقَهم[٤] على خيانتك، وأن يورِّط بعضُهم بعضا عند عدوّك. فأحكِم أمرهم فإنهم رأسُ مكيدتك، وقِوامُ تدبيرك، وعليهم مَدار حربك، وهو أوّل ظفرك. فآعمَل على حسَب ذلك وحيث رجاؤك به، تَنَلْ أملك من عدوّك، وقوّتَك على قتاله، وآحتيالَك لإصابة غِرّاته وآنتهاز فُرَصه، إن شاء الله.

فإذا أحكمتَ ذلك وتقدّمتَ فى إتقانه، وآستظهرت بالله وعونه، فولِّ شُرْطتك وأمرَ عسكرِك أوثقَ قوّادك عندك، وأظهرَهم نصيحةً لك، وأنفذَهم بصيرةً فى طاعتك، وأقواهم

(١) المباحة: الإعطاء.

(٢) فى مفتاح الأفكار ورسائل البلغاء: «كامنة». (٣) فى رسائل البلغاء: «وأن رأيه فى مكيدتك مثل ما تكايده به». (٤) إصفاقهم: اجتماعهم.

شكيمةً فى أمرك، وأمضاهم صَرِيمة [(١)]، وأصدقهم عفافا، وأجزاهم غَناء، وأكفاهم أمانةً، وأصحّهم ضميرا، وأرضاهم فى العامّة دِيناً، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقًا، وأعطفهم على كافّتهم رأفةً، وأحسنهم لهم نَظرا، وأشدّهم فى دِين الله وحقّه صلابةً. ثم فوّض إليـه مُقوّيا له، وابسُط من أمَله مُظهِرا عنـه الرضا، حامدًا منه الابتـلاء. وليكن عالما بمراكز الجنود، بصـيرا بتقدّم المنازل، مجرّبا، ذا رأى وحزم فى المكيـدة، له نباهةٌ فى الذكر، وصيتٌ فى الوِلاية، معروفَ البيت، مشهورَ الحسب. وتقـدّم إليه فى ضَبْط مُعسكره، وإذكاءِ أحراسه فى آناء ليله ونهارِه، ثم حذّره أن يكون منه إذنٌ لجنوده فى الانتشار والاضطراب، والتقـدّم لطلائعك، فتُصابَ لهم غِرّة يجترئ بهـا عدوّك عليـك، ويسرع إقداما إليك، ويكْسِر من إياد [(٢)] جندك ويوهِن من قوّتهم: فإن الصوت [(٣)] فى إصابة عدوّك الرجلَ الواحد من جندك أو عبيدِهم مُطمِعٌ لهم فيك، مُقوٍّ لهم على تَخذ أتباعهم عليك وتصغِيرهم أمْرك، وتوهِينهم تدبيرك. فحذّره ذلك وتقدّمْ إليه فيه، ولا يكوننّ منه إفراطٌ فى التضييق عليهم، والحَصْر لهم، فيعُمّهم أزْلُه [(٤)]، ويشملَهُم ضَنْكه، وتسوءَ عليهم حالُه، وتشتدّ به المؤونةُ عليهم، وتخبُثُ له ظنونهم. وليكن موضعُ إنزالِه إيّاهم ضاماً لجماعتهم، مستديراً بهم جامعاً لهم؛ ولا يكون منبسطا منتشرا متبدّدا، فيَشُقّ ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيـه النُّهزة للعدوّ، والبُعد من المادّة [(٥)] إن طرَق طارقٌ فى بَجَآء الليل وبغَتاته. وأوعِز إليه فى أحراسه، وتقدّمْ إليـه فيهم كأشدّ التقدّم وأبلغ الإيعاز. ومُرْه فليُوَلِّ عليهم رجلا ركينا مجرّبا جرىء الإقدام، ذا كِى الصَرامة، جَلْد الجوارح، بصـيرًا بمواضِع أحراسه، غيرَ مُصانَع ولا مشفع للناس فى التنحّى إلى الرَّفاهية والسَّعة، وتقدُّمِ العسكر والتأخّر عنه، فإن ذلك ممـا يُضعِف الوالىَ ويُوهنه لاستنامته إلى من ولّاه ذلك وأمنه به على جيشه.

واعلمْ أن مواضعَ الأحراس من معسكرك، ومكانَها من جنـدك، بحيث الغنـاءُ عنهم والردّ عليهم، والحفظُ لهم، والكِلاءَة لمن بَغتهم طارقا، أو أرادهم خاتِلا، ومراصِدُها المُقْتَل

(١) الصريمة: العزيمة. (٢) فى مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شىء: ما يقوى به من جانبيه ومنه إيادا العسكر وهما ميمنته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة.
(٤) الأزل: الضيق والشدة. (٥) المادة: كل مدد تستعين به فى حرب أو غيره.

منها والآبِق من أرِقائِهم وأعْبُدهم، وحفظُها من العيون والجواسيس من عدوهم. وآحذر أن تضرِبَ على يديه أو تشكُمه عن الصرامة بمؤامَرتِك فى كلّ أمر حادثٍ وطارئ إلا فى المهِمّ النازل والحَدَث العام : فإنك إذا فعلتَ ذلك به، دعوته إلى نُصْحك، وآستوليتَ على محصول ضميره فى طاعتِك، وأجهَدَ نفسه فى ترتيبك، وأعمَل رأيَه فى بلوغ موافقتك وإعانتِك، وكان ثِقتَك ورِدْأك وقوّتَك ودِعامتَك، وتفرغتَ أنت لمكايَدة عدوّك، مُريحا لنفسك من همّ ذلك والعناية به، مُلقِيا عنك مؤونةً باهظة وكُلْفة فادِحة.

وآعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شىءٌ من الأحكام، ولا بمثل محلّه أحدٌ من الوُلاة : لما يجرى على يديه من مَغاليظ الأحكام ومجارِى الحدود. فليكن من تُولّيه القضاء فى عسكرك [من ذوى][1] الخير والقناعة والعفاف والنّزاهة والفهم والوقار والعِصمة والورَع، والبصر بوجوه القضايا ومواقِعها، قد حنّكته السِّنّ وأيّدته التجربة وأحكمته الأمور، ممن لا يتصنّع للولاية ويستعِدّ للنُّهْزة، ويجترِئ على المُحاباة فى الحكم، والمُداهنة فى القضاء، عَدْلَ الأمانة، عفِيف الطُّعمة[2]، حَسَن الإنصاف، فَهِم القلب، وَرِع الضمير، متخشّع السَّمت، بادِى الوقار، محتَسِبا للخير. ثم أجْرِ عليه ما يكفيه ويَسَعه ويُصلحه، وفرّغه لما حمّلته، وأعِنْه على ما ولّيته : فإنك قد عرّضته لهَلَكة الدنيا وبَوار الآخرة، أو شَرَف الدنيا وحُظْوة الآجِلة، إن حسُنت نيّتُه، وصدَقت رويّته، وصحّت سريرتُه، وسلِّط حكمَ الله على رعيّته، مُطلِقا عِنانه، منفّذًا قضاءَ الله فى خلقه، عاملًا بسنّته فى شرائعه، آخذًا بحدوده وفرائضه.

وآعلم أنه من جندك بحيث ولايتِك[3]، الجاريةُ أحكامُه عليهم، النافذةُ أقضيتُه فيهم ؛ فاعْرِف من تولّيه ذلك وتُسنِده إليه. ثم تقدّم فى طلائعك فإنها أوّلُ مكيدتك، ورأسُ حربك، ودِعامة أمرِك، فآنتخِب لها من كلّ قادةٍ وصحابةٍ رجالا ذوى نجْدة وبأس، وصرامة وخِبرة، حُماةً كُفاةً، قد صَلُوا بالحرب وذاقوا سِجالَها، وشرِبوا مِرارَ كؤوسها، وتجرّعوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره. (٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب الطيب أو الخبيث. (٣) فى مفتاح الأفكار وغيره : «بحيث ولايتك وفى الموضع الجارية» الخ.

غُصَص دِرَبها، وزبَنتهم بتكرار عواطفها، وحملتهم على أصعب مراكبها، وذلّلتهم بثقاف أوَدها . ثم آنتقهم على عينك، وآعْرِض كُراعَهم بنفسك، وتوخَّ فى آنتقائك ظهورَ الجلَد، وشهامة الخُلُق، وكمال الآلة . وإياك أن تقبل من دوابّهم إلا الإناث من الخيل المهلوبة(١)، فإنهن أسرعُ طلبا، وأنجى مهربا، وألين مَعْطِفا، وأبعـدُ فى اللحوق غاية، وأصبرُ فى معترَك الأبطال إقداما . وخُذْهم من السلاح بأبدان الدروع، ماذيّةِ(٢) الحديد، شاكّة النسج، متقاربة الحلَق، متلاحمة المسامير وأسْـوُق الحديد، مموّهة الركب، مُحكمة الطَّبع خفيفة الصَّوْغ؛ وسـواعدَ طَبْعُها هندىّ، وصَوْغُها فارسىّ؛ رقاقِ المعاطف بأكُفّ واقية وعمـلٍ محكم . ويَلْمَقِ(٣) البَيْض مُذْهَبة ومجرّدة، فارسيّة الصَّوْغ، خالصة الجوهر، سابغة المَلْبس، واقيـة الجُنَن، مستديرة الطَّبع، مُبْهَمة السَّرْد، وافيـة الوزن كتَرِيك(٤) النعام فى الصَّنعة وآستدارة التقبيب، وآستواء الصَّوْغ، مُعْلَمة بأصناف الحرير وألوان الصَّبْغ؛ فإنها أهْيبُ لعدوّهم، وأفتُّ لأعضاد مَنْ لقيهم، والمُعْلَمُ مُخْشىّ محذور، له بديهةٌ رادعة، وهيبة هائلة؛ معهم السيوف الهنـدية، وذُكور البيض اليمـانية، رِقاقُ الشَّفَرات، مسنُونةُ الشَّحْذ، مشَطَّبة(٥) الضرائب، معتدلةُ الجواهر، صافيـة الصفائح؛ لم يَدْخُلها وَهْن الطبع، ولا عابها أَمْتُ(٦) الصوغ، ولا شانها خِفّة الوزن، ولا فَدَح حاملَها بهورُ الثّقَـل؛ قد أشرعوا لُدْن القَنا، طِوالَ الهوادى، مُقَوَّمات الأَوَد، زُرْق الأَسِـنّة، مستوية الثعالب(٧)؛ وميضُها متوقّد، وسِـنْخها(٨) متلهّب، مَعاقِص(٩) عُقَدها منحوتة، ووصُومُ أوَدها مقوّمة، وأجناسُها مختلفة، وكُعوبها جَعْدة، وعُقَدُها حبِكة، شَطْبة الأسنان، مُموَّهة الأطراف، مستَحدّة الجَنَبات، دِقاقُ الأطراف، ليس فيهـا آلتواءُ أوَد، ولا أَمْتُ وَصْم، ولا بها مَسْقَط عيب، ولا عنها

(١) المهلوبة : المنتوفة الهلب، وهو شعر الذنب أو الشعر كله . (٢) أى خالصة وجيدته .

(٣) اليلمق : القباء المحشو . (٤) التريك : بيضة النعام خاصة، ومنه قوله :

* وتلق بها بيض النعام ترائكا *

(٥) سيف مشطب : ذو شطب وهى طرائقه التى فى متنه . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .

(٧) الثعلب : طرف الرمح الداخل فى جبة السنان . (٨) فى مفتاح الأفكار وغيره : «وسخها متلهب» وسنخ النصل : الحديدة التى تدخل فى رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المعوجة .

وقوع أمنية، مُستحقبى كنائن النَّبل وقِسِىّ الشَّوحط[1] والنَّبع، أعرابيَّة التعقيب، رُومية النُّصول، مسمومة الصَّوغ، ولتكن سهامها على خمس قبضات سوى النُّصول، فإنها أبلغ فى الغاية، وأنفذ فى الدروع، وأشكّ فى الحديد؛ سامطين حقائبهم على متون خيولهم، مستخفّين من الآلة والأمتعة والزاد، [إلا ما لا غناء بهم عنه][2].

واحذر أن تكل مباشرة عَرْضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانك وكتّابك: فإنك إن وكلته إليهم أضعت مواضع الحزم، وفرّطت حيث الرأى، ووقفت دون عزم الروية، ودخل عملك ضياعُ الوهْن، وخلص إليك عيبُ المحاباة، وناله فسادُ المُداهنة، وغلب عليه من لا يصلح أن يكون طليعة للمسلمين ولا عُدّة ولا حِصنا يَدْرءون به، ويكتهفون بموضعه. والطلائعُ حصون المسلمين وعيونهم، وهم أول مكيدتك، وعُروةُ أمرك، وزمامُ حربك. فليكن اعتناؤك بهم، وانتقاؤك إياهم بحيث هم من مُهمّ عملك، ومكيدة حربك؛ ثم انتخبْ للولاية عليهم رجلا بعيدَ الصوت، مشهورَ الاسم، طاهرَ الفضل، نبيه الذكر، له فى العدو وقعات معروفات، وأيامٌ طوال وصَولاتٌ متقدّمات؛ قد عُرفت نكايتُه، وحُذرت شوكته، وهيب صوتُه، وتُنُكّب لقاؤه؛ أمينَ السريرة، ناصحَ الجَيب[3]؛ قد بلوتَ منه ما يُسكّنك إلى ناحيته: من لين الطاعة، وخالص المودّة، ورَكانة الصرامة، وغُلُوب الشهامة، واستجماع القوة، وحصافة التدبير. ثم تقدّمْ إليه فى حسن سياستهم، واستنزال طاعتهم، واجتلابِ مودّاتهم واستعذاب ضمائرهم؛ وأجرِ عليهم وعليه أرزاقا تسعهم، وتُمدّ من أطماعهم سوى أرزاقهم فى العامّة، فإن ذلك من القوة لك عليهم، والاستنامة إلى ما قِبَلهم.

واعلمْ أنهم فى أهمّ الأماكن لك، وأعظمها غناءً عنك وعمّن معك، وأقمعها كَبْتًا لمحادّك، وأشجاها غيظا لعدوّك: ومَنْ يكن فى الثقة، والجلد، والبأس، والطاعة، والقوة، والنصيحة والعُدّة، والنجدة حيث وصف لك أميرُ المؤمنين وأمرك به، يضع عنك مؤونة الهمّ، ويُرْخ

(١) الشوحط: شجر تتخذ منه القسىّ. (٢) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥١).

(٣) يقال: فلان ناصح الجيب يراد بذلك قلبه وصدره أى أمين.

من خناقك روعُ الخوف ، وتلتجئ إلى أمرٍ منيع ، وظَهر قوىّ ، ورأيٍ حازم ، تأمن به بَغَتات عدوك ، وغرّات بغتاتهم ، وطوارق أحداثهم ؛ ويصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدّمات خيولهم ؛ فانتخبهم رأىَ عَين ، وقوّهم بما يُصلحهم من المَنالات والأطماع والأرزاق ، واجعلهم منك بالمنزل الذى هم به من محارز علاقتك ، وحصانة كهوفتك ، وقوة سيارة عسكرك .

وإياك أن تدخل فيهم أحدا بشفاعة ، أو تحتمله على هَوادة ، أو تقدمه لأثرة ؛ أو أن يكون مع أحدٍ منهم بَغْل نَفَلٍ (١) ، أو فضلٌ من الظَّهر ، أو ثَقَلٌ (٢) فادح ، فتشتدّ عليهم مؤونة أنفسهم ، ويدخُلُهم كَلالُ السآمة فيما يعالجون من أثقالهم ، ويشتغلون به عن عدوهم إن دَهِمهم منه رائع ، أو فَجَأهم منه طليعة . فتفقّد ذلك محكمًا له ، وتقدم فيه آخذا بالحزم فى إمضائه ، أرشدك الله لإصابة الحظ ، ووفقك ليُمْن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأى وأعوده نفعا فى العاجل والآجل ، وأكبته لعدوك وأشجاه لهم ، وأردعه لعاديتهم .

ولّ دَرّاجة عسكرك وإخراج أهله إلى مَصافهم ومراكزهم رجلا من أهل بيوتات الشرف ، محمودَ الخبرة ، معروفًا بالنجدة ، ذا سنٍّ وتجربة ، لَيّنَ الطاعة ، قديمَ النصيحة ، مأمونَ السريرة ، له بصيرةٌ بالحق نافذة تقدّمه ، ونية صادقة عن الإدهان (٣) تحجزه . واضمم إليه عِدّةَ نفر من ثقات جندك وذوى أسنانهم يكونون شُرطةً معه ؛ ثم تقدّمْ إليه فى إخراج المَصافّ ، وإقامة الأحراس وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ؛ ومُره فليضع القُوّاد بأنفسهم مع أصحابهم فى مَصافّهم ، كلّ قائد بإزاء مكانه ، وحيث منزله ، قد سُدّ ما بينه وبين صاحبه بالرماح شارعة ، والتّرسة موضونة (٤) ، والرجال راصدة ، ذاكية الأحراس ، وَجِلة الروع ، خائفة طوارقَ العدو وبياته . ثم مُره فليُخرج كلّ ليلة قائدًا فى أصحابه أو عدّة منهم إن كانوا كثيرًا ، على غَلْوة أو اثنين من عسكرك ، متنبذًا عنك محيطا بمنزلك ، ذاكيةً أحراسه ، قلقةَ التردد ، مُفرطةَ الحذر ، مُعدة للروع ، متأهبة للقتال ، آخذة على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرقين فى اختلافهم كُردوسا كُردوسا (٥) ، يستقبل بعضهم بعضا

(١) النفل محركة : الغنيمة والهبة . (٢) الثقل : متاع المسافر . (٣) الإدهان : المداهنة وهى أن يظهر الانسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسة موضونة ، أى منسوجة حلقتين حلقتين . (٥) أى كتيبة كتيبة .

[في الاختلاف][1] ويكسع تالٍ متقدمًا في التردد، واجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكرك نُوَبًا معروفة، وحِصَصا مفروضة، لا تُعْرِ منها مُزْدَلِفا منك بمودة، ولا تحامل فيه على أحد بمَوْجِدة. إن شاء الله تعالى.

فوّض إلى أمراء أجنادك وقوّاد خيلك أمورَ أصحابهم، والأخذَ على قافية أيديهم، رياضةً منك لهم على السمع والطاعة لأمرائهم، والاتّباع لأمرهم، والوقوف عند نهيهم؛ وتقدّمْ إلى أمراء الأجناد في النوائب التي ألزمتهم إياها، والأعمال التي استجدّتهم لها، والأسلحةِ والكُرَاع التي كتبتَها عليهم؛ واحذر اعتلالَ أحدٍ من قوادك عليك بما يحول بينك وبينَ تأديب جندك، وتقويمهم لطاعتك، وقمعهم عن الإخلال بمراكزهم لشيء مما وكلوا به من أعمالهم؛ فإن ذلك مَفْسدة للجند، مَفْثاةٌ[2] للقوّاد عن الجدّ والإيثار للناصحة، والتقدّم في الأحكام.

واعلم أنّ في استخفافهم بقوادهم وتضييعهم أمر رؤسائهم دُخولا للضَّياع على أعمالك، واستخفافا بأمرك الذي يأتمرون به ورأيك الذي ترتئي. وأوعِزْ إلى القُوّاد ألّا يُقدِم أحدٌ منهم على عقوبةِ أحدٍ من أصحابه، إلا عقوبةَ تأديبٍ في تقويم مَيَل، وتثقيف أَوَد؛ فأما عقوبةٌ تبلغ تَلَف المُهجة، وإقامةُ حدٍّ في قطع، أو إفراطٌ في ضرب، أو أخذُ مال، أو عقوبةٌ في شَعَر، فلا يَلِيَنّ ذلك من جندك أحدٌ غيرُك، أو صاحبُ شُرْطتك بأمرك وعن رأيك وإذنك؛ ومتى لم تُذَلِّل الجندَ لقوّادهم، وتُضْرِعهم لأمرائهم؛ تُوجِبْ لهم عليك الحجةَ بتضييع — إن كان منهم — لأمرك، أو خَلَل — إن تهاونوا به — من عَمَلك، أو عجز — إن فرط منهم — في شيء مما وكّلتهم به أو أسندته إليهم؛ ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللوم وعَضّ العقوبة عليهم مجازًا تصل به إلى تعنيفهم، بتفريطك في تذليل أصحابهم لهم، وإفسادك إياهم عليك وعليهم. فانظر في ذلك نظرا مُحْكَما، وتقدّمْ

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢).
(٢) أي يقعد بهم عن الجد الخ.

فيه برِفقك تقدما بليغا، وإيّاك أن يدخل حزمك وهْنٌ، أو يشوبَ عزمَك إيثار، أو يخلط رأيَك ضَياع؛ واللهَ يستودعُ أميرُ المؤمنين نفسَك ودينَك .

إذا كنت من عدوّك على مسافةٍ دانية وسَنَن لقاءٍ مختصر، وكان من عسكرك مُقترِبًا قد شامتْ طلائعُك مقدّماتِ ضَلالته وحُماةَ فتنته، فتأهب أُهبة المُناجز، وخُذ اعتدادَ الحَذِر، وكَتِّبْ[1] خيولَك، وعَبِّ جندك. وإيّاك والمسيرَ إلا فى مقدّمة ومَيْمَنة ومَيْسَرة وساقة، قد شَهَروا الأسلحةَ، ونشَروا البنودَ والأعلام. وعرِّف جندَك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أُهبة القتال، واستعدّوا للقاء، ملتجئين إلى مَواقفهم، عارفين بمواضعهم فى مَسيرهم ومُعَسْكرهم. وليكن ترحّلُهم وتنزُّلُهم على راياتهم وأعلامهم وفى مراكزهم، قد عَرَّف كلُّ قائد منهم أصحابَه مَواقفهم: من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطّليعة، لازمين لها، غيرَ مُخلِّين بما استُنجِدوا له، ولا مُتهاوِنين فيما أُهيب بهم إليه، حتى تكون عساكرُك فى مَنْهَل تصل إليه، ومسافةٍ تختارها، كأنها عسكرٌ واحد فى اجتماعها على العدو، وأخذها بالحزم، ومسيرِها على راياتها، ونزولها فى مراكزها، ومعرفتها بمواضعها: إن ضلّت دابّةٌ من موضعها، عرف أهلُ العسكر من أىّ المراكز هى، ومَن صاحبُها، وفى أى المحلّ حلولُه منها، فرُدّت إليه، هدايةً معروفةً بِسَمْت صاحبِ قيادتها؛ فإنّ تقدُّمك فى ذلك وإحكامَك له طارحٌ عن جندك مؤونةَ الطلب، وعناية المعرفة، وابتغاءَ الضالّة .

ثم اجعلْ على ساقتك أوثقَ أهل عسكرك فى نفسك صرامةً ونفاذًا ورِضًا فى العامة، وإنصافًا من نفسه للرعية، وأخذًا بالحق فى المَعْدَلة، مستشعِرًا تقوى الله وطاعته؛ آخذا بهَدْيك وأدبك، واقفًا عند أمرك ونهيك، معترِمًا على مناصحتك وتزيينك، نظيرًا لك فى الحال، وشبيها بك فى الشرف، وعديلا فى الموضع، ومقاربا فى النسب[2]؛ ثم اكنُفْ معه الجمع، وأيِّده بالقوّة، وقوِّه بالظَّهْر، وأعِنه بالأموال، وامدُده بالسلاح، ومُرْه بالتعطُّف على ذوى الضعف من جندك ومَنْ أزحفتْ به دابّته وأصابته نكبة: من مرض أو رُجْلة[3] أو آفة،

(١) كتب الجيش أو الخيل: جعلها كتائب. (٢) فى مفتاح الأفكار وغيره: «فى الصيت».

(٣) الرجلة بالضم: أن يشكو رجله وقد رجل كفرح أصابه فى رجله ما يكره.

من غير أن يأذن لأحد منهم فى التنحّى عن عسكره، أو التخلّف بعد ترحّله، إلا لمجهود سقماً، أو لمطروق بآفة جائحة. ثم تقدم إليه محذرا، ومُره زاجرا، وأنهه مُغلظا فى الشدّة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من جنـدك بغير جوازك، شاداً لهم أسْرًا، وموقرهم حديدا، ومُعاقبهم مُوجعا، وموجّههم إليك فتنهكهم عقوبةً، وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة.

واعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقا بنصيحته قد بلوت منه أمانةً تُسكّنك إليـه، وصرامةً تؤمّنك مهانته، ونفـاذًا فى أمرك يُرخى عنك خِنـاق الخوف فى إضاعته — لم يأمن أميرُ المؤمنين تسلّلَ الجند عنك لِواذًا[1]، ورفضهم مراكزهم، وإخلالهم بمواضعهم، وتخلّفهم عن أعمالهم، آمنين تغييرَ ذلك عليهم، والشدّة على من اجترمه منهم، فأوشك ذلك فى وَهْنك، وخذَل من قوّتك، وقلّل من كثرتك.

اجعلْ خلف ساقتك رجلا من وجوه قوّادك، جليدًا، ماضيًا، عفيفًا، صارماً، شهمَ الرأى، شديدَ الحـذَر، شكيمَ القوة، غيرَ مُداهنٍ فى عقوبة، ولا مهينٍ فى قوّة، فى خمسين فارسا يحشُر إليك جندَك، ويُلحق بك من تخلّف عنك بعد الإبلاغ فى عقوبتهم، والنّهك لهم، والتنكيل بهم. وليكن بعَقْوتك[2] فى المنزل الذى ترحّل عنه، والمنهل الذى تتقوّض منه، مُفرطًا فى النّفض له، والتتبّع لمن تخلّف عنك به؛ مشتدًّا فى أهل المنزل وساكِنه بالتقدّم، موعِزًا اليهم فى إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكامنهم؛ وإيعادِ العقوبة الموجعة والنّكال المُنْبِسل فى الأشعار والأبشار، واستصفاءِ الأموالِ وهدمِ العَقار لمن آوى منهم أحدًا أو سَتَر موضِـعَه، أو أخفى محلّه. وحذّره عقوبتَـك إيّاه فى الترخيص لأحد، والمحاباة لذى قَرابة، والاختصاص بذلك لذى أثرة وهَوادة. وليكن فرسانُه منتخَبين فى القـوّة، معروفين بالنجدة، عليهم سوابِغُ الدروع دونها شِعارُ الحشو وجُبَبُ الاستجنان، متقلّدين سيوفَهم، سامِطين[3] كنائنَهم، مستعدين لهَيْج إن بَدَهَهم [أو كَمِينٍ إن ظَهَرَ لهم[4]]. وإياك

(١) لواذا: مراوغة أى مستخفين يستتر بعضهم ببعض. (٢) العقوة: ما حول الدار أو ساحته.

(٣) سامطين: معلقين. (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره.

أن تقبـل منهم فى دوابهم إلا فرسا قويا أو بِرذَوْنًا وَثِيجا(١) : فإنّ ذلك من أقوى القوّة لهم ، وأعون الظَّهْرِىّ على عدوّهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إبانًا واحدا ، ووقتًا معلوما : لتخفّ المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أوان رحيلهم ، فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابّهم ، وتسكُن قلوبهم الى الوقت الذى وَقَفوا عليـه ، ويَطْمئِنّ ذوُو الرأى الى إبّان الرحيل . ومتى يكن رحيلك مختلِفًا ، تَعْظُم المؤونة عليـك وعلى جندك ولا يزال ذوو السَّفه [والنَّزَق] يترحّلون بالإرجاف ويتزلُون بالتوهُّم ، حتى لا ينتفع ذُو رأيٍ بنوم ولا طُمَأْنِينة .

إيّاك أن تُظهِر آستِقلالًا ، أو تُنادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمرَ صاحب تَعْبِئتك بالوقوف بأصحابه على مُعسكرك آخذًا بِحَنَبَتَىْ فوهته ، بأسلحتهم عدّةً لأمرٍ إن حضر أو مفاجأةٍ من طليعـة للعدوّ إن رأت منكم نُهْـزة ، أو لَحَتْ عندكم غِرّة . ثم مُرِ الناسَ بالرحيل وخيلُك واقفة ، وأُهْبتك مُعَدّة ، وجُنّتُك واقيـة ، حتى اذا آستقللتم من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سِرتم على تعبئتكم بسكون ريح ، وهـدوّ حَمْلة ، وحُسن دَعَة . فاذا آنتهيتَ الى مَنْهل أردتَ نزولَه أو هَمَمت بالمعسكر به ، فإيّاك ونزولَه إلا بعـد العِلم بأهله ، والمعرفة بمَرَافقه ، ومُرْ صاحب طليعتك أن يعرف لك أحوالَه ، ويستثيرَ لك علمَ دفينه ، ويستبطِنَ علم أموره ثم يُنهِيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتمالُه لعسكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه وموضِعُ مُعَسكرِك منه ، وهل لك — إن أردتَ مُقاماً به ، أو مطاولةَ عدوّك أو مكايدتَه فيه — قوّةٌ تحملك ومَدَدٌ(٢) يأتيه ؛ فإنك إن لم تفعلْ ذلك ، لم تأمَنْ أن تهجُم على منزل يُعجِزك ويزعجك عنه ضِيقُ مكانه ، وقِلّةُ مياهه ، وآنقطاعُ موادّه ، إن أردتَ بعدوّك مكيدةً ، أو آحتجتَ من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلتَ منـه كنتَ غَرَضًا لعدوّك ، ولم تجـدْ الى المحاربة والإخطار سبيلا ، وإن أقمتَ به أقمتَ على مَشَـقّة وحَصْرٍ وفى أزْلٍ

---

(١) برذونا وثيجا : كثير اللحم .

(٢) كذا فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفا صوابه : قوّة تصلك ومدد يأتيك .

وضيق ، فاعرِف ذلك وتقدّمْ فيه . فإن أردتَ نزولا أمرتَ صاحبَ الخيل التى وَكَّلت بالناس فوقفت خيلُه متنحيةً من معسكرك ، عُدّةً لأمرٍ إن غالك ، ومَفزَعًا لبديهة إن راعك ، فقد أمِنتَ بحمد الله وقوته بجاةَ عدوّك ، وعرفتَ موقعها من حِرْزك ، حتى يأخذ النـاس منازلَهم ، وتُوضَعَ الأثقالُ مواضِعَها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتُخرِج دبّابتك من معسكرك درّاجةً ودبّابا مُحيطين بعسكرك ، وعُدّةً إن آحتجتَ إليها . ولتكن دبّابات جندك أهلَ جَلَدٍ وقوة ، قائدًا أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، فى كل ليلةٍ ويومٍ نُوَبًا بينهم . فاذا غَربت الشمس ووَجَبَ نورُها[1] ، أخرج اليهم صاحبُ تعبيتك أبدالَهم ، عَسَسًا بالليل فى أقربَ من مواضعِ دبّابِى النهارِ ، يتعاوَرُ ذلك قوادك جميعا بلا محاباةٍ لأحدٍ فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكونَ منزلك إلا فى خَنْدق وحِصْن تأمنُ به بيَات عدوّك وتستنيمُ فيه الى الحزم من مكيدتك . اذا وُضعت الأثقالُ وحطّت أبنيةُ أهل العسكر ، لم يُمَدَّدْ طُنُبٌ ، ولم يُرفَع خِباء ، ولم يُنْصَب بناء حتى تقطَعَ لكل قائد ذَرعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفِروه عليهم خندقا يُطيفونه بعد ذلك بخنادق الحَسَك[2] ، طارحين لها دون آشتجار الرماح ، ونَصْب التِّرَسَة ، لها بابانِ قد وَكّلتَ بحفظ كل باب منهما رجلا من قوادك فى مائة رجلٍ من أصحابه ؛ فإذا فُرِغ من الخندق كان ذانِك الرجلانِ القائدانِ بمن معهما من أصحابهما أهلَ ذلك المركز ، وموضِعَ تلك الخيـل ، وكانوا هم البوّابين والأحراس لذينك الموضعين ، قد كَفَوْهما وضبطوهما وأُعفُوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرَهما .

واعلم أنك إذا كنت فى خندق ، أمِنتَ بإذن الله وقوته طوارقَ عدوّك وبَغَتاتِهم ، فإن راموا تلك منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذلك وأخذتَ بالحزم فيه ، وتقدّمتَ فى الإعداد له ، ورَتَقتَ مخوفَ الفتق منه ؛ وإن تكنِ العافيةُ آستحققتَ حمدَ الله عليها ، وآرتبطتَ شكره بها ، ولم يَضْرُرْك أخْذُك بالحزم : لأن كل كُلفةٍ ونَصَبٍ ومؤونةِ إنفاق ومشقّةِ عمل مع

(١) أى ذهب وغاب .
(٢) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلق حول المعسكر لتنشب فى رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له ، وهى المعروفة الآن : « بالأسلاك الشائكة » .

السلامة غُنْمٌ وغير خَطَر بالعاقبة، إن شاء الله . فإن آبتُليتَ ببيات عدوك أو طرّقك رائعا فى ليلك، فليُلْفِك حذِراً مشمّرا عن ساقك، حاسراً عن ذراعك، متشزِّناً[1] لحربك، قد تقدّمتْ دَرّاجتُك إلى مواضِعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودبّابتك فى أوقاتها التى قَدَّر لك، وطلائعُك حيث أمرك، وجندُك على ما عبّأ لك، قد خطَرتَ عليهم بنفسك، وتقدّمتَ إلى جندك، إن طرقهم طارق أو فاجأهم عدو، ألا يتكلم منهم أحد رافعا صوتَه بالتكبير مُغرقا فى الإجلاب، مُعلِنا بالإرهاب لأهل الناحية التى يقع بها العدو طارقا، وليشرعوا رماحَهم ناشبين بها فى وجوههم، و يرشقوهم بالنبل مكتنّين بترسهم، لازمين لمراكزهم، غير مُزيلِى قدم عن موضعها، ولا متجاوزين إلى غير مراكزهم، وليكبّروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائرُ الجند هادون، لتعرف موضع عدوك من معسكرك، فتُمدّ أهلَ تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن آنتخبتَ قبل ذلك عدّةً للشدائد بحضرتك، وتدُسّ إليهم النشّاب والرماح .

و إياك وأن يشهروا سيفًا يتجالدون به، وتقدّمْ إليهم ألا يكون قتالُهم فى تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مُسنِدين لها إلى صدورهم، والنُّشّاب راشقين به وجوهَهم، قد ألبَدوا بالأترِسة، وآستجنّوا بالبَيْض، وألقَوْا عليهم سوابغَ الدروع وجِبابَ الحَشْو . فإن صدّ العدو عنهم حاملين على جهة أخرى، كبّر أهلُ تلك الناحيـة التى يقع فيها كفعل الناحيةِ الأولى، وبقيّةُ العسكر سكوتٌ والناحيةُ التى صدّ عنها العدو لازمةٌ مراكزَهم منتطقةُ الهدو ساكنةُ الريح، ثم عَمِلتَ فى تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك فى إخوانهم .

و إياك أن تُخمِدَ نار رُواقك، وإذا وقع العدو فى معسكرك فأجّجها ساعراً لها وأوقدْها حَطَبًا جَزْلا يعرِف به أهلُ العسكر مكانَك وموضعَ رِواقك، فيسكن نافرُ قلوبهم، ويقوَى واهِى قوّتهم، ويشتدّ منخذِلُ ظهورهم، ولا يرجُمُون بك الظنونَ، ويجعلون لك آراء

---

(١) متشزنا : متجهزا .

السوء، ويُرجفون بك آناء الخوف، وذلك من فعلك رادُّ عدوِّك بغيظه لم يستقلل منك ظُفرا، ولم يبلغْ من نِكايتك سرورا . وإن آنصرف عنك عدوُّك ونكَل عن الإصابة من جندك وكانت بخيلك قوّةٌ على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيلٌ معدّةٌ وكتيبة منتخبَة، [و] قدرت على أن تركَبَ بهم أكساءَهم[1]، وتحملَهم على سَنَنهم، فأتبِعهم جريدةَ خيل عليها الثقاتُ من فُرسانك وأولو النجدة من حماتك، فإنك تَرْهَق[2] عدوَّك وقد أمِن من بَيَاتك، وشُغل بكَلَاله عن التحرّز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه عليك، مُوهَنةً حُماتهم لَغيبة أبطالهم : لما ألفوكم عليه من التشمير والجدّ، قد عقَر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم، وكسَر من أمانيّ ضلالهم، وردّ من مستعلي جماحهم .

وتقدَّمْ إلى من تُوَجّهه فى طلبهم، وتُتبِعه أكساءهم : فى سكونِ الريح، وقلة الرَّفث، وكثرة التسبيح والتهليل، وآستنصار الله عز وجل بألسنتهم وقلوبهم سِرًّا وجهرا، بلا لَجَبٍ صيحة، ولا آرتفاع ضوضاء، دون أن يردّوا على مطلبهم، ويتهزوا فُرصتهم . ثم ليشهَروا السلاح، وينتضُوا السيوفَ، فإن لها هيبةً رائعة، وبديهةً مخوفةً، لا يقوم لها فى بُهمة الليل وحِندسه إلا البطلُ المحارب، وذو البصيرة المحامِى، والمستميتُ المقاتل، وقليل ما هم عند تلك الحمِيّة وفى ذلك الموضع .

لِكن أوّلَ ما تتقدّم به فى التهيؤ لعدوّك، والآستعداد للقائه، آنتخابُك من فرسان عسكرِك وحُماة جندك ذوِى البأس والحُنْكة والجلَد والصَّرامة، ممن قد آعتاد طِرادَ الكُماة، وكشّر عن ناجذه فى الحرب، وقام على ساقٍ فى منازلة الأقران، ثقِفَ الفروسية، مجتمِعَ القوّة، مستحصِدَ المرِيرة، صبوراً على هول الليل، عارفا بمناهزة الفُرَص، لم تمْهَنْه الحُنْكة ضعفًا، ولا بلغت به السنّ كَلَالا، ولا أسكرته غِرّةُ الحَدَاثة جهلا، ولا أبطرته نجدةُ الأغمار صَلَفا، جريئا على مخاطرة التلف، مُقْدِما على آدّراع الموت، مكابِرا لَمهيب الهول، متقحِّما مخشيَّ الحتوف، خائضا غمراتِ المهالك، برأى يؤيّده الحزم، ونيّة لا يخالجها الشك،

(١) الأكساء : الأدبار، واحدها كس . (٢) ترهق عدوّك : تغشاه .

وأهواء مجتمعة، وقلوبٍ مؤتلفة، عارفين بفضل الطاعةِ وعزِّها وشرَفِها، وحيث محل أهلها من التأييد والظفر والتمكين، ثم آعرِضهم رأى عينٍ على كُرَاعِهم وأسلحتهم. ولتكن دوابّهم إناثَ عتاق الخيل، وأسلحتُهم سوابغَ الدروع وكمالَ آلةِ المحارب، متقلّدين سيوفَهم المستخلَصة من جيِّد الجوهر وصافِى الحديد، المتخيَّرة من معادنِ الأجناس، هندية الحديد يمانيةِ الطبع، رِقاق المضارب، مسمومة الشَّحْذ، مشطَّبة الضريبة، مُلْبِدين بالتِّرَسَة الفارسية، صينيّةِ التعقيب، مُعْلَمة المَقابِض بحَلَق الحديد، أنحاؤها مربعة، ومحارزها بالتجليد مضاعفة، مَحْمَلُها مستخَف، وكنائِنِ النبـل وجعاب القِسِىّ قـد آستحقبُوها، وقِسِىّ الشَّرْيان[(١)] والنبْع أعرابيّـة الصَّـنعة، مختلفة الأجناس، مُحكَمة العملِ، مقوّمة التثقيف، ونصول النبـل مسمومة، وعملها مَصِّيصِىّ، وتركيبها عِراقِىّ، وتريِيشها بدوِىّ، مختلِفة الصوغ فى الطبع، شتَّى الأعمال فى التشطِيب والتجنيح والآستِدارة. ولتكن الفارسيةُ مقلوبة المقابِض، منبسطة السِّيَة، سهلةَ الآنعِطاف، مقرَّبة الآنحِناء، ممكنة المَرْمَى، واسعةَ الأسهم، فُرَضُها سهلة الورود، ومعاطِفها غير مقتربة المُوَاتاة. ثم وَلِّ على كل مائة رجل منهم رجلًا من أهل خاصّتك وثقاتك ونُصَحائك، له صِيتٌ فى الرياسة، وقَدَمٌ فى السابقة، وأولية فى المشايَعة. وتقـدّمْ إليه فى ضَبْطهم، وكَفِّ مَعَرّتهم، وآستِنزال نصائحهم، وآسـتعداد طاعتهم، وآستخلاص ضمائرِهم، وتَعاهُدِ كُرَاعِهم وأسلحتهم: مُعفِيًا لهم من النوائب التى تلزمُ أهـلَ عسكرك وعامّةَ جندك، وآجعلهم عُدّةً لأمرٍ إن حَزَبك، أو طارقٍ إن أتاك، ومرهم أن يكونوا على أُهبة معدّة، وحَذَرٍ نافٍ لِسِنَة الغفلة عنهم، فإنك لا تدرى أىّ الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك. فليكونوا كرجلٍ واحدٍ فى التشمير والترادُف وسرعة الإجابة، فإنك عَسَيتَ ألّا تجد عنـد جماعة جندك فى مثـل تلك الرَّوعة والمباغتة — إن آحتجتَ إلى ذلك منهم — معونةً كافية، ولا أُهبةً مُعَدّة. بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عُدّتَك وقوتك، بعوثًا قـد وظَّفتها على القوّاد الذين ولَّيتَهـم أمورَهم، فسمّيتَ أوّلًا وثانيـًا وثالثًا ورابعًا وخامسًا وسادسًا، فإن آكتفيتَ فيما يَطْرُقُك ويَبْدَهُك

(١) الشريان بفتح الشين وكسرها: شجر من عضاه الجبال تعمل من القسى.

ببَعْثٍ واحد، كان مُعَدًّا لم تحتج إلى آنتخابهم فى ساعتك تلك، فقَطِّع البعثَ عليهم عند ما يَرْهَقك . وإن آحتجتَ إلى آثنين أو ثلاثة ، وجَّهتَ منهم إرادتك أو ما ترى قوتك ، إن شاء الله .

وكِّل بخزائنك ودواوينك رجلًا ناصحا أمينا، ذا وَرَع حاجز، ودِينٍ فاصل، وطاعة خالصة، وأمانةٍ صادقة، وآجعل معه خيلًا يكون مَسيرها ومنزلها ومَرْحَلها مع خزائنك وحولها . وتقدّم إليه فى حِفظها، والتوقّى عليها، وآتّهام كلِّ من تُسْنِد إليه شيئا منها على إضاعته والتهاوُن به، والشدّة على من دنا منها فى مَسِير، أو ضَامَّها فى منزل، أو خالطها فى مَنْهَل . وليكن عامة الجند والجيش — إلا من آستخلصت لمسير معها — متنحِّين عنها، مجانبين لها فى المسير والمنزل، فانه ربما كانت الجَوْلة وحَدثت الفَزْعة، فان لم يكن لخزائن ممن يُوَكَّلُ بها أهلُ حِفظ لها وذَبٍّ عنها، وحِياطةٍ دونها، وقوة على من أراد آنتهابها، أسرع الجندُ إليها وتداعَوْا نحوَها، حتى يكاد يترامى ذلك بهم إلى آنتهابِ العسكر وآضطرابِ الفتنة، فإن أهلَ الفتن وسوءِ السيرة كثير، وإنما هِمَّتُهم الشرّ، فإيّاك أن يكون لأحد فى خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مطمع، أو يجد سبيلا إلى آغتيالها ومَرْزأتها .

واعلم أن أحسن مكيدتك أثرًا فى العامة، وأبعدَها صِيتاً فى حسن القَالَة، مانِلتَ الظفرَ فيه بحزم الروِيّة، وحسن السِّيرة، ولطف الحِيلة . فلتكن رَوِيّتك فى ذلك وحِرصك على إصابته بالحِيل لا بالقتال وأخطارِ التالف، وآدسُسْ إلى عدوك، وكاتبْ رؤساءَهم وقادتَهم وعِدْهم المَنَالاتِ، ومَنِّهم الوِلايات، وسوِّغهم التُّرَاث، وضَعْ عنهم الإحَن، وآقطع أعناقهم بالمطامع، وآستدعِهم بالمَثاوب، وآملأْ قلوبَهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر، وأصارتهم إليك الرواجع، وآدعُهم إلى الوثوب بصاحبِهم أو آعتزالِه إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة، ولا عليك أن تطرَح إلى بعضهم كتبًا كأنها جوابُ كتبٍ لهم إليك، وتكتُب على ألسنتهم كتبا إليك تدفعها إليهم وتَحمِل بها صاحِبَهم عليهم، وتُنزِلهم عنده بمنزلة التُّهمة ومحلّ

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

الظِّنَّة ، فلعل مكيدتَك فى ذلك أن يكون فيها افتراقُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتِهم ، وإحَنُ قلوبهم ، وسوءُ الظن مِن واليهم بهم ، فيوحشهم منه خوفُهم إياه على أنفسهم إذا أيقنوا باتّهامه إياهم ؛ فان بَسَط يده فقتلهم ، وأولغ سيفَه فى دمائهم ، وأسرع الوثوبَ بهم ، أشعرَهم جميعا الخوف ، وشَمِلهم الرُّعب ، ودعاهم إليك الهرب ، فتهافتُوا نحوك بالنصيحة وأمُّوك بالطلب . وإن كان متأنّيا محتملا رجوتَ أن يستميل إليك بعضهم ، ويستدعى الطمع ذوِى الشرَه منهم، وتنالَ بذلك ما تُحب من أخبارهم، إن شاء الله .

إذا تَدَانى الصفَّان، وتواقَفَ الجمعان، واحضَرَت الحرب ، وعبّأتَ أصحابك لقتال عدوّهم ؛ فأكْثِرْ من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله ، والتوكُّلِ على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسألتِه توفيقَك وإرشادَك ، وأن يَعْزِم لك على الرُّشد المُنجى ، والعِصمة الكالئة ، والحِياطة الشاملة . ومُرْ جندَك بالصمت وقلّة التلفُّت عند المُصاولَة ، وكثرةِ التكبير فى أنفسهم والتسبيح بضمائرهم ، ولا يُظهِروا تكبيراً إلا فى الكرّات والحمَلات ، وعند كل زُلْفةٍ يزدلفونها ؛ فأمّا وهم وقوفٌ فان ذلك من الفشل والجبن ؛ وليذكروا الله فى أنفسهم ويسألوه نصرَهم وإعزازَهم ، وليُكثروا من قول : "لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم انصُرنا على عدوّك وعدوّنا الباغى ، واكفِنا شوكتَه المستحدّة ، وأيِّدْنا بملائكتِك الغالبين ، واعصِمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين" .

وليكن فى معسكرك المكبِّرون فى الليل والنهار قبل المُواقعة ، وقومٌ موقوفون يحُضُّونهم على القتال ويحرِّضونهم على عدوّهم ، ويَصفون لهم منازلَ الشهداء وثوابَهم ، ويذكّرونهم الجنةَ ودرجاتِها ، ونعيمَ أهلِها وسكّانِها ، ويقولون : اذكروا الله يذكركم ، واستنصروه ينصركم ، والتجئوا إليه يمنعْكم . وإن استطعتَ أن تكون أنت المباشرَ لتعبية جندك ووضعِهم مواضعَهم من رأيك ، ومعك رجالٌ من ثقات فرسانك ذوُو سنٍّ وتجربة ونجدة على التعبية التى أمير المؤمنين واصفُها لك فى آخر كتابك فافعل ، إن شاء الله تعالى .

أيدك الله بالنصر، وغلب لك على القوة، وأعانك على الرشد، وعصمك من الزيغ، وأوجب لمن آستشهد معك ثوابَ الشهداء ومنازلَ الأصفياء، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة.

٧ – رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التى أوصى فيها الكتّاب (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناسَ بعد الأنبياء والمرسلين صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرّمين أصنافا، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصرّفهم فى صُنوف الصناعات وضروب المحاولات، الى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشرَ الكُتّاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمُروءات والعلم والرزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يُصلِحُ الله للخلق سلطانَهم، وتَعمُر بلدانُهم، لا يَستغنى المَلك عنكم، ولا يُوجَد كاف إلّا منكم، فموقعكم من المُلوك موقعُ أسماعهم التى بها يَسمعون، وأبصارهم التى بها يُبصرون، وألسنتهم التى بها يَنطقون، وأيديهم التى بها يَبطشون، فأمتعكم الله بما خصّكم من فَضل صِناعتكم، ولا نَزَعَ عنكم ما أضفاه (٢) من النِّعمة عليكم، وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلّها أحوجَ الى آجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم. أيّها الكُتّابَ اذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صِفتكم، فإن الكاتب يحتاج فى نفسه، ويحتاج منه صاحبُه الذى يثق به فى مُهمّات أُموره، أن يكون حليما فى موضع الحلم، فهيما فى موضع الحُكم، مِقداما فى موضع الإقدام، مِحجاما فى موضع الإحجام، مُؤْثرًا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق).

(٢) أضفاه: أتمه.

للعَفاف والعَدْل والإنصاف، كَتُوما للأسْرار، وفيًّا عند الشدائد، عالما بما يأتى من النوازل؛ يَضَع الأُمورَ مَواضعَها، والطَّوارق فى أماكنها؛ قد نَظَر فى كل فنّ من فُنون العلْم فأحكَمَه، وإن لم يُحكِمْه أخَذ منه بمقدار ما يَكْتَفى به؛ يَعْرف بغريزة عقله، وحُسْن أدَبه، وفضل تَجْربته، ما يَرِد عليه قبلَ وُرُوده، وعاقبةَ ما يَصْدُر عنه قبلَ صُدُوره؛ فيُعِدّ لكل أمْر عُدّتَه وعَتادَه، ويُهيِّئ لكل وجه هيئتَه وعادَته. فتَنافَسُوا يا معشر الكُتّاب فى صُنوف الآداب، وتَفَقَّهوا فى الدين، وآبدَؤُا بعِلْم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العَرَبية فإنها ثقاف ألْسنَتكم، ثم أجيدُوا الخَطّ فإنه حِلْيَة كُتُبكم، وآرْوُوا الأشْعار وآعرفوا غَريبَها ومَعانيها، وأيّامَ العَرَب والعَجَم وأحاديثها وسِيَرها؛ فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمُو اليه هِمَمُكم، ولا تُضَيِّعوا النَّظَر فى الحساب، فإنه قوام كُتّاب الخَراج، وآرْغَبُوا بأنْفُسكم عن المَطامع سَنيّها ودَنيّها، وسَفْساف الأمور ومَحاقرها؛ فإنها مَذَلّة للرِّقاب، مَفْسَدة للكُتّاب، ونَزِّهوا صناعتَكم عن الدَّناءة، وآرْبَئُوا بأنْفُسكم عن السِّعايَة والنَّميمة وما فيه أهل الجَهالات.

وإيّاكم والكِبْرَ والسُّخْف والعَظَمة، فإنها عَداوة مُجْتَلَبة من غير إحْنَة؛ وتَحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتَواصَوْا عليها بالذى هو ألْيَق لأهل الفضل والعدل والنُّبْل من سَلَفكم؛ وإن نَبَا[(1)] الزمانُ برجُل منكم، فاعْطفوا عليه وواسُوه حتى يرجع اليه حالُه، ويَثُوب اليه أمْرُه، وإن أقْعَدَ أحَدًا منكم الكِبَر عن مَكْسَبه ولقاء إخْوانه، فَزُورُوه وعَظِّموه وشاوِرُوه، وآسْتَظْهِروا بفَضْل تَجْرِبَته، وقَديم مَعْرِفَته؛ ولْيَكُن الرجُل منكم على مَن آصْطَنَعَه وآسْتَظْهر به لِيَوْم حاجَته اليه أحْوَطَ منه على وَلَده وأخيه، فإن عَرَضَت فى الشُّغْل مَحْمَدَةٌ فلا يَصْرِفْها إلا الى صاحبه، وإن عَرَضَتْ مَذَمّة فلْيَحْمِلْها هو من دونه؛ ولْيَحْذَر السَّقْطَة والزَّلّة والمَلَل عند تغيُّر الحال، فإن العَيب اليكم مَعشر الكُتّاب أسْرَعُ منه الى القُرّاء، وهو لكم أفْسَد منه لها؛ فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صَحِبَه مَن يَبْذُل له من نَفْسه، ما يَجب له عليه من حَقّه؛ فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه وشُكْره، وآحتماله ونصيحته، وكِتمان سِرّه وتدبير أمره،

(١) نبا: تجافى وتباعد.

ما هو جزاءٌ لحقّه، و يصدّق ذلك فعلُه عند الحاجة اليه، والاضطرار الى ما لديه؛ فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم فى حالة الرّخاء، والشدّة والحرْمان والمُواساة والإحسان والسّراء والضّراء، فنعمَت الشيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة؛ واذا وَلِيَ الرجلُ منكم أو صُيّر اليه من أمرِ خلْقِ الله وعيا[له] أمرٌ، فليُراقب الله عز وجل وليُؤثِر طاعته، وليكُن على الضعيف رفيقا، وللمظلوم مُنْصفا، فإن الخَلقَ عيالُ الله، وأحبّهم اليه أرفقهم بعياله، ثم ليكُنْ بالعَدْل حاكما، وللأشراف مُكرِما، وللفَيْء مُوفّرا، وللبلاد عامرا، وللرّعيّة مُتألّفا، وعن أذاهم متخلفا، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه دقيقا، واذا صحِبَ أحدُكم رجلا فليَختبر خلائقَه، فاذا عَرَف حَسَنَها وقبيحَها أعانه على ما يوافقه من الحَسَن، واحتال على صَرْفه عمّا يَهْواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة.

وقد علمتم أن سائس البَهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفةَ أخلاقها، فإن كانت رَمُوحا لم يَهِجْها اذا ركبها، و إن كانت شَبوبا اتّقاها من بين يديها، و إن خاف منها شُرودا توَقّاها من ناحية رأسها، و إن كانت حَرُونا قمَع برفق هَواها فى طُرُقها، فإن استمرّت عطفَها يسيرا، فيَسْلس له قيادُها، وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمَن ساسَ الناس وعاملَهم وجرّبهم وداخلَهم.

والكاتب لفَضْل أدَبه وشريف صنعته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره، ويَفهم عنه أو يَخاف سَطْوته، أوْلَى بالرِّفْق لصاحبه ومُداراته وتقويم أوَده، من سائس البهيمة التى لا تُحير جوابا، ولا تَعرف صوابا، ولا تَفهم خطابا، إلّا بقدر ما يُصيِّرها اليه صاحبُها الراكب عليها؛ ألا فارفُقوا رحمكم اللهُ فى النظر، وأعْملوا ما أمكنكم فيه من الرَّوِيّة والفكر، تأمَنوا بإذن الله ممّن صَحِبتُموه النَّبوةَ والاستثقال والجَفْوة، و يصير منكم الى الموافقة، وتصيروا منه الى المُؤاخاة والشفقة، إن شاء اللهُ، ولا يُجاوِزنّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلسه، ومَلْبَسه ومَرْكَبه، ومَطْعمه ومَشْربه وخَدَمه، وغير ذلك من فنون أمْره قَدْر حقّه، فإنكم مع ما فضّلكم اللهُ به من شَرَف صَنعتكم، خَدَمةٌ لا تُحمَلون فى خدمتكم على التقصير، وحَفَظةٌ

لا تُحتَملُ منكم أفعالُ التَّضييع والتبذير، وٱستعينوا على أفعالكم بالقصْد فى كل ماذ كَرْتُه لكم، وقَصَصْتُه عليكم، وٱحذروا مَتالف السَّرَف، وسوءَ عاقبة التَّرَف، فإنهما يُعْقبان الفقر، ويُذلّان الرِّقابَ ويَفْضَحان أهلَهما، ولا سيما الكُتّاب وأرباب الآداب. وللأمور أشباه وبعضُها دليل على بعض، فٱستَدِلّوا على مُؤْتَنَف أعمالكم، بما سبقت اليه تَجْرِبَتُكم، ثم ٱسلُكوا من مَسالك التدبير أوْضَحَها مَحَجّة، وأصدَقَها حُجّة، وأحْمَدَها عاقبة.

وٱعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلفة، وهو الوَصْف الشاغل لصاحبه، عن إنْفاذ عِلْمه ورَوِيّته، فلْيَقصد الرجل منكم فى مجلسه، قَصْد الكافى فى مَنطقه، ولْيُوجِزْ فى ٱبتدائه وجوابه، ولْيَأخُذ بمَجامع حُجَجه، فإن ذلك مصلحة لفعْله، ومَدْفَعَة للشاغل من إكْثاره، ولْيَضْرَع الى الله فى صلة توفيقه، وإمْداده بتسديده، مَخافة وُقوعه فى الغَلَط المُضِرّ ببدنه، وعقْله وأدبه، فإنه إنْ ظَنّ منكم ظانٌّ أو قال قائل: إنّ الذى بَرَزَ من جميل صَنْعته وقوّة حركته، إنما هو بفَضل حيلته وحُسْن تدبيره؛ فقد تعرّض بحُسْن ظنّه أو مَقالته الى أن يَكِلَه اللهُ عز وجل الى نفسه، فيصير منها الى غير كاف، وذلك على مَن تأمّله غير خاف؛ ولا يَقُلْ أحدٌ منكم إنه أبْصَر بالأمور، وأحْمل لأعْباء التدبير، من مُرافقه فى صناعته، ومُصاحبه فى خدمته، فإنّ أعْقل الرجُلين عند ذَوى الألباب مَن رَمَى بالعُجْب وراءَ ظهره، ورأى أنّ أصحابَه أعْقَلُ منه وأجمَلُ فى طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يَعْرِف فضْلَ نِعَم الله جلّ ثناؤه من غير ٱغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا يُكاثر على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعَشيره، وحمدُ الله واجبٌ على الجميع،

وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلُّل لعزّته، والتَّحدّث بنعمته؛ وأنا أقول فى كتابى هذا ما سَبق به المَثَل: "مَن تَلزَمه النصيحة يَلزَمه العَمَل" وهو جوهر هذا الكتاب وغُرّة كلامه، بعد الذى فيه من ذكْر الله عز وجل، فلذلك جعلتُه آخرَه وتَمّمْتُه به. تولّانا الله وإيّاكم يامعشر الطَّلَبة والكَتَبة بما يتولّى به مَن سَبَق عِلْمُه بإسْعاده وإرْشاده، فإن ذلك اليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٨ — رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة فى الشطرنج[١] :

أما بعد ، فإن الله شَرَع دِينَه بإنهاج سُبُله ، و إيضاح معَالِمه بإظهار فرائضه ، و بعث رسلَه الى خلقه دلالةً لهم على ربوبيّته ، وآحتجاجًا عليهم برسالاته ، ومقدّما اليهم بإنذاره ووعيده ، ليهلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنة ، ويحيا من حَىّ عن بينة ؛ ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيَه ، وقفّى به رسله ، وآبتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضيًا له على حين انطمستِ الأعلامُ[٢] مختفية ، وتشتّتت السبل متفرّقة ، وعَفَتْ آثارُ الدين دارسة ، وسطَع رَهَج الفِتَن ، وآعتلى قتَامُ الظُّلْم ، وآستنْهد الشِّركُ ، وأسدف[٣] الكفرُ ، وظَهَر أولياءُ الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيمُ الباطل بسكتة الحق ، وآستُطرِق الجور وآستُنكِح الصُّدوف عن الحق ، وآقمطَرَّ[٤] سَلْهَبُ الفتنة ، وآستضرم لِقَاحُها ، وطَبّقت الأرضَ ظلمة كفرٍ وغَيَاية[٥] فساد ؛ فصدَعَ بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالةَ معصوما ، ونصح الإسلامَ وأهلَه ، دالًّا لهم على المَرَاشد ، وقائدًا لهم الى الهداية ، ومنيرًا لهم أعلامَ الحق ضاحية ، مرشدًا لهم الى آستفتاح باب الرحمة و إعلاق[٦] عُرْوة النَّجاة ، مُوضحا لهم سُبُلَ الغَوَاية ، زاجرًا لهم عن طريق الضَّلالة ، محذِّرا لهم الهلكة ، مُوعزا اليهم فى التقدمة ، ضاربًا لهم الحدود على ما يتّقون من الأمور ويخشَوْن ، وما إليه يسارعون و يطلبون ؛ صابرًا نفسَه على الأذى والتكذيب ، داعيًا لهم بالترغيب والترهيب ؛ حريصا عليهم ، متحنّنا على كافّتهم ،

---

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لآبن طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة فى رسائل البلغاء هكذا : « على حين انطمست له الأعلام ... » بزيادة "له" وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدف الكفر : أظلم وعم النواحى والأرجاء كالليل . (٤) اقمطر : اشتد .

(٥) الغياية ، ما أظل الانسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما .

(٦) فى رسائل البلغاء ، وإعلان بالنون بدل القاف ، وهو تحريف .

عزيزا عليه عَنَتُهم ، رءوفاً بهم رحيما ، تقدمه شـفقته عليهم وعنايته برشـدهم الى تجريد الطلب الى ربه فيما فيه بقاءُ النعمة عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتخفيفُ آصار[1] الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناصحا متنصّحا ، أميناً مأمونا ، قد بلّغ الرسالةَ ، وأدّى النصيحةَ ، وقام بالحق ، وعدّل عمودَ الدين ، حتى اعتدل ميلُه ، وأذلّ الشركَ وأهلَه ، وأنجز الله له وعدَه ، وأراه صدقَ أنبائه[2] فى إكماله للمسـلمين دينَه ، وآستقامة سنّته فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم مُوبقات الأعمال ، ومفظعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات ، وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازلَ المراشد ، وطُرُقَ الهـدى ، وأبوابَ النجاة ، ومعالق العصمة ، غيرَ مدّخرٍ لهم نصـحا ولا مبتغ فى إرشادهم غُنما . فكان مما قدّم اليهم فيه نهيَه ، وأعلمهم سوءَ عاقبته ، وحذّرهم إصْره ، وأوعز اليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا ، الاعتكافُ على هذه التماثيل من الشَّـطْرَنْج والمواصـلةُ عليها ، لما فى ذلك من عظيم الإثم ، ومُوبِق الوِزْر ، مع مَشْغلتها عن طلب المَعَاش ، وإضرارها بالعقول ، ومَنْعها من حضور الصلوات فى مَوَاقيتها مع جميع المسلمين .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناسا ، ممن قبَلَك من أهل الإسـلام ، قد ألهجهم الشيطان بهـا ، وجَمَعهم عليهـا ، وألّف بينهـم فيها ، فهم معتكفون عليهـا من لَدُنْ صُبْحِهم الى مُمْساهم ، مُلهيـةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أُمِرُوا به من القيـام بسُـنَن دينهـم ، وآفتُرِضَ عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوء لفظهم عليهـا . وإن ذلك من نعلهـم ظاهرٌ فى الأندية والمجالس ، غيرُ منكرٍ ولا مَعِيب ولا مُستفظَع عنـد أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسنان منهـم ؛ فأكبر أميرُ المؤمنين ذلك وأعظَمَه ، وكرِهه

(١) آصار : جمع إصر وهو الثقل . وفى رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور « أواصر » بدل آصار ، وهو تحريف . (٢) فى رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور « أسبابه » وهو تحريف .

وآستكبره، وعلم أن الشيطان عنــدما يئس منه من بلوغ إرادته فى معاصى الله عز وجل، بمصر المسلمين ومجمعهم صُراحًا وجهارا، أقدم بهم على شبهة مُهلكة، وزيّن لهم وَرطة مُوبقة، وغرّهم بمكيدة حِيله، إرادةً لآستهوائهم بالخُدَع، وآجتيالهم[1] بالشُّبَه والمراصد الخفيّة المشكلة . وكلٌّ مقيمٌ على معصية الله، صغرت أو كبُرت، مستحلاً لها مُشيدا بها، مظهرًا لآرتكابه إياها، غيرَ حَذِرٍ من عقاب الله عز وجل عليها، ولا خائفٍ مكروهًا فيها، ولا راعٍ من حلول سَطْوته عليهـا، حتى تلحَقه المنيــة، فتختلجه وهو مُصِرّ عليها، غير تائب الى الله منهـا، ولا مستغفرٍ من آرتكابه إيّاها؛ فكم من أقام على مُوبِقات الآثام وكبائر الذنوب، حتى مدّته ومحّرم أيامه .

وقد أحبّ أميرُ المؤمنين أن يتقدّم اليهم، فيما بلغه عنهم، وأن يُنذرهم ويُوعِزَ إليهم، ويُعلمهم ما فى أعناقهم عليها، وما لهم فى قبول ذلك من الحظ، وعليهم فى تركه من الوِزْر، فآذِن[2] بذلك فيهم، وأَشِده[3] فى أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز اليهم فيه . وتقدّمْ الى عامل شُرْطتك فى إنهاك العقوبة لمن رُفِع اليــه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للّعب بها، وإطالةِ حبسه فى ضيق وضَنْك، وطَرْح اسمه من ديوانِ أمير المؤمنين . وآقطعهم عما لَهِجُوا به من ذلك . وآلتمسْ بشـدّتك عليهم فيــه وإنهاكك بالعقوبة عليــه، ثواب الله وجزاءه، وآتباعَ أمرِ المؤمنين ورأيه . ولايجدَنّ أحد عندك هوادةً فى التقصير فى حق الله عز وجل، والتعــدّى لأحكامه، فتُحِلّ بنفســك ما يسوءك عاقبةُ مَغَبّتــه، وتتعرض به لغــير الله عز وجل ونكاله . وآكتب الى أمير المؤمنــين ما يكون منك، إن شاء الله والســلام .

---

(١) اجتيالهم : حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون : واحتبالهم، والاحتبال : الاصطياد .

(٢) آذنه الأمر وبه : أعلمه .

رسـالة رابعة لعبــد الحميد الكاتب

٩ — ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التى وصف بها الصيد[١] :

أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين مؤيَّدًا بالعز، مخصوصا بالكرامة، ممتَّعا بالنعمة، إنه لم يُلْقَ[٢] أحدٌ من المقتنِصين ، ولا مُنِح متطرِّفٌ من المتصـيِّدين، إلا دون ما لَقَّانا[٣] اللهُ به من اليمن والبركة ، ومَنَحنا من الظفَر والسعادة فى مسيرنا من كثرة الصيد، وحُسن المقتنَص ، وتمكين الجاسة[٤] ، وقُربِ الغاية، وسهولة المورد، وعموم القُدورة[٥]، إلا ما كان من محـاولة الطلب، وشدة النَّصَب ، لنافر الصيد ، وفائت الطريدة التى أمعنَّا فى الطلب لهـا، وأعجزَنا البُهْرُ عن اللَّحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرِّق سُبُلها ، ثم آل بنا ذلك الى حُسن الظفَر، وتناولِ الأرب ، ونهـايةِ الطرب .

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنَّا خرجنـا الى الصيد بأعدَى الجوارح، وأثقفِ الضوارى؛ أكرمها أجنـاسا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانا، وأحدّها أطرافا، وأطولها أعضاءً، قد ثُقِّفَتْ بحُسن الأدب، وعُوِّدت شدّة الطلب، وسَبَرت أعلامَ المواقف، وخبَرت المجاثم، مجبولةً على ما عُوِّدت، ومقصورةً على ما أُدِّبتْ . ومعنا من نفائس الخيل المخبورةِ القَراهة[٦]، من الشَّهرِيةِ[٧] الموصوفةِ بالنجابة، والجرى والصلابة. فلم نزل بأخفض سير، وأثقفِ طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا، فرَبَتْ منه الأرض، وزَهَر البقل، وسكن القتامُ من مُثار[٨] السنابك، ومتشعِّباتِ[٩] الأعاصير، مُهلةَ أنْ سِرْنا غَلَواتٍ، ثم برزت الشمسُ طالعة، وآنكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النوّار، وآنجلت الأبصار، فلم نر منظَرا أحسنَ حُسنا، ولا مرموقا أشبهَ شكلا، من آبتسام نور الشمس عن آخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لابن طيفور .
(٢) فى الأصل : "يلف" . (٣) فى الأصل : "القانا" . (٤) كذا فى الأصل ولعلها محرفة عن الحبالة . (٥) القدورة : القدرة، وفى الأصل : "المقدورة" . (٦) القراهة : النشاط فى السير . (٧) الشهرية : البراذين . (٨) فى الأصل : هكذا "مسا" .
(٩) فى الأصل "متشعات" .

زهرة الرياض . والخيلُ تمرحُ بنا نشاطا ، وتجتذبُنا أعنّتَها ٱنبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبابةٌ تَقصُر(١) طرفَ الناظر ، وتُخفِي سُبُلَ(٢) السلام ، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى ، ونحن بأرض دمِثة التراب ، أشِبة(٣) الأطراف ، مُغدِقة الفِجاج ، مملوءة صيدا من الظباء والثعالب والأرانب ، فأدّانا المسيرُ الى غابةٍ دونها مألفُ الصيد ، ومجتمَعُ الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكلّ حَرّة(٤) جَونة(٥) متفرّقون ، فرجع بنا العودُ على البدء ، وقد ٱنجلت الضبابة ، وٱمتدّ البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برعْلة(٦) من ظِباء ، وخِلْفة آرام يرتَعن آنسات ، قد أحالتهنّ الضبابةُ عن شخصنا ، وأذهلَهنّ أنيقُ الرياض عن ٱستماع حِسّنا ، فلم نَعُج(٧) إلا والضوارى لائحةٌ لهنّ من بُعدِ الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ؛ ثم مدّت الجوارحُ أجنحتَها ، وٱجتذبت الضوارى مَقاوِدَها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بحُضرِها ، وسُرعة الجوارح فى طلبها ، فمرّت تخُفّ خفيفَ الريح عند هُبوبها ، تُسِفّ الأرضَ سفّا ، كاشفةً عن آثارها ، طالبةً لخيارها ، حارشةً بأظفارها ، قد مزّقتها تمزيقَ الريح الجراد ؛ فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلبَ بٱسمه ، ويفدّيه بأبيه وأمّه ؛ وراكض تحت مُفرّه ، وخافقٍ يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ، قد حيّرتنا الكثرة ، وألهجتنا القُدرة ، حتى ٱمتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهّاب .

ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخَبَر أعلامَ المَذانب ، الى غديرٍ أفيح ، وروضةٍ خضِرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفّة بصُنوف الخَمَر(٨) ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يَذْعَرهنّ صائد ، ولا ٱقتنصهنّ قانص ، نخفُق لها بطبول ، وصُفرٍ بنفير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأُفُقَ كثرتُها ، وراعت الجوارحَ خَفَقاتُ أجنحتها ؛ ثم ٱنبرت البُزاةُ

---

(١) فى الأصل : "تقتصر" . (٢) فى الأصل : "ويحيى" .

(٣) الأشبة : الملتفة الشجر . وفى الأصل «آسنه» . (٤) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ، وفى الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفى الأصل هكذا : «حونه» . (٦) رعلة : جماعة متفرقة . (٧) فى الأصل : «يفح» . (٨) الخمر : الشجر .

لها صائدة، والصقورُ كاسرة، والشواهينُ ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفضْنَ الظفَرَ بها، حتى سمِنَّا من الذّبح، وآمتلأنا من النضيح(١)، كأنّا كتيبةٌ ظَفِرت ببغيتها، وسَرِيّةٌ نُصِرتْ على عَدوّها، وألحقتْ ضعيفَها بقويّها، وغلَبتْ محسِنَها بمسيئها(٢)، لا نملك أنفسنا مَرَحا، ولا نستفيق من الجذَل بها فرحا، بقيّةَ يومنا، والله المنعم الوهّاب .

ثم غدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصِف لنا صيدُها بالكثرة، ورياضُها بالنزهة، فزلّ واصفُها عن الطريقة، وآعتمدَ بنا على غير الحقيقة؛ فأتيناها فلم نر صيدا ولا عُشبا، ولا نزهةً ولا حسنا، فجعلنا نسلُك منها حُزونا ووُعورا، وجُدوبا وقَفرا، حتى قصّر بنا اليأسُ عن الطلب، وقطَعَ بنا عن الطمع النَّصَب . فبينا نحن كذلك، إذ بدا لنا جأْبٌ(٣) قد أوفى بنا على حائلٍ دلَّ على غابة من ورائها حَميرُ وحشٍ كثيرةٌ، فأمّمْناها(٤)، فلمّا تطرَّفنا مشيًا وتقريبا(٥) الى عاناته(٦)، توالى نهيقُه، وكثُر شهيقُه، فآلتفتنَ اليه، فرمقنَ بأعينهنّ منّا ما آستكثرن شخصَه، وآستهولن أمرَه، حتى اذا كنّا بمرأى ومسمع آنجذبن مُوليات، وهربن مسيّبات، فأجهدنا الركضَ فى طلبهنّ، نتبع آثارَهنّ، ونَستشفُّ بلاءً بين أحفارٍ(٧) ودكادكَ(٨) وخَناذيذَ(٩)، حتى أشفى بنا الطلبُ لها على وادٍ هائلٍ سائل، بجَنبتَيه غابةٌ أشِبَةٌ قد سبقنَ اليها، وآستخفَين فيها، فنظَمناها بالخيل نَظْمَ الخرز، ثم أوغلتْ عِدّةُ فُرسانٍ فى نفْضها ومعرفة أحوالها، والطبولُ خافقةٌ، والأصواتُ شاهقةٌ، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

---

(١) النضيح : العرق .

(٢) فى الأصل : "قلب" . (٣) الجأب : الغليظ من حمر الوحش . (٤) فى الأصل : "مسيبا" . (٥) التقريب : ضرب من العدو . (٦) العانة : القطيع من حمر الوحش . (٧) الأحفار جمع حفر وهو التراب المخرج من المحفور . (٨) الدكادك : جمع دكدك ودكداك وهو أرض فيها غلظ . (٩) الخناذيذ : جمع خنذيذ وهو رأس الجبل المشرف ، والذى يتفق والسياق "أخاديد"، وهى جمع أخدود : الحفرة المستطيلة فى الأرض .

باب المنظـــوم

الغـــزل

ذكرنا فى المجلد الأول حالةَ الغَزَل فى العصر الأموىّ، وكثرةَ مانجد فيه من لَوَاعج الحب ولَفَحاته، وشِكَايات الصب وأنَاته، وزَفَرات العاشق وعبَراته . وبيّنا أنواعَه المتباينة التى قسمناها الى أربعة أقسام :

(١) غزل إباحىّ : ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانىَ العَبَث والاستمتاع باللذة المادّية ممّا ينفِر منه الأدب الجاهلىّ، ومما حظَره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمته . وقد كانت مكة والمدينة مَسْرحا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وقد شرحنا سبب ذلك فى المجلد الأول فراجعه ثمَّة .

(ب) غزل عُذْرىّ : وهو غزل الحب الصادق ، والعواطف المتأججة ، والنفس المتألّمة المعنّاة ، تلك النفس التى تجد لذتها فى الكَلَف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة فى الفناء فى حبها ، حبًّا يملك عليه لبّه ويعذب روحه ويُفْنى جسمه ، كغزل جَميل زعيم هذا النوع . وليس أدل على صدق حبه ممّا أثبتناه عن كتاب الأغانى اذ حاول أبوه أن يَصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمل مُحاجّة ، فكان من جميل ماكان ممّا تجده مفصّلا فى هذا الباب .

(ج) غزل صناعىّ : بين هذا وذاك ، همُّه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر، لا فى الحب من حيث هو حبّ ، ولنا فى كثيِّر عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصى : خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القَصْف وما يتبع حياة القصف ، فنظموا قصائد نحلوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تَبِعة

القول بوجودهم فى الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطَّعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيما هذا النوع : قَيْس بن الملوَّح وليلاه، وقَيْس بن ذَرِيح ولُبْناه .

و إيفاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(ا) الغـــزل الاباحىّ

عمـــر بن أبي ربيعة (١)

« راقَ عمرُ بن أبى رَبيعة النـاسَ وفاق نُظَراءَه وبَرَعَهم بسهولة الشعر وشدّة الأَسْر، وحُسْن الوَصْف، ودقّة المعنى، وصواب المَصْدر، والقَصْد للحاجة، وآستنطاق الرَّبْع، و إنطاق

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبـد الله بن أبى ربيعـة القرشى المخزومى، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليـه، وكانت أمه نصرانيـة، وكان أبوه تاجرا موسرا، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده، فشب فى نعيم وترف، وقال الشعر صـغيرا، وسلك فيـه طريق الغزل، ووصف أحوال النساء وتزاورهن ومداعبـة بعضهن لبعض، وما يعتدن قوله من الكلام، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه، ولذلك لم يحفلوا بشعره وعدّوه من هذيان خلعاء المدينة، فما زال يعالج الشـعر والشعر ينقاد له، حتى ملك ناصيته، وقبض على زمامه، وبزّ الشعراء، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة وهى التى أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر * غداة غد أم رائح فمهجـر

والتى قال فيها جرير حين سمعها : ما زال هذا القرشىّ يهذى حتى قال الشعر .

ثم اسـتطار شرّه فى التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها، وتعرض للمحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن، فوقعن منـه فى بلاء عظيم وصرن يخفن الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة، و يترقب خروجهن للطواف والسعى و يصفهن وهن محرمات . وحلمت عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته و إقلاعه، فلما تمادى فى أمره وشبب ببنات السادات والخلفاء، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه الى دهلك : (وهى جزيرة أمام مدينة مصوّع)، ثم رأى ابن أبى ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فغزا فى البحر فاحترقت السـفينة التى كان فيهـا واحترق هو أيضا سـنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنـه عن أبى الفرج الأصفهانى وتجد ترجمته مطوّلة فى الأغانى ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٨) والدميرى (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع فى ليبزج سنة ١٨٩٣ وفى مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب، وحسن العزاء، ومخاطبة النساء، وعفة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات الحجة، وترجيح الشك فى موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونهج العلل. وعطف المساءة على العذال، وحسن التفجع، وبخل المنازل، واختصار الخبر، وصدق الصفاء؛ إن قدح أورى، وإن اعتذر أبرا، وإن تشكى أشجى، وأقدم عن خبرة، ولم يعتذر بغرة، وأسر النوم، وغم الطير، وأغذ السير، وحير ماء الشباب، وسهل وقول، وقاس الهوى فأربى، وعصى وأخلى، وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل وحذر، وأعلن الحب وأسر، وبطن به وأظهر، وألح وأسف، وأنكح النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه، وأذل صعبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، واستبكى عاذله، ونفض النوم، وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه؛ وكان بعد هذا كله فصيحا.

فمن سهولة شعره وشدة أسره[1] قوله:

فلما توافقنا وسلمت أشرقت * وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا

تبالهن بالعرفان لما رأينني * وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا[2]

ومن حسن وصفه قوله:

لها من الرئم[3] عيناه ولفتته * ونخوة السابق المختال إذ صهلا

ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله:

عوجا[4] نحى الطلل المحولا[5] * والربع من أسماء والمنزلا

بسابغ البوباة[6] لم يعده * تقادم العهد بأن يؤهلا

(١) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسج ومتانة التركيب. (٢) أكل: أعيا وأوضع: أسرع فى السير. (٣) الرئم: الظبى. (٤) عوجا: قفا. (٥) المحول والمحيل: الذى أتت عليه أحوال كثيرة فغيرته. (٦) البوباة: الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة اذا خرجت من أعالى وادى النخلة اليمانية وهى بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن. (معجم البلدان لياقوت).

ومن قَصْدِه للحاجة قولُه :

أيهـا المُنكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا (١) * عَمْـرَكَ الله كيف يلتقيان
هى شاميةٌ اذا ما استقلَّتْ * وسُهَيْلٌ اذا آسـتقلَّ يمَانِى

ومن آستِنْطاقِه الربعَ قولُه :

سـائلا الرَّبع بالبُـلَىّ (٢) وقولا * هِجتَ شوقًا لى الغداةَ طويلا
أين حىّ حلُّوكَ إذ أنت محفو * فٌ بهم آهلٌ أراكَ جميـــلا
قال ساروا فأمْعَنوا وآسـتقلُّوا (٣) * وبرُغْمِى ولو وجدتُ سبيلا
سَئِمُـونا وما سَئِمْنا جِـوَارًا * وأحبُّـوا دَمَاثَةً (٤) وسُـهولا

قال إسحاق : أُنْشِدَ جريرٌ هذه الأبياتَ فقال : إن هذا الذى كنا نَدورُ عليه فأخطأناه .

ومن إنطاقه القلبَ قولُه :

قال لى فيهـا عَتِيقٌ مقـالا * فجَـرتْ مما يقولُ الدموعُ
قال لى ودِّعْ سُلَيْمى ودَعْهـا * فأجاب القلبُ : لا أسـتطيعُ

ومن حسن عَزَائه قولُه :

أألحقُّ إنْ دارُ الرَّبابِ تباعدتْ * أو آنْبَتَّ (٥) حبلٌ أنّ قلبَـك طائرُ
أفِقْ قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ * ـهوى وآستمـرَّتْ بالرِّجال المرائرُ (٦)
زَعِ (٧) النفسَ واستبقِ الحيـاءَ فإنَّما * تُباعِد أوتُدنِى الرَّبابَ المَقَـادِرُ
أمِتْ حبَّها وآجعلْ قَديمَ وِصَالِها * وعِشْرَتِها كمِثْـلِ مَن لا تُعاشِرُ

(١) هى الثريا آبنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل ابن عبدالرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلى — بضم وفتح و ياء مشدّدة — : تل قصير أسفل حاذة بينها و بين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا : واصلوا السير وجدّوا فى الارتحال . (٤) يقال : دمثت الأرض دماثة : سهلت ولانت . (٥) انبت : انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلو سلوّهم .
(٧) زع النفس ، أى آزجرها وكفها عن هواها .

وهَبْهـا كشىء لم يكن أو كنازح ٭ به الدارُ أو من غَيَّبتْه المَقابرُ
وكالناس عُلِّقتَ الرَّبابَ فلا تكنْ ٭ أحاديثَ من يَبْدو ومَن هو حاضرُ (١)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكُثيِّر، ويرويها الكوفيون للكُمَيت بن معروف الأسَدِىّ، وذكر بعضَها الزُّبَير بن بكّار عن آبن عُبَيدة لكُثيِّر فى أخباره .

ومن حسن غَزَله فى مخاطبة النساء — قال مُصْعب الزُّبَيرىّ : وقد أجمع أهلُ بلدنا ممَّن له علمٌ بالشعر أن هذه الأبيات أغزلُ ما سَمِعوا — قولُه :

تقولُ غـداةَ آلتقَينا الرَّبابُ ٭ أياذا أفَلْتَ أُفـولَ السِّماكِ
وكفَّتْ سوابقَ من عَبْرةٍ ٭ كما آرْفَضَّ نظمُ ضعيفِ السِّلاكِ
فقلتُ لها مَنْ يُطِعْ فى الصّديـ ٭ ـق أعداءَه يَجتنِبْـه كذاكِ
أغرَّكِ أنّى عصَيتُ المَـلا ٭ مَ فيكِ وأنْ هوانا هواكِ
وأنْ لا أرى لذّة فى الحياة ٭ تَقَرُّ بهـا العينُ حتى أراكِ
فكان من الذنبِ لى عنـدكم ٭ مُكارَمتى وآتّباعى رضـاكِ
فليتَ الذى لامَ فى حُبِّكم ٭ وفى أن تُزارِى بقَرنٍ وَقاكِ (٢)
همـومَ الحياة وأسقامَهـا ٭ وإن كان حَتْفٌ جهيزٌ فَداكِ (٣)

ومن عِفّة مقالِه قولُه :

طال لَيْلى وآعتادنِى اليومَ سُقْمُ ٭ وأصابتْ مَقاتِلَ القلبِ نُعْمُ
حُرَّةُ الوجـهِ والشَّمائلِ والجَـوْ ٭ هرِ تكليمُها لمن نال غُنْمُ
وحـديثٍ بمثلـه تُنزَلُ العُصْـ (٤) ٭ ـمُ رَخيمٍ يَشُوب ذلكَ حِلْمُ
هـكذا وَصْفُ ما بدا لِى منهـا ٭ ليس لى بالذى تغيَّب عِـلْمُ
إن تَجُودى أو تَبخَلى فبحَمْدٍ ٭ لستِ يا نُعْـمُ فيهما مَنْ يُذَمُّ

---

(١) أى من يقيم فى البدو والحضر . (٢) المراد قرن المنازل، وكثيرا ما يذكره فى شعره .

(٣) جهيز : سريع . (٤) العصم : جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ماق ذراعيه بياض ، وهى تعتصم غالبا بقنن الجبال .

ومن قلة انتقاله قولُه :

أيُّها القـائلُ غيرَ الصـوابِ * أمْسِكِ النصحَ وأقلِلْ عِتـابى
وٱجتنِبْنى وٱعلمنْ أن ستُعْصَى * ولخـيرٌ لك طـولُ ٱجتنابى
إن تَقُلْ نصحًا فعن ظهرِ غِشٍّ * دائم الغِمْـرِ(1) بعيـدِ الذَّهابِ
ليس بى عِىٌّ بمـا قلتُ أنِّى * عالمٌ أفْقَـه رَجْعَ الجـواب
إنمـا قُـرَّةُ عينى هـواها * فـدَعِ اللـومَ وكِلْنى لِمـابى
لا تلُمْنِى فى الرَّبابِ وأمستْ * عَدَلَتْ(2) للنفسِ بَرْدَ الشَّرابِ
هى واللهِ الذى هـو ربِّى * صادقًا أحلِفُ غيرَ الـكِذَّابِ
أكرمُ الأحيـاء طُـرًّا علينـا * عنـد قربٍ منهـم وٱجتنابِ
خاطبَتْنى ساعةً وهى تبـكى * ثم عَزَّتْ(3) خُلَّتِى فى الخطـاب
وكفى بى مِدْرَهًا لخصـومٍ * لِسواها عنـد حدِّ تَبَابِى(4)

ومن إثباته الحجة قولُه :

خليلَّى بعضَ اللومِ لا تَرْحَلا(5) به * رفيقَـكما حتى تقُولا على عِلْمِ
خليلَّى من يَكْلَفْ بآخرَ كالذى * كَلِفْتُ به يَذْمَلْ(6) فؤادًا على سُقْمِ
خليلَّى ما كانت تُصاب مَقَاتِلى * ولا غِرَّتى حتى وقعتُ على نُعْمِ
خليلَّى حتى لُفَّ حَبْلِى(7) بخادعٍ * مُوقًّى إذا يُرْمَى صَيُودٍ إذا يَرْمِى
خليلَّى لو يُرْقَى خليلٌ من الهوى * رقيتُ بما يُدْنِى النَّوارَ(8) من العُصْمِ
خليلَّى إن باعدتُ لانتْ وإن ألِنْ * تُباعِدْ فلم أُنْبِلْ(9) بحربٍ ولا سِلْمِ

---

(1) الغِمر (بكسر الغين) : الحقد والغل . والغَمر (بفتح الغين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحتمله البيت .
(2) عدلت : ساوت . (3) أى غلبتنى صديقتى فى الخطاب قال تعالى : (وعزنى فى الخطاب) .
(4) يريد : حسبى غالبا لكل خصم سواها الى حد هلاكى . (5) يقال : رحل فلان فلانا بما يكره ، والمراد أنه يثقله بإسماعه إياه . (6) يذمل : يطوى . قال فى اللسان : ويقال : أذمل القوم ، أى أطوهم على ما فيهم . (7) يكنى بهذا عن الوقوع فى شركها . (8) النوار : النافرة من الظباء .
(9) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسن الرمى .

ومن ترجيحه الشك فى موضع اليقين قولُه :

نظرتُ إليها بالمُحَصَّب من مِنًى * ولى نظرٌ لولا التحرُّج عارِمُ[1]
فقلت : أشمسٌ أم مَصابيحُ بِيعَةٍ * بدتْ لك خلفَ السِّجْفِ[2] أم أنت حالمُ
بعيدةُ مَهْوى القُرْطِ[3] إمّا لنوفلٍ * أبوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشمُ
ومدّ عليها السِّجفَ يومَ لقيتُها * على عَجَلٍ تُبّاعُها والخوادمُ
فلم أستطعْها غيرَ أنْ قد بدا لنا * عشيّةَ راحتْ وجهُها والمعاصمُ
معاصمُ لم تضرِب على البَهْمِ[4] بالضُّحَى * عَصاها ووجهٌ لم تَلُحْه[5] السَّمائمُ
نُضارٌ تَرَى فيه أساريعَ[6] مائه * صَبيحٌ تُغاديه الأكفُّ النَّواعمُ
إذا مادعتْ أترابَها فاكتنفْنَها * تمايَلْنَ أو مالتْ بهنّ المآكمُ[7]
طلبْنَ الصِّبا حتى إذا ما أصبْنَه * نَزَعْنَ وهنّ المسلماتُ الظوالمُ

ومن طُلَاوة اعتذاره قولُه :

عاوَدَ القلبَ بعضُ ما قد شجاه * من حبيبٍ أمسى هوانا هَواهُ
يالَقومى فكيف أصبرُ عمّنْ * لاتَرَى النفسُ طيبَ عيشٍ سِواهُ
أرسلتْ إذ رأتْ بعادىَ ألّا * يَقْبَلَنْ بى مُحَرِّشًا[8] إن أتاه
دونَ أن يسمع المقالةَ منّا * وليُطِعْنى فإنّ عندى رِضاه
لاتُطِعْ بى فَدَتْكَ نفسى عدوًا * لحديثٍ على هواه افتراه
لاتُطعْ بى من لو رآنى وإيّا * كَ أسيرَىْ ضرورةٍ ما عَناه
ما ضِرارِى نفسى بهجرىَ من ليـ * ـس مُسيئًا ولا بعيدًا ثَراهُ[9]
واجتنابى بيتَ الحبيب وما الخُلْـ * ـدُ بأشهى إلىّ من أن أراه

(١) عارم : حادّ . (٢) السجف : الستر . (٣) كناية عن طول العنق ، وبه فسر فى المثل السائر (طبعة بولاق ص ٢٨٣) . (٤) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر . (٥) لم تلحه : لم تغيره . (٦) أساريع الماء : طرائقه . والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب . (٧) المآكم : جمع مأكمة وهى العجيزة . (٨) المحرش : المغرى ، من التحريش وهو الاغراء والافساد . (٩) الثرى : الخير .

ومن تَهجه العِلَلَ قولُه :

وآيــةُ ذلِك أن تَسمَعِى * إذا جئتُــكم ناشدًا يَنشُــدُ
فرُحنا سِراعًا وراح الهــوى * دليــلًا إليها بنا يَقصِــدُ
فلمـا دنــونا لِجَــرْس(١) النُّبا * ح والصوتِ، والحىُّ لم يَرقُدوا
بعثنا لهـا باغيًـا ناشــدا * وفى الحىِّ بُغية من يَنشُدُ

ومن قَبْحه الغزلَ قولُه :

إذا أنتَ لم تعشَق ولم تدرِ ما الهوى * فكُنْ حجرًا من يابس الصَّخر جَلمَدا

ومن عَطْفِه المَساءة على العُذَّال قولُه :

لا تَلُمْنِي عَتِيقُ حَسْبِي الذى بى * إنّ بى يا عَتِيقُ ما قد كَفَـانِى
لا تَلُمْـنِى وأنت زيَّنتَهـا لى * أنت مثـلُ الشيطانِ للإنسان

ومن حُسْن تفجُّعه قولُه :

هجرتَ الحبيبَ اليومَ من غيرِ ما اجترَمْ * وقطَّعتَ من ذى وُدِّكَ الحبـلَ فانصرمْ
أطعتَ الوُشاةَ الكاشحين ومن يُطِعْ * مقالةَ واشٍ يَقـرَعِ السِّنَّ مِن نَدَمْ
أتانى رســولٌ كنتُ أحسَب أنه * شَــفِيقٌ علينا ناصحٌ كالذى زعم
فلمّـا تَبَاثثْنـا(٢) الحـديثَ وصرَّحتْ * سَرائرُه عن بعضِ ما كان قـد كَتَمْ
تبيَّن لى أن المُحَـرِّش(٣) كاذبٌ * فعنــدى لكِ العُتْبَى على رَغم من رَغَمْ
فــلآنَ لُمتُ النفسَ بعــد الذى مَضَى * وبعــدَ الذى آلتْ وآليتُ من قَسَم
ظلمتَ ولم تُعتِبْ وكان رسولُهـا * إليــك سريعًـا بالرضا لكَ إذ ظَـلَمْ

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إفشاؤه . (٣) المحرش : المغرى، يقال : حرّش بين القوم : أفسد بينهم .

ومن تخيله المنازلَ قولُه :

أَلم تسألِ الأطلالَ والمتربَّعا * ببطنِ حُلَيَّاتٍ (١) دوارسَ بلقعَا

إلى السَّرح (٢) من وادي المغمَّسِ (٣) بُدِّلَتْ * معالمُها وَبْلًا (٤) ونَكْباءَ زَعْزَعا (٥)

فيَبْخَلْنَ أو يُخْبِرنَ بالعلم بعد ما * نَكَأْنَ (٦) فؤادًا كان قِدْمًا مفجَّعا

ومن آختصاره الخبرَ قولُه :

أَمِن آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبكِرُ * غَداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ

بحاجةِ نفسٍ لم تَقُلْ في جوابها * فتُبلِغَ عذرًا والمقالةُ تُعذِرُ

أشارت بمِدْراها (٧) وقالت لتِرْبِها * أهذا المُغِيريُّ الذي كان يُذْكَرُ

لئن كان إياه لقد حال بعدَنا * عن العهد والإنسانُ قد يتغيَّرُ

قال الزُّبَير حدّثني إسحاق المَوْصليّ قال : قلتُ لأعرابيّ : ما معنى قولِ آبن أبي ربيعة :

بحاجةِ نفسٍ لم تَقُلْ في جوابِها (٨) * فتُبلِغَ عذرًا والمقالةُ تُعذِرُ

فقال : قام كما جلس .

ومن صِدْقه الصفاءَ قولُه :

كلُّ وصلٍ أمسى لديكَ لأُنثى * غيرِها وصلُها إليها أداءُ

كلُّ أنثى وإن دنتْ لوِصالٍ * أو نأتْ فهْيَ للرَّباب الفِداءُ

---

(١) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره البكرى وياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المغمس الوارد فى البيت بعده . (٢) السرح : موضع .

(٣) المغمس (بتشديد الميم وفتحها كما فى ياقوت ، وضبطه البكرى فى معجمه بكسر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة فى طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقبره يرجم لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التى تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ريح زعزع ، أى شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزوع .

(٦) يقال : نكأ الجرح : قشره قبل أن يلتئم . (٧) المدرى والمدراة : حديدة يحك بها الرأس .

(٨) أى هى فى غاية من السرّ لا يجاب عليها إذا سئل عنها ، والإعذار : نفى العذر .

وقوله :

أُحِبُّ لِحُبِّـكِ مَن لم يكنْ * صفِياً لنفسى ولا صاحِبَا
وأبذُلُ مالِى لمَرْضاتِكم * وأُعْتِبُ(١) من جاءكم عاتِبَا
وأرغبُ فى وُدِّ من لم أكن * إلى وُدِّه قبلكم راغبَا
ولو سلكَ الناسُ فى جانبٍ * من الأرضِ وآعتزلتُ جانبَا
ليمّمتُ طِيَّتَها(٢) إنـنى * أرى قُربَها العجبَ العاجبَا

ومما قدَح فيه فأورَى قولُه :

طالَ لَيْـلِى وتعنَّانِى(٣) الطَّـرَبْ(٤) * وآعترانى طولُ هَمٍّ ووَصَبْ
أرسلَتْ أسماءُ فى مَعْتَبةٍ * عَتَبَتْها وهى أحلى من عَتَبْ
أنْ أتَى منها رسولٌ مُوهِناً(٥) * وجَـد الحىَّ نِـياما فانقلبْ
ضربَ البـابَ فلم يَشعُرْ به * أحدٌ يفتـح بابا إذ ضَرَبْ
قال : أيقاظٌ، ولكن حاجةٌ * عَرَضَتْ تُكتَمُ منّا فاحتجبْ
ولعَمْدًا ردَّنى، فاجتهـدَتْ * بيمين حلْفةً عنــد الغضبْ
يشهد الرحمنُ لا يجمعُنا * سقفُ بيتٍ رجَبا بعد رجبْ
قلتُ حِلًّا فاقبلِى مَعْـذرتِى * ما كذا يجزِى مُحِبٌّ من أحبْ
إنَّ كفِّى لكِ رَهْنٌ بالرضا * فاقبلِى ياهندُ، قالت قدوجَبْ

قالوا : ومن شعره الذى آعتذَر فيه فأبرأ قولُه :

فالتقينا فرحّبَتْ حين سلّمْـ * ـتُ وكفّتْ دمعاً من العينِ مارَا(٦)
ثم قالت عند العتَابِ رَأَيْنا * منـك عنّا تجلُّدا وآزوِرارا(٧)

---

(١) يقال : أعتبه إذا أعطاه العتبى وأرضاه . (٢) طيتها : ناحيتها وقصدها . (٣) تعنانى : أوقعنى فى العناء . (٤) الطرب : خفة تعترى الانسان عند شدة الفرح أوالحزن والهم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) مار : جرى وسال . (٧) الازورار : الإعراض .

قلتُ كلَّا لاهِ ابنُ عمِّك بل خِفْـ(١) * ـنا أمورًا كنَّا بها أغمارَا(٢)
فجعلنا الصدودَ لمَّا خشينا * قالةَ الناسِ للهوى أستارا
ليس كالعهدِ إذ عهِدْتِ(٣) ولكن * أوقدَ الناسُ بالنميمة نارا
فلذاكِ الإعراضُ عنكِ وما آ * ثَرَ قلبي عليكِ أخرى اختيارا
ما أبالي إذا النَّوى قرَّبتْكم * فدنوتُم مَنْ حلَّ أو مَنْ سارا
فالليالي إذا نأيتِ طِوالٌ * وأراها إذا قَرُبْتِ قِصارَا

ومن تَشكِّيه الذى أشجى فيه قولُه :

لعَمْرُكَ ما جاورتُ غُمْدانَ(٤) طائعًا * وقصرَ شَعُوبَ(٥) أن أكونَ به صَبَّا
ولكنَّ حُمَّى أضرعتْني(٦) ثلاثةً * مُجَرَّمةً(٧) ثم استمرَّت بنا غِبَّا(٨)
وحتى لوَ انَّ الخُلْدَ يَعْرِضُ إن مشتْ * إلى البابِ رِجْلِي ما نقلتُ لها إرْبا(٩)
فإنك لو أبصرتَ يومَ سُوَيْقةٍ(١٠) * مُناخي وحَبْسِي العيسَ دامِيةً حُدْبا(١١)
ومَصْرَعَ إخوانٍ كأنَّ أنينَهم * أنينُ مَكاكِيّ(١٢) فارقتْ بلدًا خِصْبا
إذًا لاقشعرَّ الجلدُ منكِ صَبابةً * ولاستفرغتْ عيناكِ من عَبرةٍ سَكْبا

ومن إقدامِه عن خِبْرةٍ ولم يعتذر بِغِرَّةٍ قولُه :

صَرَمتُ وواصلتُ حتى عرفـ * ـتُ أين المصادرُ والمَوْرِدُ
وجرَّبتُ من ذاك حتى عرفـ * ـتُ ما أتوقَّى وما أعمِدُ

---

(١) لاه بمعنى لله . (٢) الغمر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم ، وفتحتين ، وبفتح فكسر) : الغر الجاهل الذى لم يجرب الأمور . (٣) أى ليس الأمر كما تعهدين من قبل .

(٤) غمدان : قصر باليمن بناه « يشرخ بن يحصب » . (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع باليمن .

(٦) أضرعتنى : أضعفتنى وأذلتنى . (٧) مجرمة كمعظمة : تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .

(٨) الغب من الحمى : ما تأخذ يوما وتدع يوما . (٩) أى ما حركت له عضوا . (١٠) سويقة : موضع . (١١) حدبا جمع حدباء ، وأصل الحدب : ما ارتفع من الأرض ، يريد أنه أعياها السير فهى دامية منقوسة الظهور هزالا . (١٢) المكاكى : جمع مكاء ، وهو طير يشبه القبرة إلا أن فى جناحيه بلقا ، وهو حسن الصوت فى تغريده .

ومن أسرِه النومَ قولُه :

نام صَحبي وبات نومي أسِـيرا * أرقُب النجمَ مَوْهِنـا أن يغـورا

ومن غَمِّه الطيرَ قولُه :

فَرُحْنَا وقلنا للغـلام اقضِ حاجةً * لنـا ثم أدرِكْنا ولا تتغبـرِ

سِراعاً نَغُمُّ الطيرَ (١) إن سَنَحَتْ لنـا * وإن تلقَنـا الرُّكبانُ لا نتخبَّـرِ (٢)

نتغبر من قولهم : غبر فلان، أى لبث .

ومن إغذاذِه (٣) السيرَ قولُه :

قلتُ سِـيرَا ولا تُقِيما ببُصْرى (٤) * وحَفِـيرٍ (٥) فما أُحِب حَفِـيرَا

وإذا ما مررتُمـا بمَعَانٍ (٦) * فأقِـلَّا به الثَّـواءَ وسِـيرَا

إنمـا قصـرُنا (٧) إذا حَسَرَ (٨) السيـ * ـرُ بعـيرًا أن نَستجِدَّ بَعيرَا

ومن تحييره ماءَ الشباب قولُه :

أبرَزُوها مثلَ المَهَاةِ تَهَـادَى * بين خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أتْرابِ

ثم قالوا تحبُّهـا قلتُ بَهْـرًا * عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ

وهى مكنونةٌ تحـيَّرَ منهـا * فى أديمِ الخدَّيْنِ ماءُ الشبابِ

ومن تَقْوِيلِه وتَسْهِيله قولُه :

قالتْ على رِقْبةٍ يوما لجارتِهـا * ما تأمُرِينَ فإن القلبَ قد تُبِلَا (٩)

وهل لىَ اليومَ مِنْ أختٍ مُوَاخِيةٍ * منكنّ أشكو إليها بعضَ ما فعلَا

---

(١) لعله يريد : نحزنها بالسبق، أو نبهرها ونغلبها، من قولهم : غم القمر النجوم : بهرها وكاد يستر ضوءها .

(٢) التخبر : السؤال عن الخبر . (٣) أغذ السير وأغذ فيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشأم .

(٥) حفير : نهر بالأردن بيلاد الشأم . (٦) معان : مدينة فى طرف بادية الشأم تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء . (٧) قصرنا، أى قصارانا وغايتنا . (٨) حسر السير بعيرا : أجهده وأعياه .

(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره .

فراجعتْها حَصانٌ[1] غيرُ فاحشةٍ * برَجْعِ قولٍ ولُبٍّ لم يكن خَطِلا[2]
لا تذكُرى حبَّه حتى أراجعَه * إنى سأكْفيكِه إنْ لم أمُتْ عَجِلا
فاقْنَىْ[3] حياءَكِ فى سِترٍ وفى كَرَمٍ * فلستِ أوّلَ أنثى علِقتْ رجُلا

وأما ما قاس فيه الهوى فقولُه :

وقرَّبْنَ أسبابَ الهوى لمتيَّمٍ * يَقيسُ ذِراعا كلّما قِسْنَ إصبعَا

ومن عِصيانه وإخلائه قولُه :

وأنُصُّ[4] المَطِىَّ يَتْبَعْنَ بالرَّكْـ * ـبِ سِراعًا نَواعِمَ الأظْعانِ
فنَصيدُ الغَرِيرَ[5] من بقر الوحـ * ـش ونَلْهو بلذّة الفِتْيانِ
فى زمانٍ لو كنتِ فيه ضَجِيعى * غيرَ شكٍّ عرفتِ لى عِصْيانى
وتقلّبتِ فى الفِراش ولا تدْ * رِينَ إلا الظُّنونَ أينَ مكانى

ومن مخالفته بسمعه وطرفه قولُه :

سَمْعى وطَرْفى حَليفاها على جسدى * فكيف أصبرُ عن سَمْعى وعن بَصَرى
لو طاوعانى على ألّا أكلِّمها * إذًا لقضَّيْتُ من أوْطارِها وَطَرى

ومن إبرامه نعتَ الرسلِ قولُه :

فبعثتُ كاتمةَ الحديـ * ـثِ رَفيقةً بجوابِها
وحشيّةً إنسيّةً * خرَّاجةً من بابِها
فَرَقتْ فسهّلتِ المَعا * رِضَ من سبيل نِقابِها

ومن تحذيره قولُهُ :

لقد أرسلتُ جاريتى * وقلت لها خُذى حَذَرَكْ
وقُولِى فى مُلاطَفةٍ * لزينبَ نَوِّلِى عُمَرَكْ

---

(١) حصان : عفيفة . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) اقنى حياءك : الزميه .
(٤) نص المطىّ : استخراج أقصى ماعندها من السير . (٥) الغرير : الغافل .

فإن داويتِ ذا سَقَـمٍ * فأخزى اللهُ من كَفَرَكْ

فهَـــزَّتْ رأسَها عجبًا * وقالتْ مَنْ بذَا أمرَكْ

أهــذا يحْـرُكُ النِّسوا * نَ، قد خبَّرَني خَبَرَكْ

وقُلْنَ إذا قضَى وَطَـرًا * وأدْرَكَ حاجةً هَجَـرَكْ

ومن إعلانه الحبَّ وإسرارِه قولُه :

شكوتُ اليها الحبَّ أُعلِنُ بعضَه * وأخفيتُ منـه فى الفؤاد غَليلَا

ومما أبطن فيه وأظهر قولُه :

حُبُّـكم يا آلَ لَيْـلَى قاتِلِى * ظهرَ الحبُّ بجسمى وبَطَنْ

ليس حبٌّ فوقَ ما أحببتُكمْ * غيرَ أنْ أقتُلَ نفسى أو أجَنّْ

ومما ألَحَّ فيه وأسَفَّ قولُه :

ليتَ حَظِّى كطَرْفةِ العين منها * وكثيرٌ منهـا القليلُ المُهَنَّـا

أو حديثٌ على خَلاءٍ يُسَـلِّى * ما يُجِنُّ الفؤادُ منها ومِنّا

كَبُرَتْ رَبِّ نعمةً منكَ يومًا * أنْ أراها قبل المماتِ ومَنّا

ومن إنكاحه النومَ قولُه :

حتّى اذا ما الليلُ جَنَّ ظلامُه * ونظرتُ غَفْلَةَ كاشحٍ أن يَعْقِلَا

واستَنْكَحَ النومُ الذين نخافُهم * وسَقَى الكَرَى بوّابَهم فاستُثْقِلَا(١)

خرجتْ تأطَّرُ فى الثياب كأنها * أَيْمٌ يَسِيبُ على كَثِيبٍ أهْيَـلَا(٢)

ومن جَنْيِه الحديثَ قولُه :

وجَوارٍ مُسَاعِفَاتٍ على اللهـ * ـوِ مُيسَّراتِ باطِنِ الأضْـغانِ

صُـيَّدٍ للرجال يَرْشُقْن بالطَّرْ * فِ حِسَانٍ نحُـذَّلِ الغِزْلَانِ(٣)

(١) يقال : أثقله النوم فهو مستثقل بصيغة المفعول. (٢) تأطر أصله تتأطر فحذفت إحدى تاءيه ومعناه تنثنى. والأيم : الأفعى. ويسيب : يمشى. والكثيب الأهيل : الرمل المنهال. (٣) الخذل : جمع خاذل وهى الظبية تخلف عن صواحباتها أو أولادها .

قـد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ للهـ * ـو تُجُونٌ مُهِمَّـةُ الأشجـانِ (١)

فاجتنَيْنا من الحديث ثِمـارًا * ما جَنَى مثلَها لعمرُك جَانِي

ومن ضربه الحديث ظهرَه لبطنه قولُه :

فى خَلاءٍ من الأَنِيسِ وأَمْنٍ * فَبَثَثْنَا غَلِيلَنا وٱشْتَفَيْنَا

وضربْنا الحديثَ ظهرًا لبطن * وأتينا من أمرِنا ما ٱشتهيْنا

فمكثنا بذاك عشرَ ليـالٍ * فقضينا ديوننـا وٱقتضَيْنا

ومن إذلاله صعبَ الحديث قولُه :

فلمـا أَفَضْنَا فى الهوى نستبينهُ * وعاد لنا صعبُ الحديثِ ذَلُولَا

شكوتُ اليها الحبَّ أُظْهِرُ بعضَه * وأخفيتُ منـه فى الفؤاد غليلا

ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قولُه :

فعِدِى نائلًا وإن لم تُنِيلِى * إنه ينفع المحب الرجاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثيِّر :

ولست براضٍ من خليلٍ بنائلٍ * قليـلٍ ولا أرضَى له بقليلِ

ومن إعلائه قاتلَه قولُه :

فبعثتُ جاريتى وقلتُ لها ٱذهبِى * فٱشْكِى إليهـا ما علمتِ وسلِّمِى

قُولِى يقولُ تَحـرَّجِى فى عاشـقٍ (٢) * كَلِفٍ بكم حتَّى المماتِ مُتَيَّمِ

ويقـول إنكِ قد علمتِ بأنكمْ * أصبحتمُ يا بِشْرُ أوجهَ ذى دمِ (٣)

فُكِّى رَهِينَتَه فإن لم تفعَـلِى * فٱعْلِى على قَتْلِ ٱبنِ عمِّك وٱسْلَمِى

فتضاحكتْ عَجَبًا وقالت حقُّـه * ألَّا يعـلِّمَنا بمـا لم نَعْلَـمِ

---

(١) أى مثيرة الأشجان .	(٢) أى كفى عن الحرج والاثم .

(٣) أى أحق إنسان آخذ منه بدمى .

علمى به واللهُ يغفرُ ذنبَـــه * فيما بدا لى ذو هَــوًى متقسِّمِ
طَرِفٌ(١) ينازعُه الى الأدنَى الهوى * ويَبُتُّ خُلّةَ ذى الوِصَالِ الأقْدَمِ

ومن تنفيضه النومَ قولُه :

فلما فَقَدْتُ الصوتَ منهم وأُطفئتْ * مَصَابِيحُ شُبَّتْ بالعِشَاء وأنْوُرُ
وغاب قُمَــيْرٌ كنتُ أرجو غيوبَه * وروَّحَ رُعْيَانٌ ونَوَّمَ سُمَّــرُ(٢)
ونَفَّضْتُ عنِّى النومَ أقبلْتُ مِشْيَةَ الـ * ـحُبَاب وركْنِى خَشْيَةَ القومِ أزْوَرُ(٣)

ومن إغلاقه رهنَ مِنًى وإهداره قتلاه قولُه :

فكم من قَتِيـلٍ ما يُبَاءُ(٤) به دمٌ * ومن غَــلِقٍ(٥) رَهْنًا إذا لَفَّـــه مِنَى
ومن مالئٍ عينَيه من شىءِ غيرِه * اذا راح نحو الجَمْرة البِيضُ كالدُّمَى(٦)

وكان بعد هذا كلّه فصيحًا شاعرا مِقْوَلًا(٧) .

ومن شعره المشهور قولُه :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبْكِرُ * غداةَ غَــدٍ أم رائحٌ فمهجِّــرُ
لحاجةِ نفسٍ لم تَقُــلْ فى جَوَابِها * فتُبْلِغَ عُــذْرًا والمقالةُ تُعْــذِرُ
أشارتْ بمِدْرَاها وقالت لأختِهـا * أهــذا المُغِيرِىُّ الذى كان يُذْكَرُ
فقالتْ نعمْ لا شــكَّ غــيَّرَ لونَه * سُرَى الليــلِ يَطْوِى نَصُّه(٨) والتهجُّرُ
رأتْ رجلًا أمّا إذا الشمسُ عارضتْ * فيَضْــحَى وأمّا بالعشِىِّ فيَخْصَرُ

---

(١) الطرف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) روّح من الرواح وهو وقت العشىّ . والرعيان : جمع راع كالرعاة والرعاء . ونوّم الرجل تنويما : مبالغة فى نام . (٣) الحباب : الحية . وأزور كأحسن : مائل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أباء القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له بثأر . (٥) يقال : غلق الرهن فى يد المرتهن يغلق غلقا : لم يقدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط . يريد : وكم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على افتكاكها .
(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المفصح المبين .
(٨) نص السرى : إسراعه ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أخا سفرٍ جوّابَ أرضٍ تقاذفتْ ◦ به فَلَوَاتٌ فهْوَ أَشْعَثُ أغبرُ
قليلًا على ظَهرِ المطيَّةِ ظِلُّه ◦ سِوى ما نَفَى عنه الرداءُ المُحبَّرُ (١)
وأعجبُها من عيشِها ظِلُّ غُرفةٍ ◦ وريّانُ مُلتفُّ الحدائقِ أخضرُ
ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يَهُمُّها ◦ فليستْ لشيءٍ آخرَ الليلِ تَسْهَرُ
وليلةَ ذي دَوْرانَ (٢) جشَّمْتِني السُّرى (٣) ◦ وقدْ يَجشَمُ الهولَ المحبُّ المغرَّرُ

ومن شعره قولُه فى فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية :

تَشِطُّ (٤) غدًا دارُ جيرانِنا ◦ ولَلدَّارُ بعدَ غدٍ أبعدُ
إذا سلكتْ غَمْرَ ذِي كِنْدَةٍ (٥) ◦ مع الرَّكْبِ (٦) قَصْدٌ لها الفرقدُ (٧)
وحثَّ الحُداةُ بها عِيرَها ◦ سِرَاعًا إذا ما ونَتْ تُطْرَدُ (٨)
هنالكَ إمّا تُعزّى الفؤاد ◦ وإمّا على إثْرِها تكمَدُ
وليستْ بِبِدْعٍ إذا دارُها ◦ نأتْ والعَزاءُ إذًا أجْلَدُ
صَرَمْتُ وواصلتُ حتى علمـ ◦ ـتُ أينَ المصادرُ والمَوْرِدُ
وجرّبتُ من ذاك حتى عرفـ ◦ ـتُ ما أتوقّى وما أحمدُ
فلمّا دَنَوْنا لجَرْسِ (٩) النُّبا ◦ حِ والضوءِ والحىُّ لم يرقُدوا
نأيْنا عن الحىِّ حتى إذا ◦ تودَّعَ (١٠) من نارِها المُوقِدُ
وناموا بعثْنا لها ناشِدًا ◦ وفى الحىِّ بُغْيَةُ مَنْ يَنْشُدُ

(١) المحبر : المزين المحسن . (٢) ذو دوران — بفتح أوله وبعد الواو راء مهملة وآخره نون — : موضع بين قديد والجحفة (ياقوت) . (٣) أى كلفتنى السير ليلا .

(٤) تشط : تبعد . (٥) غمر ذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين .

(٦) كذا فى ديوانه ، وفى الأغانى « الصبح » . (٧) الفرقد : نجمان فى السماء من نجوم الدب الأصغر وهى فى الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإفراد ، والفرقدان بالتثنية . ولعله يريد أنها تسير جهته ، لأن العراق التى تقصده فى الشمال الشرقىّ من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المغنى للابل لتنشط فى السير ، وقد يراد به الزاجر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . ونت : ضعفت وتباطأت . وتطرد : تساق .

(٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وانطفأت .

أتتنا تَهادَى[1] على رِقْبةٍ[2] ... من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ
تقول وتُظهر وَجْدًا[3] بنا ... ووَجْدى وإن أظهرتْ أَوْجَدُ
لِمَا شَفَّنى تعلُّقكم ... وقد كان لى عنكم مَقْعَدُ[4]
وكَفَّتْ سوابقَ من عبرةٍ ... على الخدّ جالَ[5] بها الإثمِدُ
فإنّ التى شيَّعتنا الغداةَ ... مع الفجر قلبى بها مُقْصَدُ[6]

وشبّب عمرُ بن أبى ربيعة بزينبَ بنتِ موسى الجُمَحيّة فى قصيدته التى يقول فيها :

يا خليلَىَّ مِنْ مَلامٍ دَعانى ... وأَلِمّا الغداةَ بالأظعانِ
لا تلوما فى آلِ زينبَ إنّ الـ ... ـقلبَ رَهْنٌ بآلِ زينبَ عانى
ما أرَى ما بقيتُ أن أذكُر المو ... قفَ منها بالخَيْف[7] إلّا شجانى
لم تدَعْ للنساءِ عندى حظًّا ... غيرَ ما قلتُ مازحًا بلسانى
هى أهلُ الصَّفاء والوُدّ منّى ... وإليها الهَوَى فلا تعذُلانى
حين قالت لأختها ولأخرى ... من قَطينٍ[8] مُوَلَّدٍ : حدِّثانى
كيف لى اليومَ أن أرى عُمَرَ المُرْ ... سِلَ سِرًّا فى القول أن يَلْقانى
قالتا : نَبْتغِى رسولًا إليه ... ونُميتُ الحديثَ بالكِتْمانِ
إنّ قلبى بعدَ الذى نِلْتُ منها ... كالمُعَنَّى[9] عن سائر النِّسْوانِ

(١) تهادى : تمشى فى تمايل وسكون . (٢) الرقبة : التحفظ والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لى غنى عن حبكم . (٥) الإثمد : حجر للكحل وأجوده بأصبهان .
(٦) أقصده : رماه بسهم فقتله . (٧) الخيف : ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل . قال ابن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمى بذلك لانحداره عن الغلظ وارتفاعه عن السيل .
(٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم .
(٩) كذا فى الأغانى . وفى ديوانه "كالمعنى" أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سببُ ذكره لها أنّ ٱبنَ أبي عتيق ذكرها عنده يوما فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغَل قلبَ عُمرَ وأماله اليها ، فقال فيها الشعرَ وشبّب بها ، فبلغ ذلك ٱبنَ أبي عَتيقٍ ، فلامه فيه وقال له : أتَنطِقُ الشعرَ فى ٱبنةِ عمّى؟ فقال عمرُ :

لا تَلُمْنى عتيقُ حَسبى الذى بى * إنّ بى يا عتيقُ ما قد كَفانى
لا تَلُمْنى وأنتَ زيّنتَها لى * أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسانِ
إنّ بى داخلًا من الحبّ قد أبـ * ـلَى عِظامى مكنونُهُ وبَرانى
لو بعينيكَ يا عتيقُ نَظرْنا * ليلةَ السَّفحِ قَرّتِ العينانِ
إذ بدا الكَشْحُ والوِشاحُ من الدُّ * رّ وفَصْلٌ فيه من المَرْجانِ(١)
وقَلَى قلبىَ النساءَ سواها * بعدما كان مُغرمًا بالغوانى
لم تَدَعْ للنساء عندى نصيبًا * غيرَ ما قلتُ مازحًا بلسانى

وأنشد ٱبنُ أبى عَتيقٍ قولَ عمرَ :

مَنْ(٢) لسَقيمٍ يكتُمُ الناسَ ما به * لزينبَ نَجْوَى صدرِه والوَساوِسُ
أقولُ لمن يَبْغِى الشّفاءَ متى تَجِئْ * بزينبَ تُدرِكْ بعضَ ما أنتَ لامِسُ
فإنّكَ إن لم تَشْفِ من سَقمِى بها * فإنّى من طِبِّ الأطبّاءِ آيِسُ
ولستُ بناسٍ ليلةَ الدار مجلسًا * لزينبَ حتى يَعلُوَ الرأسَ رامِسُ(٣)
خَلاءً بدَتْ قَمْراؤُه وتكشّفَتْ * دُجُنّتُه وغابَ من هو حارِسُ
وما نلتُ منها مَحْرَمًا غيرَ أنّنا * كِلانا من الثوبِ المورَّدِ(٤) لابِسُ
نَجِيَّيْنِ نَقْضِى اللهوَ فى غيرِ مأثمٍ * وإن رَغِمَتْ مِ ٱلكاشحِينَ المَعاطِسُ

(١) الكشح : ما بين الجنبة — وهى رأس الورك الذى يشرف على الخاصرة — إلى الإبط . والوشاح : شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الخرم وهو حذف الفاء من فعولن . (٣) الرامس : الدافن فى الرمس وهو القبر .

(٤) المورّد : الذى صبغ على لون الورد .

قال : فقال ابنُ أبى عتيق : أمِنّا يسخَرُ ابن أبى ربيعة ؟ فأىُّ مُحَرَّم بَقِىَ ! ثم أتى عمرَ فقال له : يا عمرُ ، ألم تُخبرنى أنك ما أتيتَ حرامًا قطُّ ؟ قال : بلَى ، قال : فأخبرنى عن قولك :

* كلانا من الثوبِ المورَّد لابسُ *

ما معناه؟ قال : والله لأخبرنَّك : خرجتُ أريد المسجدَ وخرجتْ زينبُ تريده ، فالتقينا فاتّعدْنا لبعض الشِّعاب ، فلما توسّطْنا الشِّعبَ أخذتْنا السماءُ ، فكرِهتُ أن يُرى بثيابها بَلَلُ المطر ، فقالَ لها : ألا استترتِ بسقائفِ المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غِلمانى فستَرُونا بكساء خَزٍّ كان علىّ ، فذلك حين أقول :

* كلانا من أثوابِ المَطَارِفِ لابس *

فقال له : ابنُ أبى عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيت يحتاج الى حاضنة ! .

ومن جيد شعره قولُه فى زينب بنت موسى :

يا مَنْ لقلبٍ متيَّمٍ كَلِفٍ * يَهْذِى بخَوْدٍ (١) مريضةِ النَّظَرِ
تمشى الهُوَيْنَا إذا مشتْ فُضُلًا (٢) * وهى كمِثْلِ العُسْلُوجِ (٣) فى الشَّجَرِ
ما زال طَرْفِى يَحَارُ إذ بَرَزَتْ * حتى رأيتُ النقصانَ فى بَصَرِى
أبصرتُها ليلةً ونسوتَها * يَمْشِينَ بين المَقامِ والحَجَرِ
ما إن طَمِعْنا بها ولا طَمِعَتْ * حتى التقينا ليلًا على قَدَرِ (٤)
بِيضًا حِسانًا خَرائدًا قُطُفًا (٥) * يَمْشِينَ هَوْنًا كمِشْيةِ البقرِ
قد فُزْنَ بالحسن والجمال معًا * وفُزْنَ رِسْلًا (٦) بالدَّلِّ والخَفَرِ

---

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ما لم تصر نصفا ، والنصف : المرأة بين الحدثة والمسنة .

(٢) الفضل بضمتين : المختالة التى تفضل من ذيلها . ويروى : «قطفا» والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : الغصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقدر فى الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

(٥) جمع قطوف وهى البطيئة فى السير . (٦) الرسل بالكسر : الرفق والتؤدة . والخفر : شدة الاستحياء .

يُنْصِتْنَ يومًا لها إذا نطقتْ * كَيْما يُشَرِّفْنَها على البَشَرِ
قالت لِتِرْبٍ لها تُحدِّثها * لَنُفْسِدَنَّ الطَّوافَ فى عُمَرِ
قُومِى تَصَدَّىْ له ليعرفَنا * ثم آغْمِزِيه يا أختُ فى خَفَرِ
قالت لها قد غمزتُه فأبى * ثم آسْبَطَرَّتْ[١] تسعَى على أثَرِى
من يُسقَ بعد المنام ريقتَها * يُسْقَ بمِسْكٍ و باردٍ خَصِرِ[٢]

وقولُه فيها أيضا :

أَلِمَّ بزينبَ إن البَيْنَ قد أفِدا[٣] * قَلَّ الثَّواءُ لَئِن كان الرَّحيلُ غَدَا
قد حلَفَتْ ليلةَ الصَّوْرَيْنِ[٤] جاهدةً * وما على المرء إلا الحَلْفُ مجتهِدَا
لأختها ولأخرى من مَنَاصِفِها[٥] * لقد وَجَدْتُ به فوقَ الذى وَجَدَا
لو جُمِّعَ النَّاسُ ثم آختير صَفْوُهُمُ * شخصًا من الناس لم أعدِلْ به أحدَا

ومن شعر عمر فى تشوّقه الى مكة بعد أن خرج منها الى اليمن قولُه :

هيهاتَ من أمة الوَهَّابِ منزِلُنا * اذا حللنا بسِيفِ[٦] البحر من عَدَنِ
وآحتلَّ أهلُكِ أجيادًا[٧] وليس لنا * إلا التذكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنها أبصرتْ بالجَزْعِ عَبْرَتَه * من أن يُغَرِّدَ قُمْرِىٌّ على فَنَنِ
اذًا رأتْ غيرَ ما ظنّتْ بصاحبها * وأيقنتْ أن لَحْجًا ليس من وَطَنِى
ما أَنْسَ لا أنْسَ يومَ الخَيْفِ[٨] موقفَها * وموقِفِى وكلانا ثَمَّ ذو شَجَنِ
وقولَها للثُّرَيَّا وهى باكيةٌ * والدمعُ منها على الخدّين ذو سَنَنِ[٩]

---

(١) اسبطرت : أسرعت . (٢) الخصر : البارد . (٣) أفد كفرح : عجل وأسرع .

(٤) الصوران : موضع بالمدينة بالبقيع ، وقد ذكره ياقوت وآستشهد بالبيت . (٥) المنصف كمنبر ومقعد : الخادم ، والأنثى بالهاء ، جمعه مناصف .

(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجياد : موضع بمكة ، سمى بذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط خيله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أجياد الكبير وأجياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بمنى وبه سمى مسجد الخيف . (٩) ذو سنن : ذو طرائق .

بالله قـولى له فى غـير معتبـة ○ ماذا أردتَ بطـول المُكْث فى اليمن

إن كنتَ حاولتَ دنيا أو ظفِرْتَ بها ○ فما أخـذتَ بتَرْك الحجّ من ثمنِ

وقال أيضا :

خليلىّ ما بالُ المَطايا كأنما ○ نَرَاها على الأدْبار بالقـوم تَنْكُصُ (١)

وقـد قُطِعَتْ أعناقُهن صَبابةً ○ فأنفُسُنا مما يُلاقِين شُخَّصُ

وقد أتعبَ الحادى سُراهُنَّ وانْتَحى ○ بهنّ فما يألُو عَجُولٌ مقلِّصُ (٢)

يَزِدْنَ بنا قـربًا فيزدادُ شـوْقُنا ○ إذا زاد طولُ العهد والبعدُ ينقُصُ

ومن شعره قولُه :

جَرَى ناصحٌ بالوُدّ بينى وبينَها ○ فقرَّبنى يومَ الحِصَابِ (٣) إلى قتْلِى

فطارت بحدّ من فؤادى وقارنتْ ○ قرينتُها حبلَ الصَّفاء إلى حبلى

فلمّا توافقْنا عرفتُ الذى بها ○ كمثل الذى بى حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ

فقُلْنَ لها هـذا عِشاءٌ وأهلُنا ○ قريبٌ ألَمَّا تَسْأَمى مَركَبَ البَغْلِ

فقالت فما شئتُن قلن لها انْزِلى ○ فللأرضُ خيرٌ من وقوفٍ على رَحْلِ

نُجُـومٌ درارِىٌّ (٤) تكنَّفْنَ صـورةً ○ من البدر وافتْ غيرَ هُوجٍ (٥) ولا عُجْلِ

فسلَّمْتُ واستأنستُ خِيفَةَ أن يرى ○ عدوٌّ مُقَامى أو يرى كاشحٌ فِعْـلِى

فقالتْ وأرْخَتْ جانبَ السِّتْرِ إنما ○ معى فتكلَّمْ غيرَ ذى رِقْبَـةٍ أهْـلِى

فقلتُ لها ما بى لهم من ترَقُّبٍ ○ ولكنّ سِرِّى ليس يحمِلُه مثْـلِى

فلمّا اقتصرْنا دونهنّ حديثَنا ○ وهنّ طَبِيباتٌ بحاجة ذى الشَّكْلِ

عَرَفْنَ الذى تَهْوَى فقلنَ ائذنِى لنا ○ نَطُفْ ساعةً فى بَرْدِ ليلٍ وفى سَهْلِ

(١) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٢) مقلص : مشمر جاد فى السير . (٣) الحصاب كالمحصب : موضع رمى الجمار . (٤) درارىّ ممنوعة من الصرف ونوّنت لضرورة الشعر . (٥) هوج : جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كأن بها هوجا وحمقا .

فقالتْ فلا تَلْبثْنَ قُلْنَ تَحَدَّثي * أتيناكِ، وانْسَبْنَ انسيابَ مَهَا الرَّمْلِ
فقمنَ وقد أفهمْنَ ذا اللُّبِّ أنما * أتينَ الذى يأتينَ من ذاك من أجْلِي

وقد كان عمر حين أسنّ حلف ألّا يقولَ بيتَ شعر إلّا أعتق رقبةً، فانصرف عمرُ الى منزله يحدّث نفسه، فجعلتْ جاريةٌ له تكلّمه فلا يردّ عليها جوابا، فقالت له: إن لك لأمرا، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال:

تقولُ وليدتى لما رأتْني * طَرِبْتُ وكنتُ قد أقصرتُ حِينا
أراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقاً * وهاج لك الهوى داءً دفينا
وكنتَ زعمتَ أنك ذو عَزاء * إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينا
بربِّكَ هل أتاكَ لها رسولٌ * فشاقكَ أم لقيتَ لها خَدِينا (١)
فقلتُ شكا الىّ أخٌ محبٌّ * كبعضِ زمانِنا إذ تعلمينا
فقَصَّ علىّ ما يلقَى بهندٍ * فذكَّرَ بعضَ ما كنّا نَسِينا
وذو الشوقِ القديمِ وإن تعزّى * مَشُوقٌ حين يلقَى العاشقينا
وكم من خُلّةٍ (٢) أعرضتُ عنها * لغيرِ قِلًى وكنتُ بها ضَنِينا
أردتُ بِعادَها فصدَدْتُ عنها * ولو جُنَّ الفؤادُ بها جنونا

ثم دعا تسعةً من رقيقه فأعتقهم بكلّ بيتٍ واحدًا.

وله:

يقولون: إنى لستُ أصدُقُكِ الهوى * وإنّى لا أرعاكِ حين أغيبُ
فما بالُ طَرْفى عفَّ عما تساقطتْ * له أعينٌ من معشرٍ وقلوبُ
عشيّةَ لا يستنكِفُ القومُ أن يَرَوْا * سَفَاهَ امرئٍ ممن يقال لبيبُ

(١) الخدين: الصديق الذى يحادثك فيكون معك فى كل أمر ظاهر وباطن، ومنه خدن الجارية: محدثها، وكان العرب فى الجاهلية لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية فجاء الاسلام بهدمه. وفى التنزيل العزيز: (اليوم أحل لكم الطيبات) الى قوله: (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) الآية. (٢) الخلة: الخليلة.

ولا فتنـــةً من ناسكٍ أومَضَتْ له[١] * بعينِ الصِّـبا كَسْلَى القيامِ لَعُـوبُ
تَرَوَّحَ يرجُـــو أن تُحَطَّ ذنوبُهُ * فآبَ وقد زِيدتْ عليـــه ذنوبُ
وما النُّسْكُ أسلانِى ولكنَّ للهوى * على العين مـــنِّى والفـــؤادِ رقيبُ

وله :

ألم تسألِ المـــنزلَ المُقْفِــرا * بيانًا فيكتُمَ أو يُخْـبِرَا
ذكرتَ به بعض ما قد شجاكَ * وحقٌّ لذى الشَّجْوِ أن يَذْكُرَا
مَبِيتَ الحبيبينِ قد ظاهرا[٢] * كِسَاءً وبردين أن يُمْطَـــرَا
ومَمْشَى الثــلاثِ به مَوْهِنًا * خرجنَ إلى زائـــرٍ زُوِّرَا
إلى مجلس من وراء القِبَا * بِ سَهْـــلِ الرُّبَى طيِّبٍ أعْفَرَا[٣]
غَفَلْنَ عن الليـــل حتى بدتْ * تبـاشـــيرُ من واضحٍ أسْـــفَرَا
فقُمْنَ يُعفِّينَ آثارَنا * بأكسية الخَزِّ أن تُقْفَـــرَا[٤]
مَهَاتانِ شـــيَّعتا جُؤْذَرًا[٥] * أسِـــيلًا مُقَـــلَّدُهُ[٦] أحْـــوَرَا
وقُمْنَ وقُلْنَ لـــو آنَّ النَّها * رَ مُدَّ له الليـــلُ فاســـتأخرَا
قَضَـــيْنا به بعضَ أشجانِنـــا * وكان الحـــديثُ به أجْدَرَا

وله :

أفى رَسْمِ دارٍ دمعُـــكَ المـــترقرقُ[٧] * سَفَاهًا ! وما استنطاقُ ما ليس يَنْطِقُ !
بحيثُ التقى «جَمْعٌ»[٨] وأقصى «مُحَسِّرٍ»[٩] * مَعَالِمُـــه كادت على العَهدِ تَخْـــلَقُ
ذكرتُ به ما قـــد مضى من زمانِنـــا * وذِكْرُكَ رَسْمَ الدارِ ممَّا يُشَـــوِّقُ

---

(١) أومضت له : سارقته النظر .

(٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أعفر : ذى رمل أحمر .

(٤) يقال : قفر الأثر قفرا : اقتفاه وتبعه . (٥) الجؤذر (بضم أوله وضم الدال وفتحها) : ولد البقرة . والربرب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء ، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة ويراد به الجيد . (٧) ترقرق الدمع : سال . (٨) جمع ، هى المزدلفة . (٩) محسر : موضع بين منى والمزدلفة .

لياليَ من دهرٍ إذ الحيُّ جيرةٌ * وإذ هو مأهولُ الخميلة مؤنقُ
مَقامًا لنا عند العِشاء ومجلسا * به لم يُكدِّره علينا مُعوِّقُ (١)
وممشى فتاةٍ بالكساء تُكِنُّنا * به تحت عَيْنٍ (٢) برقُها يتألَّقُ
يبُلُّ أعالى الثوبِ قَطْرٌ وتحته * شُعاعٌ بدا يُعشِى العيونَ ويُشرِقُ
فأحسنُ شىءٍ بَدْءُه أوّلِ ليلنا * وآخرُه حُزْنٌ إذا نتفرّقُ

وروى أن ليلى كانتْ جالسةً فى المسجد الحرام، فرأتْ عمرَ بن أبى ربيعة فوجّهتْ إليه مَوْلًى لها بجاءها به، فقالت له : يابنَ أبى ربيعة، حتَّى متى لا تزال سادرًا (٣) فى حَرَم الله تُشبِّبُ بالنساء وتُشيد بذكرهنّ ! أما تخاف الله ! قال : دعينى من ذاك وٱسمعى ما قلتُ ، قالت : وما قلتَ؟ فأنشدها الأبياتَ المذكورة، فقالت له القولِ الذى تقدّم أنها أجابتْه به. قال : وقال لها : ٱسمَعِى أيضا ما قلتُ فيك، ثم أنشدها قولَه :

أمِنَ الرسم وأطْلالِ الدِّمَنْ * عاد لى وَجْدى وعاودتُ الحَزَنْ
إن حيّ آلَ ليلَى قاتلى * ظهر الحبُّ بجسمى وبطَنْ
يا أبا الحارث قلبى طائرٌ * فأْتَمِرْ أمرَ رشيدٍ مؤتَمنْ
اِلتمِسْ للقلب وصلًا عندها * إنّ خيرَ الوَصْلِ ما ليس يَمُنّْ (٤)
عَلِقَ القلبُ، وقد كان صحَا، * من بنى بكرٍ غزالًا قد شَدَنْ (٥)
أحورَ المُقلةِ كالبدر، إذا * قُلِّدَ الدُّرَّ فقلبى مُمتحَنْ (٦)
ليس حُبٌّ فوقَ ما أحببتُكم * غيرَ أن أقتُلَ نفسى أو أُجَنّْ
خُلِقَتْ للقلب منّى فِتْنةً * هكذا يُخْلَق معروضُ الفِتَنْ

(١) معوّق : عائق ومانع . (٢) العين : السحاب .
(٣) السادر : الذى لا يهتمّ ولا يبالى ما صنع .
(٤) كذا فى الديوان ، ومعناه ما ليس ينقطع ، ومنه قوله تعالى : (وإنّ لك لأجرا غير ممنون) .
(٥) شدن : شب وترعرع . (٦) ممتحن : واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إنّ ليـــلَى وقـــد بلغتُ المَشيبا * لم تدعْ للنساء عنـــدى نصيبَا
هاجِرٌ بيتَهـا لأنـــفِىَ عنهـا * قولَ ذى العيب إن أرادَ عيوبَا

وله فى النَّوار وقد شغلت قلبه :

عَلِق النَّـــوَارَ فـــؤادُهُ جَهْلَا * وصَـــبَا فلم تترك له عقـــلا
وتعرّضت لى فى المَســـيرِ فما * أمسَى الفؤادُ يرَى لهـا مِثـلا
ما نعجةٌ من وحش ذِى بَقَـرٍ(١) * تَغْذُو بسَقْط صَريمَـــةٍ(٢) طِفْلا
بألَذَّ منهـا إذ تقـــول لنـا * وأردتُ كشفَ قِناعها مَهْـلا
دَعْـنـا فإنك لا مُكـارمـةً * تَجزِى ولَسْتَ بواصِـلٍ حَبْلا
وعليكَ مَنْ تَبَـلَ الفؤادَ وإن * أمسَى لقلبـك ذِكْرُه شُـــغْلا
فأجبتُها إنَّ المحبَّ مكلَّفٌ(٣) * فدَعِى العتـابَ وأحدِثى بَذْلا

اِجتمع نسوةٌ من أهل المدينـــة من أهل الشرف فتذاكَرْنَ عمرَ بن أبى ربيعة وشعرَه وظَرَفَه وحسنَ حديثه فتشوّقنَ اليه وتمنَّيْنَه ، فقالت سُكَينةُ بنت الحُسَين عليهما السلام : أنا لكنّ به ، فأرسلتْ اليـــه رسولا وواعدتْه الصُّورَيْنِ ، وسمَّتْ له الليلةَ والوقتَ وواعدتْ صواحباتها ، فوافاهنّ عمرُ على راحلته ، فحدّثهنّ حتى أضاء الفجر وحان آنصرافهنّ ، فقال لهنّ : والله إنى لمحتاج الى زيارة قبر رســـول الله صلى الله عليه وســـلم والصلاة فى مسجده ولكن لا أخلِط بزيارتكنّ شيئا ، ثم آنصرف الى مكة وقال :

---

(١) ذو بقر : موضع . (٢) سقط الصريمة : منتهاها . والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر . (٣) مكلف : لهج بالحب ، يقال : كلف بالشىء كلفا ، أى لهج به فهو كلف ومكلف ، والأبيات من الكامل الأحذ ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوتد المجموع «علن» من «متفاعلن» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوتد فى آصطلاح علماء العروض علة ، والعلة إذا لحقت بعروض أو ضرب لزم استعمالها فى سائر الأبيات ولو قال : * فأجبتها إنى بكم كلف * لخلت القصيدة من هـــذا العيب .

قالت سُكينةُ والدموعُ ذَوارِفٌ * منها على الخدّينِ والجلباب (١)
ليتَ المُغيريَّ الذي لم أجزِه * فيما أطال تصيُّدي وطِلابي
كانت تردّ لنا المُنى أيامنا * إذ لا تُلامُ على هوًى وتَصابي
خُبِّرتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما * رُمِيَ الحشَا بنوافذ النُّشّابِ (٢)
أسُكَينَ ما ماءُ الفراتِ وطيبُه * منّي على ظمإٍ وفَقْدِ شَرابِ
بألذَّ منكِ وإن نأيتِ وقلّما * ترعى النساءُ أمانةَ الغُيّاب

وقال فيها :

أُحبُّ لحبّك من لم يكن * صَفيًّا لنفسي ولا صاحبا
وأبذُلُ نفسي لمَرضاتكم * وأُعتِبُ من جاءكم عاتبا (٣)
وأرغَبُ في وُدِّ من لم أكن * الى ودِّه قبلكم راغبا
ولو سلكَ الناسُ في جانبٍ * من الأرض واعتزلتُ جانبا
ليمّمْتُ طِيّتَها ، إنني * أرى قربَها العجَبَ العاجبا
فما ظبيةٌ من ظباء الأرا * كِ تقْرو (٤) دَميثَ الرُّبى (٥) عاشبا
بأحسنَ منها غَداةَ الغَميم (٦) * وقد أبدت الخدَّ والحاجبا
غداةَ تقولُ على رِقْبَة * لخادمها (٧) : يا أُخَيتي الراكبا
فقالت لها : فيمَ هذا الكلامُ * وأبدتْ لها عابسًا قاطبا (٨)
فقالت كريمٌ أتى زائرًا * يمُرُّ بكم هكذا جانبا
شريفٌ أتى ربعَنا زائرًا * فأكرهُ رجعتَه خائبا

---

(١) الجلباب : القميص أو هو الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . (٢) النشاب : النبل .
(٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فالهمزة للسلب . والمعنى أعذر . (٤) قراه يقروه : تتبعه .
(٥) دميث الربى : سهلها ولينها . (٦) الغميم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم :
واحد الخدم غلاما كان أو جارية . (٨) قاطبا من القطوب : وهو تزوى ما بين العينين من العبوس .

وقال فى جاريته بَغُوم :

صرمَتْ حَبْلَك البغومُ وصَدَّتْ * عنكَ فى غير ريبةٍ أسماءُ
والغَوانى اذا رأينَك كهلاً * كان فيهنّ عن هواكَ ٱلتواءُ
حَبَّذا أنتِ يا بَغُومُ وأسما * ءُ وعِيصٌ يكنُّنا وخَلاءُ
ولقد قلتُ ليلةَ الجَزْلِ لمّا * أخضلتْ رَيطَتِى علىَّ السماءُ[1]
ليتَ شعْرِى ـ وهل يَرُدَّنَّ لَيْتٌ ـ * هل لهذا عند الرَّبَاب جزاءُ
كلُّ وَصْلٍ أمْسَى لدىّ لانثى * غيرِها وَصْلُها إليها أداءُ
كل خَلْق وإن دنا لوصَال * أو نأى فهو للربَاب الفداءُ
فِعِدِى نائلا وإن لم تُنيلى * إنما يَنْفَعُ المحبَّ الرجاءُ

وكان يهوَى حميدةَ جاريةَ ٱبن تُفَّاحَةَ، وفيها يقول :

حُمِّلَ القلبُ من حميدةَ ثِقْلاً * إن فى ذاك للفؤاد لشُغْلاً
إن فعلتُ الذى سألت فقُولى * حَمْدُ خيرًا وأتبعى القولَ فعْلاً
وصِلِينى وأُشْهِدُ اللهَ أنّى * لستُ أُصفى سواك ماعشتُ وَصْلاَ

وفيها يقول :

ياقلبُ هل لك عن حميدةَ زاجرُ * أم أنت مُدَّكِرُ الحياء فصابرُ
فالقلبُ من ذكْرَى حميدةَ مُوجَعٌ * والدمعُ منحدرٌ وعَظْمى فاترُ
قدكنت أحسَب أننى قبلَ الذى * فعلتْ على ما عند حَمْدَةَ قادرُ
حتى بَدَا لى من حميدةَ خُلّقٌ * بينٌ وكنتُ من الفراق أحاذرُ

---

(١) الجزل : موضع قرب مكة . وأخضل : بل . والريطة : ملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة .

وله فى هند :

أَرِبْتُ(١) الى هنـــد وتِرْبَيْنِ مرّةً ❊ لها إذ تواقفْنا بفَرْعِ المُقَطَّعِ

لِتَعْرِيجِ يوم أو لِتَعْرِيسِ(٢) ليـلةٍ ❊ علينا بجَمْعِ الشَّمْلِ قبلَ التصدُّعِ

فَقُلْنَ لها لولا ٱرتقابُ صَحَابةٍ ❊ لنـا خَلْفَنا عُجْنا ولم نَتَـــوَزَّعِ

فقالت فتاةٌ كنتُ أحسَبُ أنها ❊ مُغَفَّـــلةٌ فى مِئْزَرٍ لم تُدَرَّعِ(٣)

لهنّ ـ وماشاوَرْنَها ـ ليس ماأرى ❊ بِحُسْنٍ جزاءٍ للحبيب المودِّعِ

فقلن لها لا شَبَّ(٤) قَرْنُكِ فافتحى ❊ لنا بابَ(٥) مايَخْفَى من الأمرِ تَسْمَعِ

---

(١) يقال : أرِبَ بكذا : كلف به ، وأرب الى كذا : احتاج اليه . ولعل المراد : دعاني الشوق اليهن .

(٢) التعريس : قيل هو نزول القوم فى السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول أوّل الليل . وقيـل : النزول فى أى وقت كان من ليل أو نهـار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليـلة .

(٣) لم تدرّع : لم تلبس الدرع ، يقال : درّعت الصبية اذا ألبست الدرع ، والدرع : جبة مشقوقة المقـدّم .

(٤) قال الأصمعى : يقال أشـب الله وأشب الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن زيادة فى الكلام اهـ . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال فى هـذا المقام : قاتلك الله .

(٥) البابة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

بنى عامر ما تأمرون بشـاعر ❊ تخير بابات الكتاب هجائيا

أى تخير هجائى من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسـان . وللبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهى : القبيل والنوع ـ كما قال الجاحظ فى « كتاب الحيوان » ج ٢ ص ٤٥ : « فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله قتلا ذريعا » وقال أيضا فى ج ٧ ص ٤٣ : « وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته » . وقال فى كتاب البخلاء ص ٤٥ ، ١٤٣ : « أنت من ذى البابة ... وأما سائر حديث هـذا الرجل فهو من هذه البابة » . ومثل ذلك فى نفح الطيب ج ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضى محمد بن بشير الأندلسى :

إنمـا أزرى بقدرى أننى ❊ لست من بابة أهل البلد

وإذا قال الناس : « من بابتى » فمعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

والشرط ـــ ومثله ما فى « تاج العروس » : هذا بابته أى شرطه .

والغاية ـــ ويستعمل ذلك فى الحساب والحـدود . وفى « شفاء الغليل » أنهم يقولون للعب خيال الظل بابة فيقولون : بابات خيال الظل ، وعلى ذلك قول ابن إياس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل بابات خيال الظل فشىء يجىء وشىء يروح (بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨ و ٣٩) .

وله :

لَيتَ هندًا أنجزَتْنا ما تَعِـدْ * وشَفَتْ أنفسنا مما تَجِـدْ (١)

وٱسـتبدَّتْ مرّةً واحدةً * إنمـا العاجزُ من لا يستبِدّْ

ولقد قالتْ لجاراتٍ لهـا * ذاتَ يومٍ وتَعرّتْ تَبْـتَرِدْ (٢)

أكَما يَنْعَتُني تُبْصِـرْنَني * عَمْرَكُنَّ اللهَ أم لا يقتصِـدْ

فتَهانَفْنَ (٣) وقـد قُلْنَ لهـا * حَسَنٌ فى كلّ عينٍ من تَوَدّْ

حسدًا حُمِّلْنَه من أجْلها * وقديمًا كان فى الناسِ الحَسدْ

وله :

يامَنْ لقلبٍ دَنِفٍ مُغْرَمِ * هَامَ (٤) الى هِنْـــد ولم يَظْـلِمِ

هَامَ الى رِيمٍ (٥) هَضيمِ الحَشَى * عَذْبِ الثَّنَايا طَيِّبِ المَبْسِمِ

لم أحْسِبِ الشمسَ بليلٍ بَدَتْ * قَبْــلي لِذِى لَحْمٍ ولا ذى دَمِ (٦)

---

(١) وجد به يجـد وجدا : أحبه حبا شديدا ، ووجد عليه يوجد وجدا : حزن . (٢) تبترد : تغتسل بالماء البارد . (٣) كذا فى الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ٥٩٤ وهى رواية جيدة . والتهانف كالاهتاف والمهانفة : ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ . وفى الأغانى والديوان : «فتضاحكن» . وقد رجحنا الرواية الأولى لأنها تؤدّى تمام المعنى المراد . (٤) هام تتعدى بالباء ، وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهـذا تعدّت بالى . (٥) كذا فى الأغانى ، وفى ديوانه : «رئم» بالهمز . والرئم : الظبى الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظبى ، يهمز ولا يهمز . (٦) كذا فى الأغانى ، وبين هذا البيت والذى قبله فى ديوانه :

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * فى يوم دجنٍ بارد مقتم

يريد بالأسعد هنا سعود النجوم ، وهى عشرة : أربعة منها فى برج الجدى والدلو ينزلها القمر وهى سعد الذابح وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير . وأما الستة التى ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهمام وسعد البارع وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين فى رأى العين قدر ذراع وهى متناسقة . وأما سعد الأخبية فثلاثة أنجم كأنها أثافىّ ورابع تحت واحد منهنّ . أنظر المرتضى والمقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية للامام العينى المطبوع بهامش الخزانة ج ١ ص ٨ ٥ فى الكلام على البيت :

اذا ديران منك يوما لقيته * أؤمّل أن ألقاك غدوا بأسعد

وقال فى اللسان فى مادة «سعد» بعد أن ذكر هـذه السعود : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم فى أيامها لأنك لا ترى فيها غبرة ، وقد ذكرها النابغة الذبيانى فقال :

قامت تراءى بين سجفى كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأ فى اللسان بفتح العين . وقال :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهـلا ولم تفحش على جار

قالت ألا إنكَ ذو مَلّةٍ * يَصرِفُكَ الأدنى عن الأقدَمِ
قلتُ لها بل أنتِ معتلَّةٌ * فى الوَصْل ياهندُ لكى تَصْرِمى

بينا عمرُ بن أبى ربيعة يَطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنتَ طَلْحَةَ بنِ عبيد الله ، وكانت من أجمل أهل دهرها ، وهى تريد الرُّكْنَ تستلمه ، فبُهِتَ لَمّا رآها ورأته ، وعلمتْ أنها قد وقعتْ فى نفسه ، فبعثتْ إليه بجارية لها وقالت : قولى له : اتّقِ اللهَ ولا تَقُلْ هُجْراً ، فإنّ هذا مَقَامٌ لا بدّ فيه مما رأيتَ ، فقال للجارية : أقرئيها السلامَ وقولى لها : ابنُ عمّكِ لا يقول إلا خيرا ، وقال فيها :

لعائشةَ ابنةِ التَّيْمِىّ عندى * حِمًى فى القلبِ ، لا يُرْعَى حِمَاها
يُذَكِّرُنى ابنةَ التَّيْمِىّ ظبىٌ * يَرُودُ بروضةٍ سَهْلٍ رُبَاها
فقلتُ له وكاد يُرَاعُ قلبى * فلم أرَ قطُّ كاليوم اشتباها
سِوَى حَمْشٍ(١) بساقِكَ مستبينٍ * وأنّ شَوَاكَ(٢) لم يُشْبِهْ شَوَاها
وأنكَ عاطلٌ عارٍ وليست * بعاريةٍ ولا عُطُلٍ يداها
وأنكَ غيرُ أفرعَ(٣) وهى تُدْلِى * على المَتْنَيْنِ أسْحَمَ(٤) قد كساها
ولو قعدتْ ولم تُكَلَّفْ بودٍّ * سِوَى ما قد كَلِفتُ به كَفَاها
أظلُّ إذا أُكَلِّمُها كأنّى * أُكلِّمُ حيّةً غَلَبَتْ رُقَاها
تَبِيتُ إلىّ بعد النوم تَسْرِى * وقد أمسيتُ لا أخشى سُرَاها

ولـه :

أنّى وأوّلَ ما كَلِفتُ بحبّها * عَجَبٌ وهل فى الحبّ من متعجَّبِ
نعتَ النساءُ فقلتُ لستُ بمُبْصِرٍ * شَبَهًا لها أبدًا ولا بمُقارِبِ

(١) الحمش : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .
(٤) الأسحم : الأسود ، يريد به الشعر .

فمكثْنَ حِينًا ثم قُلْنَ توجّهتْ * للحجِّ ، موعِدُها لِقاءُ الأخْشبِ (١)

أقبلتُ أنظُر ما زعَمْنَ وقُلْنَ لى * والقلبُ بينَ مُصدِّق ومُكذِّب

فلقيتُها تمْشِى بها بَغلاتُها * ترمِى الجِمارَ عشيَّةً فى موْكبِ

غَرّاءَ يُعْشِى الناظرين بياضُها * حَوْراءَ فى غُلَواءِ (٢) عيشٍ مُعْجِبِ

إنّ التى مِنْ أرضِها وسمائِها * جُلِبَتْ لحَيْنِك ليتَها لم تُجْلَبِ

وكان عمر بن أبى ربيعة يهوَى كلْثم بنتَ سَعْدٍ المخزُومِيةَ ، فأرسلَ إليها رسولا فضربتْها وحلقتْها وأحلفتْها ألّا تُعاوِدَ ، ثم أعادها ثانيةً ففعلتْ بها مثلَ ذلك ، فتحاماها رسُلُه ؛ فابتاع أمَةً سَوْداءَ لطيفةً رقيقةً وأتى بها منزلَه فأحسن اليها وكَساها وآنسها وعرَّفها خبرَه وقال لها : إن أوْصلتِ لى رُقْعةً الى كلْثمَ فقرأتْها فأنتِ حرّةٌ ولكِ معيشتُكِ ما بَقِيتِ ؛ فقالت : اكتُبْ لى مُكاتَبةً (٣) واكتبْ حاجتَك فى آخرها ، ففعل ذلك ، فأخذتْها ومضتْ بها الى باب كلْثمَ فاستأذنتْ فخرجتْ إليها أمَةٌ لها فسألتْها عن أمرِها ؛ فقالت : مكاتَبةٌ لبعض أهل موْلاتِك جئتُ أسْتعينُها فى مكاتَبتى ، وحادثتْها وناشدتْها حتى ملأتْ قلبها ، فدخلتْ الى كلْثمَ وقالت : إن بالباب مكاتَبةً لم أرَ قطُّ أجملَ منها ولا أكلَ ولا آدبَ ؛ فقالت : ائْذَنِى لها ، فدخلتْ ، فقالتْ : من كاتَبكِ ؟ قالت : عمرُ بن أبى ربيعة الفاسقُ ! فاقرئى مكاتَبتى ، فمدّتْ يدَها لتأخذها فقالت لها : لى عليكِ عهدُ الله أن تَقرَئيها ، فإن كان منكِ الىّ شىءٌ ممّا أُحبُّه وإلّا لم يَلْحَقْنِى منكِ مكروهٌ ، فعاهدتْها وفَطِنَتْ وأعطتْها الكتابَ ، فإذا أوّلُه :

من عاشقٍ صَبٍّ يُسِرُّ الهوى * قد شَفّه الوجدُ الى كلْثمِ

رأتكِ عَيْنِى فدعانى الهوى * إليكِ للحَيْنِ ولم أعْلَمِ

---

(١) الأخشب : مفرد الأخشبين وهما جبلان بمكة أحدهما أبوقبيس والآخر قعيقعان ، ويقال : هما أبوقبيس والجبل الأحمر المشرف هنالك ، وقد تفرد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جؤية :

ومقامهن إذا حبسن بمأزم * ضيق ألف وصدّهن الأخشب

(٢) فى غلواء عيش : فى أنضره وأرغده . (٣) المكاتبة : أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤدّيه إليه منجما (مقسطا) فإذا أداه صار حرا ، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ، ومولاه يكتب له عليه عتقه .

قَتَلْتِنا ، يا حبّذا أنتمُ * فى غيرِ ما جُرْمٍ ولا مأثمِ
واللهُ قد أنزلَ فى وَحْيِهِ * مُبيّنًا فى آيهِ المُحْكَمِ
من يقتُلِ النفسَ كذا ظالمًا * ولم يُقِدْها نفسَه يظلِمِ
وأنتِ ثأرِى فتلافَىْ دمى * ثم اجعليه نعمةً تُنْعِمى
وحَكِّمِى عدلًا يكُنْ بيننا * أو أنتِ فيما بيننا فاحْكُمِى
وجالِسِينى مجلسًا واحدا * من غيرِ ما عارٍ ولا محْرَمِ
وخبِّرِينى ما الذى عندكم * باللهِ فى قتلِ امرئٍ مُسلمِ

فلما قرأتِ الشعرَ قالت لها : إنه خدّاعٌ مَلِقٌ وليس لما شكاه أصلٌ ، قالت : يامولاتى ، فما عليكِ من امتحانه ؟ قالت : قد أذنتُ له وما زال حتى ظفِرَ ببُغْيَته ! فقولى له : إذا كان المَسَاءُ فليَجْلِسْ فى موضع كذا وكذا حتى يأتيَه رسولى ، فانصرفتِ الجاريةُ فأخبرته فتأهّب لها ، فلما جاءه رسولُها مضَى معه حتى دخل إليها وقد تهيّأتْ أجملَ هيئة ، وزيّنتْ نفسَها ومجلسَها وجلَسَتْ له من وراء سِتْرٍ ، فسلَّم وجلَس ، فتركتْه حتى سكَن ثم قالت له : أخبِرْنِى عنكَ يافاسق ! ألستَ القائل :

هلّا ارْعَوَيْتِ فترْحَمِى صَبًّا * صَدْيانَ لم تدَعِى له قلبًا
جَشِمَ الزيارةَ فى مودّتكم * وأراد ألّا تُرْهَقِى ذَنْبًا
ورجَا مُصالَحَةً فكان لكم * سَلْمًا وكنتِ ترَيْنَه حَرْبًا
يا أيها المُصْفِى مودّتَه * مَنْ لا يراكَ مُسامِيًا خِطْبًا (١)
لا تجْعَلَنْ أحدًا عليك اذا * أحببتَه وهَوِيتَه ربًّا
وصِلِ الحبيبَ إذا شُغِفْتَ به * واطْوِ الزيارةَ دونَه غِبًّا
فلذاكَ أحسنُ من مُواظَبةٍ * ليستْ تزيدُكَ عنده قُرْبًا
لا بل يَمَلُّكَ عند دعْوته * فيقولُ هاه (٢) وطالمَا لَبَّى

(١) الخطب : الخاطب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرّك لضرورة الشعر وقد روى البيت فى ديوانه :

لا بل يملّك ثم تدعو باسمه * فيقول هاه وطالما لبّى

ورأى عمرُ لُبَابَةَ بنتَ عبدِ الله بن العباس آمرأةَ الوليدِ بن عُتْبَةَ بن أبى سفيان تَطُوف بالبيت فرأى احسنَ خَلْق الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسال عنها فأخبر بنسبها ، فنسَب بها وقال فيهـا :

وَدِّعْ لُبَابَةَ قبـلَ أن تترحَّلا * وآسْأَلْ فإنّ قُلَالَهُ(١) أن تَسْأَلَا
الْبَثْ بِعُمْرِكَ ساعةً وتأنَّهـا * فلعلَّ ما بَخِلَتْ به أن يُبْـذَلَا
قال آئتَمِرْ(٢) ما شئتَ غيرَ مُخالِفٍ * فيما هَوِيتَ فإننا لن نَعْجَلَا
لَسْنا نُبَالِى حين تَقْضِى حاجةً * ما باتَ أو ظَلَّ المَطِىّ مُعَقَّلَا
حتى إذا ما الليلُ جَنَّ ظَلَامُه * ورَقَبْتُ غفلةَ كاشِحٍ أن يَمْحَلَا
خرجتْ تأطَّرُ(٣) فى الثياب كأنها * أَيْمٌ(٤) يَسِيبُ على كثيبٍ أَهْيَـلَا
رحَّبتُ حينَ رأيتُها فتبسَّمَتْ * لتحيَّتِى لمّـا رأتْنِى مُقْبِـلَا
وجَلَا القِنَاعُ سَحَابةً مشهورةً * غَرَّاءَ تُعْشِى الطَّرْفَ أن يتأمَّلَا
فلبثْتُ أَرْقِيها بمـا لو عاقـلٌ(٥) * يُرْقَى به ما آسْطاعَ ألّا يَنْزِلَا

وشَجَتْهُ رَمْلَةُ بنتُ عبد الله بنِ خَلَفٍ الخُزَاعيَّةُ فقال فيها :

أَصْبحَ القلبُ فى الحِبَالِ رَهِينَا * مُقْصَـدًا يومَ فارقَ الظَّاعِنِينَا
عَجِلَتْ حُمَّـةُ الفـراقِ علينـا * برَحِيلٍ ولم نَخَفْ أن تَبِينَا
لم يَرُعْـنِى إلّا الفتـاةُ وإلّا * دمعُهـا فى الرداءِ سَحًّا سَـنِينَا
ولقـد قلتُ يومَ مكةَ سِرًّا * قبـلَ وَشْكٍ من بَيْنِكم نَوِّلِينَا
أنتِ أهوَى العبـادِ قُرْبًا ودلًّا * لو تُنِيلِين عاشـقًا محزونَا
قادهُ الطَّرْفُ يومَ مَرَّ إلى الحيـ * ـنِ جِهارًا ولم يَخَفْ أن يَحِينَا

(١) القلال كغراب وسحاب : القليل . (٢) ائتمر ما شئت : اعمل ما شئت فإننا لا نعصى لك أمرا .
(٣) تأطر : محذوفة إحدى تاءيه ، أى تثنى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل يعقل عقولا : امتنع فى الجبل ، وبه سمى الوعل عاقلا على حدّ التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كبارح الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهى تيوس الجبل البرية

فاذا نعجةٌ تـــراعى نِعاجًا ٭ ومَهًا يُهْجُ المناظرِ عِينَا
قلتُ مَنْ أنتمُ فصدَّت وقالتْ ٭ أَمُبِـدٌّ(١) سـؤالكَ العالَمِينا
قلتُ باللهِ ذى الجـلالة لمـا ٭ أن تَبلْتِ الفؤادَ أن تَصْدُقينا
أىّ من تجمـعُ المواسمِ قولى ٭ وأبيني لنـا ولا تكتُمينا
نحن من ساكنى العِراقِ وكُنّا ٭ قبـلَه قاطنين مكةَ حِينا
قد صدقناكَ إذ سألتَ فمن أنـ ٭ ـتَ عسى أن يَجُرّ شأنٌ شُؤونا
ونَرَى أننـا عَرَفْنـاك بالنعـ ٭ ـتِ بظَنٍّ وما قتلْنَا يَقِينَا
بسَـوادِ الثَّنِيَّتَيْنِ ونَعتٍ ٭ قــد نَراه لناظــرٍ مُسْتَبِينا

وقال فى الثريا وقد صَرَمته .

مَنْ رَسُولِى إلى الثريا فإنّى ٭ ضِقْتُ ذَرْعًا بهجرِها والكتابِ
سلبتْنى مُجَاجَةُ(٢) المِسْكِ عقلى ٭ فَسَلُوها ماذا أَحَلَّ اغتصابى
وهى مكنونةٌ تحيَّرَ منها ٭ فى أديمِ الخدَّيْنِ ماءُ الشبابِ
أبرزُوها مثلَ المَهاةِ تَهادَى(٣) ٭ بين خَمْسٍ كَواعبٍ أتْرابِ
ثم قالوا تُحبُّها قلتُ بَهْراً ٭ عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ
أَزْهَقَتْ أمُّ نَوفلٍ إذ دَعَتْها ٭ مُهْجَتى(٤) ، ما لِقاتلى مِنْ مَتابِ
حين قالتْ لها أجيبى فقالتْ ٭ مَنْ دعانى قالت أبو الخطّابِ
فاستجابتْ عنـد الدعاء كما لبَّـ ٭ ـى رجالٌ يَرجُون حسنَ الثوابِ

(١) قال فى اللسان مادة بدد بعد أن أورد هذا الشطر : «معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تعمهم» . من البداد وهو أن يبذ المال القوم فيقسم بينهم ، وأبدهم المال والعطاء : فرقه فيهم ، والمراد : لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : «أأنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه بدّ» ، والمراد : أأنت ملزمنا الإجابة عن سؤالك ! إنا لانجيبك . (٢) مجاجة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وأنه كالمسك . (٣) تهادى ، يريد يهادى بعضها بعضا فى مشيتها (الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩ : أزهقت : أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل : (فيدمغه فاذا هو زاهق) اهـ . يريد : أذهبت أم نوفل نفسى إذ دعت الثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كتبتُ إليكَ من بلدى ◦ كتابَ مُولَّه كَمِدِ

كئيبٍ واكفِ العينيـ(١) ◦ ـن بالحسرات منفردِ

يُؤرِّقه لهيبُ الشو ◦ قِ بين السَّحْرِ(٢) والكَبِدِ

فيُمسِك قلبَه بيدٍ ◦ ويمسَحُ عينَه بيدِ

لما تزوج سُهيلُ بنُ عبد العزيز الثُّريا ونقلها الى الشام، بلغ عمرَ بنَ أبى ربيعة الخبرُ، فأتى المنزلَ الذى كانت الثريا تنزِلُه، فوجدها قد رحلتْ منه يومئذٍ، فخرج فى أثرها فلحقها على مرحلتين، وكانت قبل ذلك مهاجرته لأمرٍ أنكرته عليه، فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه الى غلامه ومشى متنكرًا حتى مرَّ بالخيمة، فعرفته الثريا وأثبتتْ(٣) حركته ومشيته، فقالت لحاضنتها(٤) : كلِّميه، فسلَّمتْ عليه وسألته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه، فاعتذر وبكى، فبكتِ الثريا، فقالت : ليس هذا وقتَ العتاب مع وشك الرَّحيل، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودّعها وبكيا طويلًا، وقام فركب فرسه ووقف ينظر اليهم وهم يرحلون(٥)، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا، وأنشأ يقول :

يا صاحبيَّ قفا نستخبرِ الطَّللا ◦ عن حالِ مَنْ حلَّه بالأمسِ ما فعلا

فقال لى الرَّبعُ لما أن وقفتُ به ◦ إنّ الخليطَ أجدَّ(٦) البينَ فاحتملا(٧)

وخادعتكَ النَّوى(٨) حتى رأيتَهمُ ◦ فى الفجرِ يحتثُّ حادى عيسِهم زَجِلا

(١) يقال : وكفت العين : سالت دموعها . (٢) السحر : الرئة .

(٣) أى عرفتها حق المعرفة . (٤) لحاضنتها : لمربيتها . (٥) يرحلون يشدون على إبلهم الرحال . (٦) أجدّ البين : اعتزمه . (٧) احتمل : ارتحل . (٨) النوى : الفراق والبعد . ويحتث : يسوق . وزجلا : رافعا صوته فى حداء الإبل لتسرع فى السير، وأصل الزجل الجلبة ورفع الصوت وخص به التطريب، وأنشد سيبويه فى وصف حمار وحش :

له زجل كأنه صوت حاد ◦ اذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره فى باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهى هنا حذف الواو المبينة لحركة الهاء فى قوله : كأنه . والوسيقة : أتانه التى يضمها ويجمعها، من وسقت الشىء : جمعته .

لما وَقَفْنَا نُحَيِّيهم وقد صَرَخَتْ ∘ هَوَاتِفُ البَيْنِ وآستوت بهم أُصُلَا (١)
صَدَّتْ بِعادًا وقالتْ للتى معها ∘ باللهِ لُومِيهِ فى بعضِ الذى فَعَلَا
وحَدِّثِيهِ بما حُدِّثْتِ وآسْتَمِعى ∘ ما ذا يقول ولا تَعْيَى به جَدَلَا (٢)
حتى يَرَى أنّ ما قال الوُشاةُ له ∘ فينا لَدَيْه إلينا كلُّه نُقِلَا
وعَرِّفِيهِ به كالهَزْلِ وآحْتَفِظِى ∘ فى بعضِ مَعْتَبةٍ أن تُغْضِبِى الرجُلَا
فإنّ عَهْدِى به واللهُ يَحْفَظُه ∘ وإن أتى الذنبَ ممن يَكْرَه العَذَلَا
لو عندنا آغْتِيبَ أو نِيلَتْ نقيصتُه ∘ ما آبَ مغتابُه من عندنا جَذِلَا
قلتُ آسْمَعِى فلقد أبلغتِ فى لَطَفٍ (٣) ∘ وليس يَخْفَى على ذى اللُّبِّ من هَزَلَا
هذا أرادتْ به بُخْلًا لأعْذِرَها ∘ وقد أرَى أنها لن تَعْدَمَ العِلَلَا
ما سُمِّىَ القلبُ إلا من تَقَلُّبِه ∘ ولا الفؤادُ فؤادًا غيرَ أنْ عَقَلَا (٤)
أمّا الحديثُ الذى قالتْ أُتِيتَ به ∘ فما عَبَأْتُ به إذ جاءنى حِوَلَا
ما إن أطَعْتُ بها بالغَيْبِ قد عَلِمَتْ ∘ مقالةَ الكاشحِ الواشِى إذا مَحَلَا
إنّى لأُرْجِعُه فيها بسَخْطَتِه ∘ وقد يَرَى أنه قد غرّنى زَلَلَا

وهى قصيدة طويلة مذكورة فى شعره .

---

(١) فى ديوانه :

لما وقفنا نحييهم وقد شحطت ∗ نعامة البين فاستوت بهم أصلا

وشحطت نعامة البين : ارتحلوا وفرقهم البين ، وفى اللسان مادة نعم وشال : يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم أو تفرقوا : قد خفت نعامتهم وشالت نعامتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو العشى وقيل هو مفرد ، أنشد ثعلب :

وقد ذرت نفسى لذاك ولم أزل ∗ بدلا نهارى كله حتى الأصل

فقوله : بدلا نهارى كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعيى به جدلا : لا تعجزى فى مجادلته . (٣) اللطف لغة فى اللطف . (٤) قال فى اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب لتفؤده وتوقده . وقال فى القاموس وشرحه : والتفؤد : التحرق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأن عقل الفؤاد للعلومات نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يحصلها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تَعْرِف الدارَ والأطلالَ والدِّمَنا ۞ زِدْنَ الفـؤادَ على عِلَّاتِه[١] حزَنا
دارٌ لأسماءَ قد كانت تَحُـلُّ بهـا ۞ وأنتَ إذ ذاك قد كانت لكم وَطَنا
لم يُحْبِب القلبُ شيئا مِثـلَ حُبِّكُمُ ۞ ولم تَرَ العينُ شيئا بعدكم حَسَنا
مَا إنْ أُبالِى أدام اللهُ قُـرْبَكُمُ ۞ مَنْ كان شَطَّ من الأحباء أو ظَعَنا
فإن نَأَيْتُمْ أصـاب القلبَ نَأْيُـكُمُ ۞ وإن دَنَتْ داركم كنتم لنا سَكَنا
إن تَبْخَلِى لا يُسَـلِّ القلبَ بُخْلُكُمُ ۞ وإن تَجُودِى فقـد عَنَّيْتِنِى زَمَنـا
أمسى الفـؤادُ بكم يا هِنْـدُ مُرْتَهَنا ۞ وأنتِ كُنْتِ الهوى والهَمَّ والوَسَنا
إذ تَسْتَبِيكَ بمَصْـقولٍ عَوارِضـه ۞ ومُقْلَتَىْ جُؤْذُرٍ لم يَعْـدُ أن شَـدَنا

وقال :

أَعَبْـــدَةُ ما يَنْسَى مَوَدَّتَكِ القلبُ ۞ ولا هُـوَ يُسْـلِيه رَخاءٌ ولا كَرْبُ
ولا قـولُ واشٍ كاشحٍ ذى عداوة ۞ ولا بُعْـدُ دارٍ إن نَأَيتِ ولا قُرْبُ
وما ذاكِ من نُعْمَى لَدَيْكِ أصابها ۞ ولكنَّ حُبًّا ما يُقارِبه حُبُّ
فإن تَقْبَـلِى يا عَبْدَ تَوْبَةَ تائبٍ ۞ يَتُبْ ثُمَّ لا يُوجَـدْ له أبدًا ذَنْبُ
أذِلُّ لكم يا عَبْـدَ فـيما هَـوِيتُمُ ۞ وإنى إذا ما رامنى غيرُكم صَـعْبُ
وأعْذُل نفسى فى الهـوى فتَعُوقُنى ۞ ويَأْصِرُنى قلبٌ بكم كَلِفٌ صَبُّ
وفى الصبر عَمَّنْ لا يُؤاتيك راحةٌ ۞ ولكنَّه لا صَبْرَ عنـدى ولا لُبُّ
وعَبْـــدَةُ بيضاء المَحاجِرِ طَفْـلَةٌ ۞ منعمةٌ تُصْـبِى الحليمَ وما تَصْـبو
قَطُوفٌ من الحُورِ الأوانس بالضحى ۞ مَتَى تَمْشِ قِيسَ الباعِ من بُهْرِها تَرْبُو
فَلَسْتُ بناسٍ يَوْمَ قالت لأربعٍ ۞ نَوَاعِمَ غُرٍّ كُلُّهنَّ لهـا تِرْبُ
ألا لَيْتَ شِعْرِى فِيمَ كان صُدُوده ۞ أُعَلِّقَ أخرى ! أم عَلَىَّ به عَتْبُ

(١) كذا فى ديوانه وفى الأغانى ج ١ ص ٢٧٩ « على ما عنده » .

وقال :

إنَّ طَيْفَ الخيالِ حِينَ أَلَمَّا ∘ هاجَ لى ذُكْرَةً وأحْدَثَ هَمَّا
جَدِّدِي الوَصْلَ ياسُكَيْنُ وَجُودِي ∘ لِمُحِبٍّ رَحِيلُهُ قد أَحَمَّا
ليسَ بينَ الحياةِ والموتِ إلّا ∘ أنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتُزَمَّا
ولقد قلتُ مُخْفِيًا لِغَرِيضٍ ∘ هَلْ تَرَى ذلكَ الغَزَالَ الأَحَمَّا
هَلْ تَرَى فوقَهُ من الناسِ شَخْصًا ∘ أحْسَنَ اليومَ صورةً وأتَمَّا
إن تُنِيلِي أَعِشْ بخيرٍ وإنْ لَمْ ∘ تَبْذُلى الوُدَّ مُتُّ بالهَمِّ غَمَّا

وله أيضا :

أيا مَنْ كانَ لى بَصَرًا وسَمْعًا ∘ وكَيْفَ الصَّبْرُ عن بَصَرِى وسَمْعِى
وعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُهُ فُؤَادِى ∘ يَفِيضُ كما يَفِيضُ الغَرْبُ دَمْعِى
يقولُ العاذلون نَأَتْ فَدَعْها ∘ وذلكَ حِينَ تَهْيَامِى وَوَلْعِى
أأَهْجُرُها فأَقْعُدَ لا أراها ∘ وأَقْطَعُها وما هَمَّتْ بقَطْعِى
وأَصْرِمُ حَبْلَها لِمَقَالِ وَاشٍ ∘ وأَفْجَعُها وما هَمَّتْ بفَجْعِى
وأُقْسِمُ لو خَلَوْتُ بهَجْرِ هِنْدٍ ∘ لَضَاقَ بهَجْرِها فى النومِ ذَرْعِى

وهو القائل :

ما كُنْتُ أَشْعُرُ إلّا مُذْ عَرَفْتُكُمُ ∘ أَنَّ المَضَاجِعَ تُمْسِى تُنْبِتُ الإبَرَا
لقدْ شَقِيتُ وكانَ الحَيْنُ[1] لى سَبَبًا ∘ أنْ عُلِّقَ القَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الحَجَرَا
قَدْ لُمْتُ قَلْبِى فأَعْيَانِى بواحدةٍ ∘ وقالَ لى لا تَلُمْنِى وادْفَعِ القَدَرَا
إنْ أُكْرِهِ الطَّرْفَ يَحْسِرْ دونَ غيرِكُمُ ∘ ولَسْتُ أُحْسِنُ إلّا نَحْوَكِ النَّظَرَا
قالوا صَبَوْتَ فلمْ أُكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ ∘ وليسَ يَنْسَى الصِّبَا إنْ وَالِهٌ كَبِرَا

(١) الحين : المحنة .

وقال أيضا :

ألا لَيْتَ قَبْرِى يوم تُقْضَى مَنِيَّتِى ⁂ بتلك التى مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ والفمِ

ولَيْتَ طَهُورِى كان رِيقَكِ كُلَّه ⁂ وليت حَنُوطى من مُشَاشِكِ والدَّمِ

ألا لَيْتَ أمّ الفضْل كانت قَرِينَتِى ⁂ هُنَـا أو هُنَـا فى جَنَّةٍ أو جَهَنَّمِ

نظر عمرُ بن أبى ربيعةَ فى الطَّوَاف الى امرأةٍ شريفةٍ فرأى أحسنَ خَلْق الله صورةً، فذَهَب عقلُه عليها وكلَّمها فلم تُجِبْه، فقال فيها :

الريحُ تَسْـحب أذْيالا وتَنْشُرها ⁂ يا ليتنى كنتُ ممَّن تَسْحب الريحُ

كَيْما تَجُرَّ بنا ذَيْلًا[1] فتَطْرَحنا ⁂ على التى دونَها مُغْبرةٌ[2] سُوحُ[3]

أنَّى بقُـرْبِكُمُ أم كيفَ لى بكُمُ ⁂ هَيْهاتَ ذلكَ ما أمْسَتْ لنا رُوحُ

فليت ضِعْفَ الذى ألْقَى يكونُ بها ⁂ بل ليت ضِعْفَ الذى ألْقَى تَبارِيحُ[4]

إحْـدَى بُنَيَّاتِ عَمِّى دون منزلها ⁂ أرضٌ بقِيعَاتِها القَيْصُومُ[5] والشِّيحُ

فبلَغها شعرُه فجَزِعتْ منه، فقيل لها : اذكُرِيه لزوجك، فإنه سيُنْكِر عليه قولَه، فقالت : كلّا والله لا أشكوه إلا إلى الله، ثم قالت : اللهم إن كان نَوَّه باسْمِى ظالمًا فاجعلْه طعامًا للريح، فضَرَب الدهرُ مِنْ ضَرْبه، ثم إنه غدا يومًا على فرس فهبّتْ ريحٌ فنَزَل فاستتر بسَلَمةٍ، فعصفَتِ الريحُ فخدَشَه غُصْنٌ منها، فدَمِىَ ووَرِمَ به ومات من ذلك .

---

(١) هذا أحد الوجهين فى الفعل الواقع بعد كيما : الرفع على أن ما كافة لها عن العمل، والنصب على أن ما زائدة وكى عاملة فيا بعدها، وقد روى بالوجهين :

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما ⁂ يرجى الفتى كيما يضرّ وينفع

(٢) مغبرة، يريد بها الفلاة المجدبة . (٣) سوح : جمع ساحة وهى الفضاء . (٤) تباريح الشوق : توهجه، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجموع التى لا مفرد لها وقيل : مفرده تبريح واستعمله المحدثون وليس بثبت . (٥) قال فى اللسان : القيصوم : ما طال من العشب، ثم قال : والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة : القيصوم من الذكور ومن الأمرار وهو طيب الرائحة من رياحين البر وورقه هدب وله نورة صفراء وهى تنهض على ساق وتطول .

(ب) الغــزل العــذرى

جميــــل[1]

قال نُصَيْب مولى عبد العزيز بن مروان: قدِمتُ المدينة فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لى: الوَليد بن سَعيد الأشجعى، فوجدته بشِعْب سَلْع مع عبد الرحمن بن حسّان وعبد الرّحمن بن أزْهَر، فإنّا لجلوسٌ إذ طلع علينا رجل طويلُ بينِ المَنْكِبين يقود راحلةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحا مقدما جامعا للشعر والرواية. اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بثينة، وكانا يقيمان فى وادى القرى، وكان أول عهده بها وهى صغيرة. ومن أوائل نظمه فيها قوله:

وأوّل ما قاد المودّة بيننا ⁎ بوادى بغيض يا بثين سباب
وقلت لها قولا فجاءت بمثله ⁎ لكل كلام يا بثين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. واتفق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلى مر ببنى عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فثارت الغيرة فى قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحمير، قال: هل لك فى الصراع؟ قال: ذلك إليك، فأعطته بثينة ملاءة حمراء فأتزر بها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك فى النضال؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل. ثم قال: هل لك فى السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك بريح الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، فهبط، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل، ولما رأت مناضلة عنها زادت شغفا به، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريبة. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففر إلى اليمن حتى عزل العامل. وانتجع أهل بثينة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فعنفه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأخيرا لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البزة، توفى سنة ٨٢ ﻫ.

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهورا فى أيام ابن خلكان ولم نقف على خبره، ولكن منه أشعارا مجموعة فى كتاب منه نسخة خطية فى مكتبة برلين.

أنظر الكلام على جميل فى الأغانى ج ٧ ص ٧٧ وج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ وخزانة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بِزّةٌ حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر: يا أبا جَبْر، هذا جميل فادعُه لعله يُنْشِدنا، فصاح به عبد الرحمن: هَيَا جميلُ، فالتفتَ فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد الرحمن بن أزهر، فقال: قد علمتُ أنه لا يجترئ علىَّ إلا مثلك، فأتاه، فقال له: أنشدنا، فأنشدهم:

ونحن منعنا يوم أوّلِ نساءَنا * ويوم أُفَيٍّ والأسنّة ترعُف(١)
يُحبّ الغوانى البيضُ ظلَّ لوائنا * اذا ما أتانا الصارخُ المتلهِّف
نسير أمام الناس والناسُ خلفَنا * فإن نحن أومأنا الى الناس وقّفوا
فأىّ معدّ كان فَىْءُ رماحه * كما قد أفأنا والمفاخر يُنصِف
وكنا اذا ما معشرٌ نصبوا لنا * ومرّتْ جوارى طيرِهم وتعيّفوا(٢)
وضعنا لهم صاعَ القِصاص رهينةً * بما سوف نُوفيها اذا الناسُ طَفّفوا(٣)
اذا استبق الأقوامُ مجدًا وجدتَنا * لنا مَغْرَفا مجدٍ وللناس مَغْرَف

ثم قال له: أنشدنا هَزَجًا، قال: وما الهزج؟ لعله القصير! قال: نعم، فأنشده:

رسمُ دارٍ وقفتُ فى طَلَله * كِدتُ أقضى الحياة من جَلَله(٤)
مُوحِشًا ما ترى به أحدًا * تنسج الريحُ تُربَ معتدِله
وصريعًا بين الثُّمام ترى * عازفاتُ المدبَ فى أسله
بين عَلْياء رائش فُبلىٍّ * فالغَميم الذى الى جَبَله
واقفًا فى ديار أم جُسَيرٍ * من ضُحَى يومه الى أُصُله
يا خليلىَّ إنّ أم جُسَيرٍ * حين يدنو الضجيعُ من عَلَله(٥)
روضةٌ ذاتُ حَنْوةٍ وخُزامى * جاد فيها الربيعُ من سَبَله(٦)
بينما نحن بالأراك معًا * اذ بدا راكبٌ على جَمَله

(١) ترعف: تقطر دما. (٢) تعيفوا: من العيافة، وهى زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتسعد أو يتشاءم. (٣) التطفف: نقص الكيل. (٤) من أجله. (٥) العلل: جمع علة، وهى ما يتوارى فيه أو شعار تحت الثوب. (٦) السبل: المطر.

فتأطَّرتُ[١] ثم قلتُ لها * أكرميه حُيِّيتِ فى نُزُله
فظَلِلْنا بنعمةٍ واتَّكأنا * وشربنا الحلالَ من قُلَله
قد أصونُ الحديثَ دون أخٍ * لا أخافُ الأذاةَ من قِبَله
غيرَ بغضٍ له ولا ملقٍ * غير أنى أشحتُ[٢] من وَجَله
وخليلٍ صافيتُ مرتضيا * وخليلٍ فارقتُ من مَلَله

ثم اقتاد راحلته موليا، فقال ابن الأزهر: هذا أشعر أهل الإسلام، فقال ابن حسان: نعم والله وأشعرُ أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثلُ هجائه ولا نسيبه، فقال عبد الرحمن ابن الأزهر: صدقت.

قال محمد بن سَلَّام: كان لكُثيِّر فى النسيب حظٌّ وافر، وجميلٌ مقدم عليه وعلى أصحاب النسيب فى النسيب، وكان جميلٌ صادق الصَّبابة والعشق، ولم يكن كُثيِّر بعاشق ولكنه كان يتقوّل، وكان الناس يستحسنون بيت كثيِّر فى النسيب، وهو:

أُريد لأنسى ذكرَها فكأنما * تمثَّلُ لى ليلى بكل سبيلِ

ورأيت من يفضِّل عليه بيتَ جميل:

خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما * قتيلًا بكى من حبِّ قاتله قبلى

قيل إن بثينة واعدتْ جميلا أن يلتقيا فى بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابى يستضيف القوم، فأنزلوه وقَرَوْه، فقال لهم: قد رأيتُ فى بطن هذا الوادى ثلاثة نفر متفرّقين متوارين فى الشجر وأنا خائفٌ عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحباه، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيِّئ الظن بها ورجع الى أهله، فجعل نساء الحىّ يقرِّعنه بذلك ويقلن له: انما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر، وغيرُها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظَى بها، فقال فى ذلك:

---

(١) تأطرت: تلبث. (٢) أشاح: حذر وخاف.

فأجبتُها بالقـــول بعـــد تســـتُّرٍ ٭ حبِّي بُثَينـــةَ عن وِصالكِ شاغلي
أبُثَينَ إنك قـــد مَلَكتِ فأسجِحي (١) ٭ وخُذى بحظّكِ من كريم واصـــل
فلربَّ عارضـــةٍ علينـــا وصلَهـــا ٭ بالجـــدّ تخلطه بقـــول الهـــازل
لو كان فى صـــدرى كقَدْرِ قُلامةٍ ٭ فضـــلًا وصلتُكِ أو أتتكِ رسائلى
ويقلن إنك قد رضيتَ بباطلٍ ٭ منها فهل لك فى اجتناب الباطل
ليُزِلْنَ عنـــك هـــواى ثم يَصِلْنَنى ٭ وإذا هَويتُ فمـــا هـــواى بزائل
صادت فؤادى يا بُثَين حبـــالكم ٭ يوم الحَجُـــون وأخطأتْكِ حبائلى
مَنَّيْتِـــنى فَلَوَيتِ ما منّيتِـــنى ٭ وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجل
وتثاقلتْ لمـــا رأت كَلَفى بهـــا ٭ أحْبِبْ الىّ بذاك من متثاقل
وأطعتِ فىّ عواذلًا فهجـــرتِنى ٭ وعَصَيْتُ فيكِ وقد جَهَدنَ عواذلى
حاولْنَنى لأبُتَّ حبـــلَ وصالكم ٭ منّى ولستُ وإن جَهَـــدنَ بفاعل
فرددتُهنّ وقد سَعَيْنَ بهجركم ٭ لمـــا سـعين له بأفوقَ ناصـــلِ (٢)
يَعْضَضْن من غيـــظٍ علىّ أناملًا ٭ ووَدِدتُ لو يعضَضْنَ صُمَّ جنادِلِ
ويقلن إنكِ يا بُثَين بخيـــلةٌ ٭ نفسى فداؤكِ من ضنينٍ باخل

وقال جميل فى وعد بثينة بالتلاقى وتأخُّرها قصيدةً أولها :

يا صاحِ عن بعض الملامة أقْصِرِ ٭ إنّ المُنَى لِلقـــاءِ أمِّ المِسْـــوَرِ

ومنهـــا :

وكأنّ طارقَها على عَلَلِ الكَرَى ٭ والنجمُ وَهْنًـــا قـــد دنا لتَغَـــوُّرِ
يَسْتـــافُ (٣) ريحَ مُدامـــةٍ معجونةٍ ٭ بذكىّ مســـكٍ أو سَحِيقِ العنـــبرِ

(١) أسجحى : أحسنى العفو . (٢) الأفوق : السهم الذى كسر فوقه ، وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر . وناصل : لا نصل فيه . (٣) يستاف : يشم .

ومنها :

إنّى لأحفظُ غيبَكم ويسرّنى * اذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مُرسَلاً * أو نلتقى فيه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيّةَ بغتةً * إن كان يومُ لقائكم لم يُقدَرِ
أو أستطيع تجلُّداً عن ذكركم * فيُفيق بعض صبابتى وتفكُّرى

وفيه يقول :

لو قد تُجنّ كما أُجنّ من الهوى * لعذرتَ أو لظلمتَ إن لم تعذِرِ
والله ما للقلب من علمٍ بها * غيرُ الظنون وغيرُ قول المخبِرِ
لا تحسبي أنى هجرتُكِ طائعًا * حَدَثٌ لعمرُكِ رائعٌ أن تُهجَرى
فلتبكينّ الباكياتُ وإن أبُحْ * يوما بسرّك مُعلنًا لم أُعذَرِ
يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبعْ صَدَاى صداكِ بين الأقبُرِ
إنى اليكِ بما وعدتِ لناظرٌ * نظرَ الفقير الى الغنىّ المُكثِرِ
يعِد الديونَ وليس يُنجز موعدًا * هذا الغريمُ لنا وليس بمُعسِرِ
ما أنتِ والوعدَ الذى تَعِدِينَنى * إلا كبرقِ سحابةٍ لم تُمطِرِ
قلبى نصحتُ له فردّ نصيحتى * فمتى هجرتيه فمنه تكثّرى

وقال فى إخلافها إيّاه هذا الموعد :

ألا ليت ريعانَ الشبابِ جديدُ * ودهرًا تولّى يا بُثَين يعودُ
فنَغنَى كما كنا نكون وأنتمُ * قريبٌ واذ ما تبذلين زهيدُ
وما أنسَ ملأشياءِ لا أنسَ قولَها * وقد قربت نِضْوِى(١) أمصرَ تريدُ
ولا قولَها لولا العيونُ التى ترى * أتيتُكَ فاعذرنى فدتْكَ جدودُ
خليلىّ ما أُخفِى من الوجد ظاهرٌ * ودمعى بما قلتُ الغداةَ شهيد

(١) النضو : المهزول من الابل وغيرها .

ألا قــد أرى والله أنْ ربّ عَبْرةٍ * اذا الدار شَطَّت بيننا ستزيد
اذا قلتُ ما بى يا بثينـــةُ قاتلى * من الحبّ قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدّى بعضَ عقلى أعِشْ به * مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالبًا * ولا حُبُّها فيما يَبِيــدُ يبيــدُ
جزتك الجوازى يا بثينَ ملامةً * اذا ما خليلٌ بانَ وهو حميد
وقلتُ لها بَيْنى و بينكِ فاعلمى * من الله ميثاقٌ له وعهــود
وقد كان حُبّيكم طريفًا وتالدًا * وما الحبُّ إلا طارفٌ وتليــد
وإن عَرُوضَ(١) الوَصْل بينى و بينها * وإن سَهّلته بالمنى لَصَــعود
فأفنيتُ عيشى بانتظارى نوالَها * وأبليتُ ذاك الدهرَ وهو جديد
فليت وُشاةَ النـاس بينى وبينهـا * يدوفُ لهم سُمًّا طماطمُ سُــود(٢)
وليت لهم فى كل مُمْسًى وشـارقٍ * تضاعفُ أكبالٌ لهم وقيــود
ويحسب نسوانٌ من الجهل أننى * اذا جئتُ إيّاهن كنتُ أريد
فأقسم طَرْفى بينهن فيستوى * وفى الصدر بَوْنٌ بينهن بعيــد
ألا ليت شعرى هل أبيتَنّ ليـلةً * بوادى القُـرَى إنّى إذًا لسـعيد
وهل أهبِطَنْ أرضًا تظَلُّ رياحُها * لها بالثنايا القـاوياتِ(٣) وئيــد(٤)
وهل ألقيَنْ سُعْدَى من الدهر مرةً * وما رَثَّ من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقى الأهواءُ من بعـد يأسةٍ * وقد تُطلَبُ الحاجاتُ وهى بعيد
وهــل أزجُرَنْ حَرْفًا عَلاةً شِمِـلّةً * بخَرْقٍ تُباريهـا سَـوَاهمُ قُــود(٥)
على ظهر مرهوبٍ كأنّ نشوزَه * اذا جاز هُلّاكُ الطـريق رُقود

---

(١) العروض : الطريق فى عرض الجبل فى مضيق ؛ يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف : يخلط . وطماطم : جمع طمطم وهو من فى لسانه عجمة ، وأراد بالطماطم هنا : الموالى . (٣) القاويات : الخاليات . (٤) الوئيد : الصوت العالى الشديد . (٥) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة . والعلاة : المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والخرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الضامرة .

سَبَتْنِى بعينَىْ جُؤْذَرٍ وَسْطَ رَبْرَبٍ * وَصدرٍ كفاثور(١) اللُّجَيْنِ وجيد(٢)
تَزِيفُ(٣) كما زافتْ الى سِلفاتها * مُباهيةً طَيَّا الوِشاحِ مَيُود
اذا جئتُها يوماً من الدهرِ زائراً * تعرّض منفوضُ اليدينِ صَدُود
يَصُدّ ويُغضِى عن هواى ويجتنى * ذُنوباً عليها إنـه لعَنُود
فأصرِمُها خوفاً كأنى مُجانبٌ * ويغفـل عنا مرّةً فنعـود
فمن يُعْطَ فى الدنيا قريناً كمثلها * فذلك فى عيش الحياة رشيد
يموتُ الهوى منّى اذا ما لَقِيتُها * ويَحيا اذا فارقتُها فيعـود
يقولون جاهِدْ يا جميلُ بغَزْوةٍ * وأىَّ جهادٍ غيرهن أريد
لكل حديثٍ بينهن بشاشةٌ * وكلُّ قتيـلٍ بينهن شهيـد
ومن كان فى حبّ بُثَيْنـةَ يمترِى * فبَرْقاءُ ذى ضالٍ علىّ شهيـد
ألم تعلمى يا أمّ ذى الوَدْع أننى * أُضاحك ذكراكم وأنتِ صَلُود

بعثت أَمَةٌ لبثينة الى أبيها وأخيها وقالت لها: إن جميلا عندها الليلة، فأتياها مشتملَين على سيفين، فرأياه جالسا منها حَجْرةً(٤) يحدّثها ويشكو لها بثّه، ثم قال لها: يا بثينة، أرأيتِ ودّى إياك وشغفى بك ألا تجزِينَنِيه؟ قالت : بماذا؟ قال : بما يكون من المتحابين، فقالت له : ياجميل، أهذا تبغى! والله لقد كنتَ عندى بعيدًا منه، ولئن عاودت تعريضا بريبةٍ لا رأيتَ وجهى أبدا! فضحك وقال : والله ما قلتُ لكِ هذا إلا لأعلم ما عندك فيـه، ولو علمتُ أنك تجيبيننى لعلمتُ أنك تجيبين غيرى، ولو رأيتُ منـك مساعدةً لضربتُك بسيفى هـذا ما استمسك فى يدى، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتُك هجرةَ الأبد، أو ما سمعتِ قولى :

وإنى لأرضَى من بُثَينـةَ بالذى * لو ابصَرَه الواشى لقَرّتْ بلابِلُهْ
بلا وبألا أستطيعَ وبالمُنَى * وبالأملِ المرجوّ قد خاب آملُهْ
وبالنَّظْرة العَجْلَى وبالحول ينقضى * أواخرُه لا نلتقى وأوائلُه

(١) الفاثور : الخوان من رخام أو فضة أو ذهب . (٢) فى البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروى بالرفع والكسر . (٣) زاف : تبختر . (٤) أى ناحية .

فقال أبوها لأخيها : قم بنا، فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هــذا الرجل من لقائها، فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إنّ المنازلَ هيّجتْ أطرابى * واسْتعجمتْ آياتُها بجوابى
قفْرًا تلوحُ بذى اللُّجَين كأنّها * أنضاءُ رسمٍ أو سطورُ كتابِ
لما وقفتُ بها القلوصَ تبادرتْ * منى الدموعُ لفُرقة الأحبابِ
وذكرتُ عصرا يا بثينةُ شاقنى * وذكرتُ أيامى وشرخَ شبابى

لما نذر أهلُ بثينة دمَ جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعَد بالليل على قَوْزٍ(١) رمل يتنسّم الريحَ من نحو حىّ بثينة ويقول :

أيا ريحَ الشَّمالِ أما تَــرَيْنى * أهـيمُ وأننى بادِى النحــولِ
هَبى لى نَسمةً من ريحِ بَثْنٍ * ومُنّى بالهبُـوبِ الى جميــلِ
وقولى يا بثينــةُ حَسْبُ نفسى * قليــلُك أو أقلُّ من القليلِ

ومن قوله :

يَقيكِ جميــلٌ كلَّ سوءٍ أما له * لديك حديثٌ أو اليك رسولُ
وقد قلتُ فى حُبى لكم وصَبابتى * محاسنَ شعرٍ ذكرُهن يطولُ
فانْ لم يكن قولى رضاكِ فعلِّمى * هبوبَ الصَّبا يابثْنُ كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالُك لحظةً * ولا زال عنها والخيالُ يزول

ومنــه :

خليلَىَّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّمـا * على عَذْبة الأنيـابِ طيّبـةِ النَّشرِ
ألمَّا بها ثم اشْــفَعَا لى وسلِّمـا * عليها سَــقَاها الله من سائغ القَطْرِ

(١) القوز : المستدير من الرمل ، وقال الأزهرى : إنه الكثيب المشرف .

اذا ما دنتْ زِدتُ اشتياقًا وان نأتْ * جَزِعتُ لنأى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حبَّ بثنة لم يرد * سواها وحبّ القلب بثنة لايجدى

وفيها يقول :

سلى الركبَ هل عُجنا لمَغناكِ مرةً * صُدورَ المطايا وهى مُوقَرةٌ تَخْدِى[1]
وهل فاضتِ العينُ الشَّرُوقُ بمائها * مِن اجلكِ حتى اخضَلَّ من دمعها بُرْدِى
وإنى لأَستجرِى لكِ الطيرَ جاهدًا * لتَجْرِى بيُمْنٍ من لقائكِ أو سَعْدِ
وإنى لأستبكى اذا الركبُ غرَّدوا * بذكراكِ أن يحيا بكِ الركب إذ يَحْدِى
فهل تجزِيَنِّى أمُّ عمرٍو بودِّها * فانّ الذى أُخفى بها فوق ما أُبدِى
وكلّ محبٍّ لم يَزِدْ فوق عهده * وقد زدتُها فى الحبّ منى على العهد

ومن قوله فيها :

لها فى سواد القلب حبٌّ ومنعةٌ * هى الموتُ أو كادت على الموت تُشرِفُ
وما ذكرتْكِ النفسُ يا بَثْنُ مرة * من الدهرِ إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتنى زَفْرةٌ واستكانةٌ * وجاد لها سَجْلٌ من العين يَذْرِف
وما استطرفتْ نفسى حديثًا لخُلَّةٍ * أُسَرُّ به إلا حديثُك أطرف

وأول هذه القصيدة :

أمِنْ منزلٍ قَفْرٍ تعفَّتْ رسومه * شَمالٌ تُغاديه ونكباءُ حَرْجَفُ[2]
فأصبح قفرًا بعد ما كان آهلًا * وجُمْلُ المُنَى تَشتُو به وتُصَيِّف
ظَلِلتُ ومُستَنٌّ من الدمع هاملٌ * من العين لما عُجتُ بالدار ينزف
أمُنْصِفتى جملٌ فتَعدِلَ بيننا * اذا حكمتْ والحاكم العدلُ يُنصف
تَعلقتُها والجسمُ منى مصحَّحٌ * فما زال يَنمِى حبُّ جملٍ وأضعُف

(١) موقرة : محملة الوقر وهو الحمل . وخدى البعير يخدى : أسرع وزج بقوائمه .

(٢) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُلَّ جسمى وشَفَّنى ◦ وأنكرتُ من نفسى الذى كنتُ أعرف
قَنَاةٌ من المُرّان ما فوق حَقْوِها[١] ◦ وما تحتـه منهـا نَقًا يتقصَّف[٢]
لهـا مُقلتا رِيم وجيـدُ جَـدايةٍ[٣] ◦ وكَشْحٌ كطَىّ السابرِيّـة أهيَف
ولستُ بناسٍ أهلَها حين أقبلوا ◦ وجالُوا علينـا بالسيوف وطَوَّفوا
وقالوا جميـلٌ بات فى الحىّ عندها ◦ وقد جَـرَّدوا أسيافهم ثم وَقَفوا
وفى البيت ليثُ الغابِ لولا مخافةٌ ◦ على نفس جمـيلٍ والإلهِ لأُرعِفوا
هَمَمْتُ وقـد كادت مرارًا تطلّعتْ ◦ الى حربِهم نفسى وفى الكفّ مُرْهَف
وما سرّنى غيرُ الذى كان منهمُ ◦ ومنى وقـد جاءوا الى الحىّ وأوجفوا
فكم مُرْتَجٍ أمرا أُتيح له الرَّدَى ◦ ومن خائفٍ لم ينتقصْه التخوُّف

ومنهـا :

ألَانْ هتفتْ ورقاءُ ظِلْتَ سفاهةً ◦ تُبَـكِّى على جمـيلٍ لورقاء تهتِفُ
فلو كان لى بالصَّرْم ياصاحِ طاقةٌ ◦ صَرَمتُ ولكنى عن الصرم أضعفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميـل أن ينزل فيرجز به[٤]، وهو يريد أن يمدحه، فنزل جميل فقـال :

أنا جميلٌ فى السَّنامِ الأعظمِ ◦ الفارعِ الناس الأعزِّ الأكرمِ
أحمِى ذِمَارى ووجدتُ أقرُمى[٥] ◦ كانوا على غاربِ طَوْدٍ خِضْرِمِ[٦]
◦ أعيـا على الناس فلم يُهَـدَّم ◦

فقال : عَدِّ عن هذا، فقال جميل :

لهفا على البيت المَعَـدّى لهفَا ◦ من بعـد ما كان قد استكفَّا
ولو دعا اللهَ ومـدَّ الكفا ◦ لرَجَفت منـه البـلادُ رجفا

(١) الحقو : الخصر . (٢) يتقصف : ينهيل و يتقطع بعضه عن بعض . (٣) الجداية : الغزالة . والسابرىّ : ثوب من أجود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجز به : ينشده أرجوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلب ذلك اليه الوليد فقال :

أنا جميل فى السَّنام من مَعَدّْ ۞ فى الذروة العلياء والركن الأشَدّْ
والبيت من سعد بن زيد والعَدَدْ ۞ ما يبتغى الأعداءُ منى ، ولقد
أُضرِىَ بالشَّتْم لسانِى ومَرَدْ ۞ أقودُ من شئتُ وصَعْبٌ لم أُقَدْ

فقال له الوليد : اِركبْ لاحملك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل فى مُراجزة جَوَّاس بن قُطْبَة ، وكان ذلك بوادى القُرَى :

يا أمّ عبد المَلِكِ اصرِمِينى ۞ فبيّنِى صرمِىَ أو صِلِينى
أبكى وما يُدرِيكِ ما يُبكِينى ۞ أبكى حِذارَ أن تُفارِقينى
وتجعلى أبعَدَ منّى دونى ۞ إن بنى عمِّك أوعدونى
أن يقطعوا رأسى اذا لَقُونى ۞ ويقتلونى ثم لا يَدُونى (١)
كلا وربِّ البيت لو لَقُونى ۞ شفعًا ووترًا لتَوَاكلونى (٢)
قد علم الأعداء أنّ دونى ۞ ضربًا كإيزاغ (٣) المَخاض الجُونِ
ألا أسبّ القومَ إذ سبُّونى ۞ بَلَى وما مَرّ على دفِينِ
وسابحاتٍ بلِوَى الحَجُونِ ۞ قد جرّبونى ثم جرّبونى
حتى اذا شابوا وشيّبونى ۞ أخزاهمُ الله ولا يَخزُونى
أشباه أعيارٍ على مَعينِ ۞ أحسَسنَ حِس أسدٍ حَرُونِ
فهنّ يَضرِطنَ من اليقينِ ۞ أنا جميل فتعرّفونى
وما تقنّعتُ فتُنكرونى ۞ وما أُعَنّيكم لتسألونى

---

(١) يدونى : من الدية وهى مايعطى لولىّ القتيل من المال بدل النفس . (٢) تواكلونى : تركونى .
(٣) أوزغت الناقة ببولها : رمت به دفعة دفعة . ومنه الطعنة توزغ بالدم أى ترمى به كذلك .

أُتى الى عاديَةٍ طَحُونِ ٭ يَنشقُّ عنها السيلُ ذو الشؤون
غَمْرٍ يُزِفُّ(١) رُجُحَ السُفِينِ ٭ ذو حَدَبٍ(٢) اذا يُرَى حَجُونِ(٣)
٭ تَحَلّ أحقادُ الرجال دونى ٭

ومن قوله يمدح أخواله من جُذام :

جُذامُ سيوفُ الله فى كل مَوْطِنِ ٭ اذا أَزِمت(٤) يوم اللقاء أَزامِ
هُمُ منعوا ما بين مِصْر فذى القُرَى ٭ الى الشام من حِلٍّ به وحَرامِ
بضَرْبٍ يُزِيل الهامَ عن سَكِنَاته ٭ وطَعْنٍ كإيزاغ المخاض تُؤَامِ
اذا قَصُرَتْ يوما أكُفُّ قبيلةٍ ٭ عن المجد نالتْهُ أكُفُّ جُذامِ

اجتمع جميل وعمر بن أبى ربيعة بالأبطح، فأنشده جميل قصيدته :

لقد فَرِحَ الواشُون أن صَرَمَتْ حَبْلِى ٭ بُثَيْنَـةُ أو أَبْدَتْ لنا جانبَ البُخل
يقولون مَهْلًا ياجَمِيل وإنّنى ٭ لأُقسِم ما بى عن بُثَيْنَـةَ من مَهْلِ
أحِلْمًا فقبلَ اليوم كان أوانُهُ ٭ أم اَخْشَى فقبل اليوم أُوعِدْتُ بالقتل
لقد أنكَحوا حَرْبى نُبَيْهًا ظَعِينة ٭ لطيفة طىّ البطن ذات شَوًى جَزْل
وكم قد رأينا ساعيًا بنميمةٍ ٭ لآخر لم يَعْمِد بكفٍّ ولا رجلِ
اذا ما تَرَاجَعْنا الذى كان بيننا ٭ جَرَى الدمعُ من عَيْنَىْ بثينة بالكُحْل
كِلانا بَكَى أو كاد يَبْكِى صَبابةً ٭ الى إلفِه واَسْتَعْجَلَتْ عَبْرَة قبلى
فلو تركتْ عقلى معى ما طلبتُها ٭ ولكن طِلابيها لِما فاتَ من عقلى
فياوَيْحَ نفسى حَسْبُ نفسى الذى بها ٭ ويا ويح أهلى ما أُصِيبَ به أهلى
وقالتْ لأترابٍ لها لا زَعانف ٭ قِصار ولا كُسٍّ(٥) الثنايا ولا ثُعْلِ

---

(١) يزف : يجعلها تسرع . (٢) ذو حدب : ذو موج . (٣) حجون : معوج .
(٤) أزمت : اشتدت . (٥) الكسس محركة : قصر الأسنان أو صغرها أو لصوقها بسنوخها .
وثعلت سنه وللثه فهى ثعلاء : تراكبت أسنانها .

اذا حَمِيتْ شمسُ النهار آتقيتَها * بأكسية الديباج والخزِّ ذى الخَمْلِ
تداعَيْن فاستَعْجمن مَشْياً بذى الغَضى * دَبيبَ القَطَا الكُدْرِىّ فى الدَّمِثِ السهل
اذا آرتعن أو فُزِّعن قُمْن حَوالَها * قيامَ بنات الماء[1] فى جانب الضَّحْل[2]
أجِدَّكَ لا ألْقَى بُثَيْنةَ مرّةً * مِن الدَّهر إلا خائفاً أو على رِجْل
خليلىَّ فيما عِشْتُما هل رأيتما * قتيلاً بكى من حبِّ قاتِلِه قَبْلى
أبيتُ مع الهُلّاكِ[3] ضَيْفاً لِأهْلِها * وأهلى قريب مُوسِعون ذَوُو فضل
ألا أيها البيْتُ الذى حِيلَ دونه * بِنَا أنتَ من بيتٍ وأهلُكَ من أهلِ
ثلاثةُ أبياتٍ فبيْتٌ أحبّه * وبيْتان ليسا من هَوَاى ولا شَكْلى

وقال فى هِجرةٍ هجرته إياها بثينة :

ألم تَسْأل الرَّبْعَ القَواء فينطِقُ * وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْداءُ سَمْلَقُ[4]
وقفتُ بها حتى تجلّت عَمَايَتى * وملّ الوقوفَ الأَرْحَبِىُّ[5] المُنَوَّق
تَعزَّ وإن كانت عليك كريمةً * لعلّك من رِقِّ لبَثْنَة تُعْتَق
لَعَمْرُكمُ إن البِعادَ لَشائِقٌ * وبعضُ بعادِ البَيْنِ والنأى أشوق
لعلّك محزونٌ ومُبْدٍ صبابةً * ومُظْهِرُ شكوى من أُناسٍ تفرّقوا
وبِيضٍ غَرِيراتٍ تُثَنّى خصورَها * اذا قُمْن أعجازٌ ثِقالٌ وأسْؤُق
غَرَائرُ لم يلقَيْن بؤسَ معيشة * يُجَنّ بهنّ الناظرُ المتنوّق
وغلغلتُ من وجد إليهنّ بعد ما * سرَيْتُ وأحشائى من الخوف تَخْفُق
معى صارمٌ قد أخلَصَ القَيْنُ صَقْلَه * له حين أُغْشِيه الضَّريبةَ رَوْنَق
فلولا آحتيالى ضِقْن ذَرْعاً بزائرٍ * به من صَبابات إليهن أَوْلَق[6]

(١) بنات الماء : ما يألف الماء من السمك والطير والضفادع (أنظر المضاف والمضاف اليه) .

(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) الهلاك : الصعاليك . (٤) السملق : القاع الصفصف . (٥) الأرحبى : الفحل النجيب نسبة الى أرحب وهى قبيلة من همدان تنسب اليها النجائب الأرحبية . والمنوق : المحسن المزين . (٦) أولق : جنون .

تَسُوك بقُضْبان الأراك مُفَلّجا * يُشَعْشَعُ فيه الفارسىّ المُرَوّق
أبثنة للوَصْلُ الذى كان بيننا * نضا مثل ما ينضو الخضاب فيَخْلَق
أبثنة ما تنأين إلا كأننى * بنجم الثريا ما نأيت مُعَلّق

قال الرشيدُ لإسحاق الموصلىّ : أنشدنى أحسنَ ما تُحب فى عتاب مُحبّ وهو ظالم متعتّب ، فأنشده قولَ جميل :

رِدِ الماءَ ما جادَتْ بصَفْوٍ ذَنائبُه * ودَعْه اذا خِيضَتْ بطَرْق[1] مَشاربُه
اعاتِبُ من يَحْلو لدىّ عتابُه * وأترك من لا أشتهى وأجانبُه
ومن لذّةِ الدنيا وإن كنتَ ظالمًا * عناقُك مظلومًا وأنتَ تعاتبُه

ومن قوله فى زيارة له :

زُورَا بثينةَ فالحبيبُ مَزُورُ * إن الزيارة للحبّ يسيرُ
إن الترحّل أن تلبّس أمرُنا * وأعتاقنا قدرٌ أحمُّ بكور
إنى عشيّةَ رُحْتُ وهى حزينةٌ * تشكو الىّ صبابةً لصبور
وتقول بِتْ عندى فديتُك ليلةً * أشكو اليك فإن ذاك يسير
غرّاءُ مِبْسامٌ كأن حديثها * دُرٌّ تحدّر نَظْمُه منثور
مَخْطوطةُ المَتْنين[2] مُضْمَرة الحَشى * ريّا الروادفِ خَلْقُها مَمْكور
لا حُسْنُها حُسْنٌ ولا كدلالها * دلٌّ ولا كوقارها توقير
إن اللسانَ بذكرها لَمُوكَّلٌ * والقلبُ صادٍ والخواطِرُ صُور
ولئن جَزيتِ الودَّ منّى مثلَه * إنى بذلك يا بُثَيْنَ جدير

وعذَله فيها ابن عمه رَوْق، فقال :

لقد لامنى فيها أخٌ ذو قرابةٍ * حبيبٌ إليه فى ملامته رُشْدى
وقال أفِقْ حتى متى أنتَ هائمٌ * ببثنة فيها قد تُعيد وقد تُبْدى

(١) الطرق : الماء الذى خوضته الابل وبولت فيه وبعرت .
(٢) مخطوطة المتنين : ممدودتهما . والممكورة : المطوية الخلق .

فقلتُ له فيهـا قضى اللهُ ما ترى * عليّ وهـل فيما قضى اللهُ من رَدّ
فإن يَكُ رُشْـدًا حبها أو غَوايةً * فقد جئتُه، ما كان منّى على عَمْد
لقد لجّ ميثاقٌ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِ لله من عَهْد
فلا وأبيها الخيرِ ما خنتُ عهدَها * ولا لِيَ عِلمٌ بالذى فعلتْ بعـدى
وما زادها الواشُـون إلا كرامةً * علىّ وما زالت مَوَدّتُها عنـدى
أفى الناس أمثالى أحبَّ فحالُهم * كحالىَ أم أَحْبَبْتُ من بينهم وحدى
وهل هكذا يَلْقى المحبّون مثل ما * لَقِيتُ بها أم لم يَجِد أحدٌ وجدى

وقال فيهـا :

خليـلىّ عُوجا اليومَ حتى تُسَـلِّما * على عَذْبة الأنيابِ طيِّبـةِ النَّشْر
ألمّا بها ثم آشْـفعا لِى وسَلِّمـا * عليها سَـقاها اللهُ من سائغ القَطْر
وبُوحا بذكرى عنـد بثنة وآنظُرا * أترتاح يومًا أم تَهَشّ إلى ذكرى
فإن تك لم تقطع قُوَى الودّ بيننا * ولم تَنْس ما أسلفتُ فى سالف الدّهر
فكيف يُرَى[(١)] منها آشتياقٌ ولوعـةٌ * ببَيْنٍ وغَرْبٌ من مدامعها يجرى
وإن تَكُ قد حالت عن العهد بعدَنا * وأصغتْ الى القول المؤنِّب والمُزْرى
فسوف يُرَى منها صُدودٌ ولم تكن * ـ بنفسى ـ من أهل الخيانة والغدر
أعوذُ بك اللّهمّ أن تَشْحَط النّوى * ببثنة فى أدنى حياتى ولا حَشْرى
وجاوِرْ اذا ما متُّ بينى وبينهـا * فيا حبذا موْتى اذا جاورتْ قبرى
عدِمتُكَ من حبٍّ أمَا منك راحةٌ * وما بك عنّى من توانٍ ولا فَتْرِ
ألا أيها الحبُّ المبرِّحُ هل ترى * أخا كَلَفٍ يُغْرى بحبٍّ كما أُغْرى
أجِدّكَ لا تَبْلَى وقد بَلِى الهوى * ولا ينتهى حبّى بثينةَ للزّجْر

(١) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

قِفِى تَسْلُ عنك النفسُ بالخُطّة التى * تُطيلين تخويفى بها ووعيـدى
فقد طالما من غير شكوى قبيحةٍ * رَضينا بحكم منك غيرِ سَـديد

ومنـــه :

بُثَيْنَ سَلِينى بعضَ مالى فإنما * يُبيَّنُ عند المال كلُّ بخيلِ
فإنى وتَكرارَ الزيارة نحوكم * لَبَيْنَ يَدَىْ هَجْرٍ بُثَيْنَ طويلِ
فياليت شعرى هل تقولين بعدنا * اذا نحن أزْمعنا غدًا لرحيل
ألا لَيْتَ أياما مَضَيْنَ رواجعٌ * وليت النَّوى قد ساعدت بجميل

ومنـــه :

أتعْجَب أن طرِبْتُ لصوتِ حَادِ * حدا بُزْلًا يَسِرْن ببطْنِ واد
فلا تعجبْ فإن الحبَّ امسى * لبثنة فى السَّواد من الفؤاد

ومنـــه :

خليلَىَّ عوجَا بالمحلّة من جُمْـل * وأترابها بين الأُصَيفر والخبل
نقِفْ بمغانٍ قد محا رسمَها البِلى * تُعاقِبُهـا الأيامُ بالرّيح والوَبْـل
فلو دَرَج النملُ الصغارُ بجِـادها * لأَندَب أعلى جلدها مَدْرَجُ النمل
وأحسَنُ خَلق الله جِيدًا ومُقْلةً * تُشَبَّهُ فى النّسوان بالشّادنِ الطّفْلِ (١)

ومن قوله :

أمِنْكِ سرى يا بَثْنَ طَيْفٌ تأوبا * هُدُوًّا فهاجَ القلبَ شـوقًا وأنْصبا
عجِبتُ له أن زارَ فى النوم مَضْجَعِى * ولو زارنى مُسْتَيقظًا كان أعجبا

لمـا قدِم جميـل من الشام بلغ بثينةَ خبرُه ، فرَاسلته مع بعض نساء الحىّ تذكُر شوقَها اليه ووجدَها به ، وطَلَبَها لحيـلة فى لقائه ، وواعَدَته لموْضعٍ يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدّثها

(١) الطفل : الرخص الناعم من كل شىء .

طويلًا وأخبرها خبره بعدها، وقد كان أهلُها رَصَدوها، فلما فَقَدوها تَبِعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما، فوثَب جميلٌ فانتَضى سيفَه وشدّ عليهما، فاتّقياه بالحرب، وناشدَته بثينة اللهَ إلّا انصرفَ، وقالت له : إن أقمتَ فضحتَنى، ولعلّ الحىّ يَلْحقونك، فأبى وقال : أنا مقيم وامضى أنتِ وليصنعوا ما أحبّوا، فلم تزل تناشده حتى انصرف وقال فى ذلك، وقد هجرته وانقطع التلاقى بينهما مدّة :

هى البدرُ حُسْناً والنساءُ كواكبُ ﴿ وشتّان ما بين الكواكب والبدرِ
لقد فُضِّلتْ حسناً على الناس مثلَما ﴿ على ألف شَهْرٍ فُضِّلت ليلةُ القَدْرِ

وقال :

لقد خِفْتُ أن يغتالنى الموتُ عَنْوةً ﴿ وفى النفس حاجاتٌ اليك كما هيا
وإنى لتُثْنِينى الحفيظةُ كلّما ﴿ لقيتُك يوما أن أبُثَّك ما بيا
ألم تعلمى ياعذْبةَ الرِّيق أننى ﴿ أظَلّ اذا لم أُسْقَ رِيقَك صاديا

ورحل الى مصر فأدركته بها منيّته، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاةُ :

صَدَعَ النَّعِىُّ وما كَنَى بجميلِ ﴿ وثَوَى بمصر ثَواءَ غيرِ قُفُولِ
ولقد أجُرّ الذيْلَ فى وادى القُرى ﴿ نَشْوانَ بين مَزارعٍ ونَخيلِ
قومى بثينةُ فاندُبى بعَويلِ ﴿ وابكى خليلَك دون كلّ خليلِ

ولما أُنْشِدت بثينةُ قولَ جميلٍ قالت :

وإن سُلُوِّى عن جميلٍ لساعةً ﴿ من الدّهر ما حانت ولا حان حينُها
سَواءٌ علينا يا جميلُ بن مَعْمَرٍ ﴿ اذا متَّ بأْساءُ الحياةِ ولِينُها

وقال :

رَحَلَ الخليطُ جِمالَهم بسُوادِ ﴿ وحَدَا على أثَرِ البَخيلةِ حادى
ما إن شَعَرْتُ ولا سَمِعْتُ ببَيْنِهم ﴿ حتى سمعت به الغرابَ ينادى

لمّـا رأيتُ البَـيْنَ قلتُ لصاحبي ⋆ صَدَعَتْ مُصَدِّعةُ القلوبِ فؤادى
بانوا وغُودِرَ فى الديار متيَّمٌ ⋆ كَلِفٌ بذكرِكِ يا بُثَيْنةُ صادى

وقال أيضا :

خليليَّ هـل فى نظرة بعـد توبةٍ ⋆ أداوى بها قلبى علَىَّ فُجُورُ
إلى رُجَّحِ الأكفالِ هِيفٍ خُصورُها ⋆ عِذابِ الثَّنايا رِيقُهُنَّ طَهورُ
تذكَّرتَ من أضحتْ قُرَى اللُّدِّ(١) دونَه ⋆ وهَضْبُ لُبَيْنَا والهِضابُ وعُورُ
فظلَّتْ لعينيكَ الجُوجَيْنِ عَبرةٌ ⋆ يُهيِّجها بَرْحُ الهَـوى فتمورُ
على أننى بالبَرْق من نحو أرضها ⋆ إذا قَصُرَتْ عنه العيون بَصِـيرُ
وإنى إذا ما الريحُ يوما تنسَّمتْ ⋆ شآميَـةً عادَ العِظامَ فُتُـورُ
ألا يا غُرابَ البَيْنِ لونُك شاحبٌ ⋆ وأنتَ بروعاتِ الفـراق جَدِيرُ
فإن كان حقًّا ما تقول فأصبحت ⋆ همومُك شتَّى والجَنـاحُ كَسِير
ودُرْتَ بأعداء حَبيبك فيهـم ⋆ كما قـد ترانى بالحبيب أدُورُ
وكيف بأعداء كأنّ عيونهـم ⋆ إذا حان إتيانى بُثَينة عُور
فإنى وإن أصبحت بالحبِّ عالمـا ⋆ على ما بعَيْـنِى من قَـذَى لخَبير

وله أيضا :

فلو أرسلتْ يوما بثينةُ تبتغى ⋆ يمينى ولو عزَّت علىَّ يمينى
لأعطيتُها ما جاء يبغى رسولُهـا ⋆ وقلتُ لهـا بعـد اليمين سَلِينى
سَلِينِى مالى يا بُثَيْنَ فإنمـا ⋆ يبيِّنُ عنـد المـال كلُّ ضَنين
فمـا لكِ لمَّـا خبَّر الناسُ أننى ⋆ أسأتُ بظَهْر الغيب لم تَسَلينى
فأُبْلِىَ عُذْرا أو أجىءَ بشاهـد ⋆ من الناس عَدْلٍ أنهم ظلمونى
ولستُ وإن عزَّت علىَّ بقائل ⋆ لهـا بعد صرمٍ يا بثين صِلينى

(١) اللد بالضم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .

وُنبِّئْتُ قوما فيك قد نَذَرُوا دَمِي * فليتَ الرجالَ المُوعِدِين لَقُونى
إذا ما رَأَوْنِى مُقْبِلًا عن جَنابةٍ * يقولون مَنْ هذا وقد عَرَفُونى

وله أيضا :

تَنادى آلُ بَثْنــة بالرَّواح * وقد تركوا فؤادَك غيرَ صاح
فيالَكَ مَنْظَرًا ومَسيرَ رَكْبٍ * شَجانى حين أمْعَنَ فى القِياح
ويالَكِ خُلّةً ظَفِرتْ بعقلى * كما ظَفِرَ المُقامِر بالقِــداح
أريد صــلاحها وتريد قتلى * فَشَتَّى بين قتلى والصلاح
لَعَمْرُ أبيكِ لا تَجِدين عَهْدى * كَعَهْدِك فى المَوَدّة والسَّماح
ولو أرسلْتِ تستهدين نفسى * أتاكِ بها رَسُولُكِ فى سَراح

وله أيضا :

فإن يَكُ جُثمانِى بأرض ســواكم * فإنّ فؤادى عنــدكِ الدَّهْرَ أجمعُ
إذا قلت هذا حِينَ أسلو وأجْتَرِى * على صرمها ظَلَّت لها النفْسُ تَشْفَع
وإنْ رُمْتُ نفسى كيف آتى لصَرْمها * ورُمْتُ صدودا ظَلَّت العينُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

ألم تعلمى ياعــذْبة الماء أننى * أَظَلُّ إذا لم أُسْقَ ماءكِ صاديا
وما زلتِ بى يابَثْنُ حتى لَوَ انّنى * من الوجد أستبكِى الحمامَ بَكَى ليا
وِدِدْتُ على حُبِّ الحياةِ لَوَ انّها * يُزاد لها فى عمرها من حياتيا

وله أيضا :

وقلتُ لهــا اعتَلْلتِ بغير ذنب * وشَرُّ الناس ذو العلل البخيلُ
فَفَاتِينى إلى حَكَم من أهلى * وأهلِكِ لا يَحِيف ولا يميــل
فقالت أبتغى حَكَما من أهــلى * ولا يَدْرِى بنا الواشى المَحُول
فَوَلَّيْنا الحُكومةَ ذا سُجوف * أخا دُنْيا له طَرْفٌ كليل

فقلنا ما قضيتَ به رَضينا • وأنت بما قضيت به كفيل
قضاؤك نافذ فاحكم علينا • بما تهوى ورأيك لا يَفيل
فقلت له قُتِلتُ بغير جُرْم • وغِبُّ الظلم مرتعه وبيل
فَسَلْ هذى متى تقضى دُيونى • وهل يقضيك ذو العِلَل المطول
فقالت إن ذا كذبٌ وبُطْلٌ • وشرٌّ من خصومته طويل
أأقتله ومالى من سلاح • وما بى لو أقاتله حَوِيل (١)
ولم آخُذْ له مالا فيُلْفَى • له دَيْنٌ علىَّ كما يقول
وعند اميرنا حُكْمٌ وعدل • ورأْىٌ بعد ذلكمُ أصيل
فقال أميرُنا هاتوا شهودا • فقلت شهيدُنا الملك الجليل
فقال يَمِينَها وبذاك أقضى • وكلٌّ قضائه حَسَنٌ جميل
فَبَتَّتْ حلفَةً ما لى لديها • نقير أدَّعيه ولا فتيل
فقلتُ لها وقد غُلِبَ التَّعزِّى • أما يُقضى لنا يا بَثْنَ سُولُ
فقالت ثم زَجَّتْ حاجبيها • أطلتَ ولستَ فى شىء تُطيل
فلا يَجِدَنَّك الأعداءُ عندى • فَتَثْكلَنِى وإيَّاك الثَّكُول

وله أيضا :

حلفتُ يمينًا يا بُثَينةُ صادقا • فإن كنتُ فيها كاذبا فعَميتُ
إذا كان جِلْدٌ غير جِلْدِك مسَّنى • وباشَرَنى دونَ الشِّعار شَرِيتُ (٢)
ولو أن راقى الموت يَرْقى جنازتى • بمَنطِقِها فى الناطقين حَييتُ

وقال أيضا :

فقد لانَ أيامُ الصِّبا ثُمَّ لم يكَدْ • من الدهر شىءٌ بعدهنَّ يَلِينُ
ظعائن ما فى قُربِهنَّ لذى هَوًى • من الناس إلا شِقْوَةٌ وفُتُونُ

(١) الحويل : القوة والحذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : خرج عليه الشرى ، وهو بثور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة واحدة غالبا وتشتد ليلا لبخار حار يثور فى البدن دفعة .

وواكَلْتُه والهَمَّ ثم تركتَه • وفى القلب مِن وَجْدٍ بهنّ رهين
فواحَسْرتا إن حِيلَ بيني وبينها • ويا حَيْنَ نفسى كيف فيكِ تَحِين
فشيَّبَ رَوْعاتُ الفِراقِ مَفارِقى • وأنشَزْنَ نفسى فوقَ حيثُ تكون
شَهِدْتُ بأنّى لم تغيَّرْ مودّتى • وأنى بكم حتّى المماتِ ضنين
وأنّ فؤادى لا يلين الى هوًى • سِواكِ وإن قالوا بَلَى سيَلين
وإنى لأستَغْشِى وما بى نَعْسةٌ • لعلّ لِقاءً فى المنام يكون
ولمّا علَوْتُ اللّابتَين تشوّقت • قلوب الى وادى القرى وعيون
كأنّ دموع العين يومَ تحمّلت • بُثَينةُ يُسْقَيها الرَّشاشَ مَعين
ورُحْنَ وقد ودَّعْنَ عندى لُبانةً • لبانَةَ سِرٍّ فى الفؤاد كَمِين
كَسِرِّ الثَّرَى لم يعلم الناسُ أنّه • ثَوَى فى قرار الأرض وهو دَفِين
فإنْ دام هذا الصرمُ منكِ فإنّنى • لأَغْبَرُ هارى الجانبين رَهين
لكيما يقول الناس مات ولم أَهُنْ • عليكِ ولم تَنْبَتَّ منكِ قُرون

(ج) الغـــزل الصناعى

كُثيِّر (١)

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قَصّد القصيدَ ولا نعَتَ الملوكَ مثل كُثيِّر. وقال إبراهيم بن سعد: إنى لأَروِى لكثيِّر ثلاثين قصيدة لو رُقِىَ بها مجنونٌ لأفاق، وكان بعضُ أصحاب الحديث يأتونه، وهو خبيث النفس، فيسألونه عن شعر كثيِّر فتطيبُ نفسُه ويحدّثهم. وقال عبد الله بن أبى عُبَيْدة: من لم يجمع من شعر كثيِّر ثلاثين لاميّةً فلم يجمع شعره. وكان ابن أبى عبيدة يُمْلِى شعره بثلاثين دينارا. وسُئِل مُصْعَب: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: كثيِّر بن أبى جُمْعَة، وقال: هو أشعر من جرير والفرزدق والراعى وعامّتهم، يعنى الشعراء. ولم يُدرك أحدٌ فى مديح الملوك ما أدرَك كثيِّر. وقال محمد بن سلام: كان كثيِّر شاعرَ أهل الحجاز، وهو شاعرٌ فحل ولكنّه منقوصٌ حظُّه بالعراق. وقال يونس النحوى: كثيِّر أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خزاعة، ويعرف بكثير عزة، نسبة إلى عشيقته التى كان يشبب بها. وكان يدخل على عبد الملك وينشده، وكان رافضيا شديد التعصب لآل أبى طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره، فاذا أراد أن يصدقه بشىء حلفه بعلىّ. وكان له صديق اسمه خندق الأسدىّ، شديد التشيع مثله، وبلغ من جرأة خندق هذا أنه وقف مرة فى الموسم والناس مزدحمون وقال: «أيها الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت نبيكم والحق لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، فضربوه ورموه حتى قتلوه، ودفن خندق بقنونا، فقال إذ ذاك كثير يرثيه.

أصادرة حجاج كعب ومالك ☆ على كل عجلى ضامر البطن محنق

بمرثيـــة فيها ثناء محبر ☆ لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصـيدة طويلة. أما معشوقته عزة فهى بنت حميـد بن وقاص من ضمرة، وكانت من أجمـل النساء وآدبهن وأعقلهن. ويقال إنه لم يرها وجها إلا أنه أشتهر بها قلبه لما ذكر له عنها. وعاتبه بعض أهلها فقالوا: «قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك» فقال: «إنى لا أذكرها بما تكرهون».

واتفق خروجهم الى مصر فى عام الجلاء، فتبعهم على راحلته فزجروه فأبى إلا أن يلحقهم، فتربص له بعضهم فى بعض الطريق وقبضوا عليه وجعلوه فى جيفة حمار وربطوها عليه فمر به صديقه خندق فأطلقه وألحقه ببلاده. وكان كثير دميا قليلا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحا. وأكثر أشعاره فى عزة هذه. توفى سنة ١٠٥ هـ، وأخباره كثيرة تجـدها فى الأغانى (ج ١١ ص ٤٦) و (ج ٨ ص ٢٧) و (ج ٧ ص ٧٨) والشـعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية فى الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان آبن أبى حَفصَة يعجبه مذهبُه فى المديح جدا، ويقول: كان يستقصى المديحَ، وكان فيه مع جودة شعره خَطَل وعُجب. وقال المِسْوَر بن عبد الملك: ما ضَرَّ مَنْ يروى شعر كثيّر وجَميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان.

وكان قصيرا، قال الوَقّاصى: رأيتُ كثيّرا يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروانَ يقول: طَأْطِىء رأسَك لا يُصبه السَقف. وقال كثيّر: فى أى شىء أعطى هؤلاء الأَحْوَصَ عشرةَ آلاف دينار؟ قالوا: فى قوله فيهم:

وما كان مالى طارِفاً من تجارة * وما كان ميراثا من المال مُتْلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ * مَلَا الأرضَ معروفا وجُودا وسُوددا

فقال كثيّر: إنه لضَرِعٌ قَبحه الله! ألا قال كما قلت:

دع عنك سَلْمَى إذ فات مَطْلبُها * وآذكر خَليلَيْك من بنى الحَكَمِ
ما أعطيانى ولا سألتُهما * ألّا وإنّى لحاجزى كَرَمى
إنى متى لا يكن نوالُهما * عندى بما قد فعلتُ أحتشم
مُبْدِى الرِّضا عنهما ومنصرِفٌ * عن بعض ما لو فعلتُ لم أُلَمِ
لا أَنْزُرُ(١) النائلَ الخليلَ اذا * ما آعتلّ نَزْرُ الظُّؤُور لم تَرَمِ

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضًا له يقال لها: غُرَّب، وقدم بين يدىْ طلبه تلك الأبياتَ:

جَزَتْك الجوازى عن صديقك نَضْرةً * وأدناك ربّى فى الرفيق المقرَّب
فإنك لا يُعطَى عليك ظُلامةً * عدوٌّ ولا تنأى عن المتقرّب
وإنك ما تمنَعْ فإنك مانعٌ * بحقّ وما أعطيتَ لم تتعقّب

فقال له: أترغب غُرَّبا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: آكتبوها له، ففعلوا.

(١) يقول: لا ألح عليه بالمسألة، يقال: نزرته أنزره اذا ألححت عليه. والظؤور: العاطفة على أولاد غيرها. ولم ترم: لم ترأم.

ونُسِبَ كثيّر لكثرة نسيبه بعزّة الضَّمْرِيّة اليها، وعُرف بها فقيل : كثيّر عزة، وهى عزّة ٱبنة حميد بن وقاص. وكان ٱبتداء عشقه إياها أنه مر بنسوة من بنى ضَمْرة ومعه جَلَب غنم، فأرسلن اليه عزّة وهى صغيرة، فقالت : يقلن لك النسوةُ : بِعْنا كَبْشًا من هذه الغنم، وأنسِئنا بثمنه الى أن ترجع، فأعطاها كبشا، وأعجبته، فلما رجع جاءته امرأة منهنّ بدراهمه؛ فقال : وأين الصَّبِيَّة التى أخذت منى الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه دراهمُك ؟ قال : لا آخذ دراهمى إلا ممن دفعتُ الكبش اليها، وخرج وهو يقول :

قَضَى كلُّ ذى دينٍ فوفّى غَريمَهُ ﴿ وعزّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

فكان أوّل لقائه إياها . ثم قال فيها :

نظرتُ اليها نظرةً وهى عاتقٌ ﴿ على حين أن شبّت وبان نُهودُها
وقد درّعوها وهى ذات مُؤَصَّدٍ(١) ﴿ مَجُوبٍ ولمّا يلبَس الدِّرْعَ رِيدُها
من الخَفِرات البِيض ودّ جَليسُها ﴿ اذا ما ٱنقضت أُحْدُوثةٌ لو تُعِيدها
نَظرتُ اليها نظرة ما يسرُّنى ﴿ بها حُمْر أنعام البلاد وسُودها
وكنتُ اذا ما جئتُ سُعدى بأرضها ﴿ أرى الأرضَ تطْوَى لى ويدنو بعيدها

ثم أحبّته بعد ذلك عزّة أشدّ من حبّه إياها .

قال محمد بن صالح الأسْلَمىّ : دخلت عزّة على عبد الملك بن مروان وقد عَجَزَت ، فقال لها : أأنتِ عزّة كثيّر؟ فقالت : أنا عزّة بنت حميد، قال : أنت التى يقول لك كثيّر:

لعَزة نارٌ ما تبوخ(٢) كأنها ﴿ اذا مارَمَقناها من البعد كَوْكَبُ

فما الذى أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أميرَ المؤمنين، لقد كنتُ فى عهده أحسن من النار فى الليلة القَرّة . ويُروى أنها قالت له : أعجَبَه منى ما أعجب المسلمين منك حين صيّروك خليفةً، وكانت له سِنٌّ سوداء يخفيها، فضحك حتى بدت، فقالت له : هذا الذى أردتُ أن أبديه؛ فقال لها : هل تَرْوِين قوله :

(١) مؤصد : ألبس الأصدة (بالضم) وهى قيص صغير يلبس تحت الثوب . والمجوب : القميص ذو الجيب . والريد (يهمز ولا يهمز) : الترب . (٢) تبوخ : تخمد .

وقد زَعَمتْ أنى تغيّرت بعدها * ومن ذا الذى يا عزّ لا يتغيّر
تغـيّر جسمى والخليقةُ كالتى * عهـدتِ ولم يُخبَرْ بسرك مُخبَر

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قولَه :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ * من الصُّم لو تمشى بها العُصْمُ زلّت
صَفُوحًا فما تلقاك إلا بخيـلةً * فمن ملّ منها ذلك الوصـلَ ملّت

فأمر بها، فأُدخلت على عاتكة بنت يزيد، فقالت لها : أرأيت قول كثيّر .

قضى كلّ ذى دَيْن فوفّى غريمَه * وعَزّة ممطول معـنًّى غريمُها

ما هذا الذى ذكره؟ قالت : قُبْلَة وعدتُه إياها، قالت : أنجزيها وعليّ إثمُها .

ومما قال فيها

خليـلىّ هـذا رَسْمُ عزة فاعقِلا * قَلُوصَيكما ثم ابكيا حيث حلّت
وما كنتُ أدرى قبل عزّة ما البكا * ولا مُوجِعاتِ القلب حتى تولّت
فقد حَلَفتْ جَهْدًا بما نَحرتْ له * قريشٌ غداةَ المأزمَين (١) وصلّت
أناديك ما حجّ الحجيجُ وكبّرت * بفَيْفا (٢) غَزالٍ رُفقـةٌ وأهلّت
وكانت لقَطْع الحبـل بينى وبينها * كناذرة نَذْرًا وفتْ فأحلّت
فقلت لها يا عزّ كل مصيبـة * اذا وُطّنت يوما لها النفسُ ذلّت
ولم يَلْق إنسانٌ من الحبّ مَيْعةً * تَعُمّ ولا عَمْـياء إلا تجلّت
كأنى أُنادى صخرةً حين أعرضتْ * من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلّت
صَفُوحا (٣) فما تلقاك إلا بخيـلةً * فمن ملّ منها ذلك الوصـلَ ملّت
أباحت حِمًى لم يَرْعَه الناسُ قبلها * وحلّت تِلاعا لم تكن قبلُ حُلّت

---

(١) المأزمان : بين عرفة والمزدلفة . (٢) فيفا غزال : بمكة حيث ينزل الناس فيها الى الأبطح . وأناديك : أجالسك ، مأخوذ من الندىّ والنادى جميعا وهما المجلس .

(٣) الصفوح : المعرضة .

فليتَ قَلُوصى عند عزة قُيِّدَت * بحبــل ضعيف غُرَّ منها فَضَلَّت
وغُودِر فى الحَىِّ المقيمين رَحْلُها * وكان لهـا باغٍ سواى فَبَلَّت (١)
وكنت كذى رِجْلَين رِجلٍ صحيحةٍ * ورجلٍ رَمَى فيها الزمانُ فَشَلَّت
وكنتُ كذات الظَّلْع لما تحامَلَت * على ظَلْعها بعــد العِثار آستقلّت
أريد الثَّــواءَ عنــدها وأظنّها * اذا ما أطلْنا عنــدها المُكْثَ مَلَّت
فما أنصفتْ، أمّا النساء فبَغَّضَتْ * الىّ وأمّا بالنـــــوال فضَنَّت
يُكَلِّفها الغَـــيْرانُ شَتْمى وما بها * هَوَانى ولكن للمَليك آستَذَلَّت
هَنيئًا مريئًا غــيرَ داءٍ مُخَامِرٍ * لعزّة من أعراضِنا ما آستَحَلَّت
فــوالله ما قارَبْتُ إلا تَبَاعَدَتْ * بصُرْمٍ ولا أكثرتُ إلا أقلَّت
فإن تكن العُتْبَى (٢) فأهــلًا ومرحبا * وحقّت لهـا العتبى لدينا وقلّت
وإن تكن الأُخْرَى فإن وراءنا * مَنَادِحَ (٣) لو سارت بها العيسُ كلَّت
خليلىّ إن الحاجبيّة طَلَّحَتْ (٤) * قَلُوصَيْكما وناقتى قــد أكَلَّت
فلا يَبْعَدَنْ وصلٌ لعـزّة أصبحت * بعاقبــةٍ أســبابُه قد تَوَلَّت
أسِيئى بنـا أو أحسِنى لا مَلُومةً * لدينا ولا مَقْلِيّــةً إن تَقَلَّت
ولكن أنيلى وآذكرى من مودّة * لنا خُــلّةً كانت لديكم فَطُلَّت (٥)
فإنى وإن صَدّت لَمُثْنٍ وصــادقٌ * عليها بمـا كانت إلينا أزَلَّت (٦)
فمــا أنا بالداعى لعــزّة بالجوى * ولا شــامتٌ إن نَعْلُ عزة زلّت
فلا يحسب الواشون أن صَبابتى * بعــزّة كانت غَمْــرَةً فتجلّت
فأصبحتُ قد أبْلَلْتُ (٧) من دَنَفٍ بها * كما أُدْنِفَتْ هَـيْماءُ ثم آستَبَلَّت

(١) بلت : ذهبت . (٢) العتبى : الإعتاب ؛ يقال : عاتبنى فلان فأعتبته اذا نزعت عما عاتبك عليه ، والعتبى الاسم والإعتاب المصدر (٣) المنادح : المفاوز . (٤) الطليح : المعيى الذى سقط من الأعياء . (٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصطنعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستبل اذا برأ . والهيماء : التى أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتهيم فى الأرض لا ترعى .

فـوالله ثم الله ما حَـلّ قبلها * ولا بعـدها من خُلّة حيث حلّت
وما مَرّ من يوم عليّ كيومها * وإن عظُمَتْ أيامُ أخرى وجلّت
وأضحت بأعلى شاهقٍ من فؤاده * فلا القلبُ يَسْلاها ولا العين ملّت
فيا عَجَبا للقلب كيف اعترافُه (١) * وللنفس لما وُطِّنَتْ كيف ذلّت
وإنى وتَهْيامِى بعـزّة بعد ما * تخلّيت مما بيننا وتخلّت
لكالمُرْتجِى ظِلَّ الغمامة كلما * تَبوّأ منها للمَقِيل اضمحلّت
كأنى وإياها سحابة مُمْحِل * رَجاها فلما جاوزَته استهلّت
فإن سأل الواشُون فِيم هجرْتَها * فقُل نفسُ حُرٍّ سُلِّيَتْ فتسلّت

قال ابنُ سَلّام: كان كثيّر مدّعيا ولم يكن عاشقا، وكان جميلٌ صادق الصبابة والعشق. وأخبرته عزّة ذات مرّة فوجدت علامة ذلك، وكانت متنقبة فأسفرت، فأبلَس (٢) ولم ينطق وبُهِت، فلما مضت أنشأ يقول:

ألا ليتنى قبل الذى قلتِ شِيبَ لى * من السم خَضْخاض بماء الذَّرارح (٣)
فمت ولم تعلم علىّ خيانةً * وكم طالب للربح ليس برابح
أبُوءُ بذنبى، إننى قد ظلمتُها * وإنى بباقى سرّها غير بائح

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

وَلِيتَ فلم تَشْتم عليًّا ولم تُخِف * بَرِيًّا ولم تتبع مقالةَ مُجرِم
وقلتَ فصدّقتَ الذى قلتَ بالذى * فعلتَ فأضحى راضيًا كلُّ مُسْلِم
ألا إنما يَكْفِى الفتى بعد زَيْغه * من الأوَد الباقى ثِقافُ المقوَّم
لقد لبستْ لِبْسَ الهلُوك ثيابها * تَراءَى لك الدنيا بكَفٍّ ومِعْصَم
وتُومِضُ أحيانا بعينٍ مريضةٍ * وتَبْسِم عن مثل الجُمان المُنظَّم

(١) اعترافه: اصطباره، يقال: نزلت به مصيبة فوجد عروفا، أى صبورا.

(٢) أبلس: انكسر وحزن.

(٣) الذراح: دويبة حمراء منقطة بسواد تطير، وهى من السموم القاتلة، والذرارح جمعه. والخضخاض: نفط أسود لا خثورة فيه تهنأ به الإبل الجرب.

فأعرضتَ عنها مُشْمَئِزًّا كأنما * سَـقتْك مَدُوفًا[1] من سِمَام وعلقَم

وقد كنتَ من أجبالها فى مُمَنَّع * ومن بحـرها فى مُزْبِد الجَوْد مُفْعَم

وما زلتَ سـبَّاقًا إلى كل غايةٍ * صَعِدتَ بها أعلى البِناء المقــدَّم

فلما أتاك المُلْكُ عَفْــوا ولم يكن * لطالب دنيـا بعــده من تَكلُّم

تركتَ الذى يَفْنَى وإن كان مُونِقًا * وآثرتَ ما يَبْـقى برأى مُصَمِّم

فأضررتَ بالفانى وشمَّـرْتَ للذى * أمامك فى يوم من الهول مظـلم

ومالك أن كنتَ الخليفــة مانعٌ * سوى الله من مال رغيب ولا دَم

سما لك هـمٌّ فى الفــؤاد مؤرِّق * صعِدتَ به أعلى المعالى بِسُــلَّم

فما بين شرق الأرض والغرب كلها * مُنَـادٍ ينادى من فصيح وأعجم

يقــول أميرَ المؤمنين ظلمتنى * بأخْــذٍ لدينار وأخْـذٍ لدرهم

ولا بسطِ كفٍّ لامرىء ظالم له * ولا السفكِ منه ظالما ملءَ مِحْجم

فلو يستطيع المسلمون تقسَّموا * لك الشَّـطر من أعمارهم غيرَ نُدَّم

فعِشتَ به ما حجَّ لله راكبٌ * مُغِــذٌّ[2] مُطِيفٌ بالمقـام وزمزم

فأرْبِحْ بها من صـفقةٍ لِمُبايع * وأعْظِمْ بهـا أعْظِمْ بها ثم أعْظِم

ومن نسيبه بعَزّة لما أُخرِجتْ إلى مصر :

لعــزّة من أيام ذى الغصن شاقنى * بِضاحِى قرار الرَّوضتين رسومُ

هى الدار وحْشًا غير أن قد يحُلّها * ويَغْنَى بها شخص علىّ كريم

فما بِرسوم الدار لو كنت عالما * ولا بالتِّـلاع المُقْــوِيات[3] أهيم

سألت حَكيما[4] أين شطّت بها النوى * فخبَّرنى ما لا أحبّ حكيم

أجَدُّوا فأما آلُ عــزّة غُــدْوةً * فبـانوا وأما واسـط فمقـيم

لعمرى لئن كان الفؤادُ من الهوى * بَغَى سَــقَمًا إنى إذا لسَــقيم

(١) مدوفا : مخلوطا ، داف الدواء والزعفران يدوفه : خلطه . (٢) مغذ : مسرع .

(٣) أقوت الدار : خلت من ساكنيها . (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

ومنها :

ولستُ بِرَاءٍ نحـو مصر سحابةً * وإن بَعُـدَتْ إلا قعدتُ أَشِيم
فقد يَقْعُدُ النِّكْسُ الدَّنِيُّ عن الهوى * عَزُوفًا ويصبو المرءُ وهو كريم
وقال خليـلى ما لها إذ لقيتَها * غداةَ السَّـنا فيها عليك وُجُوم(١)
فقلتُ له إن المودّة بيننا * على غـير فُحْشٍ والصفاءُ قـديم
وإنى وإن أعرضتُ عنها تجلّدا * على العهـد فيما بيننا لمقيم
وإن زمانا فرّق الدهرُ بيننا * وبينكُم فى صَرْفه لَمَشُـوم
أفى الحقّ هـذا أن قلبَـكِ سالم * صحيحٌ وقلبى فى هـواكِ سـقيم
وأن بجسمى منك داءً مُخامِرا * وجسـمك موفور عليك سليم
لعَـمْرُكِ ما أنصـفتِنى فى مودّتى * ولكننى ياعـزّ عنك حليم
فإما تَرَيْنى اليـوم أبدى جَلادةً * فإنى لعـمرى تحت ذاك كليم
ولستُ ابنةَ الضَّمْرىّ منك بناقم * ذنوبَ العـدى إنى إذًا لظَلوم
وإنى لذو وجـد اذا عاد وصلُها * وإنى عـلى ربّى إذًا لكريم

ومن نسيبه بها :

لعـزّة أطلالٌ أبت أن تكلَّما * تهيج مغانيها الفـؤادَ المُكلَّما
وكنتُ اذا ما جئتُ أجْلَلْنَ مجلسى * وأظهـرنَ منى هيبـةً لا تجهُّما
يُحاذِرْن منى غَـيْرةً قـد عرفنها * قديمًا فما يَضْحَكْن إلا تبسُّما

ومنـه :

خليـلىَّ عوجَا منكما ساعـةً معى * على الرَّبْع نقض ساعـةً ونودِّع
ولا تُعجلانى أن أُلِمَّ بِدِمْنـة * لعـزّة لاحت لى ببيـداء بَلْقَع
وقولا لقلبٍ قد سَلا راجِع الهوى * وللعين أذْرِى من دموعك أودَعِى
فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا * مَصيفًا أقمنا فيـه من بعد مَرْبَع

(١) وجم : سكت على غيظ .

ومنــــه :

بليـــلى وجارات لليـــلى كأنهـــا * نِعَاجُ الفــلا تُحْدَى بهن الأباعرُ
أمُنْقَطِعٌ ياعزّ ما كان بيننـــا * وشاجَرنى ياعزّ فيـك الشــواجر
اذا قيــل هــذا بيتُ عزّة قادنى * اليــه الهوى وآستعجلتنى البوادر
أصُدّ وبى مثل الجنون لكى يَرى * رُواةُ الخَنا أنى لبيْتـك هــاجِر
ألا ليت حظّى منـك ياعزّ أننى * اذا بِنْتِ باع الصبرَ لى عنك تاجر

ومنـــه :

وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّ شاربى * الى اليـــوم أخفى حبّهـــا وأداجنُ
وأحمــل فى ليلى ضغائنَ مَعْشَر * وتُحْمَـــل فى ليـــلى علىّ الضغائن

ومنـــه :

وإنى لأرعى قومَها من جلالها * وان أظهروا غِشًّا نصَحْتُ لهم جَهْدى
ولو حاربوا قومى لكنتُ لقومها * صديقًا ولم أحمل على حربها حقدى

ومنـــه :

هــلّا سألتَ معَالمَ الأطلال * بالجزع من حُرُضٍ(١) وهنّ بوال
سَـــقْيًا لعــزّة خُلّةً سَـقْيًا لهـا * اذ نحن بالهَضَبات من أمْلال(٢)
إذ لا تكلّمنــا وكان كلامُها * نَفَلًا نؤمّـــله من الأنفـال

ومنـــه :

ألا حيِّيا ليـــلى أجَدّ رحيـــلى * وآذنَ أصحـابى غدًا بقُفُول(٣)
تبـدّت له ليـــلى لتُذْهِب عقـــله * وشاقتك أمُّ الصَّلْت بعد ذُهُول
أريد لأنسى ذِكرَهـا فكأنمـا * تَمَثَّـلُ لى ليـــلى بكل سبيل
إذا ذُكِرَتْ ليـــلى تَغَشَّـتك عَبْرةٌ * تُعَلّ بهـا العَيْنان بعد نُهُـول

(١) حرض : واد من وادى قناة، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملل ، وهو منزل على طريق المدينة من مكة .   (٣) قفول : رجوع .

وكم من خليل قال لى هل سألتَها ❊ فقلت له ليلى أضنّ خليل
وأبعَده نيلًا وأوشكه قِلًى (١) ❊ وإن سُئلتْ عُرْفًا فشرُّ مسُول
حلفتُ بربّ الراقصات (٢) الى منًى ❊ خِلالَ الملا يَمْدُدْن كلّ جَديل
تراها رِفاقًا بينهنّ تفاوتٌ ❊ ويَمْدُدْن بالإهلال كلَّ أصيل (٣)
تَوَاهقْن (٤) بالحُجّاج من بطن نخلة ❊ ومن عَزْوَرٍ والخَبْتِ خَبْتِ طَفيل
بكل حَرام خاشع متوجّه ❊ إلى الله يَدْعُوه بكلّ نَقيل (٥)
على كلّ مِذْعانِ (٦) الرَّواح مُعِيدةٍ ❊ ومَخْشِيّة ألا تُعِيد هَزِيل
شوامِذَ (٧) قد أرْتَجْنَ دون أجنّة ❊ وهُوجٍ تَبَارى فى الأزمّة حُول
يمين آمرئٍ مُستَغْلِظ من أَلِيّة (٨) ❊ لِيُكْذِبَ قِيلا قد ألحّ بِقِيل
لقد كذَب الواشون مابُحتُ عندهم ❊ بليلى ولا أرسلتُهم برسول
فإن جاءك الواشون عنى بكِذْبة ❊ فَرَوْها (٩) ولم يأتوا لها بحَوِيل
فلا تعجلى ياليل أن تتفهّمى ❊ بنصحٍ أتى الواشون أم بحُبُول (١٠)
فإن طِبْتِ نفسا بالعطاء فأجزلى ❊ وخيرُ العطا ياليل كلُّ جزيل
وإلا فإجمالٌ إلىّ فإننى ❊ أُحِبّ من الأخلاق كلَّ جميل
وإن تَبْذُلى لى منك يوما مودّة ❊ فقِدْمًا تَخِذْت القَرْض عند بَذُول
وإن تبخلى بالنَّيْل عنى فإننى ❊ تُوَكِّلُنى نفسى بكلّ بخيل
ولستُ براضٍ من خليل بنائلٍ ❊ قليل ولا راضٍ له بقليل

---

(١) أوشكه : أسرعه . والقلى : البغض . (٢) الراقصات : الابل ، والملا : الفضاء ، والجديل : زمام مجدول أى مضفور . (٣) الأصيل : العشىّ . (٤) تواهقن : تبارين ، وبطن نخلة : بستان بنى عامر ، وعزور : ثنية الجحفة . والخبت ، المطمئن من الأرض . وطفيل : موضع . (٥) النقيل : الطريق . (٦) المذعان : المذللة . ومعيدة : قد عاودت السفر . (٧) الشوامذ : الشائلات الأذناب ، وارتجن : أغلقن أرحامهن على أولادهن . والحول : جمع حائل وهى التى لا تلقح .
(٨) الألية : اليمين . (٩) فروها من الفرية ، يقال فرى يفرى . والحويل : المحاولة .
(١٠) الحبول : الدواهى .

وليس خليــلى بالملول ولا الذى * اذا غِبْتُ عنـه باعنى بخليــل

ولكن خليــلى من يُديم وِصــالَهُ * ويحفظ سرّى عنـد كل دَخيل[١]

ولم أرَ من ليلى نوالا أُعُدُّهُ * ألا ربمـا طالبت غيرَ مُنِيــل

يلومك فى ليـلى وعَقْلُكَ عنـدها * رِجالٌ ولم تَذْهَب لهـم بعقول

يقولون ودِّع عنـك ليلى ولا تَهِمْ * بقاطعة الأقران ذات حَليل

فـا نَقَعَتْ[٢] نفسى بمـا أمروا به * ولا عُجْتُ من أقوالهم بفتيــل

تذكّرت أترابا[٣] لعـزّة كالمهَا * حُبِينَ بليـط ناعم وقَبُـول

وكنتُ اذا لاقيْتُهنّ كأننى * مُخَالِطَـةٌ عقـلى سُلافُ شَمـول

تأطّرْن[٤] حتى قلتُ لَسْنَ بوارحا * رجاءَ الأمانى أن يَقِلْن مَقِيلى

فأبْدَيْنَ لى من بينهن تجهُّمـا * وأخلفن ظنّى إذ ظننت وقِيـلى

فَـلأْيًا[٥] بِلأْيٍ ما قَضَيْنَ لُبـانةً * من الدار وآستقللن بَعْـدَ طويل

فلما رأى وآستيقن البينَ صاحبي * دعا دعوةً يا حَبْـتَرَ بْنَ سَلُول

فقلتُ وأسْرَرْتُ النـدامة ليتنى * وكنتُ آمرأ أغْتَشّ كل عَذُول

سلكتُ سبيلَ الرائحات عشيـةً * مَخَارِمَ[٦] نِضْـع أو سَلَكْن سبيلى

فأسعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عَوادِىَ[٧] نَأْيٍ بيننـا وشُـغُول

نَدِمْتُ عـلى ما فاتنى يوم بِنْتُمُ * فيـاحَسْرتا ألا يَرَيْنَ عويلى

كأن دموع العين واهِيـةُ الكُلَى[٨] * وعَتْ ماءَ غَرْب يوم ذاك سَجِيل

---

(١) الدخيل : الذى ينتسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن : تلبثن، وأصل التأطر : التعطف .

(٥) اللأى : البطء . واللبانة : الحاجة .

(٦) المخارم : جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل . ونضع : جبل أسود بين الصفراء وينبع . (٧) العوادى : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كلية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المزاد . والغرب : الدلو العظيمة . وسجيل : ضخم .

تكنفها خُرْقٌ تَوَاكَلَ خَرْزَها ◦ فأَبْجَلْنَه والسَّيرُ غيرُ بَجيلِ (١)

أقيمى فإن الغَوْرَ ياعزّ بعدكم ◦ الىّ اذا ما بِنْتِ غيرُ جميلِ

كفى حَزَنًا للعين أن رَدّ طرفَها ◦ لعزّةَ عيرٌ آذَنَتْ برحيلِ

وقالوا نَأَتْ فاخْتَرْ من الصّبر والبكا ◦ فقلت البكا أشفى إذًا لغليلِ

تولّيت محزونا وقلت لصاحبي ◦ أقاتلى ليلى بغير قتيلِ

لعزّةَ اذ يحتلّ بالخيف أهلها ◦ فأوحش منها الخيفُ بعد حلولِ

وبدّل منها بعد طول إقامة ◦ تَبَعُثَ نَكْباء العشىّ جفولِ (٢)

لقد أكثر الواشون فينا وفيكمُ ◦ ومال بنا الواشون كل مَميلِ

وما زلتُ من ليلى لدُنْ طرّ شاربى (٣) ◦ الى اليوم كالمُقصَى بكل سبيلِ

وله :

إذا ما أرادَ الغزوَ لم تثنِ همَّه ◦ حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزينُها

نَهَتْه فلمّا لم تَرَ النَّهْىَ عاقه ◦ بَكَتْ فبكى ممّا شجاها قَطينُها (٤)

ولم يَثْنِه يومَ الصّبابة بَثُّها ◦ غداةَ اْستهلّتْ بالدموع شؤونُها

ولكنْ مضى ذو مِرّةٍ مُتثبّتٌ ◦ بِسُنّةِ حقّ واضحٍ مُستبينُها

وله فى مدح عبد الملك بن مروان :

أحاطتْ يداه بالخلافة بَعْدَ ما ◦ أراد رجالٌ آخرون اغتيالَها

فما أسلموها عَنْوَةً عن مودّة ◦ ولكنْ بحدّ المشرفىّ استقالَها

وكنتَ إذا نابتْك يومًا مُلمّةٌ ◦ نَبَلْتَ (٥) لها أبا الوليد نبالَها

سَمَوْتَ فأدركتَ العلاءَ وإنّما ◦ يُلقَّى عليّاتِ العُلا مَنْ سَما لها

وصَلْتَ فنالت كفُّك المجدَ كله ◦ ولم تبلُغ الأيدى السّوامى مَصالها

---

(١) خرق : جمع خرقاء، وهى التى لا تحسن العمل . وأبجلنه : أوسعنه . والبجيل الغليظ ، يريد أنهن أغلظن الإشفى وأدققن السير . (٢) النكباء : الريح التى تهب بين مهبى ريحين . والجفول : التى تذهب التراب . (٣) طرور الشارب : نباته . (٤) القطين : الخدم . (٥) نبلت : أعددت .

وله أيضـا :

أهاجَكَ بَرقٌ آخرَ اللَّيلِ واصِبُ ⦁ تَضَمَّنَهُ فَرْشُ الجَبا فالمَسارِبُ
يَجُرُّ ويَسْتـأنِى نَشاصًا(١) كأنَّه ⦁ بِغَيْقَةَ حادٍ جَلْجَلُ الصَّوْتِ جالِبُ
تألّقَ واحْمَـومَى وخَـيَّم بالرُّبا ⦁ أحَمُّ الذُّرى ذو هَيْدَبٍ مُتَراكِبُ
اذا حَرَّكَتْـه الريحُ أرْزَمَ(٢) جانبٌ ⦁ بلا هَزَقٍ(٣) منـه وأوْمَضَ جانبُ
كما أوْمَضتْ بالعَيْنِ ثم تَبَسَّمَتْ ⦁ خَريعٌ(٤) بَدا منهـا جَبِينٌ وحاجب
يمجُّ النَّـدى لا يذكُرُ السيرَ أهلُه ⦁ ولا يرجع المـاشي به وهو جادِب

وله أيضـا :

سَيَهْلِكُ فى الدنيـا شَـفيقٌ عليكُمُ ⦁ اذا غالَهُ من حادثِ الدهرِ غائلُه
ويُخفِي لكم حُبًّا شـديدا ورَهْبة ⦁ وللنـاس أشغال وحُبُّك شاغلُه
وحُبِّك يُنْسِينى مِنَ الشىء فى يَدى ⦁ ويُذْهِلُنى عن كل شىء أزاولُه
كَريمٌ يُميتُ السِّرَّ حتى كأنه ⦁ اذا استَبْحَثُوه عن حَديثِك جاهلُه
يَوَدُّ بأنْ يُمسِى سَـقيماً لعلَّها ⦁ اذا سَمِعَتْ عنه بشَكْوَى تُراسِـلُه
ويرتاح للمعروف فى طلب العـلا ⦁ لِتُحْمَـدَ يوما عند لَيْلَى شمـائلُه
فلو كُنْتُ فى كَبْلٍ(٥) وبُحْتُ بلَوْعتى ⦁ اليه لأنَّتْ رحمـةً لى سَلاسِـلُه

وله أيضـا :

أقول لمـاء العَيْنِ أمْعِنْ لَعَلَّه ⦁ بما لا يُرَى من غائب الوَجْدِ يَشْهَدُ
فلم أدر أن العين قبـــل فراقها ⦁ غَداةَ الشَّبا مِنْ لاعِجِ الوَجْدِ تَجْمُـد
ولم أر مثـل العين ضَنَّتْ بمـائها ⦁ عَلَيَّ ولا مثلى على الدمع يُحْسَـد

(١) النشاص : السحاب المرتفع بعضه فوق بعض . (٢) أرزم : صوّت . (٣) الهزق : شدة صوت الرعد . (٤) خريع : امرأة حسناء . (٥) كبل : قيد شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرعدَ فى الْمَخِيلة منها ◦ مِثْلَ هَزْمِ ٱلْقُرومِ (١) فى ٱلأشْوالِ (٢)

وتَرَى البَرْقَ عارِضًا مُسْتَطِيرا ◦ مَرَحَ ٱلْبُلْقِ جُلْنَ فى ٱلأجْلال

أو مَصابِيحَ راهِبٍ فى يَفاعٍ ◦ سَغَّمَ الزَّيْتَ ساطعاتِ الذُّبال

وله أيضا :

فَيَاعَزَّ إنْ واشٍ وَشَى بِىَ عندكم ◦ فلا تُكْرِميه أن تقولى له أهلا

كما لو وشى واشٍ بعزَّة عندنا ◦ لَقُلْنَا تَزَحْزَحْ لا قَرِيبًا ولا سَهْلا

(١) القروم : الفحول التى أعفيت من الحمل عليها وتركت للفحلة .

(٢) الأشوال : الإبل التى مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها .

(د) الغـــزل القصصى

١ – أخبـار قَيْس بن المـلَوَّح (المجنون)[١]

قال الأصفهانىّ عن محدِّثيـه عن ٱبن دأب قال : قلتُ لرجل من بنى عامر : أتعرف المجنونَ وتَرْوِى من شعره شيئا؟ قال : أوقد فرَغنا من شعر العقلاء حتى نَروِىَ أشعار المجانين ! إنهم لكثيرٌ ! فقلتُ : ليس هؤلاء أعنِى ، إنمـا أعنِى مجنونَ بنى عامر الشاعرَ الذى قتـله العشقُ ، فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظُ أكباداً من ذاك ، إنما يكون هذا فى هذه اليمـانِيَةِ الضِّعافِ قلوبُها ، السخيفةِ عقولها ، الصَّعْلَةِ[٢] رءوسها ، فأما نِزَارٌ فلا .

وقال الرِّياشىُّ سمعت الأصمعىَّ يقول : رجلان ما عُرِفا فى الدنيـا قطُّ إلا بالاسم : مجنونُ بنى عامر ، وٱبنُ القِرِّيَّةِ[٣] ، وإنمـا وضعهما الرُّواةُ .

وقال المدائنىّ : المجنونُ المشهورُ بالشعر عنـد الناس صاحبُ لَيْلَى قيس بن مُعَاذ من بنى عامر ، ثم من بنى عُقَيل ، أحد بنى نُمَيْر بن عامر بن عُقَيل ، قال : ومنهـم رجل آخر يقال له : مَهدِىّ بن المُلَوَّح من بنى جَعْدَة بنِ كعب بنِ ربيعةَ بنِ عامر بن صَعْصَعَة .

وقال ٱبن الكلبىّ : حُدِّثْتُ أن حديثَ المجنونِ وشـعرَه وضعه فتًى من بنى أميَّةَ كان يهوَى ٱبنَةَ عمٍ له ، وكان يكرَه أن يظهرَ ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقالَ الأشعارَ التى يَرويها الناسُ للمجنون ونَسبها إليه .

---

(١) هو قيس بن الملوح ، ويقال : ٱبن معاذ بن مزاحم من بنى عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة الى ليلى التى كان يتعشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهـل النقد من علماء الشعر يرون أن قصته موضوعة ، وضعها رجل من بنى أمية كان يحب ٱبنـة عم له ويكره أن يظهر ما بينـه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يظنها الناس للجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيرا ممـا ينسب اليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته اذا من قبيل الشعر التمثيلى (درام) الذى يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهى تمثل العشق مع التعفف ، أولعل لها أصلا قليلا وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التى تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فان بين الأشعار المنسوبة الى المجنون طائفة تمثـل شعائر المحبين كما هى على طبيعتها . وأخبار المجنون فى الأغانى (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صغر الرأس . (٣) هو أيوب ابن زيد بن قيس والقرية أمه قتله الحجاج لاتهامه بالميل لابن الأشعث .

وعن حمّاد بن طالوت بن عبّاد : أنه سأل الأصمعيّ عنه ، فقال : لم يكن مجنونا ، بل كانت به لُوثةٌ أحدثها العشقُ فيه ، كان يهوى آمرأة من قومه يقال لها ليلى ، وآسمه قيسُ آبن مُعاذ .

وذكر عَمْرو بن أبي عَمْرو الشَّيْبانيّ عن أبيه أنّ آسمه قيسُ بن مُعَاذ .

وذكر شُعَيبُ بن السَّكَن عن يُونُس النَّحْويّ أن آسمه قيسُ بن الملوّح ، قال أبو عمرو الشَّيْبانيّ : وحدّثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقِيَه وسأله عن آسمه ونسبه ، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

وذكر هشام بن محمد الكَلْبيّ أنه قيسُ بن الملوّح ، وحدّث أن أباه مات قبل آختلاطه (١) ، فعقرَ على قبره ناقتَه وقال في ذلك :

عقــرتُ على قــبر الملوّح ناقتي * بذي السَّرْح (٢) لـمّا أن جفاه الأقاربُ
وقلتُ لهـا كُوني عَقــيرًا (٣) فإنني * غدًا راجلٌ أمشي وبالأمس راكبُ
فــلا يُبعِدَنْكَ اللهُ يابنَ مُزَاحِمٍ * فكلٌّ بكأس الموت لاشكَّ شاربُ

وقال الأصمعيّ : سألتُ أعرابيًا من بني عامر بن صَعْصَعة عن المجنون العامريّ فقال : عن أيّهم تسألُني ؟ فقد كان فينا جماعةٌ رُمُوا بالجنون ، فعن أيّهم تسألُ ؟ فقلت : عن الذي كان يُشَبِّب بلَيْلَى ، فقال : كلُّهم كان يُشبِّب بلَيْلَى ، قلتُ : فأنشِدْني لبعضهم ، فأنشَدَني لمُزَاحِم بن الحارث المجنون :

ألا أيُّهـا القلبُ الذي لَجَّ هائمًا * بلَيْلى وليــدًا لم تُقَطَّعْ تمائمُهْ
أفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أنَى (٤) * لكَ اليومَ أن تَلقَى طبيبًا تُلائمُـهْ
أجِدَّكَ لا تُنسِيكَ لَيْــلَى مُلِمَّــةٌ * تُلِمُّ ولا عهــدٌ يَطُولُ تَقادُمُــهْ

---

(١) يقال : اختلط عقـله اذا تغير وفسد . (٢) ذو السرح : واد بأرض نجـد .

(٣) عقيرا ، أي معقورة ، وأصـل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أي ينحرونها و يقولون : إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافئه بمثل صنيعه بعـد وفاته . وانما أطلق العقر على النحر لأنهـم كانوا اذا أرادوا نحر البعير عقروه لئلا يشرد عنـد النحر اهـ من اللسان مادة عقر . (٤) أنى : حان وقرب .

قلت : فأنشِدْنى لغيره منهم، فأنشَدَنى لمُعَاذ بن كُلَيب المجنون :

ألا طالمَا لاعَبْتُ لَيْلَى وقادَنى ◦ إلى اللّهو قلبٌ للحِسَان تَبُوعُ
وطال آمتِرَاءُ(١) الشَّوقِ عينىَ كلّما ◦ نَزَفْتُ دُموعا تَسْتَجِدُّ دُموعُ
فقد طال إمساكِى على الكَبِدِ التى ◦ بها مِن هَوَى لَيْلَى الغَدَاةَ صُدُوعُ

قلتُ : فأنشِدْنى لغير هذين ممن ذكرتَ، فأنشَدَنى لمَهْدِىّ بن المُلَوّح :

لو آنّ لك الدنيـا وما عُدِلَتْ به ◦ سِوَاهَا وليـلى بائنٌ عنك بَيْنُهـا(٢)
لكنتَ إلى ليـلى فقيرا وإنمـا ◦ يقـود إليها وُدَّ نفسِك حَيْنُهـا

قلتُ له : فأنشِدْنى لمن بقى من هؤلاء ، فقال : حَسبك ! فوالله إنّ فى واحد من هؤلاء لمن يُوزَنُ بعقلائكم اليومَ .

وقال الجاحظُ : ما ترك الناسُ شعرا مجهولَ القائل قِيل فى لَيْلَى إلا نَسبوه إلى المجنون، ولا شعرا هذه سبيلُه قيل فى لُبْنَى إلا نَسبوه إلى قَيْس بن ذَرِيح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر مما وقع إلىّ من أخباره جُمَلًا مستحسنةً، مُتَبرِّئًا من العُهدة فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورةِ فى أخباره يَنْسُبُها بعضُ الرُّوَاة إلى غيره ويَنْسُبُها مَنْ حُكِيتْ عنه إليه، وإذا قدّمتُ هذه الشريطةَ برِئتُ من عيبِ طاعنٍ ومُتتبِّعٍ للعيوب .

أخبرنى بخبره فى شَغَفه بليـلى جماعةٌ من الرُّواة ، ونسختُ ما لم أسمعه من الروايات وجمعتُ ذلك فى سِياقة خبره ما آتّسقَ ولم يختلِف ، فاذا آختلَفَ نَسبتُ كلَّ رواية الى راويهـا .

فمن أخبرنى بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ وحبيبُ بن نصر المهلّبىّ ، قالا : حدّثنا عمرُ بن شَبّة عن رجاله وإبراهيمُ بن أيّوبَ عن آبن قُتَيبة ، ونسختُ أخبارَه من رواية خالد بن كُلْثُوم وأبى عمرو الشَّيبانىّ وآبن دَأْبٍ وهشام بن محمد الكلبىّ وإسحاق بن الجَصّاص وغيرِهم من الرُّواة .

---

(١) الامتراء : الاستدرار . (٢) بينها هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الوصل والفراق .

قال أبو عمرو الشيبانيّ وأبو عُبَيدةَ : كان المجنون يهوَى ليلى بنتَ مَهْدِىّ بن سعد بن مهدىّ بن ربيعة بن الحَرِيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتُكنَى أُمّ مالك، وهما حينئذ صبيّان، فعلِق كلّ واحد منهما صاحبَه وهما يرعَيانِ مواشِيَ أهلِهما، فلم يزالا كذلك حتى كبِرا فحُجِبت عنه، قال : ويدل على ذلك قولُه :

تَعلّقتُ لَيلَى وهى ذاتُ ذُؤَابةٍ (١) * ولم يَبْدُ للأتراب من ثديها حجمُ

صغيرين نرعَى البَهْمَ يا ليتَ أننا * إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ

وقال ابن الكلبيّ : كان سببُ عشقِ المجنون لَيلى، أنه أقبل ذاتَ يوم على ناقة له كريمةٍ وعليه حُلّتان من حُلَل الملوك، فمرّ بامرأة من قومه يقال لها : كَريمةُ، وعندها جماعةُ نسوةٍ يتحدّثن، فيهنّ ليلى، فأعجبهنّ جمالُه وكمالُه، فدعَوْنه الى النزول والحديث، فنزل وجعل يُحدّثهنّ وأمر عبدًا له كان معه فعقرَ لهنّ ناقته، وظلّ يحدّثهن بقيةَ يومه، فبينا هو كذلك، إذ طلع عليهم فتًى عليه بُردةٌ من بُرَدِ الأعراب يقال له : "مُنازِل" يسوق مِعزًى له، فلما رأينَه أقبلنَ عليه وتركن المجنونَ، فغضِب وخرج من عندهنّ وأنشأ يقول :

أأعقِرُ مِنْ جَرّا (٢) كَريمةَ ناقتِى * ووَصْلِىَ مَفروشٌ لِوَصْلِ مُنازِلِ

إذا جاء قَعْقَعنَ الحُلِىَّ ولم أكُنْ * إذا جئتُ أرضَى صوتَ تلكَ الخلاخِلِ

متى ما انتضَلْنا بالسّهام نَضَلْتُه (٣) * وإن نَرمِ رَشْقًا (٤) عندها فهو ناضِلى

قال : فلما أصبح لبس حلّتَه وركب ناقة له أخرى ومضى متعرِّضا لهنّ، فألفى ليلى قاعدةً بفِناء بيتها وقد علِق حبُّه بقلبها وهوِيَتْه، وعندها جُوَيرياتٌ يتحدّثن معها، فوقف بهنّ وسلّم، فدعونه إلى النزول وقلن له : هل لك فى مُحادثةِ من لا يَشغَلُه عنك مُنازِلٌ ولا غيرُه؟ فقال :

(١) الذؤابة : شعر الناصية .

(٢) أى من أجل، يقال : فعلت ذلك من جرّاك أى من أجلك وممـا أُنشِدَ على هذا :

أمن جرّا بنى أسـد غضبتم * ولو شئتم لكان لكم جوار

(٣) أى ترامينا بالسهام، ونضله : غلبه . (٤) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام فى جهة واحدة .

إلى لعَمْرِى ، فنزل وفعل مثلَ ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم ، هل لها عنده مثلُ ما له عندها ، بجعلتْ تُعرِض عن حديثه ساعةً بعد ساعةٍ وتُحدّث غيرَه ، وقد كان عَلِقَ بقلبه مثلُ حبِّها إياه وشغَفَتْه وآستملحها ، فبينا هى تُحدِّثه ، إذ أقبل فتًى من الحىّ فدعته وسارّته سرارا طويلا ، ثم قالت له : انصرف ، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغيّر وآنْتُقِع لونه وشَقّ عليه فعلُها ، فأنشأت تقول :

كِلانا مُظهِرٌ للنّاس بغضًا ✽ وكلٌّ عند صاحبه مَكِينُ

تُبلِّغُنا العيونُ بما أردنا ✽ وفى القلبين ثَمَّ هَوًى دَفِينُ

فلما سمع البيتين شَهَقَ شَهْقةً شديدة وأُغمِىَ عليه ، فمكث على ذلك ساعةً ، ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكّن حبُّ كل واحد منهما فى قلب صاحبه حتى بلغ منه كلَّ مَبلغ .

وعن أبى الهيثم العقيلىّ قال : لما شُهِر أمرُ المجنون وليلى وتناشد الناسُ شعرَه فيها ، خطَبها وبَذَل لها خمسين ناقة حمراء ، وخطبها وَرْدُ بن محمد العُقَيلى وبذل لها عَشرًا من الإبل وراعِيَها ، فقال أهلُها : نحن مخيّروها بينكما ، فمن آختارتْ تزوّجتْه ، ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختارِى وَرْدًا لنُمثِّلَنّ بكِ ، فقال المجنون :

ألا يا لَيلَ إن مُلِّكْتِ فينا ✽ خيارَكِ فانظُرِى لِمَنِ الخيارُ

ولا تَستَبدِلى مِنّى دَنِيًّا ✽ ولا بَرَمًا(١) إذا حُثَّ القُتارُ(٢)

يُهَرْوِل فى الصغير إذا رآه ✽ وتُعجِزُه مُلِمَّاتٌ كِبَارُ

فمثلُ تأيُّمٍ منه نِكاحٌ ✽ ومثلُ تَمَوُّلٍ منه آفتقارُ

فاختارَتْ وَرْدًا فتزوّجتْه على كُرْهٍ منها .

وقال :

أيا وَيْحَ مَنْ أمسى تُخُلِّسَ(٣) عقلُهُ ✽ فأصبح مدهوبًا به كلَّ مذهب

خليًّا من الخُلّانِ إلا مُعَذِّرًا(٤) ✽ يُضَاحِكُنى مَنْ كان يهوَى تجنُّبِى

---

(١) البرم : الثقيل . (٢) القتار : ريح اللحم المشوى . (٣) تخلس : سلب .

(٤) هو المقصر الذى لا عذر له ولكنه يتكلف العذر، ومنه قوله تعالى : (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) .

إذا ذُكرتْ ليلى عَقَلتُ وراجعَتْ * روائعُ[١] عقلى من هَوًى مُتَشَعِّبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جِنَّةٍ * ولا الهمُّ إلا بافتراء التكذُّبِ
وشاهدُ وَجْدِى دمعُ عينى وحُبُّها * بَرَى اللحمَ عن أحناءِ[٢] عظمى ومنكِبى
تجنَّبتَ ليلى أن يَلِجَّ بكَ الهوى * وهيهاتَ كان الحبُّ قبل التجنُّبِ
ألا إنّما غادرْتِ يا أمَّ مالكٍ * صَدًى[٣] أينما تَذهبْ به الريحُ يَذهبِ
فلم أرَ ليلَى بعد مَوْقِفِ ساعةٍ * بخَيْفِ مِنًى تَرمِى جِمارَ المحصَّبِ
ويُبدِى الحصَى منها إذا قذفتْ به * من البُرْدِ أطرافَ البَنانِ المُخَضَّبِ
فأصبحتُ من ليْلَى الغداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ

قال أبو الفرج : أنشدنى الأخفش عن أبى سعيد السكرى عن محمد بن حبيب للمجنون :

فوالله ثم الله إنِّى لدائبٌ * أُفكِّر ما ذنبي إليها وأعجَبُ
ووالله ما أدرِى عَلامَ قتلتِنى * وأىَّ أمورى فيكِ ياليلَ أركبُ
أأقطعُ حبلَ الوصلِ فالموتُ دونه * أم اشربُ رَنْقًا منكمُ ليس يُشرَبُ
أم اهرُبُ حتى لا أرَى لى مجاورا * أم اصنعُ ماذا أم أبوح فأُغلَبُ
فأيُّهما ياليلَ ما ترتضينه * فإنِّى لمظلومٌ وإنِّى لمُعتَبُ

وقال :

عَرَضتُ على قلبى العَزاءَ فقال لى * من الآنَ فايأسْ لا أعزَّك مِن صَبْرِ
إذا بان مَنْ تهوَى وأصبح نائيًا * فلا شىءَ أجدَى من حُلُولك فى القبرِ

(١) الروائع : جمع رائعة ، أى مرتاعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شىء فيه أعوجاج كعظم الحجاج (العظم الذى ينبت عليه الحاجب) واللحى والضلع . (٣) الصدى : الجسد من الآدمى بعد موته ، ويطلق على الرجل النحيف الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوّت عقب صياحه راجعا اليه من نحو الجبل والبناء المرتفع .

ودَاعٍ دعا إذ نحن بالخَيْفِ مِن مِنًى * فهيَّـجَ أطرابَ(١) الفؤادِ وما يدرِى
دعا باسم ليلى غيرَها فكأنَّما * أطارَ بليلى طائرًا كان فى صدرِى
دعا باسم ليلى ضلَّل اللهُ سعيَه * وليلَى بأرضٍ عنه نازحةٍ قفرِ

وقال :

أيا جبلَىْ نعمانَ باللهِ خلّيا * سبيلَ الصَّبا يخلُصْ إلىَّ نسيمُها
أجدْ بردَها أو تَشْفِ منّى حرارةً * على كبدٍ لم يبقَ إلا صميمُها(٢)
فانَّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تنسَّمتْ * على نفسِ محزونٍ تجلَّتْ همومُها

وقال :

أيا حَرَجاتِ(٣) الحىِّ حيث تحمّلوا * بذى سَلَمٍ(٤) لا جادكُنَّ ربيعُ
وخيماتُكِ اللاتى بمُنعَرجِ اللِّوى * بَلِينَ بِلًى لم تبلَهنَّ رُبوعُ
ندمتُ على ما كان منّى ندامةً * كما يندمُ المغبونُ حين يبيعُ
فقدتُكِ من نفسٍ شَعاعٍ(٥) فإنّنى * نهيتُكِ عن هذا وأنتِ جميعُ(٦)
فقرَّبتِ لى غيرَ القريب وأشرفتْ(٧) * إليكِ ثَنايا(٨) ما لهنَّ طُلوعُ

وله :

يا صاحبىَّ ألِمّا بى بمنزلةٍ * قد مرَّ حينٌ عليها أيُّما حينِ
إنى أرى رجَعاتِ الحبِّ تقتلُنى * وكان فى بدئِها ما كان يكفينى
لا خيرَ فى الحبِّ ليستْ فيه قارعةٌ * كأنَّ صاحبَها فى نزعِ موتونِ(٩)

---

(١) الأطراب : جمع طرب وهو خفة تعترى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) الحرجات : جمع حرجة وهى الغيضة ، وسميت بذلك لضيقها ، وقيل : الشجر الملتف ، وهى أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل اليها الآكلة وهى ما رعى من المال . (٤) ذو سلم : موضع بالحجاز .
(٥) يقال : نفس شعاع اذا انتشر رأيها فلم تتجه لأمر جزم . (٦) الجميع : ضد المتفرق .
(٧) أشرفت : ظهرت وارتفعت . (٨) الثنايا : جمع ثنية وهى الطريقة فى الجبل ، وقيل : هى العقبة ، وقيل : هى الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليلى صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو عرق معلق بنياط القلب .

إن قال عُذّالُه مهلاً فلانَ لهم ◦ قال الهوى غيرُ هذا القولِ يَعنِينى
أَلْقَى من اليأس تاراتٍ فتقتلُنى * ولِلـــرجاء بشاشاتٌ فتُحيِينى

وله :

أَمُستقبِلِى نفحُ الصَّبا ثم شائقى ◦ ببَردِ ثنايا أُمِّ حسَّانَ شائق
كأنّ على أنيابها الخمرَ شجَّها(١) ◦ بماء الندى من آخرِ الليل عاتِقُ(٢)
وما شِمْتُـــه إلا بعيــنى تفرُّسًا * كما شِيم فى أعلى السّحابةِ بارِقُ

وروى الأصمعىّ له قولَه :

أخذَتْ محاسنَ كلِّ ما * ضَنَّتْ محاســنُه بحُسْنِهْ
كاد الغـــزالُ يكونُها * لولا الشَّوَى ونُشوزُ قَرْنِهْ

قال : وهو القائل :

ولم أرَ ليلَى بعـــد موقفِ ساعةٍ * بخَيفِ مِنًى ترمى جمارَ المحصَّبِ
ويُبدِى الحصى منها إذا قَذَفَتْ به * من الـبُرْدِ أطرافَ البَنانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ مِن ليلَى الغـــداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغرِّبِ
ألا إنّمـا غادَرْتِ يا أمَّ مالكٍ * صَدًى أينما تَذهبْ به الريحُ يذهَبِ

وقال :

يقول أناسٌ عَلَّ مجنونَ عامرٍ * يرومُ سُـــلُوًّا قلتُ أنَّى لِمـا بِيا
وقد لامنى فى حُبِّ ليـــلى أقاربى * أخى وآبنُ عمّى وآبنُ خالِى وخالِيا
يقولون ليلَى أهلُ بيتِ عَداوةٍ * بنفسىَ ليـلى مِن عَدُوٍّ ومالِيا
ولو كان فى ليلى شَذًا من خصومةٍ * للَوَّيتُ أعنــاقَ المَطِىِّ المَلاوِيا(٣)

(١) شجها : مزجها . (٢) العاتق : البكر التى لم تبن عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة هنا وأن كلمة «عاتق» محرّفة عن «غابق» وهو الساقى فى الغبوق أى العشىّ .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمىّ من لوى بمعنى خلف .

وقال :

ألا ما لِليلَى لا تُرَى عند مَضْجَعِي ∗ بليــلٍ ولا يَجْــرِى بذلكَ طائرُ
بَــلَى إنّ عُجْمَ الطيرِ تَجرِى إذا جَرَتْ ∗ بليلَى ولكن ليس للطيرِ زاجرُ
أ زالَتْ عن العهــد الذى كان بيننا ∗ بِذِى الأَثْلِ أم قد غيّرتْها المقادِرُ
فواللهِ مافى القــرب لى منكِ راحةٌ ∗ ولا البعــدُ يُسْلِينِى ولا أنا صابرُ
وواللهِ ما أدرِى بأيَّةِ حِيــلَةٍ ∗ وأىِّ مَرَامٍ أو خِطـارٍ[١] أُخاطِــرُ
وتاللهِ إنّ الدهرَ فى ذاتِ بيننا ∗ علىّ لهـا فى كلِّ حالٍ لجائرُ
فلو كنتِ إذ أزمعتِ هجرِى تركتِنِى ∗ جميعَ[٢] القُوَى والعقــلُ مِنّى وافِرُ
ولكنّ أيامِى بِحَقْــلِ[٣] عُنَــيزَةٍ ∗ وبالرَّضْمِ أيامٌ جنـاها التَّجاوُرُ
وقد أصبح الوُدُّ الذى كان بيننــا ∗ أمانِىَّ نفسٍ والمؤمَّــلُ حائرُ
لَعَمْرِى لقــد رنّقْتِ[٤] يا أمّ مالكٍ ∗ حياتِى وساقَتْنِى إليكِ المقــادرُ

وقال :

يا لَلرِّجالِ لِهَــمٍّ بات يَعْــرُونى ∗ مُستطْرَفٍ وقــديمٍ كان يَعْنِينِى
على غَرِيمٍ مَلِىءٍ[٥] غيرِ ذِى عُــدْمٍ[٦] ∗ يأبَى فيَمْطُلُنِى دَيْنِى ويَلْوِينِى[٧]
لا يذكُرُ البعضَ مِن دَيْنِي فيُنكِرَه ∗ ولا يُحَدِّثُنِى أنْ سوف يَقضِينِى
وما كَشُكْرِىَ شُكْرٌ لو يُوافِقُنِى ∗ ولا مُنًى كَمُنَاهُ إذ يُمَنِّينِى

---

(١) الخطار : مصدر من خاطر بمعنى راهن .

(٢) جميع : مجتمع . (٣) الحقل : المزرعة و يطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط . وعنيزة : موضع بين البصرة ومكة . والرضم : موضع على ستة أميال من زُبَالة ، وزبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة .

(٤) رنقت : كدرت ، والترنيق كما يطلق على التكدير يطلق على ضده الذى هو التصفية .

(٥) ملىء بالهمز أى ثقة غنىّ . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء .

(٦) عدم أى فقر ومثله العدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضممت أوّله خففت فقلت : العدم واذا فتحت أوّله ثقلت فقلت : العدم .

(٧) يلوينى : يمطلنى ، يقال : لواه دينه وبدينه : مطله .

أطعتُه وعَصَيتُ النـاسَ كُلَّهُـمُ * فى أمره ثم يأبَى فهـو يَعْصِينِى
خَيرِى لمن يبتغِى خيرى ويأمُلُه * من دون شَرّى وشَرّى غيرُ مأمون
وما أُشارِكُ فى رأيِى أخا ضَعَفٍ (١) * ولا أقولُ أخِى مَنْ لا يُوَاتِينِى (٢)

وله :

ألا أيُّها البيتُ الذى لا أَزُوره * وإن حَلَّه شخصٌ إلىَّ حبيبُ
هجرتُكَ إشـفاقا وزرتُك خائفا * وفيك علىَّ الدهــرَ منكَ رقيبُ
سأستعتِبُ الأيامَ فيـكَ لعلّهـا * بيومِ سُرورٍ فى الزمان تؤوبُ

وبلغ المجنون أن أهل ليلى يريدون نقلها إلى الثَّقفِىّ فقال :

كأنّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدَى * بلَيْـلَى العـامرِيّةِ أو يُراحُ
قَطَـاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ * تُجاذِبُه وقـد عَلِقَ الجَنـاحُ

فلما نُقِلتْ ليلى إلى الثّقفِىّ قال :

طربتَ وشاقتكَ الحُمُـولُ (٣) الدوافعُ * غَداةَ دعا بالبينِ أسْـفَعُ (٤) نازعُ
شَحَـا (٥) فَاهُ نعبًـا (٦) بالفراق كأنه * حَرِيبٌ (٧) سَلِيبٌ نازحُ الدار جازعُ
فقلتُ ألا قد بيّنَ (٨) الأمرُ فانصرِف * فقـد راعَنا بالبينِ قبلكَ رائعُ
سُقِيتَ سُمُـوما من غراب فإنّنى * تبيّنتُ ما خـبَّرتَ مـذ أنتَ واقعُ

(١) الضعف هكذا بالتحريك : لغـة فى الضعف بالفتح والسكون . ويستعمل فى ضعف الرأى والعقل ، وأنشد عليه ابن الأعرابىّ هذا البيت . ويستعمل فى ضعف الجسم وأنشد عليه :

ومن يلق خيرا يغمز الدهر عظمه * على ضعف من حاله وفتـور

(٢) يواتينى : يساعدنى .

(٣) الحمول فى الأصل : الهوادج واحدها حمل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل فى الإبل التى عليها الهوادج . والدوافع : المندفعة فى السير . (٤) كذا فى أغلب النسخ وتزيين الأسـواق . وفى ب ، س : «أسحم» والأسفع والأسحم معناهما واحد وهو الأسود . والنازع : المسرع . والمراد بالأسفع النازع «الغراب» . (٥) شحافاه يشحوه ويشحاه : فتحه . (٦) نعبا : صياحا وتصويتا . (٧) الحريب : من سلب حريبته وهى ماله الذى يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين ، ومنه المثل : «قد بين الصبح لذى عينين» .

ألم تَرَ أنّى لا مُحِبٌّ ألومُه ٭ ولا ببديلٍ بعدهم أنا قانع
ألم تَرَ دارَ الحىّ فى رونقِ الضحى ٭ بحيثُ انحنتْ للهَضْبتين الأجارعُ (١)
وقد يتناءى الإلْفُ من بعد أُلفةٍ ٭ ويصدَعُ ما بين الخليطين صادعُ
وكم من هوًى (٢) أو جيرةٍ قد ألِفتُهم ٭ زمانا فلم يمنعهمُ البينَ مانعُ
كأنّى غداةَ البينِ ميْتٌ جوبةٍ (٣) ٭ أخو ظمإ سُدّتْ عليه المشارعُ
تَخلّسَ (٤) من أوشالِ (٥) ماءٍ صُبابةً ٭ فلا الشُّربُ مبذولٌ ولا هو ناقعُ (٦)
وبيضٍ تَطَلَّى بالعبير كأنها ٭ نِعاجُ المَلا (٧) جِيبتْ (٨) عليها البراقعُ
تَحمّلنَ من وادى الأراكِ (٩) فأومَضَتْ ٭ لهنّ بأطراف العيون المدامعُ
فما رِمْنَ (١٠) ربعَ الدار حتى تشابهتْ ٭ هِجائنُها (١١) والجُونُ منها الخواضعُ (١٢)
وحتى حملنَ الحُورَ (١٣) من كلّ جانب ٭ وخاضتْ سُدولُ (١٤) الرَّقْم منها الأكارعُ (١٥)

(١) الهضبتان : مثنى هضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المخلوق من صخرة واحدة ، والأجارع : جمع أجرع ، والأجرع كالجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تنبت شيئا (انظر اللسان فى مادتى هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوىّ وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر :

هَوَاىَ مع الركب اليَمانين مُصْعِدٌ ٭ جنيبٌ وجُثْمانى بمكة مُوثَقُ

(٣) الجوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تخلس الشىء : انتهبه وأخذه خلسة . (٥) الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والصبابة : بقية الماء تبق فى الاناء والسقاء . (٦) هو من نقع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة . (١٠) معناه ما برحن . يقال : ما رام المكان أى ما برحه . (١١) الهجائن : الابل البيضاء الكريمة واحدها هجان . والجون : جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود اليحموى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الابل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجدّ بها السير ، قال جرير :

ولقد ذكرتك والمطىّ خواضع ٭ وكأنهن قطا فلاة مجهل

(١٣) الحور : جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينها حور وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها . (١٤) السدول : جمع سديل وهو ما يجلل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكارع كما يقول سيبويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الانسان : ما دون الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قوائمها مطلقا .

فلما آستوتْ تحتَ الخدورِ وقد جرى * عَبِيرٌ ومسكٌ بالعرانينِ رادعُ (١)
أَشَرْنَ بأن حُثُّوا الجمالَ فقد بدا * من الصيف يومٌ لافحُ الحرِّ ماتِعُ (٢)
فلما لحقْنا بالحُمول تباشرَتْ * بنا مُقْصِرَاتٌ (٣) غاب عنها المطامعُ
يُعَرِّضْنَ بالدَّلِّ المَليح وإن يُرِدْ * جَنَاهُنَّ مشغوفٌ فهنّ موانعُ
فقلتُ لأصحابي ودمعِي مُسْبَلٌ * وقد صَدَعَ الشملَ المشتَّتَ صادعُ
أليلَى بأبواب الخُدورِ تعرّضَتْ * لِعَيْني أم قرنٌ من الشمس طالعُ

وروى أنّ أبا المجنون حجّ به ليدعوَ الله عزّ وجلّ فى الموقف أن يُعافيَه، فسار ومعه آبنُ عمه زيادُ بنُ كعب بن مُزَاحِم، فمرّ بحمامة تدعو (٤) على أَيْكَة فوقف يبكى، فقال له زياد: أىّ شىء هذا؟ ما يُبْكيك أيضا؟ سر بنا نلحقِ الرُّفْقةَ، فقال:

أأنْ هتفَتْ يوما بوادٍ حمامةٌ * بكيتَ ولم يَعْذِرْك بالجهل عاذرُ
دعتْ ساقَ حُرٍّ (٥) بعد ماعَلَتِ الضُّحَى * فهاج لكَ الأحزانَ أن ناحَ طائرُ
تُغَنِّى الضُّحَى والصُّبحَ فى مُرْجَحِنَّةٍ (٦) * كثاف الأعالِى تحتها الماءُ حائرُ (٧)
كأن لم يكن بالغَيْلِ (٨) أو بطنِ أَيْكةٍ (٩) * أو الجِزْعِ (١٠) من تول الأشاءةِ (١١) حاضرُ

(١) المراد بالرادع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العبير والمسك . وأصل الردع اللطخ بالطيب والزعفران، يقال : قميص رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والزعفران، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « لم ينه عن شىء من الأدوية الا عن المزعفرة التى تردع الجلد » أى تنفض صبغها عليه . (٢) الماتع : الطويل . (٣) مقصرات : جمع مقصرة أى داخلة فى القصر وهو العشىّ، يقال : أتيته قصرا أى عشيا، وأقصرنا أى دخلنا فى قصر العشى، كما تقول أمسينا من المساء، من أعصرتِ الجارية اذا بلغت عصر شبابها، أو من أعصرت أى دخلت فى العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) .

(٤) تدعو : تصوّت وتنوح . (٥) ساق حرّ : أصله صوت القمارى و يطلق على الذكر من القمارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر اللسان مادتى سوق وحرّ) . (٦) المرجحنة : المهتزة المتمايلة . (٧) حائر : متردّد . (٨) الغيل : اسم لعدّة مواضع والظاهر أنّ المراد هنا واد لبنى جعدة وهم قوم المجنون . (٩) الأيكة : الغيضة الملتفة الأشجار ولم نجد فى الكتب التى بأيدينا « أيكة » ولا « بطن أيكة » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الجزع : منعطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بنى جماز وهو واد باليمامة . (١١) الأشاءة : موضع باليمامة فيه نخيل . ولعل كلمة « تول » محرّفة عن « تال » والتال : صغار النخل واحدته تالة .

يقولُ زِيادٌ إذ رأى الحيَّ هَجَّرُوا[(١)] ٭ أرى الحيَّ قد ساروا فهل أنتَ سائرُ
وإنّى وإن غَالَ[(٢)] التقـادُمُ حاجتى ٭ مُلِمٌّ على أوطانِ لَيْـلَى فَنَـاظِرُ

كان المجنونُ وليلَى وهما صَبِيّانِ يَرْعَيانِ غنما لأهلهما عنـد جبلٍ فى بلادهما يقـال له التوباد[(٣)]، فلما ذهب عقـله وتوحّش، كان يجيء إلى ذلك الجبلِ فيقيمُ به، فإذا تذكر أيام كان يُطِيف هو وليلى به جزِع جزعا شديدا وآستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشامِ، فإذا ثاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : بأبى أنتم، أين التوباد من أرض بنى عامر ؟ فيقـال له : وأين أنت من أرض بنى عامر ! أنت بالشام عليك بنجم كذا فأمَّه، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلادا يُنكِرها وقوما لا يعرِفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون : وأين أنت من أرض بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوبادِ ، فإذا رآه قال فى ذلك :

وأجْهَشْتُ[(٤)] للتَّوبادِ حين رأيتُـه ٭ وكَبَّرَ للرحمن حينَ رآنى
وأذرَيتُ دمعَ العين لمّا عرفتُه ٭ ونادى بأعلى صـــوته فدعانى
فقلتُ له قد كان حولكَ جيرةٌ ٭ وعهدِى بذاكَ الصَّرم منذ زمانِ
فقال مَضَوْا وآستودَعُونى بلادَهم ٭ ومَنْ ذا الذى يبقَى على الحدَثانِ
وإنى لأبكى اليومَ من حَذَرى غدًا ٭ فِـرَاقَكَ والحَيّانِ مُجْتَمِعانِ
سِجَـالًا وتَهْتَانًا[(٥)] ووَبْلًا ودِيمَـةً ٭ وسحًّـا وتَسْجَامًا[(٦)] الى هَمَلانِ[(٧)]

(١) هجّروا : ساروا فى وقت الهاجرة .　(٢) غال الشئَ : ذهب به .　(٣) التوبادِ (بالدال المهملة) وهو الموافق لما فى معجم ما آستعجم للبكرى إذ قال فى ضبطه : هو بفتح أوّله وباء معجمة بواحدة ودال مهملة وأنشد عليه : ٭ وأجهشت التوباد حين رأيته ٭ البيت .
وضبطه ياقوت بالذال المعجمة فقال فى معجمه : « توباذ » بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة : جبل بنجد .　(٤) أجهشت : تهيأت للبكاء .　(٥) يقال : هتنت السماء تهتن هتنا وتهتانا أى صبت .
(٦) يقال : سجمت السحابة مطرها تسجيما وتسجاما اذا صبّته .　(٧) الهملان : فيض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليلى فى ليلة ظلماء أو توهم ذلك، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوتَ ؟ فقال : ما سمعت شيئا، قال : بلى ، والله هاتف يهتف بليلى، ثم أنشأ يقول :

أقولُ لأدنَى صاحِبَيَّ كُلَيمةً ۞ أسِرَّتَ من الأقصى أجِبْ ذا المنادِيَا
إذا سِرْتُ فى الأرضِ الفَضاءِ رأيتُنِى ۞ أُصانِعُ رَحْلِى(١) أن يَمِيلَ حِيالِيَا
يَمِينًا إذا كانت يمينًا وإن تكن ۞ شِمالًا يُنازِعُنِى الهوَى عن شِمالِيَا

خطب ليلَى صاحبةَ المجنون جماعةٌ من قومها فكرِهَتْهم ، فخطبها رجلٌ من ثقيف مُوسِرٌ فرضيته ، وكان جميلا فتزوجها وخرج بها، فقال المجنونُ فى ذلك :

ألا إنّ ليلى كالمَنِيحةِ(٢) أصبحتْ ۞ تَقَطَّعُ إلا من ثقيف حِبالُها
فقد حبسوها مَحْبَسَ البُدْنِ وابتغَى ۞ بها الربحَ أقوامٌ تَساحَتْ(٣) مالُها
خليلىّ هل مِنْ حيلةٍ تعلمانِها ۞ يُدَنِّى لنا تكليمَ ليلَى احتيالُها
فإن أنتما لم تعلَماها فلستُما ۞ بأوّلِ باغٍ حاجةً لا ينالُها
كأنّ مع الركب الذين اغتدَوْا بها ۞ غمامةَ صيفٍ زعزعَتْها شَمالُها
نظرتُ بمُفضَى سَيْلِ جَوْشَنَ(٤) إذ غدَوْا ۞ تَخُبُّ بأطرافِ المَخارِمِ(٥) آلُها
بشافيةِ الأحزانِ هيَّج شوقَها ۞ مُجامَعةُ الأُلّافِ ثم زِيالُها
إذا التفتتْ من خلفِها وهى تغتلى ۞ بها العِيسُ جَلَّ عَبْرةَ العينِ حالُها

(١) الرحل : ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .

(٢) المنيحة فى الأصل : الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلا يشرب لبنها ثم يردها اذا انقطع اللبن ، ثم كثر استعمالها فى كل موهوب . (٣) يقال أسحت ماله : استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأسحتت تجارته : خبثت وحرمت ، ولم نجد فى كتب اللغة « تساحت » على وزن تفاعل من هذه المادة

(٤) لم نجد فى بلاد العرب ما يسمى جوشن الا جبلا فى غربى حلب . (٥) المخارم (بالراء المهملة) : جمع مخرم وهو الطريق فى الجبل أو الرمل .

وله :

وأَحْبِسُ عنكِ النفسَ والنفسُ صَبَّةٌ ٭ بِذِكْرَاكِ والمَمْشَى إليـكِ قـريبُ
مخافةَ أنْ تسعى الوُشَاةُ بِظِنَّـةٍ ٭ وأُحْرِسُكم أن يسـتريبَ مُرِيبُ
فقد جعلتُ نفسى ـ وأنتِ آجترمتِه ٭ وكنتِ أعزَّ الناسِ ـ عنكِ تَطِيبُ
فلو شئتِ لم أَغْضَبْ عليكِ ولم يزل ٭ لكِ الدهرَ منّى ما حييتُ نصيبُ
أمَا والذى يَبْـلُو السرائرَ كلَّها ٭ ويعـلَمُ ما تُبْـدِى به وتَغِيبُ
لقد كنتِ ممن تَصْطَفِى النفسُ خُلَّةً ٭ لهـا دون خُلّانِ الصَّـفاء حُجُوبُ

٢ — قيس بن ذَرِيح[(١)]

من شعر قيس :

يقولون لُبْنَى فتنةٌ كنت قبلها ٭ بخـيرٍ فلا تنـدَمْ عليها وطَلِّقِ
فطاوعتُ أعدائى وعاصَيْتُ ناصحى ٭ وأقـررتُ عينَ الشامتِ المتخلِّق
وَدِدْتُ وبيتِ الله أنى عَصَيتُهم ٭ وحُمِّلْتُ فى رِضْوانها كلَّ مُوبِق
وكُلِّفتُ خوضَ البحرِ والبحرُ زاخرٌ ٭ أَبِيتُ على أثباجِ مَوجٍ مغـرِّق

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من ليث بن بكر كان منزل قومه بظاهر المدينة . مر لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة فرأى لبنى بنت الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعلقها ، فطلبها من أبيه فمنعه إياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ تراثه فى أهله ، فطار لب قيس وتقسمت نفسه وذهب ، فاستشفع بأخيه من الرضاع ، الحسين بن على ، فوجد ما أحب وتزوجها ومكثا زمنا ولم يعقبا ، وشغل قيسا حب لبنى عن مواساة أمه فاضطغنت على زوجه وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلما ترقى به الى شرها ، فطلب اليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أجابه الى طلبه ، وكان فى ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حظ وعقل فى هذه الحياة ولم ينتفع ببر ويجه غيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه يتنسم أخبار لبنى ويمرغ خده فى آثارها ، وبقى طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عابئ بشقاء بدنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كثيرة فى الأغانى (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فى برلين .

كأنى أرى الناسَ المحبّين بعدها • عُصارةَ ماءِ الحنظلِ المتفلّق
فتُنكر عينى بعدها كلَّ مَنظرٍ • ويكره سمعى بعدها كلَّ مَنطِقِ

وخرج قيس فى فِتْية من قومه واعتلّ على أبيه بالصيد ، فأتى بلادَ لُبْنى ، فجعل يتوقع أن يراها أو يرى من يُرسل اليها ، فاشتغل الفتيانُ بالصيد ، فلما قضوا وطَرَهم منه رجعوا اليه وهو واقف ، فقالوا له : قد عرَفْنا ما أردتَ بإخراجنا معك وأنك لم تُرِد الصيد وإنما أردتَ لقاء لبنى وقد تعذّر عليك ، فانصرف الآن ، فقال :

وما حائماتٌ حُمْنَ يوماً وليلةً • على الماء يَغْشَيْنَ العِصِىَّ حَوَانى
عَوَافٍ لا يصدُرنَ عنه لوجهةٍ • ولا هنّ من بَرْدِ الحِياض دَوَانى
يَرَيْنَ حَبَاب الماء والموتُ دونه • فهن لأصوات السُّقاة رَوَانى
بأجهدَ منى حَرَّ شوقٍ ولوعةٍ • عليكِ ولكنّ العدوّ عدانى
خليلَىَّ إنى ميّتٌ أو مكلّمٌ • لُبَيْنَى بسرّى فامْضِيا وذَرانى
أنَلْ حاجتى وحدى ويارُبَّ حاجةٍ • قضيتُ على هولٍ وخوفِ جَنان
فإنى أحقُّ الناسِ ألّا تحاوِرَا • وتَطّرِحا من لو يشاء شفانى
ومن قادنى للموت حتى اذا صفتْ • مشاربه السّمَّ الذُّعاف سقانى

فأقاموا معه حتى لقيها .

لما ألحّ ذَرِيح على ابنه قيس فى طلاق لبنى فأبى ذلك قيس ، طرح دريح نفسه فى الرَّمْضاء وقال : لا والله لا أرِيمُ هذا الموضعَ حتى أموتَ أو يُخَلّيها ، فجاءه قومه من كل ناحية فعظّموا عليه الأمر وذكّروه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ! إن مات شيخك على هذه الحال كنت مُعينا عليه وشريكا فى قتله ، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلّة صبره وبكاءٍ منه حتى بكى لهما من حضرهما ، وأنشأ يقول :

أقول لخلّتى فى غير جُرْمٍ • ألَا بِينى ، بنفسىَ أنتِ ، بِينى
فوالله العظيم لَنَزْعُ نفسى • وقطعُ الرِّجل منى واليمينِ

أحبُّ إليَّ يا لُبنَى فِراقًا ۞ فَبَكّي للفراق وأسعديني
ظَلمتُكِ بالطّلاق بغير جُرمٍ ۞ فقد أذهبتِ آخرتي وديني

قال : فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديدا ، وأنشأت تقول :

رحَلتُ اليه من بلدى وأهلى ۞ فجازانى جزاءَ الخائنينا
فَمَنْ رآنى فلا يغترّ بعدى ۞ بحُلو القول أو يَبْلُو الدّفينا

فلما آنقضت عِدّتها وأرادت الشخوصَ الى أهلها أُتِيتْ براحلة لتُحمَلَ عليها ، فلما رأى ذلك قيسٌ داخله أمر عظيم وآشتدّ لهفه ، وأنشأ يقول :

بانتْ لُبنى فأنت اليوم متبولُ ۞ وإنك اليومَ بعد الحزم مخبولُ
فأصبحتُ عنك لبنى اليومَ نازحةً ۞ ودَلُّ لبنى - لها الخيراتُ - معسولُ
هل تَرْجِعنّ نَوَى لبنى بعاقبةٍ ۞ كما عهدتُ ليالى العشقُ مقبول
وقد أرانى بلبنى حقّ مقتنعٍ ۞ والشملُ مجتمعٌ والحبلُ موصول
فصرتُ من حبّ لبنى حين أذكرها ۞ القلبُ مرتهنٌ والعقلُ مدخول
أصبحت من حبّ لبنى بل تذكّرها ۞ فى كُربةٍ ففؤادى اليومَ مشغولُ
والجسم منّىَ منهوكٌ لفرقتها ۞ يَبْريه طولُ سَقامٍ فهو منحولُ
كأننى يومَ وَلّتْ ما تكلّمنى ۞ أخو هُيامٍ مصابُ القلب مسلولُ
أستودع الله لبنى اذ تُفارقنى ۞ عن غير طوعٍ وأمرُ الشيخ مفعولُ

ثم آرتحلت لبنى ، فجعل قيس يقبّل موضع رجليها من الأرض وحول خِبائها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعَذْل واللوم ، فقال ذَريح لما رأى حاله تلك : قد جَنَيتُ عليك يابُنيّ ، فقال له قيس : قد كنتُ أخبرك أنى مجنون بها فلم ترضَ إلا بقتلى ، فالله حسبُك وحسبُ أمّى . وأقبل قومه يعذُلونه فى تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

فما حُبّي لِطِيبِ تراب أرض ۞ ولكن حبّ من وَطِئَ الترابا
فهذا فعل شيخَيْنا جميعًا ۞ أرادا لى البليّة والعذابا

وله قصيدة طويلة فى تطليقه لبنى يقول فيها :

فواكبدى وعاودنى رُدَاعِى (١) * وكان فراقُ لبنى كالخِدَاعِ (٢)
تكنفنى الوُشاةُ فأزعجونى * فيالله للواشى المُطَاعِ
فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفسى * على شىء وليس بمستطاعِ
كمغبونٍ يَعَضُّ على يديه * تَبَيَّنَ غَبْنَه بعد البِيَاعِ
بدار مَضِيعةٍ تركتُكِ لُبنى * كذاك الحَيْنُ يُهْدِى للمضاعِ
وقد عشنا نَلَذُّ العيشَ حيناً * لو آنّ الدهرَ للإنسان واعِى
ولكنّ الجميعَ الى افتراقٍ * وأسباب الحتوف لها دواعِى

واجتمع إليه نسوة فأطلْنَ الجلوسَ عنده وحادثْنَه وهو ساهٍ عنهنّ، ثم نادى : يا لبنى، فقلن له : مالك ويحك ؟ فقال : خَدِرتُ رجلى « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبِّ الناس اليه يُذهِب خَدَرَ الرجل، فناديتها لذلك . وقال :

اذا خَدِرَتْ رجلى تذكّرتُ من لها * فناديتُ لُبنَى باسمها ودعوتُ
دعوت التى لو أنّ نفسى تُطيعنى * لفارقتُها من حبّها وقضيتُ
بَرَتْ نبلَها للصيد لُبْنَى وريَّشتْ * وريَّشتُ أخرى مثلها وبريتُ
فلمّا رمتنى أقصدتنى بسهمها * وأخطأتُها بالسهم حين رميتُ
وفارقتُ لُبنى ضَلّةً فكأننى * قُرِنْتُ الى العَيُّوق (٣) ثم هَوَيْتُ
فياليتَ أنّى متُّ قبلَ فراقِها * وهل تَرجِعنْ فوتَ القضيةِ لَيْتُ
فصرتُ وشيخى كالذى عَثَرتْ به * غداةَ الوغَى بين العُداة كُمَيْتُ
فقامتْ ولم تضرر هُزالا سويةً * وفارسُها تحت السّنابك ميْتُ
فان يك تَهْيامى بلُبنى غَوايةً * فقد يا ذَرِيحُ بنَ الحباب غَوَيْتُ

(١) الرداع : النكس، وهو رجوع المرض . (٢) الخداع : الموت . (٣) هو نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

فـلا أنت ما أملتَ فىَّ رأيتــه ° ولا أنا لبنى والحياة حـويتُ
فوطِّنْ لهلكى منـك نفسًا فإننى ° كأنك بى قـد يا ذريحُ قَضَيتُ

ومرض قيسٌ، فسأل أبوه فتيَاتِ الحىّ أن يَعُدْنه ويحدّثنه أو يعلّق بعضهن، ففعلن ذلك، ودخل اليه طبيب ليداويه والفتَيات معه، فلما اجتمعن عنده جعل يحادثنه وأطلْنَ السؤالَ عن سبب علته، فقال :

تَعَلّق رُوحى روحَها قبـل خلقِنا ° ومن بعد ما كنا نِطافًا وفى المهـدِ
فـزاد كما زِدنا فأصـبح ناميًـا ° وليس اذا متنا بمُنْصَرِم العهــد
ولكنه باقٍ على كل حادثٍ ° وزائرنا فى ظلمة القبر واللحــد

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيهـا من المساوى والمعايب، فان النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه آمرأة جميلة فلعله يسلو بهـا عن لبنى، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خِفتُ ألّا تقنَعَ النفسُ بعدها ° بشىء من الدنيـا وإن كان مقنعًا
وأزجر عنها النفس اذ حيل دونَهَا ° وتأبَى اليهـا النفسُ إلّا تطلُّعـا

ولمـا تزوجت لبنى بآخر أتى موضعَ خبائها فنزل عن راحلته وجعـل يتمعك[(١)] موضـعها ويمرغ خدّه على ترابها ويبكى أحرّ بكاء ثم قال :

الى الله أشكو فقدَ لُبنى كما شكا ° الى الله فَقــدَ الوالدَيْن يتـيمُ
يتيمٌ جفـاه الأقربون بجسمه ° نحيـلٌ وعهــد الوالدين قديمُ
بكتْ دارُهم من نأيهم فتهلّلت ° دموعى فأىَّ الجازعِين ألومُ
أمستعبرٌ يبكى من الشوق والهوى ° أَمَ آخرُ يبـكى شجــوَه ويَهيـمُ
تهيَّضنى من حبّ لُبنَى علائقٌ ° وأصـناف حبٍّ هَوْلُهنّ عظيمُ

(١) يتمعك : يتمرغ فى التراب .

ومن يتعلّق حبُّ لُبنى فؤادَه ۰ يمُتْ أو يعِشْ ما عاش وهو كليمُ
فإنّى و إن أجمعتُ عنك تجلُّدا ۰ على العهد فيما بيننا لمقيمُ
وإن زمانا شتّت الشملَ بيننا ۰ وبينكُمُ فيه العدا لمشومُ
أفى الحقّ هذا أنّ قلبَك فارغٌ ۰ صحيحٌ وقلبى فى هواكِ سقيمُ

وقال فى رحيل لُبنَى عن وطنها وانتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم فى حيّها :

بانت لُبينَى فهاج القلبَ من بانا ۰ وكان ما وعدتْ مَطلا وليّانا(١)
وأخلفتك منًى قد كنتَ تأمُلُها ۰ فأصبح القلبُ بعد البين حيرانا
الله يدرى وما يدرى به أحدٌ ۰ ماذا أُجمجِم من ذكراكِ أحيانا
يا أكملَ الناسِ من قَرْنٍ الى قدمٍ ۰ وأحسنَ الناس ذا ثوب وعُريانا
نعم الضجيع بُعيد النوم تجلبه ۰ اليك ممتلئا نوما و يقظانا
لا بارك اللهُ فيمن كان يحسَبكم ۰ إلا على العهد حتى كان ما كانا
حتى استفقت أخيرا بعد ما نُكحتْ ۰ فبتّ للشوق أُذرى الدمعَ تهتانا
إن تصرِمى الحبلَ أو تُمسى مفارقةً ۰ فالدهرُ يُحدث للإنسان ألوانا
وما أرى مثلكم فى الناس من بَشَرٍ ۰ فقد رأيتُ به حيًّا ونسوانا

وشكا أبو لبنى لمعاوية تعرّض قيس لابنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير يُهدر دمه إن ألمّ بها، وأن يشتدّ فى ذلك، فكتب مروان فى ذلك الى صاحب الماء الذى ينزله أبو لبنى كتابا وكيدا، ووجّهتْ لبنى رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتحذّره، و بلغ أباه الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدر السلطان دمك ، فقال :

فان يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها ۰ مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أميرِ
فلن يمنعوا عينىّ من دائم البكا ۰ ولن يُذهبوا ما قد أجنّ ضميرى
الى الله أشكو ما أُلاقى من الهوى ۰ ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفيرِ

(١) الليان : اللىّ والمطل ، قال أبو الهيثم : لم يجئ من المصادر على فعلان إلا ليان .

ومن حُرَقٍ للحبّ فى باطن الحشى * وليـــلٍ طويلِ الحزن غيرِ قصيرِ
سأبكى على نفسى بعينٍ غزيرةٍ * بكاءَ حزينٍ فى الوثاق أسيرِ
وكنا جميعًا قبـل أن يَظهـرَ الهوى * بأنعم حالَىْ غبطــةٍ وســرورِ
فما بَرِح الواشـون حتى بدتْ لهم * بطونُ الهـوى مقلوبةً لظهورِ
لقد كنتِ حَسْبَ النفس لودام وصلُنا * ولكنما الدنيا متاعُ غرورِ

وقال فى إهدار معاوية دمه إن هو زارها :

إن تك لُبنى قـد أتى دون قربها * حجابٌ منيعٌ ما اليـــه سبيـلُ
فإن نسيمَ الجوّ يجمـع بيننا * ونُبصر قَرنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحُنا بالليـل فى الحىّ تلتقى * ونعـلَم أنَّا بالنهار نَقيـلُ
وتجمعنا الأرضُ القَـرار وفوقنـا * سماءٌ نرى فيهـا النجومَ تجولُ
الى أن يعودَ الدهرُ سِلمًا وتنقضى * تِراتٌ بغاها عنــدَنا وذُحولُ (١)

ولما انصرف الناس من الحج مرِض قيس مرضا شديدا فلم يأته رسولها عائدا، فقال:

ألُبنى لقد حلّتْ عليك مصيبتى * غداةَ غدٍ إذ حــلَّ ما أتوقـعُ
تُمنّيننى نَيــلًا وتَلوِيننى قِـلًى * فنفسىَ شوقًا كلَّ يومٍ تَقطَّعُ
وقلبُـك قطُّ لا يلين لما يَرَى * فوا كبِدى قد طال هذا التضرّعُ
ألومُـك فى شانى وأنتِ مُليمةٌ * لعـمرى وأجفَى للمحب وأقطعُ
أخُبّرتِ أنى فيك ميتٌ حسرتى * فما فاض من عينيك للوجد مدمعُ
ولكن لعمرى قد بكيتُك جاهدا * وإن كان دائى كلُّه منك أجمعُ
صبيحةَ جاء العائداتُ يعُدْنَنى * فظَلْتُ علىّ العـائداتُ تَفَجّعُ
فقائلةٌ جئنا اليـــه وقـد قضى * وقائـلةٌ لا بل تركناه ينزِعُ
فما غشِيتْ عينيك من ذاك عَبرةٌ * وعينى على ما بى بذكراكِ تدمعُ
اذا أنتِ لم تبكى علىّ جنـازةً * لديك فلا تبكى غدا حين أُرفَعُ

(١) ذحول : جمع ذحل وهو الثأر .

ومن شعره قوله :

أتبكى على لُبنى وأنت تركتَها * وكنت عليها بالملا(١) أنت أقدرُ
فإن تكن الدنيا بلُبنى تقلّبتْ * علىّ فللدنيا بطونٌ وأظهرُ
لقد كان فيها للأمانة موضعٌ * وللكفّ مُرْتادٌ وللعين منظَرُ
وللحائم العطشانِ رِىٌ بريقها * وللمَرِح المختالِ خمرٌ ومُسْكِرُ
كأنى لها أُرجوحةٌ بين أحبُلٍ * اذا ذُكرةٌ منها على القلبِ تَخْطُرُ

وقوله :

لقد عذّبتَنى ياحبَّ لبنى * فقعْ إمّا بموتٍ أو حياةِ
فانّ الموتَ أروحُ من حياة * تدوم على التباعُدِ والشتاتِ
وقال الأقربون تَعَزَّ عنها * فقلتُ لهم اذا حانتْ وَفَاتى

وقالت له لبنى : أنشدنى ما قلت فى علتك ، فأنشدها قولَه :

أعالج من نفسى بقايا حُشاشةٍ * على رَمَقٍ والعائداتُ تعودُ
فان ذُكِرتْ لبنى هَشَشتُ لذكرها * كما هَشّ للثّدْى الدَّرور وليدُ
أُجيب بلبنى من دعانى تجلُّداً * وبى زَفَراتٌ تنجلى وتعود
تُعيد الى رُوحى الحياةَ وإنّنى * بنفسىَ لو عاينتنى لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أياماً مَضينَ تعود * فإن عُدْنَ يوماً إننى لسعيدُ
سقى دارَ لبنى حيث حلّتْ وخيّمتْ * من الأرض مُنْهَلُّ الغمام رعيدُ
على كل حالٍ إن دنتْ أو تباعدتْ * فإن تدنُ منّا فالدنوّ مَزيدُ
فلا اليأسُ يُسلينى ولا القربُ نافعى * ولبنى مَنُوعٌ ما تكاد تجودُ
كأنّى من لبنى سليمٌ مسهّدٌ * يظَلّ على أيدى الرجال يَميدُ
رمتنى لُبَيْنى فى الفؤاد بسهمها * وسهم لبينى للفؤاد صَيُودُ

(١) الملا : موضع .

سـلا كلُّ ذى شجوٍ علمت مكانه * وقلـبى للبـنى ما حَيِيتُ وَدود
وقائـلةٍ قـد مات أو هو ميت * وللنفس منى أن تفيضَ رصـيدُ

وعاتبته على تزوّجه، فحلف أنه لم ينظر اليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقنى * عَلَقٌ بقلبى من هواكِ قديمُ
يبقى على حَدَثِ الزمان ورَيْبه * وعلى جفائك إنه لكريم
فصَرَمْتِه وصَحَحْتِ وهو بدائه * شتّان بين مصحَّح وسقيم
وأريتِه زَمنًا فعاذَ بحلمه * إن المحبَّ عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يحدثها ويشكو اليها حتى أمسى؛ فانصرفت ووعدته الرجوع اليه من غد فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل اليه رسولا، فكتب هذين البيتين :

بنفسىَ مَنْ قلبى له الدهرَ ذاكرٌ * ومَنْ هو عنّى مُعرِضُ القلبِ صابرُ
ومَنْ حبُّه يزداد عندىَ جِدّةً * وحُبّى لديه مخلقُ العهـدِ داثرُ

وقال ابن أبى عتيق لقيس يوما : أنشدنى أحرّ ما قلتَ فى لبنى؛ فأنشده :

وإنّى لأهوى النومَ فى غير حِينِه * لعـلّ لقاءً فى المنامِ يكونُ
تحـدّثنى الأحلام أنّى أراكُمُ * فياليتَ أحلام المنام يقينُ
شهِدْتُ بأنى لم أحُلْ عن مودّة * وأنى بكم لو تعلمين ضنينُ
وأن فؤادى لا يلينُ الى هوًى * سواكِ وإن قالوا بَلَى سَيلينُ

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدتُ أبا السائب المخزومىّ قول قيس :

أُحبُّكِ أصنافًا من الحبِّ لم أجِدْ * لهـا مَثَلًا فى سائر الناس يوصفُ
فمنهن حبٌّ للحبيب ورحمـةٌ * بمعـرفتى منه بما يتكلّفُ
ومنهن ألّا يَعرِضَ الدهرَ ذِكرُها * على القلبِ إلا كادت النفس تتلفُ
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهر * وحبٌّ لدى نفسى من الروح ألطفُ

وقصيدة قيس العينية[١] من جيد شعره وهى :

عفَا سَرِفٌ من أهله فسُرَاوِعُ * فجَنْبَا أَرِيكٍ فالتِّلاعُ الدوافعُ[٢]

فغَيْقَةُ فالأخياف أخيافُ ظَبْيَةٍ * بها من لُبنى مَخْرَفٌ ومَرَابِعُ[٣]

لعلّ لُبنى أن يُحَمّ لقاؤها * ببعض البلادِ إن ما حُمّ واقعُ[٤]

بجِزْعٍ[٥] من الوادى خلاء أنيسُه * عفَا وتخطّته العيونُ الخوادعُ

ولما بدَا منها الفِراقُ كما بَدَا * بظَهْرِ الصّفَا الصّلْدِ الشقوقُ الشوائعُ[٦]

تمنّيتَ أن تَلْقَى لُبيناكَ ، والمُنَى * تُعاصيك أحيانًا وحينًا تُطاوع

وما من حبيبٍ وامقٍ لحَبيبه * ولا ذى هوًى إلا له الدهرُ فاجعُ

وطار غرابُ البين وانشقّت العصا[٧] * ببينٍ كما شَقّ الأديمَ الصوانعُ

ألا يا غرابَ البينِ قد طِرتَ بالذى * أُحاذر من لُبنى فهل أنت واقعُ

وإنك لو أبلغتَها قِيلَك اسلمِى * طوتْ حزَنًا وارفضّ[٨] منها المدامعُ

أتبكى على لُبنى وأنت تركتَها * وكنتَ كآتٍ غَيّه وهو طائعُ

فلا تبكيَنْ فى إثر شىء ندامةً * اذا نزعتْه من يديك النوازع

فليس لأمرٍ حاول الله جمعَه * مُشِتٌّ[٩] ولا ما فرّق اللهُ جامعُ

كأنك لم تَقْنَعْ اذا لم تُلاقِها * وإن تلقَها فالقلبُ راضٍ وقانعُ

---

(١) وردت هذه القصيدة برمتها فى كتاب الأمالى لأبى على القالى (ج ٢ ص ٣١٤ — ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) . (٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحدتها تلعة وهى مسيل ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدوافع : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء . (٣) أخياف ظبية : موضع . والمخرف : المنزل الذى يقام فيه فى الخريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع . (٤) حم : قدر . (٥) جزع الوادى : منعطفه . وعفا : درس . والخوادع واحدها خادعة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه تخدع اذا لم تنم ، وأنيناهم بعد ما خدعت العين . (٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى اذا أصابه شىء صلد أى صوّت . والشوائع : جمع شائعة وهى الظاهرة . (٧) أى تفرقت الجماعة . (٨) ارفض : سال ولا يكون إلا سيالا مع تفرق . (٩) مشت : مفرق .

فياقلبُ خبِّرني، اذا شَطَّت النوى (١) * بلُبْنى وصدّت عنك، ما أنت صانع
أتصبر للبين المشتِّ مع الجوَى * أم أنت آمرؤ ناسى الحياء بجازعُ
فما أنا إن بانت لُبينى بهاجعٍ * اذا ما آستقلّت بالنِّيام المَضاجعُ
وكيف ينام المرءُ مستشعِرَ الجوَى * ضجيعَ الأسَى فيه نِكاسٌ رَوادعُ (٢)
فلا خيرَ فى الدنيا اذا لم تُواتِنا * لُبَيْنى ولم يجمعْ لنا الشَّمْلَ جامعُ
أليست لبينى تحت سَقْفٍ يُكنّها * وإيّاىَ هذا إن نأت لى نافع
ويَلبَسُنا الليلُ البهيمُ اذا دَجَا (٣) * ونُبصرُ ضوءَ الصبح والفجرُ ساطعُ
تَطَأُ تحت رجليها بساطًا (٤) وبعضُه * أطاهُ برِجْلى ليس يَطويه مانع
وأفرح إن تُمسى بخيرٍ وإن يكن * بها الحَدَثُ العادِى تَرُعْنى (٥) الروائع
كأنك بِدْعٌ لم تر الناسَ قبلها * ولم يَطّلِعْك الدهرُ فيمن يطالع
فقد كنتُ أبكى والنوى مطمئنةٌ * بنا وبكم من علم ما البينُ صانعُ
وأهجرُكم هجرَ البَغيض وحبُّكم * على كبدى منه كُلومٌ صوادعُ
وأعجَل للإشفاق حتى يَشُفّنى * مخافةُ شحط الدار والشملُ جامعُ
وأعمِد للأرض التى من ورائكم * ليَرجعَنى يومًا عليك الرواجعُ
فيا قلبُ صبرًا وآعترافًا (٦) لما ترى * ويا حبَّها قَعْ بالذى أنت واقعُ
لعمرى لَمَنْ أمسى وأنتِ ضجيعُه * من الناس ما اختيرتْ عليه المضاجعُ
ألَا تلك لُبنى قد تَراخى مَزارُها * وللبين غمٌّ ما يزال ينازعُ
اذا لم يكن إلا الجوَى فكَفَى به * جَوًى حُرَقٍ قد ضُمِّنَتْهَا الأضالع
أبائنةٌ لبنى ولم تقطع المَدَى * بوصلٍ ولا صرمٍ فييأسَ طامعُ

---

(١) شطت : بعدت . (٢) المستشعر : الذى لبس الشعار وهو الثوب الذى يلى الجسد . والجوى : الهوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . وروادع . جمع رادعة وهى التى تردعه عن الحركة والتصرّف . (٣) دجا : ألبس بظلمته كل شىء . (٤) البساط : ما بسط من الفرش . (٥) ترعنى : تفزعنى . (٦) اعترف : ذل وانقاد .

يظلُّ نهارَ الوالهين نهارُه ٭ وتَهْدِنُه[1] فى النائمين المضاجعُ
سواى فليْلِى من نهارى وإنما ٭ تقسّمُ بين الهالكين المَصارِعُ
ولولا رجاءُ القلبِ أن تعطِفَ النوى ٭ لما حَمَلَتْه بينهن الأضالع
له وَجَبَاتٌ[2] إثرَ لُبنى كأنها ٭ شقائقُ بَرْقٍ فى السحاب لوامع
نهارى نهارُ الناس حتى اذا دجا ٭ لِىَ الليلُ هزّتنى اليك المضاجع
أُقضِّى نهارى بالحديث وبالمنى ٭ ويجمعنى بالليل والهمَّ جامع
وقد نشأتْ فى القلب منك مودةٌ ٭ كما نشأتْ فى الراحتين الأصابع
أبى الله أن يَلقَى الرشادَ متيمٌ ٭ ألَا كُلُّ أمرٍ حُمَّ لا بد واقع
هما برّحا بى مُعْوِلَين كلاهما ٭ فؤادٌ وعينٌ مأقُها[3] الدهرَ دامع
اذا نحن أنفدنا البكاءَ عشيةً ٭ فموعدُنا قَرْنٌ من الشمس طالع
وللحب آياتٌ تَبَيَّنُ بالفتى ٭ شُحوبٌ وتَعْرَى من يديه الأشاجع[4]
وما كلّ ما مَنّتك نفسُك خاليًا ٭ تلاقى ولا كلّ الهوى أنت تابع
تداعتْ له الأحزانُ من كل وجهةٍ ٭ فحَنَّ كما حنَّ الظُّؤارُ[5] السواجع
وجانبَ قُربَ الناس يخلو بهمّه ٭ وعاوده فيها هُيامٌ مُراجِعُ
أراكَ اجتنبتَ الحىّ من غير بِغْضةٍ ٭ ولو شئتَ لم تجنح اليك الأصابع
كأنّ بلادَ الله ما لم تكن بها ٭ وإن كان فيها الخلقُ قَفْرٌ بلاقع
ألا إنما أبكى لما هو واقعٌ ٭ وهل جَزَعٌ من وشك بينِك نافع
أحال علىّ الدهرُ من كل جانبٍ ٭ ودامت ولم تُقلِع علىّ الفواجع
فمن كان محزونا غدًا لفراقنا ٭ فمَلآن فليبكى لما هو واقع

(١) تهدنه : تسكنه . (٢) وجبات : خفقات . (٣) المأق من العين : الجانب الذى يلى الأنف . (٤) الأشاجع : عروق ظاهر الكف . (٥) الظؤار : جمع ظئر وهى التى عطفت على ولد غيرها . والسواجع : جمع ساجعة وهى التى تمد حنينها على جهة واحدة .

الشـــعر الســـياسى

أوضحنا لك فى المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر فى كثير من الحركات السياسية وآستحثاث العزمات وإنهاض الهمم فى الانقلابات الاجتماعية، وبيّنا ميزة آستعمال الشعر فى الأغراض السياسية فى عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير فى هذا الباب . وها هى ذى :

النُّعمانُ بن بَشِـــير (١)

قال أبو الفَرَج الأصْفهانىّ :

لمـا كثر الهجاءُ بين عبد الرحمن بن حَسّان وعبد الرحمن بن الحَكَم بن أبى العاصى وتفاحشا، كتب مُعَاوِيَةُ الى سَعِيد بن العَاصى، وهو عامِلُه على المدينة، أن يَجْلِدَ كلَّ واحد منهما مائة سوط، وكان آبنُ حسّان صديقًا لسعيد وما مدَح أحدًا غيرَه قطّ، فكرِه أن يضربه أو يضرب آبن عمّه، فأمسك عنهما؛ ثم ولِىَ مروانُ، فلما قدِم أخذ آبنَ حسّانَ فضربه مائة سَـوْط ولم يضرب أخاه، فكتب آبنُ حسّان الى النّعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيرًا أثيرًا (٢) مكينًا عند معاوية، قال :

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصارى، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه فى واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية فى تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد اجتذبه بسخائه ودهائه وكان يراعى جانبه، وكثيرا ما سمع توسطه للأنصار عنـده . وعاش النعمان المذكور الى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حمص، فلما أفضت الخلافة الى مروان دعا الى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حمص الى ذلك، فهرب منهـم فتبعوه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسايرته بنى أمية شـديد التعصب للأنصار، ولذلك عند ما علم بقصيدة الأخطل فى الطعن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العريقين فى الشعر خلفا عن سلف فان جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء . وهو أوّل مولود ولد فى الاسلام من الأنصار، وآخر من ولى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان . وله ديوان مطبوع فى الهند . توفى سنة ٦٥ هـ . وترى أخبار النعمان بن بشير فى الأغانى (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالى (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفى سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها .

(٢) أثيرا : مكرما .

ليت شِعْرِى أغائبٌ أنت بالشا ٭ م خليلى أم راقدٌ نُعْمانُ
أيةٌ ما يكن فقد يرجع الغا ٭ ئبُ يوما ويُوقظ الوَسْنانُ
إن عمرًا وعامرًا أبوينا ٭ وحَراماً قِدْمًا على العهد كانوا
أفهم مانعوك أم قلّة الكُتّـ ٭ ـاب أم أنتَ عاتب غضبان
أم جفاءٌ أم أعوزَتْك القراطيـ ٭ ـسُ أم أمرى به عليك هَوان
يوم أُنبئتَ أن ساقِىَ رُضَّتْ ٭ وأتتكم بذلك الرُّكبان
ثم قالوا إن ابن عمّك فى بلـ ٭ ـوى أمورٍ أتى بها الحَدَثان
فنسيتَ الأرحامَ والوُدَّ والصُّحـ ٭ ـبَة فيما أتت به الأزمان
إنما الرمحُ فاعلمن قناةٌ ٭ أو كبعض العِيدان لولا السِّنان

قال أبو الفرج الأصبهانى :

دخل النعمانُ بن بشير على معاوية لما هجا الأخطلُ الأنصارَ ، فلما مثَل بين يديه أنشأ يقول :

مُعاوِىَ إلّا تُعْطِنا الحقَّ تَعترف ٭ لحى الأزد مشدودًا عليها العمائمُ
أيشتمنا عبدُ الأراقم[(١)] ضَلّةً ٭ وماذا الذى تُجدى عليك الأراقم
فما لِىَ ثأرٌ دون قطع لِسانه ٭ فدُونك من يُرضيه عنك الدراهم
وراعِ رُوَيدًا لا تَسُمْنا دَنِيّةً ٭ لعلّك فى غِبِّ الحوادث نادم
متى تَلْقَ منا عُصْبةٌ خَزْرجيّةٌ ٭ أو الأوسَ يومًا تخترمْك المخارم
وتلقاك خيلٌ كالقطا مُستطيرةٌ ٭ شماطيطُ[(٢)] أرسالٌ عليها الشكائم[(٣)]
يَسُومُها العَمْران : عمرو بن عامرٍ ٭ وعِمرانُ حتى تُستباحَ المحارم
ويبدو من الخود العزيزة حجلُها ٭ وتَبْيَضَّ من هول السيوف المقادم
فتَطلبَ شَعْبَ الصَّدع بعد التئامه ٭ فتَغْرِيَه فالآن والأمرُ سالم

(١) الأراقم : حىّ من بنى تغلب . (٢) شماطيط : متفرقة . (٣) الشكائم : جمع شكيمة وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

وإلا فثوبى لأمةٌ تبعيةٌ * توارثُ آبائى وأبيضُ صارم
وأسمرُ خطىٌّ كأن كعوبه * نوى القسب فيها لهذمىٌّ خُثارم
فإن كنتَ لم تشهد ببدرٍ وقيعةً * أذلّتْ قريشا والأنوفُ رواغم
فسائل بنا حيَّ لؤىّ بن غالبٍ * وأنتَ بما يخفى من الأمر عالم
ألم تبتدر يوم بدر سيوفنا * ولَيلُك عما ناب قومَك قاتم
ضربناكُم حتى تفرق جمعكم * وطارت أكفٌّ منكمُ وجماجم
وعاذتْ على البيت الحرام عرائسٌ * وأنت على خوفٍ عليك التمائم
وعضّت قريشٌ بالأنامل بِغْضَةً * ومِنْ قَبْلُ ماعضتْ عليك الأداهم
فكنّا لها فى كلّ أمرٍ نكيده * مكانَ الشَّجا والأمرُ فيه تفاقُم
فما إن رمى رامٍ فأوهى صفاتنا * ولا ضامنا يوماً من الدهرِ ضائم
وانّى لأُغضِى عن أمورٍ كثيرةٍ * سترقى بها يوماً إليك السلالم
أُصانع فيها عبدَ شمس وانّنى * لتلك التى فى النفس منى أكاتم
فما أنتَ والأمرَ الذى لستَ أهله * ولكن ولىُّ الحق والأمرِ هاشم
اليهم يصير الأمرُ بعد شتاته * فمَنْ لك بالأمرِ الذى هو لازم
بهم شرَع اللهُ الهدى فاهتدى بهم * ومنهم له هادٍ إمامٌ وخاتم

فلما بلغت القصيدةُ معاويةَ أمر بدفع الأخطل اليه ليقطعَ لسانَه، فاستجار بيزيد ابن معاويةَ، فمنعه منه، وأرضى النعمانَ حتى كفّ عنه .

وقال عمرو بن أبى عمرو الشَّيْبانىّ عن أبيه : لما ضرب مروانُ بن الحكم عبدَ الرحمن ابن حسّان الحدَّ، ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا، كتب عبدُ الرحمن الى النعمان ابن بشير يشكو اليه، فدخل الى معاوية، وأنشأ يقول :

يابنَ أبى سُفيانَ ما مِثلُنا * جارَ عليه مَلِكٌ أو أمير
أذكرْ بنا مُقدَمَ أفراسنا * بالحِنْو إذ أنتَ الينا فقير

وَاذكر غَداةَ الساعِدىِّ الذى * آثَرَكم بالأمر فيها بَشِير
فاحذَرْ عليهم مثل بَدْرٍ وقد * مرّ بكم يومٌ ببدر عَمِير
إنّ ابن حسّان له ثائر * فأعْطِه الحقّ تَصِحّ الصُّدور
ومثل أيامٍ لنا شَتَّتَتْ * مُلْكَا لكم أمْرُك فيها صغير
أما ترى الأزْدَ وأشياعَها * تجول خُزْرًا كاظِمَاتٍ تَزِير
يصُول حولى منهمُ مَعْشَرٌ * إن صُلْتُ صالوا وهمُ لى نَصير
يأبى لنا الضَّيمَ فلا يُعْتَلى * عِزٌّ مَنيع وعديدٌ كثير
وعنصرٌ فى عِزّ جُرْثُومةٍ * عادِيَّةٍ تنقلُ عنها الصّخور

مُلحَق
الكتاب الثانى

باب المنثـــور

شرحنا لك فى المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة فى عصر العباسيّين من جَوْدة اللفظ، ومتانة الأسـلوب، وجَلاء المعنى، ووضوح القصـد و بساطته . ووعدناك بذكر طُرَف من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهى الزاهر؛ و إليك ما وعدناك به :

١ — مُشَاوَرَةُ المهدىّ لأهلِ بيته فى حرب خُراسان

قال ٱبنُ عبد ربّه فى العِقْد الفريد :

هذا ما تراجعَ فيه المهدىّ ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خُراسان أيامَ تحامَلَتْ عليهم العمالُ وأعنفتْ، فحملتهم الدالّة وماتقدّم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيْعَتَهم، ونقضوا مَوْثقهم، وطردوا العمال، وٱلتوَوْا بمـا عليهم من الخراج؛ وحمل المهدىَّ مايُحِبّ من مصلحتهم ويكره من عَنَتهم على أن أقال عَثْرَتَهم، وٱغتفر زَلّتهم، وٱحتمل دالّتهم، تطوّلًا بالفضل وٱتّساعا بالعفو، وأَخْذًا بالحُجّة و رِفقا بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مُذْ حَمّله اللهُ أعباءَ الخلافة وقلّده أمورَ الرعيّة رفيقا بمدار سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، باسطًا للمَعْدَلة فى رعيّته، تسكن الى كَنَفه وتأنس بعفوه وتثق بحلمه؛ فإذا وقعت الأقضيةُ اللازمةُ والحقوقُ الواجبة، فليس عنـده

هَوادة ولا إغضاء ولا مُداهَنة ، أثَرَةً لحق وقياما بالعدل وأخْذاً بالحزم ؛ فدعا أهلَ خراسان الأغترارُ بحلمه والثقة بعفوه أن كَسروا الخراج (١) وطَرَدوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلطوا آحتجاجا باعتذار ، وخصومةً بإقرار ، وتنَصُّلا بآعتلال ؛ فلما آنتهى ذلك الى المهدىّ خرج الى مجلس خَلَائه وبعث الى نَفَرٍ من لُحْمَتِه ووزرائه ، فأعلمهم الحالَ وآستنصحهم للرعيّة ، ثم أمر المَوالى بالآبتداء ، وقال للعباس بن محمد : أى عَمّ ! تَعَقَّبْ قولَنا وكن حَكَماً بيننا ؛ وأرسل الى وَلَدَيه موسى وهارون ، فأحضرهما الأمرَ وشارَكهُما فى الرأى ، وأمر محمدَ بن اللَّيث (٢) بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالتهم فى كتابٍ .

فقال سلّامٌ (٣) صاحبُ المظالم :

أيها المهدىّ ، إنّ فى كل أمرٍ غايةً ، ولكل قوم صِناعةً ؛ آستفرَغَتْ رأيَهم ، وآستغرقت أشغالَهم ، وآستنفدت أعمارَهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرِفوا بها وعُرِفت بهم ؛ ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غايةً ، وطلبت معونتَنا عليها أقوامٌ من أبناء الحرب وساسَةِ الأمور وقادةِ الجنود وفُرسانِ الهَزاهِز (٤) وإخوانِ التجارِب ، وأبطالِ الوقائع ؛ الذين رَحَّتهم سِجالُها ، وفَيّأتهم ظِلالُها ، وعضّتهم شدائدُها ، وقَرَمتهم نواجذُها ؛ فلو عَجَمتَ ما قِبَلهم ، وكشفتَ ما عندهم ؛ لوجدتَ نظائرَ تؤيِّد أمرَك ، وتجارِبَ توافِق نَظَرَك ، وأحاديثَ تقوّى قلبَك ؛ فأما نحن معاشرَ عُمّالك ، وأصحاب دواوينك ، فحَسَنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقلِ ما حمّلتنا من عملك ، وآستودَعتنا من أمانتك ، وشغَلتنا به من إمضاء عَدْلك ، وإنفاذ حُكمك ، وإظهار حقّك .

فأجابه المهـدىّ : إنّ فى كل قوم حكمةً ، ولكل زمان سياسةً ، وفى كل حال تدبيرا يبطل الآخِرُ الأوّلَ ، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا .

---

(١) كسروا الخراج أى كفوا عن أدائه . (٢) هو ابن الليث بن نصر بن سيار . وكان أرسل المهدىّ أباه الليث لمحاربة المقنع فلم يمكن منه . وكان آبنه محمد هذا من كتاب المهدى ولم تعرف سنة وفاته .

(٣) هو سلام بن الأبرش ، آستعمله المنصور ثم تولى العقوبات فى أيام المهدى . (٤) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب فى الناس .

قال : نعم أيها المهدىّ، أنت مُتبع الرأى، وَثِيق العُقْدة، قوىّ المُنّة (١)، بليغ الفِطْنة، معصوم النيّة، مَحضور الروِيّة، مؤيَّد البديهة، موفَّق العزيمة، مُعَانٌ بالظَّفَر، مَهْدىّ الى الخير، إن هممتَ نَفى عزمُك مواقعَ الظنّ، وإن آجتمعتَ صَدَعَ فعلُك مُلْتَبِس الشك ؛ فاعْزِم يَهْدِ اللهُ الى الصواب قلبَك، وقُلْ يَنْطِق اللهُ بالحقّ لسانك ؛ فإنّ جنودك جَمّة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخيّة، وأمرك نافذ .

فأجابهُ المهدىّ : إنّ المُشاورة والمناظرة بابَا رحمة، ومِفْتاحا بركة ؛ لا يَهلِك عليهما رأىٌ، ولا يَتَغَيَّل (٢) معهما حزم، فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضُرُكم ؛ فإنى من ورائكم، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيع :

أيها المهدىّ، إنّ تصاريف وُجُوه الرأى كثيرة، وإنّ الإشارة ببعض مَعَاريض (٣) القول يسيرة ؛ ولكن خراسان أرضٌ بعيدة المسافة، مُتَراخية الشُّقّة، مُتَفاوتة السبيل ؛ فإذا آرتأيت من مُحكَم التدبير، ومُبرَم التقدير، ولُباب الصواب، رأيًا قد أحكمه نَظَرُك، وقلَّبه تدبيرك، فليس وراءه مَذْهَبُ طاعن، ولا دُونه مَعَلَّقٌ لخصومة عائب ؛ ثم أجَبْتَ البُرُدَ به، وآنطوتْ الرسلُ عليه، كان بالحَرَى ألّا يصل اليهم مُحكَمُه إلا وقد حدث منهم ماينقُضه ؛ فما أيْسَر أن ترجع اليك الرسل، وتَرِد عليك الكتب بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم، فتُحْدِث رأيا غيره وتَبْتَدع تدبيرًا سواه ؛ وقد آنفرجت الحِلَق، وتحلّلت العُقَد، وآسترخى الحِقاب (٤)، وآمتدّ الزمانُ، ثم لعلّما مَوْقع الآخرة كَمَصْدر الأُولى ؛ ولكن الرأى لك أيها المهدىّ — وفّقك الله — أن تَصْرف إجالةَ النّظر، وتقليبَ الفِكَر، فيما جَمَعْتنا له، وآستشرتنا فيه من التدبير لحربهم، والحِيَل فى أمرهم، الى الطلب لرجلٍ ذى دِين

---

(١) المنّة : القوّة . (٢) لا يتغيل : لا يضعف . (٣) معاريض الكلام ما عرّض به ولم يصرّح وهى التورية بالشىء عن الشىء . (٤) الحقاب : شىء تتخذه المرأة تعلق به معاليق الحلىّ تشدّه على وسطها .

فاضل، وعقـل كامل، وورَع واسع، ليس موصوفًا بهوًى فى سِواك ، ولا متَّهما فى أَثَرَة عليك ، ولا ظَنِينًا(١) على دُخْلَةٍ مكروهة، ولا منسوبا الى بدعة محذورة، فيَقْدَح فى مُلْكك، ويُرَبِّضُ(٢) الأمورَ لغيرك ، ثم تُسنِد اليـه أمورَهم، وتفوض اليه حربهم ، وتأمُره فى عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك مالَزِمه الحزمُ، وخلافِ نَهْيك اذا خالَفه الرأىُ عندآستحالة الأمور، وآشتدادِ الأحوال التى يُنْقَضُ أمر الغائبِ عنها ، ويَثْبُتُ رأىُ الشاهد لهـا، فإنه اذا فعل ذلك فَواثَب أمرَهم من قريب، وسقَط عنه مايأتى من بعيد، تَمّت الحيلةُ وقَوِيت المكيدةُ، ونَفَذ العمل وأُحِدّ النظر، إن شاء الله .

قال الفضل بن العباس :

أيها المهدىّ ، إن وَلِىَّ الأمور وسائس الحروب ربما نَحّى جنودَه، وفرّق أموالَه فى غير ماضِيقِ أمرِ حَزَبه، ولا ضَغْطَةِ حال آضطرّته، فيَقْعد عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لهـا عَدِيما منها فاقدا لها ، لا يثِق بقوّة، ولا يصول بعُدّة، ولا يفزَع الى ثقة ، فالرأىُ لك أيها المهدى – وفقـك الله – أن تُغْنِى خزائنَك من الإنفاق للاموال ، وجنودَك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغريرِ القتال، ولا تُسْرِع للقوم فى الإجابة الى ما يطلبون ، والعطاءِ لمـا يسألون، فيَفسُد عليـك أدبُهم ، وتَجْرِئ من رعيتـك غيرَهم، ولكن آغزُهُم بالحيـلة، وقاتِلهم بالمكيدة، وصارِعهم باللِّين، وخاتِلهم بالرِّفق، وأَبْرِق(٣) لهم بالقول، وأَرْعِد نحوهم بالفعل، وآبعث البُعُوث(٤)، وجنِّد الجنود، وكتِّب الكتائب، وآعقِد الألوية، وآنصب الرايات، وأظهر أنك موجِّه اليهم الجيوشَ مع أحْنَق قوّادك عليهم، وأسوَئِهم أثرًا فيهـم ؛ ثم آدْسُس الرُّسُل، وآبْثُث الكتب، وضَعْ بعضهم على طَمَع من وعدك ، وبعضًا على خوف

(١) ظنينا : متهما . ودخلة مكروهة : أى نية سيئة . (٢) ربضه أى أثبته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدّد وتوعد . (٤) البعوث : الجيوش .

من وعيدك، وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم، وٱغرس أشجار التنافس بينهم، حتى تُملأ القلوبُ من الوحشة، وتنطوى الصدورُ على البِغضة، ويدخل كلًّا من كلٍّ الحذرُ والهيبةُ، فإنّ مرام الظَّفَر بالغِيلة، والقتالَ بالحيلة، والمُناصبة بالكتب، والمكايدة بالرُّسل، والمقارعةَ بالكلام اللطيف المُدْخَل فى القلوب، القوىّ المَوْقع من النفوس، المعقودِ بالحُجَج، الموصولِ بالحيل، المبنىِّ على اللين الذى يستميل القلوبَ، ويَسْترِق العقولَ والآراء، ويستميل الأهواءَ، ويستدعى المُواتاة، أنفذُ من القتال بظُبَات السيوف وأسنّة الرماح؛ كما أنّ الوالىَ الذى يَسْتنزِل طاعةَ رعيّته بالحيل، ويفرّق كلمة عدوّه بالمكايدة، أحكمُ عملًا وألطفُ منظرًا وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك إلا بالقتال، والإتلافِ للأموال والتغريرِ والخِطار[1].

وليَعلم المهدىُّ أنه إن وجّه لقتالهم رجلا لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة، تخرج عن حال شديدة، وتُقْدِم على أسفار ضيّقة، وأموال متفرّقة، وقوّاد غَشَشَة، إن ٱئتمنهم ٱستنفدوا مالَه، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدىّ: هذا رأى قد أسفر نورُه، وأبرق ضَوءُه، وتمثّل صوابُه للعيون، ومجد حقّه فى القلوب، ولكن فوق كل ذى علم عليم؛ ثم نظر الى ٱبنه علىّ فقال: ما تقول؟

قال على:

أيها المهدىّ، إنّ أهل خراسان لم يخلَعوا عن طاعتك، ولم يَنْصِبوا من دونك أحدًا يَقْدَح فى تغيير مُلكك، ويُرَبِّص الأمورَ لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخَطْب أيسر، والشأن أصغر والحال أذلّ، لأنّ الله مع حقّه الذى لا يَخْذُله، وعند موعده الذى لا يُخلفه، ولكنهم قومٌ من رعيّتك، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم واليًا، وجعل العدل بينك وبينهم حاكمًا، طلبوا حقًّا، وسألوا إنصافًا، فإن أجبْتَ الى دعوتهم ونفّستَ[2] عنهم

(١) الخطار: الاشراف على هلكة.

(٢) نفست عنهم: فرجت عنهم.

قبل أن يَتَلاحَمَ منهم حال، أو يحدُثَ من عندهم فَتْقٌ، أطعتَ أمرَ الربِّ، وأطفأتَ نائرةَ[(١)] الحـرب، ووفَّرتَ خزائنَ المـال، وطرحتَ تغريرَ القتال، وحمَل النـاسُ محمَلَ ذلك على طبيعة جُودك، وسجيّة حلمك، وإسْجاح[(٢)] خليقتك، ومَعْدَلة نظرك، فأمِنتَ أن تُنْسَب الى ضَعْف، وأن يكون ذلك فيما بَقِيَ دُرْبَة؛ وإن منعْتَهـم ما طلبوا ولم تُجِبهـم الى ما سألوا، اعتدلَتْ بك وبهم الحال، وساويتَهـم فى ميْدان الخطَاب؛ فما أَرَبُ المهدىّ أن يعمد الى طائفة من رعيّتـه، مقرِّين بمملكته، مُذْعِنين لطاعته، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته، ولا يُبرئونها من عُبُوديّته، فيُملِّكَهُم أنفسَهم ويخلَع نفسَه عنهم، ويقفَ على الحِيَل معهم، ثم يجازِيهم السوءَ فى حدّ المنازعة ومضمار المخاطرة؛ أيريد المهدىّ — وفّقه الله — الأموالَ؟ فلعمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها، ممـا يطلب منهم وأضعاف ما يدّعى قبلهم، ولو نالها لحُمِلت اليه، أو وُضِعت بخرائطها[(٣)] بين يديه، ثم تجافَى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان ممـا اليه يُنْسَب وبه يُعْرَف من الجود الذى طبعه الله عليه، وجعل قُرّة عينـه ونَهْمَة نفسه فيه؛ فإن قال المهدىّ: هذا رأى مستقيم سديد فى أهل الخَراج الذين شكَوْا ظُلْمَ عمّالنا، وتحامُلَ وُلاتِنـا، فأما الجنودُ الذين نقَضُوا مواثيق العهود، وأنطقوا لسانَ الإرجاف[(٤)] وفتحوا بابَ المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نَكَالا لغيرهم وعِظَةً لسواهم؛ فيعلمَ المهدىّ أنه لو أُتِيَ بهـم مغلولين فى الحديد، مقرَّنين فى الأصفاد، ثم اتّسع لحَقْن دمائهم عَفْوُه، ولإقالة عثرتهم صَفْحُه، واستبقاهم لمـا هم فيه من حَرْبه، أو لمن بإزائهـم من عدُوّه، لمـا كان بِدْعا من رأيه، ولا مُسْتَنْكَرا من نظره، لقـد علِمت العربُ أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوًا، وأشدُّها وَقْعا، وأصدقها صوْلة؛ وأنه لا يَتَعاظَمه عفوٌ،

---

(١) نائرة الحرب: ما اشتعل واتقد منها.

(٢) الإسجاح: مصدر أسجح الوالى، اذا أحسن العفو.

(٣) الخريطة: وعاء من أدم وغيره.

(٤) الارجاف: مصدر أرجف القوم اذا خاضوا فى أخبار الفتن على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء.

ولا يتكاءده[1] صفح، وإن عظم الذنب وجلّ الخطب، فالرأى للمهدى — وفقه الله تعالى — أن يحلّ عُقْدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم، وأن يذكر أُولَى حالاتهم وضَيْعة عِيالاتهم، برًّا بهم وتوسُّعًا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقه الذين بعزّتهم يصول، وبحجّتهم يقول، وإنما مَثَلهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخطه، وتعرّضوا له من معاصيه، وآنطوَوْا فيه عن إجابته، ومَثَله فى قلّة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم، أو ثقل من حاله لهم، أو تغيّر من نعمته بهم، كَمَثَل رَجُلين أخوين متناصرين متآزرين، أصاب أحدَهما خَبْلٌ عارضٌ، ولَهْوٌ حادث، فنهض الى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزدد أخوه إلا رقة له ولُطفًا به، وآحتيالا لمُداواة مرضه ومراجعةِ حاله؛ عَطْفًا عليه وبرًّا به ومرحمةً له.

فقال المهدى: أما علىّ فقد كوى سِمَتَ اللّبان، وفَضَّ القلوبَ فى أهل خراسان، ولكل نبأ مُسْتَقَرّ، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعنى موسى آبنه.

فقال موسى:

أيها المهدىّ، لا تَسْكُن الى حَلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خَلَل فعلهم؛ الحالُ من القوم ينادى بمُضْمَرة شرّ، وخَفيّة حقد؛ قد جعلوا المعاذير عليها سِتْرًا، وآتخذوا العِلَل من دونها حِجَابا؛ رجاءَ أن يُدافعوا الأيامَ بالتأخير، والأمورَ بالتطويل؛ فيكسِروا حيل المهدىّ فيهم، ويُفْنُوا جنودَه عنهم حتى يتلاحم أمرُهم، وتتلاحق مادّتُهم، وتستفحل حربهم، وتستمر الأمور بهم؛ والمهدىّ من قولهم فى حال غِرّةٍ ولباس أمَنَة، قد فَتَرَ لها وأنس بها وسكَن اليها؛ ولولا ما آجتمعت به قلوبُهم، وبَرَدتْ عليه جلودُهم من المُنَاصَبة بالقتال، والإضمار للقراع عن داعيةِ ضَلالٍ، أو شيطان فسادٍ، لَرَهِبوا عواقبَ أخبار الوُلاة، وغِبَّ سكون الأمور؛ فليشْدُد المهدىّ — وفقه الله —

---

(١) لا يتكاءده: لا يشق عليه.

أَزْرَه لهم ويكتّب كتائبه نحوهم ، وليضع الأمر على أشــدّ ما يحضُره فيهم، وليُوقِن أنه لا يعطيهم خُطّةً يريد بهـا صلاحَهم إلا كانت دُرْبَةً الى فسادهم ، وقوّةً على معصيتهم ، وداعيــة الى عودتهم، وسبباً لفساد من بحَضْرَته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين إن أقرّهم وتلك العادة، وأجراهُم على ذلك الأرب، ولم يَبْرَح فى فَتْقٍ حادثٍ وخِلاف حَاضِر؛ لا يصلُح عليه دِين، ولا تستقيم به دنيا؛ وإن طَلَب تغييره بعد آستحكام العادة، وآستمرار الدُّربة ، لم يصل الى ذلك إلّا بالعقوبة المفرِطَــة ، والمؤونة الشــديدة، والرأى للمهــدىّ وفّقــه الله — ألّا يُقِيــل عثرتَهم ، ولا يقبــل مَعْذِرتهم ، حتى تَطَأَهم الجيوشُ، وتأخذهم السيوف، ويَسْتَحِرّ(١) بهم القتل، ويُحْدِق بهم الموت ، ويُحيط بهم البــلاء ، ويُطْبِق عليهم الذلّ؛ فإن فعل المهدىّ بهم ذلك، كان مَقْطَعَة لكل عادة سُوءٍ فيهم ، وهزيمةً لكل بادرة شرٍّ منهــم ، وآحتمالُ المهدىّ مؤونة غَزْوَتهم هــذه يَضَعُ عنــه غزواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمـــة .

قال المهدىّ : قد قال القوم فآحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهــدىّ :

أما المَوَالى فأخَذُوا بفُــروع الرأى ، وسلَكوا جَنَبات الصواب، وتَعَدّوْا أمورا قصَّر بنظرهم عنها أنه لم تأتِ تجارِبُهم عليها .

وأما الفضــل فأشار بالأموال ألّا تُنْفَــق ، والجنــود ألّا تفرّق، وبألا يعطى القــوم ما طلبوا ،ولا يبذَل لهم ما سألوا ،وجاء بأمرٍ بَيْن ذلك آستصغارًا لأمرهم وآستهانة بحربهم؛ وإنمــا يَهِيج جَسِيمات الأمور صغارُها .

---

(١) يستحر : يشتد ويقوى .

وأما علىّ فأشار باللين و إفراط الرّفق، وإذا جرّد الوالى لمن غمط[١] أمره وسفه حقّه، اللينَ بحتًا والخير محضًا، لم يخالطهما بشدّة تعطف القلوبَ عن لينه، ولا بشرّ يحبسهم الى خيره، فقد ملّكهم الخَلع لعُذُرهم[٢] ووسّع لهم الفُرجة لثَنى أعناقهم؛ فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدّة، فنزوة[٣] فى رءوسهم يستدعون بها البلاءَ الى أنفسهم، ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويُسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصُّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يُشبه أن يكون من مثلهم، لأن الله تعالى خلق الجنّة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطُر على قلب بشر ولا تدركه الفِكَر ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها، فلولا أنه خلق نارا جعلها لهم رحمة يسوقهم بها الى الجنّة، لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعصَبوا[٤] بشدّة لا لينَ فيها، وأن يُرمَوا بشرّ لا خير معه، وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوفَ مفردًا، والشرّ مجرّدًا، ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم، اشتدّت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم الى أحد أمرين : إما أن تدخُلهم الحَمِيّة من الشدّة ، والأنفة من الذلّة، والامتعاض من القهر، فيدعوهم ذلك الى التمادى فى الخلاف، والاستبسال فى القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادُوا بالكُره، ويُذعِنوا بالقهر على بِغضة لازمة ، وعداوة باقية، تُورث النِّفاق وتُعقِب الشِّقاق ؛ فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال ، عاد أمرهم الى أصعب وأغلظ وأشدّ مما كان .

---

(١) غمط الأمر : ازدراه . وسفه حقه : امتهنه وبخسه .

(٢) العذر جمع عذار .

(٣) النزوة : الوثوب الى الشرّ .

(٤) عصب الشيء : لواه وشدّه .

وقال فى قول الفضل :

أيها المهدىّ، أكْفَى دليل، وأوضح برهان، وأبْيَنُ خبرٍ بان، قد أجمع رأيُه وحَزْمُ نظرِه على الإرشاد بِبعْثة الجيوش اليهم، وتوجيه البُعُوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحقّ، و إجابتهم الى ما سألوه من العدل .

قال المهدىّ : ذلك رأىٌ .

قال هارون :

ما خُلِطتْ الشدّةُ أيها المهدىّ باللّين، وآنتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدّة أمرَّ فِطامٍ[١] لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد الى ما تُحِبّ، ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدىّ :

لقد قلتَ قولا بديعًا ، خالفتَ فيه أهل بيتك جميعا، والمرءُ مؤتَمَنٌ بما قال، وظَنِينٌ[٢] بما آدّعى حتى يأتى ببيِّنة عادلة، وحجّة ظاهرة، فآخرج عما قلتَ .

قال هارون :

أيها المهدىّ، إن الحرب خُدْعة، والأعاجمَ قَوْمٌ مَكَرَة، وربما آعتدلت الحالُ بهم، وآتفقت الأهواءُ منهم، فكان باطن ما يُسِرّون على ظاهر ما يُعْلِنون ، وربما آفترقت الحالان، وخالَف القلبُ اللسان ، فانطوى القلب على مَحْجُوبة تُبْطَن ، وآسْتَسَرّ بمدخُولة لا تُعْلَن، والطبيبُ الرفيقُ بِطبّه، البصيرُ بأمره، العالم بمقدَّم يده وموضع مِيسَمه[٣]، لا يتعجّل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء، فالرأىُ للمهدىّ — وفّقه الله — أن يَفُرّ باطنَ أمرهم فَرَّ المُسِنَّة[٤]، ويَمْخَض ظاهر حالهم مَخْضَ السِّقاء بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، ومُوالاة

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال .

(٢) ظنين بما ادعى : متهم بدعواه .

(٣) الميسم : المكواة يوسم بها الحيوان .

(٤) فرّ الدابة : فتح فاها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها . والمسنّ من الدواب ما دخل فى الثامنة .

العيون ، حتى تُهتك حجبُ عيونهم ، وتُكشف أغطية أمورهم ؛ فإن انفرجت الحال، وأفضت الأمور به الى تغيير حال أو داعية ضلال ، اشتملت الأهواء عليه ، وانقاد الرجال اليه، وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه ، وإثم يستحلونه ، عصبهم بشدة لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لا عفو معها ، وإن انفرجت العيون ، واهتصرت الستور ، ورُفعت الحُجُب ، والحالُ فيهم مَريعة، والأمورُ بهم معتدلة فى أرزاق يطلبونها ، وأعمال يُنكرونها ، وظُلامات يدّعونها ، وحقوق يَسألونها ، بمـاتّة(١) سابقتهم ، ودالّة مُناصحتهم ، فالرأى للمهدى — وفقه الله — أن يتّسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، ويَشعب من أمرهم ما صدعوا ، ويرتق من فتقهم ما قطعوا ، ويولّى عليهم من أحبّوا ، ويداوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم ؛ فإنما المهدى وأمته ، وسواد أهل مملكته ، بمنزلة الطبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعى المجرّب الذى يحتال لمرابض غنمه ، وضوالّ رعيّته ، حتى يُبرئ المريضة من داء علّتها ويردّ الصحيحة الى أُنس جماعتها ، ثم إنّ خراسان بخاصّة الدين لهم دالّةٌ محمولة ، ومماتّة مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوقٌ واجبة ؛ لأنهم أيدى دولته ، وسيوف دعوته ، وأنصار حقّه ، وأعوان عدله ، فليس من شأن المهدى الاضطغانُ عليهم ، ولا المؤاخذةُ لهم ، ولا التوغير(٢) بهم ، ولا المكافأةُ بإساءتهم ، لأنّ مبادرةَ حسم الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى ، ومحاولةَ قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلظ ، أحزمُ فى الرأى ، وأصحُّ فى التدبير من التأخير لها والتهاون بها ، حتى يلتئم قليلُها بكثيرها ، وتجتمع أطرافُها الى جمهورها .

قال المهدى : ما زال هارونُ يقع وقع الحَيا حتى خرج خروج القِدْح من الماء ، وانسلّ انسلال السيف فيما ادّعى ، فدعُوا ما سبق موسى فيه أنّه هو الرأى ، وثنّى بعده هارونُ ، ولكن من لأعنّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللَّجاجُ ، وأفرطت بهم الدالّة ؟ .

---

(١) المماتّة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التوغير بهم : التشديد عليهم .

قال صـالح :

لسنا نبلغُ أيها المهدىّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسةِ رأيك ، و بعضَ لحظَات نظرك ؛ وليس ينقَضَ عنـك من بيوتات العرب و رجال العجم ذو دِين فاضـل ، ورأى كامل ، وتدبير قوىّ ، تقـلِّده حربَك ، وتستوْدِعه جندك ، ممن يحتمـل الأمانةَ العظيمة ، ويضْطَلِـع بالأعباء الثقيلة ؛ وأنت بحمد الله ميمونُ النَّقيبة[1] ، مبارك العزيمةِ ، مخْبُور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العـزم ؛ فليس يقع آختيارُك ، ولا يقِف نظرُك على أحدٍ تولِّيـه أمرك ، وتُسند اليه ثغرك ، إلّا أراك اللهُ ما تحبّ ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهـدىّ : إنى لأرجو ذلك لقديمِ عادةِ الله فيه ، وحسنِ معونته عليـه ؛ ولكن أحِبّ الموافقة على الرأى ، والآعتبار للمشاورة فى الأمر المهم .

قال محمد بن اللَّيْث :

أهلُ خراسان أيها المهدىّ ، قوم ذَوُو عزّة ومَنَعَة ، وشياطين خَدَعَة ، زُرُوع الحَمِيَّة فيهم نابتـة ، وملابِس الأَنَفَة عليهم ظاهرة ؛ فالرويّة عنهم عازِبة[2] ، والعَجَلة فيهم حاضرة ؛ تسبق سـيولُهم مطَرَهم ، وسيوفُهم عَذَلَهم[3] ، لأنهم بين سِـفْلة لا يعدو مَبْلَغ عقولِهم مَنْظَرَ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلْجَمُون إلا بشدّة ، ولا يفطَمُون إلا بالمرّ ؛ و إن ولّى المهدىّ عليهم وضِيعا لم تَنْقَد له العظماءُ ، و إن ولّى أمرَهم شريفاً تحامل على الضعفاء ، و إن أخّر المهدىّ أمرَهم ، ودافع حربَهم ، حتى يُصيب لنفسـه من حشَمه ومواليه ، أو بَنى عمّه أو بنى أبيه ، ناصِحا يتّفق عليه أمرُهم ، وثِقةً تجتمع له أملاَؤهم بلا أَنَفَة تلزمهم ، ولا حمِيّة تَدْخُلهم ، ولا مصيبة تنفرهم ؛ تَنَفّست الأيامُ بهـم ، وتراخَتْ الحالُ بأمرهم ؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضَّياع العظيم ، ما لا يتلافاه صاحِبُ هذه الصِّفة و إن جدّ ، ولا يستصلحه و إن جَهَد ،

---

(١) ميمون النقيبة : أى مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومخبور التجارب : خبير بها .

(٢) العازب : الغائب .

(٣) العذل : آسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يضرب لما قد فات .

إلا بعـد دهرٍ طويل وشرٍّ كبير، وليس المهدىّ — وفّقه الله — فاطمًا عاداتهم، ولا قارِعا صَفَاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لها . ولا عِدلَ فى ذلك بهما :

أحدُهما لسانٌ ناطق موصولٌ بسمعك، ويَدٌ ممثلة لعينك، وصخرةٌ لا تُزَعْزَع، وبُهْمَة لا يُثْنَى، وبازِلٌ لا يُفْزِعه صوتُ الجُلْجُل، نَقِىّ العِرض، نزيه النفس، جليـل الخطَر، قد اتّضعت الدنيا عن قَدْره، وسمـا نحو الآخرة بهمّته، بجعل الغرضَ الأقصى لعينه نُصْباً، والغرضَ الأدنى لقَدَمه مَوْطِئا؛ فليس يقبَل عملا، ولا يتعدّى أملا؛ وهو رأس مَواليك، وأنصح بنى أبيك؛ رجل قد غُذِّى بلطيف كرامتك، ونبَتَ فى ظل دولتك، ونَشَأَ على قوائم أدبك؛ فإن قلّدته أمرهم، وحمّلتـه ثِقَلهم، وأَسْنَدت اليه ثغرهم؛ كان قُفْلا فتحه أَمْرُك، وبابا أغلقه نَهْيك؛ بجعل العدلَ عليه وعليهم أميرا، والإنصافَ بينه وبينهم حاكما؛ واذا حَكَم النصفَة وسلَك المَعْدَلة، فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم، غَرَس فى الذى لك بين صدورهم، وأسكَنَ لك فى السويداء داخل قلوبهم، طاعةً راسخةَ العروق، باسِقةَ الفروع، متمائلةً فى حواشى عوامّهم، متمكّنة من قلوب خواصّهم؛ فلا يبقى فيهـم ريب إلا نَفَوْه، ولا يلزمهم حقٌّ إلا أدَّوْه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عُودٌ من غَيْضَتك، ونَبْعَة من أَرُومَتك، فَتِىُّ السّن كهل الحِلم راجحُ العقل محمودُ الصَّرامة مأمونُ الخلاف؛ يجرِّد فيهم سيفَه، ويبسُط عليهم خيره بقدر ما يستحقّون، وعلى حَسَب ما يستوجِبُون؛ وهو فلان أيها المهدىّ، فسلِّطه — أعزّك الله — عليهم، ووجِّهه بالجيوش اليهـم، ولا تمنعك ضَرَاعة[١] سنه، وحداثة مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنمـا أحداثُكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليـه، واختصّكم به من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس؛ كفِراخ عِتاق[٢] الطير المُحْكَمة لأخذ الصيـد بلا تدريب، والعارفة

(١) ضراعة سنه : شبابه وحداثة سنه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوجوه النفع بلا تأديب؛ فالحلمُ والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت فى صدوركم، مزروعٌ فى قلوبكم، مستحكِمٌ لكم، متكامِلٌ عندكم، بطبائعَ لازمة، وغرائزَ ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

أفتاء أهل بيتك أيها المهدىّ فى الحلم على ما ذكر . وأهلُ خراسان فى حال عزٍّ على ما وُصِف، ولكن إن ولّى المهدىُّ عليهم رجلا ليس بقديم الذكر فى الجنود، ولا بنبيه الصَّوْت فى الحروب، ولا بطويل التّجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة فى الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان وخَطَران مَهُولان، أحدهما : أن الأعداء يَغتمِزونها منه ويَحتقِرونها فيه، ويجترئون بها عليه فى النهوض به والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشف لحاله والعلم بطباعه . والأمرُ الآخر : أن الجنودَ التى يقود والجيوشَ التى يَسُوس اذا لم يَختبِروا منه البأسَ والنجدةَ، ولم يعرفوه بالصِّيت والهيبة، آنكسرت شجاعتُهم، وماتت نجدتهم، وآستأخرت طاعتهم الى حين آختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربما وقَع البَوار قبلَ الآختبار، وبباب المهدىّ — وفقه الله — رجلٌ مَهيب نَبِيه حَنِيك صَيِّتٌ، له نسب زاكٍ وصوتٌ عالٍ، قد قاد الجيوشَ وساس الحروبَ، وتألَّف أهلَ خراسان، وآجتمعوا عليه بالمِقة، ووثِقوا به كل الثقة؛ فلو ولّاه المهدىّ أمرَهم، لكفاه الله شرَّهم .

قال المهدىّ : جانَبْتَ قَصْد الرَّمِيَّة، وأبَيْتَ إلا عَصَبِيّة، إذ رأىُ الحَدَث من أهل بيتنا، كرأى عشرة حُلَماء من غيرنا؛ ولكن أين تركتم ولىّ العهد .

قالـــوا :

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جَدّه، ونسيجَ وَحْده، ومن الدين وأهله، بحيث يقصُر القولُ عن أدنى فضله؛ ولكن وجدنا الله عزّ وجل حَجَب عن خلقه، وستَر من دون عِباده عِلْمَ ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير، من حوادث الأمور ورَيْب المَنون

المُخْتَرِمة لحوالى القرون ومواضى الملوك، فكَرِهنا شُسُوعه[1] عن محلّة المُلك ودار السلطان ومقرّ الإمامة والولاية وموضع المدائن والخزائن، ومستقرّ الجنود ومَعْدِن الجود، ومَجْمَع الأموال التى جعلها الله قُطْبًا لدار الملك ومَصْيَدة لقلوب الناس ومَثابة لإخوان الطمع وثُوّار الفتن، ودواعى البِدَع وفرسان الضّلال وأبناء الموت. وقُلْنا: إن وجّه المهدىّ ولىّ عهده فحَدَث فى جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرُّسل من قبله، لم يستطع المهدى أن يُعْقِبهم بغيره إلا أن يَنْهَد اليهم بنفسه؛ وهذا خَطر عظيم وهول شديد، إن تنفّست الأيام بمقامه، وآستدارت الحال بإمامه، حتى يَقَع عِوَضٌ لا يُسْتَغْنَى عنه، أو يحدُثَ أمر لا بدّ منه، صار ما بعده مما هو أعظم هَوْلا وأجلّ خطرا له تَبَعًا وبه مُتّصِلا.

قال المهدىّ:

الخَطْب أَيْسَرُ مما تذهبون إليه، وعلى غير ما تَصِفُون الأمر عليه؛ نحن أهلَ البيت نَجْرِى من أسباب القضايا ومواقع الأمور، على سابقٍ من العلم ومحتومٍ من الأمر؛ قد أنبأت به الكتب، ونبأت عليه الرُّسُل، وقد تَناهى ذلك بأجمعه الينا، وتكامل بحذافيره عندنا؛ فبه نُدَبِّر وعلى الله نتوكّل. إنه لا بدّ لولىّ عهدى وولىّ عهد عَقِبى بعدى أن يقود الى خراسان البُعُوث، ويتوجّه نحوها بالجنود.

أما الأوّل فإنه يُقدِّم اليهم رسله، ويُعمِل فيهم حِيَله؛ ثم يخرج نَشِطًا اليهم حَنِقًا عليهم، يريد ألا يَدَعَ أحدا من إخوان الفتن ودواعى البِدَع وفرسان الضّلال، إلا تَوطّأه بحَدّ القتل، وألبسه قِناع القهر، وقلّده طوق الذلّ؛ ولا أحدًا من الذين عملوا فى قصّ جَناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونُصْرة وُلاةِ الحقّ، إلا أجرى عليهم دِيَم فضله، وجداول نهله؛ فإذا خرَج مُزْمِعًا به مُجْمِعا عليه، لم يَسِرْ إلا قليلا حتى تأتيه أن قد عَمِلتْ حِيَلُه، وكَدَحت[2] كُتُبه ونفَذَت مكايِدُه، فهدأتْ نافِرةُ القلوب، ووَقَعتْ طائرةُ الأهواء،[3] وآجتمع

(١) شسوعه: ابتعاده.

(٢) سعت ودأبت حتى أثرت.

(٣) وقعت طائرة الأهواء: خمد غضبها وسكن روعها.

عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظرا لهم ، وبراً بهم ، وتعطفا عليهم ، الى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيتَ الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال .

وأما الآخر فانه يوجه اليهم ، ثم تُعتقد له الحجة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ؛ فاذا سمحت الفِرَق بقراباتها له ، وجنح أهل النواحى بأعناقهم نحوه ؛ فأصغت اليه الأفئدةُ ، واجتمعت له الكلمة ، وقدمت عليه الوفودُ قصد لأول ناحية تجمعت بطاعتها وألقت بأزمتها ؛ فألبسها جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته ، وخصها بعظيم حبائه ؛ ثم عم الجماعة بالمَعْدَلة ، وتعطف عليهم بالرحمة ؛ فلا تبق فيهم ناحيةٌ دانية ولا فرقة قاصية ، إلا دخلتْ عليها بركته ، ووصلتْ اليها منفعتُه ؛ فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضيعها ، وزاد رفيعها ماخلا ناحيتين ؛ ناحيةً يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطئ عن إجابته ، وتتثاقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ؛ فيضطلى عليها موجدة ويبتغى لها علة ، لا يلبث أن يجد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم ؛ فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحر بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويفنيهم التتبع ؛ حتى يخرب البلاد ، ويوتم الأولاد ؛ وناحيةً لا يبسط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعل لهم ذمة ؛ لأنهم أول من فتح باب الفُرقة ، وتدرع جلباب الفتنة ، وربض فى شق العصا ؛ ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ؛ ويطلب هرابهم فى لجج البحار ، وقلل الجبال ، وخمل الأودية ، وبطون الأرض ، تقتيلا وتغليلا وتنكيلا ؛ حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أيامى ؛ وهذا أمر لا نعرف له فى كتبنا وقتا ، ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيرا .

وأما موسى ولى عهدى فهذا أوان توجهه الى خراسان ، وحلوله بجرجان ؛ وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمُقام فيها ، خيرٌ للمسلمين مغبة ، وله بإذن الله عاقبة من المُقام ، بحيث يغمر فى لجج بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغرُ عظيم فضله ،

ويتذأب[1] مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه؛ فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس .

قال محمد بن الليث :

أيها المهدى: إن ولى عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علما ، قد تثنت نحوه أعناقها، ومدت سمته أبصارها؛ وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك، عطل الحال غفل الأمر واسع العذر؛ فأما اذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار الى تدبيره، فإن من شأن العامة أن تتفقد[2] مخارج رأيه، وتستنصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله فى بره ومرحمته وإقساطه ومعدلته وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه ؛ ثم يكون ما سبق اليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك[3] الأمور بهم وألزمها لقلوبهم ، وأشدها استمالة لرأيهم وعطفا لأهوائهم؛ فلا يفتأ المهدى — وفقه الله — ناظرا له فيما يقوى عمد مملكته، ويسدد أركان ولايته ، ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله وأظهر لجماله ، وأفضل مغبة لأمره، وأجل موقعا فى قلوب رعيته، وأحمد حالا فى نفوس أهل ملته، ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلغ فى استعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ومحبة لخير وأهله ، وأن يختار المهدى — وفقه الله — من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر، أقواما تسكن اليهم العامة اذا ذكروا، وتأنس الرعية بهم اذا وصفوا؛ ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان وفتح باب المعروف، كما قد كان فتح له وسهل عليه .

قال المهدى : صدقت ونصحت، ثم بعث فى ابنه موسى فقال :

أى بنى، إنك قد أصبحت لسمت[4] وجوه العامة نصبا، ولمثنى أعطاف[5] الرعية غاية؛ فحسنتك شاملة ، وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر؛ فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل

(١) يتذأب: يخبث . (٢) تتفقد مخارج رأيه : أى تفحص عن وجوه رأيه وتدبيره . (٣) أملك الأمور: أضبطها. (٤) السمت : المذهب والقصد. (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب .

سُخْطَ الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما؛ فإن الله عزّ وجل كافيك مَن أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إيثارُك رِضًا مَنْ سواه. ثم آعلم أن لله تعالى فى كل زمانٍ فترةً من رُسُله، وبقايا من صَفوة خَلْقه وخبايا لنُصرة حقه، يجدّد حبل الإسلام بدعواهم، ويشيّد أركان الدين بنصرتهم؛ ويتخذ لأولياء دينه أنصارا، وعلى إقامة عدله أعوانا؛ يَسُدّون الخَلَل ويقيمون المَيَل، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإنّ أهل خراسان أصبحوا أيدى دولتنا، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونستصرف نزول العظائم بمُناصحتهم، ونُدافع رَيْب الزمان بعزائمهم، ونُزاحم ركن الدهر ببصائرهم؛ فهم عِماد الأرض اذا أُرجِفَت كُنُفُها(١)، وخوفُ الأعداء إذا برزت صَفْحتها، وحصونُ الرعيّة اذا تضايقت الحال بها؛ قد مَضَتْ لهم وقائعُ صادقات، ومواطِنُ صالحات؛ أخمدتْ نيرانَ الفتن، وقَصَمت دواعى البدع، وأذلّت رقاب الجبّارين ولم ينفكّوا كذلك ما جرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا فى ظلّ دعوتنا، وآعتصموا بحبل طاعتنا؛ التى أعزّ الله بها ذِلّتهم ورفع بها ضَعَتَهم، وجعلهم بها أربابا فى أقطار الأرض، وملوكا على رقاب العالمين بعد لِبَاس الذلّ، وقِناع الخوف، وإطباق البلاء ومحالفة الأسى، وجَهْد البأس والضُرّ؛ فظاهِرْ عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم فى حدائق نعمتك؛ ثم آعْرِف لهم حقّ طاعتهم، ووسيلة دالّتهم، ومائّة سابقتهم، وحُرمة مناصحتهم؛ بالإحسان اليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمُحسنهم، والإقالة لمُسيئهم.

أى بُنَىّ، ثم عليك العامة فآستدْعِ رضاها بالعدل عليها، وآستجلِب مودّتها بالإنصاف لها، وتحسّن بذلك لربّك، وتوثّق به فى عين رعيّتك، وآجعل عمّال العُذْر وولاة الحُجج مقدّمة بين عملك، ونَصَفَة منك لرعيّتك، وذلك أن تأمر قاضىَ كلّ بلد، وخِيار أهل كل مِصْر، أن يختاروا لأنفسهم رجلا تولّيه أمرهم، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم؛ فإن أحسن حُمِدتَ، وإن أساء عُذِرتَ. هؤلاء عمال العُذْر وولاة الحُجَج، فلا يَسقُطَنّ عليك

(١) الكنف: جمع كنف وهو الجانب. وأرجفت: زلزلت.

ما فى ذلك اذا آنتشر فى الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من آنعقاد ألسنة المُرجفين ، وكَبْت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ؛ ولا يَنفكَّنّ فى ظِل كرامتك نازلا ، وبعُرَا حبلك متعلقا رَجُلان : أحدهما كريمة (١) من كرائم رِجَالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز (٢) ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ، يضع آدابا نافعة وآثارا باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك وتَحْلية ذكرك ؛ فتستشيره فى حربك ، وتُدْخِله فى أمرك ؛ فرجُلٌ أصبتَه كذلك فهو يأوى الى مَحَلّتى ، ويَرْعى فى خُضْرة جَنابى ؛ ولا تَدَعْ أن تختار لك من فقهاء البُلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وسُمّارك ، وأهلَ مُشاوَرَتك فيما تُورِد ، وأصحابَ مناظَرتك فيما تُصْدِر . فَسِر على بَرَكة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يَهْدى الى الصواب قلبَك ، وهاديا يُنْطِق بالخير لسانك . وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد .

---

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أخيار رجال العرب وأحاسنهم . (٢) غير مغموز : غير مطعون ؛ وغير مدخول : لا يداخله فساد .

٢ — رسالة أبي الرَّبيع محمد بن اللَّيث التي كتبها للرشيد الى قُسْطَنْطِين ملك الروم

من عبد الله هارونَ أميرِ المؤمنين الى قسطنطينَ عظيمِ الروم: سلامٌ على من اتّبع الهدى، فإنى أحمد الله الذى لا شريك معه، ولا ولد له، ولا إلهَ غيرُه، الذى تعالى عن شبه المحـدودين بعظمته، واحتجب دون المخلوقين بعزّته، فليست الأبصـار بمُدرِكة له، ولا الأوهام بواقعةٍ عليه، انفرادًا عن الأشياء أن تُشبهها، وتعاليًا أن يشبهه شيءٌ منها، وهو الواحد القهّار، الذى ارتفع عن مَبالغ صـفات القائلين، ومذاهب لُغات العـالمين، وفكرِ الملائكةِ المقرّبين، فليس كمثله شيءٌ، وله كلُّ شيء، وهو على كلِّ شيء قدير.

أما بعـد، فإن الله جلّ ثناؤه وتباركت أسماؤه، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحى اليـه: ﴿ أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾. فرأى أميرُ المؤمنين من أحســنِ قوله وأفضـلِ فعله، أن يكون الى سبيل ربّه داعيا، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسّيا، ولقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقا. وكنتَ من كتبِ الله المنزّلة، وآياته المفسَّرة، وخلقه الكثير بحيثُ رجا أميرُ المؤمنين استماعَك لموعظتـه، وانتفاعُك بمجادلتـه انتفاعُ بشرٍ كثيرٍ وخلقٍ عظيمٍ قـد بُؤتَ بأوزارهم مع وِزرك، واحتملتَ من آثامهم الى إثمك، فأحبَّ أن يدعُوك ومَنْ رجا أن ينتفع بدعوته معك، الى كلمةٍ سَوَاء بيننا وبينكم ألّا نعبُدَ إلا اللهَ ولا نُشركَ به شيئا ولا يتّخـذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دونِ الله؛ فإن تولّيتم عن ذلك رغبةً عنـه، أو تركتُموه زَهَادَةً فيـه، فاشهدوا بأنّا مسلمون. واستمعـوا ما أميرُ المؤمنين واصفٌ لكم، ومحتجٌ به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة وآذانٍ واعية، ثم اتّبِعُوا أحسنَ ما تستمعون. ولا قوّة إلا بالله.

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وٱقتصّ على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ ﴾. إن الله تبارك ٱسمه وتعالى جدّه، وصف فيما أنزل من آياته، وشرح من بيّناته، الأممَ الماضية، والقرونَ الخالية، والمللَ المتفرقة، الذين يجعلون مع الله آلهةً أخرى لا برهانَ لهم بها، ولا حجة لهم فيها، فقال : ﴿ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العربُ الذين يعبدون الملائكةَ وأهلُ الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ بأيّما آية يا محمدُ تزعم أن الله إله واحد ؛ فأنزل الله عزّ وجل فى ذلك آيةً تشهد لها التنزيل، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الألباب ، فلا تستطيع لها ردّا ، ولا تُطيق لها جحدا ، ذكرَ فيها ٱتصالَ خلقه وٱتفاقَ صُنْعه ، ليُوقِنَ الجاهلون من العرب ، والضالُّون من أهل الكتاب ، أن إله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخَلْق ، واحدٌ لا شريكَ له ، خالقٌ لا شىء معه ، فقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ . فتفكّرْ فى تفسير هذه الآية من كلام الربّ عز وجل، وما أوضح فيها من بيان الخَلْق ، فإنه ما مِنْ مفكّرٍ ينظر فيما ذكر اللهُ فيها مما بين السماء والأرض، إلّا رأى من ٱتصال بعض ذلك ببعض ، مثلَ ما رأى فى تدبيره نفسه ، وعرَف من ٱتصالِ خلْقه ، فيما بين ذَوَائبِ شؤون رأسه الى أطراف أنامل قدَميه . وفى ذلك أوْضحُ آيةٍ وأبينُ دلالة ، على أن الذى خلَقه وصنَعه إلهٌ واحد لا إله معه ، ولا من شىء ٱبتدعه ، ولا على مثالٍ صَنعه . قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرضَ ، وجعلها موصولةً بالخَلْق ، فليس يَدْحُوها إلا لهم ، ولا يُديمها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلقَ متصلا

بالنَّبْت، لا يقوم إلا به، ولا يصلُح إلا عليه . وجعل ذلك النبتَ الذى جعله متاعًا لكم ومَعاشا لأنعامكم، متصلًا بالماء الذى ينزل من السماء بقَدَرٍ معلوم، لمعاشٍ مقسوم؛ فليس يَنجم النبتُ إلا به ولا يَحيا إلا عنه . وجعل السحابَ الذى يبسُطه كيف يشاء متصلا بالريح المسخَّرة فى جو السماء تُثيره من حيث لا تعلمون، وتَسُوقه وأنتم تنظرون؛ كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ ووصلَ الرياح التى يصرِّفها فى جو السماء بما يؤثِّر فى خَلْق الهواء من الأزمنة التى لا تثبُت الهَواجرُ إلا بثباتها، ولا يزول عنه بَرْدٌ إلا بزوالها؛ ولولا ذلك لظَلَّ راكدا بالحرّ المُميت، أو ماثلا[(١)] بالبرد القاتل . ووصل الأزمنةَ التى جعلها متصرفة متلوِّنة بمسيرِ الشمس والقمر الدائبيْن لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم . وجعل مَسيرَهما الذى لا تعرفون عددَ السنينَ إلا به، ولا مواقعَ الحساب إلا من قِبَله، متصلًا بدَوران الفَلَكِ الذى فيه يَسْبَحان، وبه يأفُلان؛ ووصل مسيرَ الفَلَك بالسماء للناظرين سواء . فهذا خَلْقُ الله عز وجل، ما فيه تبايُنٌ ولا تزايُلٌ ولا تفاوت؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ . ولو كان لله شريكٌ أو معه ظَهير عليه، يُمسك منه ما يُرسِل، ويرسِل منه ما يمسك، أو يؤخِّر شيئا من ذلك عن وقت زمانه، أو يعجِّله قبل مجيء إبَّانه، لتفاوت الخلقُ، ولتباين الصُّنع، ولفسدت السموات والأرض، ولذهب كل إله بما خَلَق، كما قال عز وجل — وكذَّب المبطلين — : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

والعجبُ : كيف يَصِفُ مخلوقٌ ربَّه، أو يجعل معه إلٰها غيرَه، وهو يرى فيما ذكر اللهُ من هذه الأشياء صنعةً ظاهرة، وحكمةً بالغة، وتأليفامتفقا، وتدبيرا متصلا، من السماء والأرض، لا يقوم بعضه إلا ببعض، مُتجلِّياً بين يديه، ماثلًا نُصْبَ عينيه، يناديه الى صانعه، ويدلُّه على خالقه، ويشهد له على وَحْدانيته، ويهديه الى رُبوبيَّته، ﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ

(١) فى الأصل : «مابلا» .

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ . حقًّا ما كرّر هؤلاء الجاهلون بربهم الضالّون عن أنفسهم ، فى خلق الله النظر ، ولا رجّعوا كما قال الله عز وجل الفكر . ولو أعملوا فكرَهم وأجهدوا نظرَهم ، فيما تسمع آذانُهم وترى أبصارُهم ، من حوادثِ حالاتِ الخَلْق ، وعجائبِ طبقات الصُّنع ، لوجدوا فى أقرب ما يرَوْن بأعينهم : من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثرِ فى التدبير بصُنْعهم ، ما يدلّهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخَلْقهم . فانهم يرَوْن فى أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صَنْعةً بعد صنعة ، ومحوَّلةٌ طبقةً عن طبقةٍ ، ومنقولةٌ حالًا إلى حال : سُلالةً من طين ، ثم نُطْفةً من ماء مَهِين ، ثم عَلَقة ، ثم مُضْغة ، ثم عَظْمًا ، كساه الله عز وجل لحمًا ، ونفخ فيه رُوحًا ، فإذا هو خَلْقٌ آخر ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين ، الذى خلَق فى قَرارٍ مَكِينٍ ، من ماءٍ قليل ضعيفٍ ذليلٍ ، خلْقًا صوّره بتخطيط ، وقدّره بتركيب ، وألّفه بأجزاءٍ متفقة ، وأعضاءٍ متصلة ، من قَدَمٍ الى ساق الى فخذ الى ما فوقَ ذلك : من مَفَاصل ما يُعْلِن أو عجائب ما يُبْطِن ، ليعلم الجاهلون ويُوقِن الجاحدون ، أن الذى صنع ذلك وخلَقه ودبّره وقدّره وهيّأ ظاهرَه وباطنَه إلهٌ واحد لاشريك معه . فلا يَذْهبنّ ذِكْرُ هذا صفحًا عنكم ، ولا تسقُطْ حكمتُه جهلًا به عليكم ، وفكّروا فى آيات الرسل وبيّنات النُّذُر ، فإن فى ذلك فكرًا للمُبصرين ، وبَصَرا للمعتبرين ، وذِكْرَى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأميرُ المؤمنين واصفٌ لكم ، ومقتصٌّ من ذلك إن شاء الله عليكم ، مافيه شهاداتٌ واضحات ، وعلامات بيّناتٌ ، ومبتدئٌ بذكر آياتِ نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها فى الوَحْى اليه ، فإنه ما أحدٌ يقرَع بآيات النبوّة قلبَه ، ويحصّن ببيّنات الهدى عقلَه ، إلا قادتْه حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يجد الى إنكار ما جاء به من الحق سبيلا . فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقةٍ من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقّه ، وما أُنزِل اليه من ربّه عز وجل . فأَحْضِرْ كتابَ أميرِالمؤمنين فَهْمَك ، وأَلْقِ الى ما هو واصفٌ إن شاء الله سمعَك . إن الله عز وجل اصطفى الإسلامَ لنفسه ، واختار له رُسُلا من خَلْقه ، وابتعثَ كلَّ رسول بلسان قومه ، ليبيّن لهم ما يتّبِعون ، ويعلّمهم ما يجهلون : من توحيد

الرب وشرائع الحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . فلم تزل رسلُ الله قائمـةً بأمره، متواليـةً على حقه، فى مَوَاضِى الدُّهور، وخَوَالِى القُرون، وطبقاتِ الزَّمان، يصدِّق آخرهم بنبوّة أولهم، ويصـدِّق أولُهم قولَ آخرهم؛ ومفاتحُ دعوتِهم واحدةٌ لا تختلف، ومجامعُ ملّتهم ملتئمةٌ لا تفترق، حتى تناهت الولايةُ والوراثة التى بنى عيسى عليه السلام عليها وبشّر بها، الى النبيّ الأُمّىّ الذى انتخبه الله لوَحْيه، واختاره بعلمه؛ فلم يزل ينقلُه بالآباء الأخاير، والأمّهات الطَّواهر، أمّةً فأمّة، وقَرْنا فقرنا، حتى استخرجه الله فى خيرِ أوان، وأفضل زمان، من أثبتِ محاتِد(١) أرُوماتِ(٢) البريّة أصلا، وأعلى ذوائب نَبَعاتِ(٣) العربِ فَرْعا، وأطْيبِ مَنَابتِ أعْياصِ(٤) قُرَيْش مَغْرِسا، وأرفع ذُرَى مجد بنى هاشم سَمْكا : محمدٍ صلى الله عليه وسلم خيرِها عند الله وخلقِه نَفْسا، على حين أوْحشتِ الأرضُ من أهل الإسلام والإيمان، وامتلأتِ الآفاقُ من عَبَدةِ الأصنام والأوثان، واشتعلت البِدَعُ فى الدين، وأطْبقت الظُّلَمُ على الناس أجمعين، وصار الحق رَسْما عافيا، خَلَقا باليا، ميتا وسط أموات، ما إن يُحِسُّون للهدى صوتًا يسمعونه، ولا للدين أثرا يتّبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائمـا بأمر الله الذى أُنزل إليه، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل، ويُحذّرهم عقوباتِ الشِّرك، ويجادلُهم بنور البرهان، وآيات القرآن، وعلامات الإسـلام، صابرا على الأذى، محتملا للمكروه؛ قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهرُ دينِه، ومُعِزُّ تمكينه، وعاصمُه ومستخلِفُه فى الأرض، فليس يَثْنِيه رَيْب، ولا يَلْوِيه هَيْب، ولا يَعْنِيه أذى؛ حتى اذا قهرت البيّناتُ ألبابَهم، وبهرتِ الآياتُ أبصارَهم، وخصَم نورُ الحقّ حُجّتَهم، فلم(٥) تمتنع القلوبُ من المعرفة بدونِ صِدْقِه، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقِّه . وهم على ذلك مكذّبون بأفواههم، وجاحدون بأقوالهم؛ كما قال الله عز وجل العَليمُ بمـا يُسِرُّون، الخابر بما يُعْلِنون : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ بغْيا وعداوة، وحَسَدا ولجَاجة، افترض

(١) محاتد : جمع محتد، وهو الأصـل . (٢) أرومات : جمع أرومة، وهى الأصـل .
(٣) نبعات : أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر، وهم : العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص . (٥) فى الأصل : "فلا" .

الله عليه قتالَهم ، وأمره أن يجرِّد السيفَ لهم ، وهم فى عصابة يسيرة ، وعِدَّة قليلة ، مستضعَفين مستذَلِّين ، يخافون أن يتخطَّفهم العربُ ، وتَدَاعَى[1] عليهم الأممُ ، وتَسْتَحْمِلَهم[2] الحروبُ ، فآواهم فى كَنَفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنودٍ من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقلّتهم ، وغلَب قوةَ الجنود بضعفهم ، إنجازًا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فأحْسِن النظَر وقلِّب الفكر فى حالات النبىّ صلى الله عليه وسلم من الوَحْى قائما لله ، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك ، مضطرَبا واسعا ، ومعتمَدا نافعا ، وشُعوبا جمّة ، كلّها خيرٌ يدعوك الى نفسه ، وبيانٌ ينكشف لك عن محْضه . وأخبِرْ أميرَ المؤمنين ما كنتَ قائلا لو لم تكن البعثة للنبىّ — صلى الله عليه وسلم — بلغتْك ، ولم تكن الأنباءُ بأموره تقرّرتْ قبلَك ، ثم قامت الحجةُ بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجَم بين ظَهْرانى مثل هذه الضّلالات المستأصِلة ، والجماعات المستأسِدة[3] ، التى ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصَنَاديد الملوك ، ناجمٌ قد نصَب لها وغَرِى بها ، يجهِّل أحلامَها ، ويكفِّر أسلافَها ، ويفرِّق أُلَّافَها ، ويلعن آباءها ، ويضلِّل أديانَها ، وينادى بشِهاب الحق بينَها ، ويجهَر بكلمة الإخلاص الى من تراخَى عنها ، حتى حَمِيت العربُ ، وأنِفت العجمُ ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يَحْفِل بهم غضَبا ، ولا يَرْهَب عنَتاً ، يقول الله عز وجل : ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكنتَ تقول فيما تجرى الأقاويلُ به وتقع الآراءُ عليه ، إلّا أنه أحدُ رجلين : إما كاذبٌ يجهَل ما يفعل ويَعْمَى عما يقول ، وقد دعا الحَتْفَ الى نفسه ، وأذِن اللهُ لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادّة ولا الحالُ بثابتة له إلّا رَيْثما تَسْتَلْحِمُه[4] أسبابُهم ، وينهَض به حلماؤهم ، غضبًا لربِّهم ، وأنفةً لدينهم ، وحمِيّةً لأصنامهم ، وحسدًا من عند أنفسهم . وإما صادقٌ

(١) أصله تتداعى فحذفت إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم و يتألبون بالعداوة .

(٢) تستحملهم : تلق عليهم حملها وعبأها . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستلحمه : تعلق به وتنشب .

بصـيرٌ بموضع قدمه ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفَّل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزّه ، وجعله في حِرْزِه ، وعصمه من الخلْق . فليست الوحشةُ بواصلةٍ مع صحبة الله اليه ، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوفُ الأعداء بمأذونٍ لها فيه . ثم ان آيتكم يا أهلَ الكتاب[(١)] لو قيـل لكم : إن الرجل الذى يدّعى العِصْمة وينتحل المَنَعة ، قد نجحت الأمُور به على ما قال ، وسَلِمتِ الحالُ له فيما آدّعى ، حتى نصَب لعمارات العـرب[(٢)] ، وجماعات الأمم ، يقاتل بمن طاوعه مَنْ خالفه ، وبمن تابعـه من عانده ، جادّا مشمِّرا ، محتسبا واثقًا بموعود الله ونصره ، لا تأخذُه لومةُ لائم فى ربه ، ولا يوجد لَدَيْه غَمِيزةٌ[(٣)] فى دينه ، ولا يلفته خِذْلان خاذلٍ عن حقِّه ، حتى أعزَّ الله دينَـه ، وأظهر تمكينَه ، وآنقادتْ الأهواء له ، وآجتمعت الفِرَقُ عليـه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم ، ودعوتَه ثبوتًا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حُلَمائكم وأهلُ الحُنْكة من ذوى آرائكم : ماكان الرجل ، اذ كان وحيـدًا فريدا قليلا ضعيفا ذليـلا معروفا بالعقل منســوبا الى الفضل ، ليجترئَ أن يقول : إن الله عز وجل أوْحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعْصِمه من العرب جميعا ويمنعَه من الأمم طُرًّا ، حتى يبلِّغ رسالاتِ ربه ، ويُظْهِرَه على الدين كلِّه ، ويَدْخُل الناسُ أفواجًا فى دينه ، إلّا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهلَ الكتاب ما أبْين حقَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأسهله لمن قصَد له . وآستعملُوا فى طلبه ألبابكم ، وآرفعُوا ...[(٤)] أبصاركم ، تنظُروا بعَوْن الله اليـه ، وتَقِفُوا ان شـاء الله عليـه ؛ فإن علاماتِ نبوّته وآياتِ رسالتـه ، ظاهرةٌ لاتخفى على من طلبها ، جمّـةٌ لايُحْصَى عددُها ، منها خواصُّ تعرفها العـربُ ، وعوامُّ لا تدفعها الأمم ؛ فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومةُ عنـدنا ، التى أخذتْها الأبناءُ عن الآباء ، وقبِلها الأتباعُ عن الأسْلاف ، فأمور قد كثرت البيناتُ فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عيانا ، وقبِلْنـاه إيقانا ؛ فهى أظْهر فينا من الشمس ،

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) عمارات العرب : أحياؤها العظيمة . (٣) غميزة : مطعن .

(٤) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

وأبين لدينا من النهار، ولكن غيّبت الأزمانُ عنكم أمرها، ولم ينقـل الآباءُ اليكم علمَها، وما لا يُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجـة عن العقل، فليس أميرُ المؤمنين مُحَاجٌّ لكم، ولا قاصـدٍ اليكم من قِبلها. وأما الآياتُ العـوامّ والدلالات الظاهرة فى آفاق الأرَضين، القاطعةُ لحُجَج المُبْطلين، التى لا تنكر عقولُ الأمم وجوبَ حقِّها، ولا تدفع ألبابُ الأعداء صحة أمرها، فسَيُولجُها أميرُ المؤمنـين مسالك أسماعكم، ويُعيـد بها حجةَ الله فى أعناقكم، من وجوهٍ جمّة وأبوابٍ كثيرة، إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطينُ، فيما خلا من فترات الرسل وتَدَراتِ النُّذُر، تصعَدُ الى سماء الدنيا، وتُنْصِت للملإ الأعلى فتسترق السمعَ وتحتفظ العلمَ، وتنزل به الى كلِّ أفّاكٍ أثيم، يَمْنُون أكاذيبَهم على واضح صدقِه، ويُنَفِّقون أباطيلَهم بحسب حقِّـه، خلطًا للباطل فيه، وسوءها (١) للعباد عليه. فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسـلم وأنزل آياتِ القرآن اليه، حُرست السماءُ بالنجوم، ورُميت الشياطينُ بالشُّهُب، وانقطعت الأباطيـلُ، واضمحلّت الأكاذيب، وخلَص الوحىُ، فبطَلتِ الكُهَّان، وضلَّت السُّحَّار، وكذَبتِ الأحلام، وتحيَّرت الشياطين، فكانت آيةً بينةً، وعلامةً واضحة، وحجةً بالغة، تبهر قرائحَ العـقول، وتخرق حُجُب الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظُلْمة، ولا يثبُت عند مُحكَمها شُبْهة، ولا يُقيم معها فى محمد صلى الله عليه وسـلم شكٌّ، لا من أصحابه خاصـةً ولا ممّن جاء بعده عامة. وإنما جعلها الله عز وجل آيةً باقيةً فى الغابِرين، وحراسةً ثابتـة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخرَ النبيين؛ فليس باعثًا بعده نبياً يكذِّب أقاويلَ الكَهَنة، ويقطع أخابيرَ الجِنّة.

وستقول، فيما يذهب اليه الظنّ ويقع عليه الرأى، أنت ومن عقَل من أمتك وأهـل ملتك: هذه آية حاسمـةٌ وحجة قاطعـة بينة قائمة، مستعلية لأمرها، مسـتغنيةٌ بنفسها، لا تحتاج الى ما قبلها، ولا تتّكل على ما بعـدها، إن أقرت العقول بمـا تقول، أو قامت البينة على ما تدّعى، بلى؛ ثم تقول: وأنّى لك بالبينة، ولسنا نُقرّ بكتابك، ولا نؤمن برسولك،

(١) كذا فى الأصل.

ولا تقبل قولك فيما قد سبقنا و إياك زمانه ، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه ، فأرجع اليكم إن قلتم ذلك ؛ فإن وجدان القضاة قبل طلب البينات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجك فيه حاكما غير عقلك ، ولاقاضيا سوى نفسك ، ولكنه يذكرك الله الذى اليه معادك وعليه حسابك ، لمـا جعلت التفهم لمسألته من بالك ، وركبت حدودها فى جوابك ، عادلا بالقسط ، قاضيا بالحق ، قائلا بالصدق ولو على نفسك ، ناظرا بالأثرة لدينك ؛ فلقد وفق الله لك آية ، وأهدى اليك بينة ، لا تستطيع دفعها بحجبها عن عقلك ، ولا حجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ، والبينة بلسانك ، بحدا بقطع وصول الحجج اليك ، ويد تغلق أبواب الفهم عنك (١) ؛ فإن اللسان لك مداول حيث شئت ، ومنقاد تصرفه فيما هويت ، ولكن انصب نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأرد الحق وقبوله فيما تريد . فاذا تصورت البينات مجسدة فى قلبك ، وتبينت الحجج ممثلة لنظرك ، قد أضاء صوابها لك وقرع حقها قلبك ، فاجعل القول بها شعارا للسان به متصلا . وافهم المسئلة فهمك الله الحق ، وجنبك الجحد ، ما تقول أنت ومن قبلك فى رجل كان يتيما ضعيفا أجيرا ساهيا لاهيا عائلا خاملا ، لم يتل كتابا (٢) ، ولم يتعلم خطا ، ولم يك فى محلة علم ، ولا إرث ملك ، ولا معدن أدب ، ولا بيت نبوة ، فترافت الأيام به ، واتصلت الحال بأمره ، حتى خرج الى العرب عامة والقبائل كافة ، وحيدا طريدا شريدا ، مخذولا مجهولا ، مجفوا مرميا بالعقوق لآلهتهم ، مقذوفا بالكذب على أصنامهم ، منسوبا الى الهجر لأديانهم ، وهم مجمعون على دعوة العصبية ، وحمية الجاهلية ، متعادون متباغون ، مختلفة أهواؤهم ، متفرقة أملاؤهم ، يتسافكون الدماء ، ويتناوحون النساء ، ويستحلون الحرم ، لا تمنعهم ألفة ، ولا تعصمهم دعوة ، [ولا] يحجزهم بر ، فألف قلوبها ، وجمع شتيتها ، حتى تناصرت القلوب ، وتواصلت النفوس ، وترافدت الأيدى ، ثم اجتمعت الكلمة ، واتفقت الافئدة ، حتى صار غاية لملق رحالهم ، ونهاية لمنتجع

(١) لعله : ولا تغلق . (٢) فى الأصل : لا .

أسفارِهم ، وصاروا له حِزْبا متفقين ، وجندا مُطيعين ، بلا دُنْيا بَسطها لهم ، ولا أموالٍ أفاضها بينهم ، ولا سلطانٍ له عليهم ، ولا مُلْكٍ سلَف لآبائه فيهم ، ولا نباهةٍ كانت له بين ظَهْرانَيْهم . أتقول إنه [ما]قال ذلك كلَّه إلا بوَحْيٍ عظيمٍ ، وتنزيلٍ كريم ، وحكمة بالغة ! فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسولٌ ، وتركْت ما كنت تقولُ إنه لم يُدْرِكه ولم يبلغه إلا بعقل سَـديد ، ونظر بعيد ، ورِفق لطيف ، ورأى وَثِيق ، استَبَى به عقولَ الرجال ، وآستمال عليه أفئدةَ العوامّ . فإن قلتم ذلك فأنا سائلكم بالحكم الذى تعبدون ، ودينِكم الذى تنتحلون ، لَمَّا صدَقْتُم أنفسَـكم وتجنَّبتم الهـوى عنكم : أتؤمن قلوبُكم ، وتُقِـرّ عقولُكم ، ويحتمل نظرُكم ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكمال العقل ، وبيان الفضل ، ورِفق التدبير ، كان يقول لرِجَالاتِ العرب ، وجماعاتِ الأمم ، [و] دُهَاةِ قريش : إن من آيات نبوّتى ، ودِلَالاتِ رسالتى ، وعلاماتِ زمانى ، أن الشياطين تُرْمَى بنجوم السماء ، ولم تَكُ تُرْمَى بها فيما خَلَا ، ثم يجعَل ذلك كتابا يُقرأ ، وقرآنا يُتْلى ، وهو كاذب فيما تلا ، ومُبْطِلٌ فيما ادّعى ، إبطالا تدركه عيون الناظرين ، وكذبا يظهر لجميع العالمين ! سبحان الله ! أرأيتم أنْ لو كان فيما قال من الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآثمين ، ثم حاول إبعادَ القلوب ، وإِنْغَالَ الصدور ، وإنفار النفوس ، وتفريق الجموع ، أكان يزيد على ذلك !

فيا أهـلَ الكتاب لا يحملنَّكم الإلْفُ لدينـكم على اللعب بتوحيـدكم ! فلعَمْرُ الله لئن تداركتُم أنفسَـكم وناصحتُم نظرَكم لَتَعْلَمُنَّ أن محمدا صـلى الله عليه وسـلم لو حاول الكذبَ أو رام الإفْكَ . لمـا كان يترُك جميعَ الأرض ، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصِـد للسماء المتصلة بالبصر ، البارزة للنظر ، التى لا تخفى على بشر ، ولا تغيب عن أحد ، فيدَّعى فيهـا كذبا ظاهرًا ، وإفكا بارزا مكشوفا ، لايبق صـغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى ، إلا عرف أنه إفك وزور ، وكذب وغرور ، ولا سيَّما اذا كان يُلْقِ ذلك الى أقوام أكثرهم أعراب ، ليس بينهم وبين السماء حِجابٌ ، إنمـا يُراعُون الكواكب ويتفقّدون الغيوم ، فأبعدُ عهدِ آخرِهم بها تفقّـده لها ونظره اليها ، ساعةً أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين .

لعَمْرُ الله لو عثرت العربُ من أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على كذبٍ لكان أوّل من يُوَاثبه به ويُجَادله فيه أعداؤه من قريش عامة، وحُسَّاده من جيرته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته دِنْيَةً[1] الذين كانوا يستعيرونه لكلّ طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادثٍ، فيتعلّقون بالحروف المُشْكِلة، والآيات المُتَشَبِّهة، جَدَلًا وخصومة بها، وطعنًا وإلحادًا ومنازعة فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ وما كان الله عز وجل ليقولَ ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله فى أمرهم إلا عن خصومةٍ شديدة، ومنازعة بليغة، ومجادلة معروفة. فأحسنِ النظرَ لنفسك، ولا تَهْلِكَن شفقةً على مُلْكك، فَايْمُ اللهِ لئن قلتَ إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عارف بها غير جاهل لها، ليقولَ فيها إلا حقًا، وينتحل فيها إلا صدقا، لقد ثبّتَ فروع كلامك فيها على أسّه، ووصلتَ آخرَ قولك له بأوله، ثبوتا على ما ذكرتَ من عَقْده، ولزوما لما فَرَطتَ من نظره، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بُدًّا من التصديق برسالته، ولا مذهبا عن الإيمان بنبوّته.

ولئن زعمتَ أنه آدعى أمر النجوم كذبا وآنتحلها باطلا، عارفا كان بها أم جاهلا، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعْمَى عن بصره الى ما يخطئ فيه بَشَرٌ، فأكذبت نفسك، وتركت قولك: إنه لم يكن التأليفُ لقلوب العرب والجمعُ لشَتِيت القبائل، إلا برأى سديد، وعقلٍ أصيل، ورفق بالغ، الى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجها تذهب اليه غيرَهما، ولا محْمَلا تضعُه عليه سواهما: إما أن تقول: إنه ألّف قلوبَ العرب، وفرّق جُموعَ الأمم بتنزيل الوحى، فتؤمن أنه نبيّ؛ وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل، وهذا قول لا يُقْبل. كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذّبين له بغباوة، أو يرمونه بجهالة، وهم يجُوزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويتخطَّوْن به مراتبَ الحكماء. ومنازل الناس

(١) كذا فى الأصل.

تكثيرًا لعلمه، وتسديدًا لعقله، وتثبيتًا لفضله، فيما لا يقدر الخلقُ عليه ولا تهتدى الألسنُ اليه، حتى لقد نَحَلُوه فعلَ الربّ الذى لا يقدر عليه الخلق فى وجوه كثيرة وأنحاء جمة : من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغُيُوب قبل ظهورها، و يَصِفُ الأمورَ قبل حُلُولها، و يتجاوز [ما يكون] فى زمانه من ذلك الى ما يكون فى زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه، أضافوا ذلك علماً اليه، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم، وأبصرَهم بمنازل البُرُوج، وأنظرَهم فى دقائق الحساب . كيف ولم يكن الحجاز دارَ نجوم ولا محلَّ حساب ولا معدن أَدَب ! بل كيف والمنجّم يقيس ويخطئ، ويشك فيما يدّعى، وهو أخو صواب لا شك فيه، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم [عليما] بباطن أخبار النبيين، وخَفِيِّ قِصَص القرون الأوّلين، قالوا : كان أحيا الناس قلباً، وأوسعَهم سَرباً، وأسرَعهم أخذا، يتتبّع ذلك ويحبه، وقد رواه وعُلِّمه . سبحان الله ! أولا يعلمون أن المتعلِّم معروفُ المعلِّم، متفاوتُ الحالات، متنقّل الطبقات، وأنه ما أحدٌ يؤدَّب صغيراً أو يطلب العلم كبيرا، إلا وله درجاتٌ فى علمه، وتاراتٌ فى أخذه، ومنازلُ فى تعلُّمه، تارة تلميذ، وتارة مُقارِبٌ، وأخرى حاذق ؛ و بكل ذلك موصوفٌ من أهله، معروفٌ عند قومه، ظاهرٌ لجيرته، مستفيضٌ فى عشيرته، لا يجهَل أمرُه، ولا يخفَى ذكرُه، ولا يُنْسَى عند مواضع الحاجة اليه، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفًا فيهم، أو موجودا لديهم، أو ظاهرا عندهم، لما أمره الله عز وجل أن يحتجّ عليهم ويقول فى ذلك لهم : لقد لَبِثْتُ فيكم عُمُرًا من قبله، لا أتلو قرآنا، ولا أدّعى وحيا، أفلا تعقلون !

وآيم الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون، لعلموا أن معلِّمه على غير الملة التى يعرفون، لأنه لهم من المخالفين، وعليهم من الطاعنين، يذكر فَضَائحَ قولهم، ومعَايبَ أمرهم، ومخَازىَ أسلافهم، وعوائرَ أديانهم ؛ وإنه لو كان معلِّمه نصرانياً لدعاه الى النصرانية، أو يهوديًا

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسيًّا لدعاه الى المجوسية . ولو لم يكن له معلمٌ لمَا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفســه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطانَ لمَا دعاه الى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح فى الأرض، كيف [و] كان الشيطان يصُدّ الناسَ عن سبيله ، ويُزَهّدهم فى دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَسَاخطه ، ويحملهم على مَعاصيه ! إنه اذًا لرحيمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوثُ اليهم ، كلا ! ما كان ليُنقِذهم من حَبَائله ، ويُخَلّصهم من مَصايده ، ويُخرِجهم من ولايتـه وطاعته وسلطانه وخُدَعه وفتنته وحزبه ، الى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتـلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤدُوا ذرّيتهم ، ولا ليقولَ لهم : لم تعبـدون نَحِيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عارا ، وتَذَرُون عبادةَ الربِّ الذى خلقكم أطوارا ! هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم الى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكره العقول ، وتدفَعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . ألَا تسمعون الى قول الله عز وجل : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبكَم والعمى والصمم ؛ فاتّقِ الله ولا تكن من الجاحدين.

ومنها أنه اذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغَته ، له رَونَقٌ كحَبَاب المـاء ، وزِبْرِجٌ يعلو ولا يُعْلَى وعجائب لا تَبلَى ولا تفنَى ، وجِدَّةٌ لا تتغيّر ، [قالوا] : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أبلغهم قولا ، وأحسنهم وصفا . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد لمـا أقرّت الأعداءُ من ... ...(١) بفضله ، ولا عَجَزتْ القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو يناديهـم فى الكتاب ويتحداهم فى الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هاتُوا سورةً من مثـله إن كُنتم صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخُطب ، وأهل عداوةٍ له وبغى

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقُل الأسماع ، وتنعقد الألسن ، وتخرَس الخطباء ، وتعجز البلغاء ، وتحار الشعراء ، وتستسلم الكُهّان . ثم لقد قايستِ البُصَراءُ بالكلام والعلماءُ بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحى ، فاذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس بشبه له ولا مدانٍ ولا قريب . وكذلك ينبغى لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قولَ العباد فى تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شىء من ذلك أنه اذا قال المسلمون : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — يُرِى ماضِىَ أسلافنا وصُلّح آبائنا من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو جديدٌ عندنا ، بيّنٌ قِبَلنا لم يَعفُ أثرُه ، ولم يَدْرُس خبرُه ، ولم يتقادمْ عهدُه : من شجرةٍ ناداها فأقبلتْ ثم أمرها فرجعتْ ، ومن نحو بعيرٍ تظَلّمَ ، وذئبٍ تكلم ، وأشباهٍ لذلك كثيرة ، ونظائرَ له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا حاذقًا ، وساحرا ماهرا ، يُشَبِّه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار . كيف والجموعُ الكثيرةُ تصدُرُ عن الأطعمةِ اليسيرةِ والمياهِ القليلةِ ، شِباعًا رِواء ، أيكون ذلك والسحر سواء ! والأخذُ بالعيون لا يجرى فى البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُنصِفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفكٍ وغُرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارًا قائمة ، ومنافعَ دائمة . ثم لو كانت الكِهانةُ والسحرُ يبلُغان مثل هذا من الأمر ، لبطَلَتْ آياتُ الكُتُب ، وعلامات الرسل ، ولَعلَتِ الشُّبْهة ، وسقطت الحجة ، وكَذَبَتِ النبوة ، وابطَل ما كان [يفعله] [1] عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمهَ والأبرصَ وإحيائه الموتى . فلا يكوننّ التقليدُ للرجال مبلغَ علمك ، ولا القبولُ لدعواهم بلا بيّنة .

ومن ذلك [أنه] اذا قالت البُصَراء من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أمّيًّا لا يُحسن الكتابَ وحافظا لا ينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطىء ، قالوا : كان أخطّ الناس يدًا ، وأذكاهم حفظًا ، كان يكتب بالنهار ، ويدرُس بالليل .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خَفيت الصحف له ، ولا آكتُتِمتِ الدراسةُ عليه ، ولمّا كان يُطبق سَتْرَها عن أهله ، ولا محجابَها دون قومه . وكيف تُؤْمن القلوب وتُقِرّ العقول أنّ رجلا كبيرا حَمَل علما كثيرا وحِكَمًا جمّـاء : من آيات متشابهة، وسُوَرٍ متوالية، وهو صاحب أسفار مترامية(١)، وأخو حربٍ دائمة، لايبطئ لفظه، ولا يسقط حفظه! لولا أن الله عز وجل كفاه أن يُحَرِّكَ به لسانه(٢)، وضَمِن له جَمْعَه وقُرْآنَه، فقال عز وجل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ فلم يكن يُسقط واواً ولا ألفا، ولا ينْسَى كلمةً ولا حرفا. ما أبينَ هذا وأعجبَه! وأعجبُ منه المنكِرُله .

وأما قولهم فى الخطّ وإنكارُهم فى الكتّاب، فإن الله عز وجل جعله أُمّيًّا ليُثبت حجّته، ويصدق مقالته، ولئلا يَشُكّ المبطلون فى أمره، ويقولون : تَعَلّمه من غيره؛ فإنه قد قال ذلك بطائنُ من مُنافقــة العرب وطوائفُ من كَفَـرة العجم ، فنطقت [به] الأعداء من جيرته، والحسدة من عشيرته، الذين بلغوا [مابلغوا](٣) من مجادلة حقّه، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قَرُب، ووكلاءَ لمن بَعُد، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه، ولا الأممُ مهتديةً اليه؛ لأنهم(٤) قد أحاطوا من علم خَبَره ، وخَفِيِّ أثَرِه، بمـا كان عن غيرهم محتجبا، ومن سواهم مكتتما . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليــه وسلم يتعلّم من بشر أو يختلف إلى أحد، لما خفى عنا ولسقط علينا(٥) . وحقا لو كان محمد صــلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلّم من بشرٍ كبيرا ، لعَرَف ذلك أترابُه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون، ولما جهل ذلك من حوله من جيرته نصرة ، ولا منْ معــه من أهل بيته دِنيــة ، الذين عليهم يورد ومن قِبلهم يُصدِر، ولكان شائعًا عند حشم معلّمه وجيرة موضــعه الذين كان يختلف اليهم، ويتأدب بين ظَهْرانَيْهِــم . ولو كانوا بذلك عالمين، أو فيه من أمره شاكّين ، ثم بَلَغهم وتقرّر قِبَلَهم أنه يقول : إنّ الله عز وجل أوحَى اليــه، فيما أنزل من الكتاب عليــه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كفر،

(١) فى الأصل : «متراخية» . (٢) فى الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ» .
(٣) زيادة يتطلبها الكلام. (٤) فى الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) فى الأصل "ولاسقط".

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، وينحله وحيا ؟ أما كان يرهب أن ينتشر فى الأقربين، ويخرج الى الأبعدين، فتبطل حجته، وتنتقض دعوته، وتسقط نبوته، وينفر أصحابه الذين لم يصبروا(١) معه فى المجاهدة أنفسهم، ويبذلوا عند الشدائد مهجهم، وينفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مناصبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مستضعفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طمعاً فى منال، إلا لما تعقبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم ، فصدقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر، وصرمت العزائم ، وقويت النيات، فنشطت النفوس، وشجعت القلوب، وحملت الأبدان، لما وقع لهم طمع فيه، ولا ذهب لهم وهل(٢) اليه . فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شك ، ومعرفة لا يخلطها ريب، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه اذا قال المسلمون : ما من فعال محمود ، ولا مقال معروف، ولا خلق كريم، ولا أدب فاضل، إلا وقد أدب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله فى الكتاب اليه، فكان يأمر بالمكارم، ويحض على المحامد، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مدخل لشبهة طاعن، ولا معلق لحجة قائل، ولا مغمز لبصيرة عائب، ولا موضع لخصومة بشر، فى وعد أو عهد، أو حل أو عقد، أو مقال أو فعال، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حمل عليها نفسه ، ودعاه اليها عقله، وصبر عليها ، لما أمل ورجا فيها . سبحان الله! وما أمل بها وارتجى منها؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدباره عنها ، حيث أمكنته القدرة منها، واعترته الحال عليها . وإن قالوا : حب الأثرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة : فى سهامهم وقصاصهم ، وحدودهم وحقوقهم، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : الملك ، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعا، وأعظمهم فى جنبه تصاغرا، ما إن أكل متكئا قط إلا مرة، ثم قعد كهيئة الفزع لها النادم عليها ، فقال :

---

(١) صبر نفسه : حبسها . (٢) وهل : فزع .

"اللهم إني عبـدُك ورسولك" . وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيبَس منه معَاشًا ، وأخشَنَ رِياشا ، وأغلظ مأكلا ! وكيف يذوقَ العيشَ أو يجـد لذيذ النعيم ، من حَرَّم السُّكْرَ والخمر ، ونهى عن الديباج والقزّ ، وكان أكثرَ دهرِه صائمـا ، وأطولَ ليلِه قائما ! فإن قالوا : طلب الصوت[1] ورغب فى الدين ، فذلك ما لم يطلبـه أحدٌ فى حبّ الصوت وٱلتمـاس الحمد لمـا صـبر مغاضب قومه ، وملاوم أهـله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وٱستهزاء قريش ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويبهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجُم به الأمر[2] .

أم يقولون طلَبَ تأثيـلَ المُلْك لقومه ، وأراد توطئـةَ الولاية لأقاربه فكيف يطلبُ لقومه ما قد زَهِد فيه لنفسه ! أم كيف يطلبُ لهم عزَّ المُلْك وقد أوطاهم الذلّ ثم القتل . لعَمْرُ الله أن لو أرادَ المُلْكَ لأقاربه ، وأراد طلبَ السلطان لذوى رَحِـمه ، لوَكَّد لهم عَقْـدًا لا يُحَلّ ، ولأبرم لهم أمرًا لا ينْقَض ، ولأثّل لهم فى عُنفوان أمره مُلْكًا لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح[3] أبدًا فيهم ، امتثالًا لصنيعكم وٱحتذاءً على مِثالكم ؛ مع أقاويلَ جَمّة ونظائرَ كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم غَلَب العرب وقهَر العجم ؛ أو قال فى أمر السلطان والنجوم بكذب .

فان قلتم إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى قوة عقله وبيان فضـله ، على ما قلنا وقلتم وصَـدَّقنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفَتِ العلماء وزَلّت الحكماء وأخطأت القلوب ؛ فقـد يعلم أميرُ المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أنّ خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرَّحا ، ليست العلماء بمخطئة إلا المرّةَ والثنتين ، كما لا تخطىء الرحا إلا الحبّة والحبتين . ومثل الذى نسبتم الى النبى صـلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل فى أنفسكم ، كثيرٌ لا يُحصيه أحد ، ولا يبلُغُه عدد . وأمير المؤمنين واصفٌ بعضَـه لكم ، ومورِدٌ ما حَضَر كتابَه إن شاء الله لكم . وٱيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هَبُوا محمدا صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى مضطربة .
(٣) فى الأصل : "ولا ينوح ... " .

فى أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأتِ العربُ وهَفَت الأمم فى ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفانه والحكماء من حكمائهم (١)، توبيخاً منهم له، وتعييراً لمن آمن معه : هذا أمرٌ من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل، فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلتَ : فلعـل ذلك قد كان، ولكنه دَرَج على طول الأزمان، فكيف اذًا صدّقت العربُ بنبوته، ولم تكفُرِ القبائلُ برسالته، وهم يسمعون كذبًا لا ينفع معه صدقٌ كان قبلَه، وباطلًا لا يَعْصِم معه حقٌ حَدَثَ بعده . وإن قلتم : أدخلهم بالقهـر وضَبَطهم بالقتـل وأكرههم بالسيف، فما بالُ القليلِ من المسلمين الذين قَهَرهم الكثيرِ من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدّقوا، وصَبَروا وصابَرُوا، وجدُّوا وجاهدوا، كيف لم تنكسرْ عزائمهم، وتَهِنْ بصائرهم، ويَرْجِعُوا الى دينهـم، ويهرُبُوا عن توحيدهم! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفضّ القومُ عن الرسول، ولكان صلى الله عليـه وسلم أوّلَ مقتولٍ أو مخذول . فأحسِنِ النظرَ فيما تذهب الأهواء برأيك اليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . وإن جَمَحت الدعوى بكم، فقائل : قد مالت به الأهواء فى الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبيـاء ذكرتِ النجومَ فى صُحُفها بينت الحكماء منهـا ذكرًا فى كُتُبها، بجعلت المنقضَّ من الكواكب بين الأعوام، دليلا على أمر يحدُثُ تلك الأيامَ، ولا ما هذا الاختـلاق يلطّ به الجاهل للفساق . ما ان وضعت الحكماءُ ذلك فى الكتب (٢)، إلا ليـالى ملئت السماء من الشهب . وبالله لو آدّعيتم غير ذلك فكان حقًّا، وكانت القالةُ منكم صدقا، لما كانتِ الدعوى بناقضةٍ لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحدٍ فيها شُبْهة، لأنّ رميا يقع قَرْطَ السنين من الكواكب، لايُبْطِل رَجْمًا قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة (٣)، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تُبْطِل أظانين المشركين، وتَرْدَع أقاويلَ المنافقين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم لِيُعظم أمرَها، ولا ليكرّر فى آى القرآن ذكرها، رهبة

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى هذا الموضع اضطراب . (٣) فى الأصل "دافعة ..."

لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وَجَدوا فيما كُتِبَ به اليك أميرُ المؤمنين من أمر النجوم واحتجّ [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقعًا لظن أو مَعْلَما بطعن أو مغمزًا لقول ، لناصبُوه اذا بالمجـادلة ، وكاشفُوه بالمنازعة ، وجاهَرُوه بالقول الذى لا يستطيع له ردّا ، ولا يطيق له جَحْدا ، ولكنها آيةٌ ملأت الأقطارَ كثرةً ، وحسرت الأبصارَ قوة ، قد وجّلت العقولَ ، وولّهت القلوبَ ، وملأت النفوسَ جَزَعا ووجعا ، وفَزَعًا شَغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البـلاد ، حتى بلغ أميرَ المؤمنـين وتقرر عنـد فقهاء المسلمين أن الله عزّ وجل ، لمـا ملأ السماءَ حَرَسًا ، وأحدث لها رَصَدًا ، وخلق فيها شُهُبًا ، ذكرت العقلاءُ من العـرب ، وقَعات الله عز وجل فى الكتب ، بقوم نُوح وعادٍ وثَمُودَ ، وأشـباهِهم من مؤلّفى تلك الجنود ، الذين كانوا أشـدَّ بَطْشا ، وأكثرَ جَمْعًا ، فانفَرجتْ أيديهم عن كرائمِ أموالهم ، وأرسلت أنفسُهم مَتَائِنَ عُقَدِهم . وإن أهلَ الطائف لمـا فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروجَ الى فقرائهم ، قام فيهم رجلٌ منهم ذو سِنّ وعقل فقال :

يامَعشرَ العرب ، لاتُهلِكُوا أنفسكم قبل أن تَهلِكُوا ، ولا تُخرجوا من أموالكم قبل أن تُخرَجوا ، تفقّدوا مواقعَ نجوم السماء ، وكواكبَ بدورِ الدُّجَى ، فان كانت النجومُ التى حدث الرمىُ بهـا والنجومُ التى أخليتمُ الأموالَ لهـا ، هى لبُرُوج الشمس والقمر ومسانِ(١) الحيوان والشجر ، فهى جوائحُ الاستئصال ، المُتلِفةُ الأنفسِ والأموال ؛ وإن كانت النجوم التى حدث القذف بها ، إنمـا هى نجومٌ خُلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعـةٍ على مُبْتَداها ، ولا الأبصارُ بلاحقةٍ منتهاها ، فامسِكوا العُقَدَ(٢) عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدُثُ فى إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمورُ فى هذا الرجل كالعِيَان ، وصارت المقالةُ منه كوَعْيِ الآذان ، أنباك أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفقه من المسلمين ، الذين حملوا الينا سُنَنَ الدين ، هم

(١) كذا فى الأصل .
(٢) العقد : جمع عقدة وهى الضيعة أو العقار الذى اقتناه صاحبه .

أدّوا ذلك الينا، وأبقوه فخراً[(١)] ... علينا، فما إن يَنْفَكُّ منهم مفتخرٌ يقول : أبونا الذى حبس على العرب الأموالَ والعقد، فما إن يدفع القول فى ذلك منّا أحد . هيهات ما كانت العربُ لتُقِرَّ عند الفخار، إلا بطَوْلٍ هو أبْيَنُ فيها من ضوء النهار . فافهمْ ما كتب به أميرُ المؤمنين فى هذا اليك، ولا يكن التعللُ فيها بالشُّبهات أوثق ما لديك؛ فإنه قَلَّ حُجَّةٌ إلا وإلى جنبها شبهةٌ تَخَيَّلُ للعقول، وتَعَرَّضُ للقلوب، وتجلجلُ فى الصدور، فلا يثبت مع تخيلها، ولا يَهِيم لتعرُّضها بَشَرٌ إلا من وزَنَ الحقَّ والباطلَ بميزان عادل، لا يميل الى تفريط، ولا ينحطُّ فى تقصير . وقد جعل الله عزّ وجلّ العقولَ موازينَ للأمور، فزِنُوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عزّ وجلّ بما تنفون به الشبهةَ عن الحق، ولا تُميلوا اللسانَ، فتخسروا الميزان .
وسيعلّل أميرُ المؤمنين إن شاء الله بما جاء عن ذكر ما كتب به اليكم من أمر النجوم والرُّجوم والشُّهُب فى القرآن والرِّواية والكُتُب؛ فألطِفُوا النظرَ فى صحة معانيه، ونَحُّوا الهوى عن شبهةٍ ما وقعتْ فيه[(٢)] : قال الله عزّ وجل : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ . وإن شطب عن الحق شاطب، أو ذهب الى الباطل ذاهب، لا يعرف مذاهبَ كلام العرب، ولا وجوهَ معانى الكتب، ولا تفسيرَ آيِ القرآن، فقال : إنما جُعلت الكواكبُ والمصابيح حفظًا من الله عزّ وجل للسماء، ورُجُوما للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين .

فإن فى آيات القرآن ما فيه بيانٌ مما يُبطل دعواه التى لا بينةَ عليها، ويكذّب مقالته التى لا شُهُود لها؛ فقالت الجن — بجعَلَ الله تبارك وتعالى قولها وَحيًا — وبه منها صِدقًا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ . ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجدها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وقعدت الشياطينُ منها مقاعدَ للسمع

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة . (٢) فى الأصل « عن شبهة انما الخ » .

فلم تجد شُهُبا ولا رَصَدا، أو لايسمعون الى مايحقِّق ذلك ويسدِّده ويصدِّقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ مع قولِ الجنّ أيام حُرِست السماءُ ورُميت الشياطين: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. فاذا أعملتُم فى ذلك فكرَكم، وقلّبتُم فيه نظرَكم، فكنتم على برهانٍ يقينٍ، ونورٍ مستبين، من آستطاعةِ الجنّ للاستماع، وقدرةِ الشياطين على الأستراقِ، وإمكانِ السماءِ للقعود فى تلك الحال الأولى، ففكِّروا فى الحال الأخرى حيث حرست الآياتُ أن تعارض باطلًا بحق، ومُنعت الشياطينُ أن تَنزل بصدق، وآمتنعت السماء أن يصعَد اليها شيطان، فقال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ . قالتِ الجنُّ : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ إن فى قولهم الآن لأعظمَ نور وبيان . وأبينُ من ذلك لكم وأصحُّ لمَنْ عقل إن شاء الله منكم، إخبارُ الله عز وجل حين جُعلت الكواكبُ حفظًا من كل شيطان مارد، أنهم ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ مع إخباره فى الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعُدون ويتزلون ويستطيعون ويَتلُون على مُلكِ سليمانَ، فكن لهذا من الحافظين، وفيه من المفكّرين .

ومن آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لما نفَرت القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها، وتداعتِ القادةُ من صَناديدِ الكفر بأتباعها حَذَرًا على عِيرٍ لها أقبلت من الشام بصنوف رَغائبِ أموالٍ عِظامٍ، فكانت العِيرُ والنفيرُ طائفتين : طائفـةٌ ذاتَ عُدّة كثيرة وشوكة شديدة، وطائفةٌ ذات أموال رَغيبة ورجالٍ قليلة وفرصـةٍ ممكنة، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومَنْ معـه من المسلمين إحداهما، فكرِه المؤمنون جموع المشركين، وأراد الله عز وجل أن يقطعَ دابرَ الكافرين، ويشيِّد بذلك أركانَ الدين، فلما تراءتِ الفئتان، وتناوشت الفُرسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل:

(١) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى غير واضحة .

﴿ سَيُهزَمُ الجَمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضة [من تراب] حثاها فى وجوههم ، فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثيرِ قتالٍ من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فأيُّما آيةٍ أعظم حجةً وأوضح بيّنة وأقهر غلبةً من هذه التى لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانفضّت الجموع من المسلمين كفارا بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين ، وهزيمة نفير المشركين ، التى نجمت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم اليها . أم قبضةٌ من تراب يسيرٍ ، ما ملأ المناخرَ من عددٍ كثير .

فلئن قلتم : إن هذه آيات بيّنات ، وعلامات واضحات ، ولكنّا [لا] نقرّ لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع مانسبتموه من الفضل اليه ، كان يختلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدّعيها وحيًا من عند ربه ، وهو لايدرى لعل الأمور [تقع] بخلاف مايقول ، فيظهر كذبُه ، ويَرْفَض تبَعه . وإن تزعم(١) أن أصحابه كانوا كثيرًا أقوياء ، نشاطًا جُلَداء ، فكان على معرفةٍ بقوتهم ويقينٍ من غَلَبتهم ؛ فقد قال الله عز وجل : ﴿ وإِنَّ فَرِيقًا من ٱلمُؤمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِى ٱلحَقِّ بعدَ ماتَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبِر أصحابَه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدّعى ذلك تنزيلًا من ربهم . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تُقِرّ به الحكماء ، ولا يحدّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوَّهم ، أن يشجّع جُبنَهم ويُقوّىَ ضعفهم ، فكيف اذا لم يبقَ(٢) لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقلتهم ، بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحال(٢) الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده ! وكيف اذا لم ينسب الأمرَ الى نفسه ويُنحّى الخبرَ عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدارُ بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبته فى كتاب

(١) فى الأصل « ويزعم أن أصحابه ... » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا فى الأصل .

مسطور، ورَقٍّ منشور . فعَلَّ لعمر الله يدلّ على النبوّة التى كان بها واثقا، ويهدى الى الوحى الذى كان اليه ساكنا .

وإن عَرَض لنظَرك، أو وقع فى خَلَدك، أن الله عز وجل عوَّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغَلَبَة وأجراه على المَنَعة، فكان يجرى على عادةٍ قد عَرَفها، ويسلُك جادّةً قد خَبَرها، فلقد كانت الهزيمة فى أوّل وَقْعةٍ أوقعها الله، ثم لقد دالت الحربُ فيما بعدُ[1] سِجَالاً فيما بينه وبينهم: تارةً عليه لهم، وأخرى له عليهم . فناصِحُوا اللهَ عز وجل فى نَظَركم، وقَلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكرَكم . فلعَمْرُ الله ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقول لملوك المشركين : إن الله هَزَمكم بِرَمْيةٍ من تراب وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين . فأحضِر كتابى هـذا فهمَك، وٱصبِرْ له وإن خَصَمك، فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبيِّنة عجيبة، فى غَلَبة العرب .

وأعجب من هذه وألطف، وأكثر منها وأعظم، الآية فى غلبة العجم . وٱستمِعْ : أَمَرَ الله نبيّـه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للمؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليلا مستضعفين — : إن قبائل العرب ستتحزّب عليكم، وإن الله سيهزِمُهم لكم، وحيًا أنزله فى الكتاب، فقال : ﴿ جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾، فكان أصحاب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بعد ما نزل هـذا القول عليه بدهور طويلة وسـنين كثيرة، محبوسين محصورين فى حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذل الحصر، سـوادُهم الأعز وجلُّهم الأعظم حُفَـاةٌ عُراة عالَةٌ، إخوان دبر، وأصحـاب وَبَر، لا قوّة بهـم، ولا مَنَعة لهم، ولا أسلحةَ عندهم، ولا عدّة معهم، قد أحدقت العربُ بعسكرهم وأحاطت القبائل بخندقهم، وسالت الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامَهم وتُهريق دماءهم؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سـوء الحال، وضيق المآل، وشدّة الكظَاظ[2]؛ فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم؛ ولم يكن النبىّ صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهـلون، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون؛ حِذارًا أن تنكسر

(١) فى الأصل : "فيما بعد ..." . (٢) الكظاظ : التعب والشدّة .

عزائمهم وتتغيّر بصائرهم ، فتنهزمَ أفئدتُهم وتموتَ نجدتُهم ، وتختلفَ كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم فى الجبال ، وتقسيمهم بالقِدَاح ، وأخْذِهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فيما ينبّئهم به من علم الغُيُوب، ويبشّرهم به من أمر الفُتُوح : "إن الله سينصرُكم على جمع الروم ويغلِبُ لكم جنودَ فارس فيهزِمُ لكم جنودَهم ويورثكم قصورَهم ويستخلفُكم فى الأرض من بعدهم ويبدّلكم من بعد خوفكم أمنًا" . وعْدًا صدّقه الكتابُ، وبشارةً نطق بها الوحى، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ . فقال أقوامٌ وأناسٌ ارتابوا حين تضايقت الحال، وتزلزلت الأقدام، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : ما وعدنا اللهُ ورسولُه إلا غرورًا أيعدُنا هزيمةَ جموع الأحزاب، وفتحَ قصورِ الشام ، وغلبةَ جنودِ كسرى، وقد سالت القبائلُ علينا من كل جانب، وأحدقَ الموتُ بنا من كل مكان، فبقينا فى مَسْغَبةٍ من الجوع، ومجهَدةٍ من الخوف ، وضَنْكٍ من الحال، مقهورين مقموعين (١) . وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموعَ من المشركين ، وذكروا ما خبّرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرِهم اليهم : ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ . فبينا أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مضايق تلك الحال ، وشدّة ذلك الخصال (٢)، وعمومِ تلك البلايا الباهظة، والأمورِ الفادحة، التى قد أخذ بأنفاسهم غمُّها، وبلغ

---

(١) مقموعين : مقهورين مذللين . (٢) الخصال : النضال .

مجهودَهم كربُها، رافعين الى الله عز وجل أيديهم، يقلِّبون فى السماء أعينَهم، إذ أرسل الله على تلك الجنودِ الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة، رِيحًا من الأرض وجنودًا من السماء، فقَطعتِ الأبنية، وطيَّرت الأمتعة، وسفَتِ الترابَ فى العيون، وقذفتِ الرُّعْبَ فى القلوب، فولَّوْا مُدْبِرين، وخرجوا منهزمين، لا يَلْوِى والدٌ على ولَد، ولا مولودٌ على أحد. أمرٌ صدَّق الله فيه قولَه، وأنجز به وَعْدَه، وهَزَم الأحزابَ وحدَه، وذكَّر المؤمنين نعمتَه فيهم، وعرَّفهم منّته بهم، فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾. وقال عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ما كان الله عز وجل ليقتصّ على المسلمين فى أنفسهم، إلا ما قد رأوه بأعينهم.

لولا أن هذا ما لا يُنكِره عقلك ولا يدفَعه نظرُك، لما جادلتُك بالكتاب، ولا نازعتُك بالتنزيل. وإنى لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحى، ما هو أعظمُ من هذا وأبين وأجلّ وأوضح. ولكن ليس لى أن أحاجّك من آيات القرآن، إلا بما عليه شاهدٌ من بُرهان، ومخبر من بيان؛ لا يستطيع عقلُك ردًّا له ولا قلبُك جحْدًا له. وكيف ينبسط لسانُك أو يجترئ قلبك أن يقول: إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابَه بالكذب وهم يعلمون، فاقتصّ عليهم من أمورهم ما لا يعرفون! لا! ما يسوغُ لك ولا يَجمُل بك، ولا يُقْبَل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه؛ كيف! أما كان يخافُ أن يكذّبه أصحابُه، وتنتقلَ أحوالُه، وتنتقضَ أمورُه! لعمرُ الله لو وصفتَ بهذا مَنْ لا يُعْرَف بفضل ولا يُنْسَب الى عقل، لما كان سائغًا لك ولا جائزا منك، فكيف تصف به من يُرْفَعُ عن الناس قدرُه، ويفضُلُ عليهم عقلُه! وتُقِرُّ أنك لم تر فى الدنيا أحدًا صَنَع [ما صنع] وبلغ ما بلغ! فأيّتُما آيةٍ فيما اقتص عليك أميرُ المؤمنين أعظم أو بينةٍ أعجب: أما كان يُتْلَى على المؤمنين فى الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كان يُنَادِى (١) به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به الوحى من الفتح عليهم، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " إن الله عز وجل يُؤمِّنُ خوفكم ويُعِزّ نصركم على الأمم " وهو على تلك الحال ثم نجمت الأمور على ما قال، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس (٢) أحدَهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها فى عافية وغفلة حتى أصبحوا ؟ فأحسنْ النظرَ فى أمرك، والتثبُّتَ فى دينك إن شاء الله .

واعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات، على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه، وأن ليس يتقوّل شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال فى عُنْفوان أمره : " إن الله عز وجل سَيُظْهِرُ دِينى على الدِّين كلّه " وجاء مع ذلك بأثرة عن ربّه ، فى كتاب محظوط وتنزيل محفوظ . فأىّ أمْرَيه (٣) لك أدلّ، أو أيّهما عندك أعجب، إذ كنت بنبوّته مصدِّقا، ولرسالته محققا : الخبرُ الذى أخبره، أم الفعلُ الذى صَدَّقه؟ لئن نظرت بعقلك وقلت فى نفسك : كيف تَرَقَّتْ الى هذا نيّته وارتفعت نحوه همّته، أم كيف امتدتْ اليه طِلبته وقويتْ عليه رَوِيّته؟ بل كيف دعته اليه نفسه ، وشجّعه عليه قلبه ، ودخل فيه طَمَعه، وطاوعه فيه لسانُه ، وهو يذكر جنود كسرى، وجموعَ الروم، وملوكَ الترك، وملوك الشرك ، وقُبُولَ اليمن، وصناديدَ الأمم؟ إن هذا لعَجَبٌ، ولا سيما اذا لم يكن فى إرث مُلْكٍ قاهر، ولا كَنَف عزٍّ غالب، ولا معدِنِ علمٍ سالف .

ولئن أعدتَ النظرَ وكررت ، فقلت : كيف وافق خبرُه أثرَه، وكيف صَدّق فعلُه قولَه، حتى غَلَب الشرقَ والغربَ! إن هذا لعجبٌ ! وأعجب من هذا أمرٌ يدلّك أمير المؤمنين عليه، ويهديك إن شاء الله اليه : لو قلتَ لأهل مملكتك ومن قِبلَك من أمتك : هل بلغكم أو تقرر قِبَلكم، أنه كان فى الدهر الأوّل، والعصر الخالى، أحد مثل محمد — صلى الله عليه وسلم — دأبت الأمورُ به مثلَ حاله من الوَحْدة والضّعف والذّلة والقلّة ،وصَدَرت الحالُ به كفعاله فى الغَلَبة والمَنَعة، والقهر والظهور، وغير ذلك؟ لقالوا لا .

(١) فى الأصل : « أما كان ... » .

(٢) تحوس أحدهما : تغشاه وتهيبه . وفى الأصل « تحوش ... » بالشين المعجمة وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «فأىّ أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تؤمن بمقالته، ولا تُقِرّ برسالته، إلفًا لدينك، وضنًّا بملكك، وطمعًا فى قليل من الدنيا قد نعاه الله اليك، ورغبةً فى صُبابةِ عيشٍ غيرِ باقيةٍ فى يديك؛ فهـذا عجبٌ. وأعجبُ من هـذا أمرٌ يَقِفُك أميرُ المؤمنين على نور حقـه، ويُوضح لك إن شاء الله بيـانَ أمره: أصبحت العربُ طُرًّا والأمم جميعـا فى محمد صلى الله عليـه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولا مَخرجَ للحق من بينهم: رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين.

فأما الشاكُّ فلمّا قيل له: أخرجتَ نفسَك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأقررتَ عليها بالخطأ، لقولك: لا بدّ أن يكون الحقُّ فى التصديق أو التكذيب، ولستَ على واحدٍ منهما، اعتزل عنها.

وأما المكذِّب فلمّا قيـل له: أنت مُنكِر والمنكر ليس بمدّعٍ، ومن لم يَدّعِ لم يَلزَمْه بيّنةٌ ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه. وأيمُ الله على ذلك، لو سُئل هـذا المدّعى عن بيّنتـه وكَشْفِ حُجّته، فقيل له: من أين عَرَف قلبُك، وأيقنتْ نفسُك إيقانًا لا يخالجه شـكٌّ، ومعرِفةً لا يشوبُها ريبٌ ولا ينازعها شُبْهة، أن محمدا صلى الله عليـه وسلم ليس برسول، لمـا دَرَى ما يقول؛ لأنه لا يستطيع أن يتقوّل على الرسل، ولا أن يتكذّب على الكتب، فيقول: قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبيًّا، ولا يُنزل وحيًا فى كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيـل والزبور. بل قد يجد أهلُ الكتاب فى أقاويل رسلهم وأخاير كُتُبهم، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتابًا جديدا أو كلامًا حديثا، بعـد خراب بيت المقدس فى آخر الزمان، ولم يُنزِل بعد ذلك كتابًا إلا القرآن.

وأما الرجل المصدّق بمحمد صلى الله عليـه وسلم فقيل له: أمّا أنت فقـد ادّعيتَ، والمدّعِى يُسأل عن الحجة ويُقبل منـه البيّنةُ، فما بيّنتُك ومن يشهد لك؟ فقال: ألم تقولوا: إن الحقّ لا يخرج من بيننا، ولا بد أن يكونَ مع بعضنا؟ قالوا بلى! قال: فأيّة بيّنـةٍ أحق وأعدل، وأى شهودٍ أزكى وأفضـلُ من شهادتكم بسقوط صاحبَيَّ وثبوت

الحق من بعدها فى يَدَىّ؟ قالوا : إن الأمرَ لَكَمَا تقول، ولكنّ البيّنةَ أشفَى للصدور؛ فأقام بينةً من الكتاب، وشهودًا من الوحى، وآياتٍ سوى ذلك عِظامًا، و بيّناتٍ عَوامَّ، من كلامٍ لا يَقدِر عليه الخَلق ، وصِدقٍ لا يكون إلا من قِبَل الرب ، شبيهًا بما أورده أميرُ المؤمنين عليكم، وكَتَبَ به فى صَدْر كتابه هذا اليكم ، مما قد تشهَدُ له قلوبُ الأمم، ويُزَكّيه فِعالُ العرب .

فلمّا أقام بيّنتَه ، وثبتتْ حجّتُه ، ووَجَب حقُّه ، وقُضِىَ به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاقت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا ينزل غير القرآن ، فأبطلت الكتب المحدَثة ، وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبىّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب خلف الإنجيل ؛ وعن ذلك من أخبار الكتب ماقلنا كل متنبئ (١) بعد نبينا كذاب ، فشاعت وجازت الحجة ، ووضح العذر . وأما النصارى فيجدون فى أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل ، يبعث نبيا حديثا ، و ينزل كتابا جديدا ، فليس لهم أن يكذبوا نبينا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط ، وأما المنكر فبطل ، وأما المصدّق فثبت ثبوتا ليس فيه مدخل شبهة ، ولا موضع لحجة ، ولا معلق لمنازعة . وذلك أن المنكر لوجوب حقه ، والشاكّ فى ثبوت صدقه ، لا يجد بدا من أن يُمحى الصدق عن الخلق ، ويخلى الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين بربهم ، الشاكين فى بعثهم ، فأحسن النظر فى معانيه ينكشف لك عما فيه ، إن شاء الله .

ومن أبينِ آياته وأدلّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر اليه : أنه لما أخبرتِ النصارى واليهودُ أنهم لم يجدوا محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى التوراة والانجيل موصوفًا مكتوبًا ، تجمّعتِ العلماءُ منهم ، وتدارست الكُتُبَ فيما بينهم ، فلمّا نظروا

(١) فى هذه الجملة غموض لم نوفق الى كشف سببه وان كان المراد منها واضحا .

الى اسمـه وعاينُوه بنَعْته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم ، ويستفتحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفةٌ حَسَـدًا من عند أنفسها ، وجحْدًا من بعد ما تبيّن لها ، وآمنتْ طائفةٌ ، تصديقًا بكتابها ، وخوفًا من ربها .

فلعَمْرُ الله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصَدَّقُوا بأمره ، رأوا صفته عِيانًا ، وقَبِلُوا نعتَه إيقانًا ، لمـا فارقوا أديانَهم ، ولا جادلوا إخوانَهم ، حتى وقفوهم على اسمه ونَسَبه ، وصفته وعلامتـه ، وهم علماءُ بنى إسرائيل ، وحملةُ الإنجيـل : من أهل الكتاب الذين احتجّ الله عز وجل بهـم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ . ولعمرُ الله إنها لآيةٌ عظيمةٌ ، وحجـةٌ بليغة ، ذكرها الله فى كتابه ، وجعلها على العرب من بيّناته ، فقال لهم : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ . يقولون : وَعَدنا أن يُرسل رسولا ، فقد أرسـله ، وحَقّق قوله ، وصَدّق وَعْده . واحتجّ النبى صلى الله عليه وسـلم بذلك وذكره . ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم لِيُجادِلَ ويحتجّ فى أمرهم بكذبٍ وباطل ، ولم يكن ليقول للنصـارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه فى التوراة والإنجيـل مكتوبٌ موجود ، إلا وهو من ذلك على حقّ يقينٍ ، ونورٍ مُستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقوّل عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعِىَ به إيمـان أحياءِ العرب . أمَا كان يعلم أنه اذا قال لهم : إنه موجود فى مَثَانِى كتبهم ، وسُمّىَ على أفواه رُسُلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصـفه مستبينا ، أنهم سيُدْبرون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأً من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخط إذًا فى كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ! لقـد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأنتم إن تنكر ما يقولون لكم ، ممـا ليس لذى لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبذ اليه

سمعه(١)، يقولون : إن أنبياء الله ورسله، المبعوثين بالرحمة الى خلقه، لطفت النبوة منهم، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم، على صغائر الأمور، وغوامض الخطوب، فسار الناس عليها، وأشاروا لهم الى طلبها، فهى مكررة فى مثانى كتبهم، وبطون صحفهم، وأقاويل رسلهم، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم، والأمر الكبير، والذكر الحكيم، الذى ملك آفاقَ الأرضين، وآستفاض على جميع العالمين، لم يذكروه بخير يأتمرون به، ولا بشرٍّ ينتهون عنه، كلا! ما ترك الله على هذا خَلْقه، ولا بهذا وَصَفَ تبارك وتعالى نفسه، إنه لأرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت الى قلبك، لتقولنّ فى نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمرُ الذى طلع طلوعَ الشمس، وآمتدّ آمتدادَ النهار فبلَغ مشارقَ الأرض ومغاربها، وسُهول الآفاق وحُزونَتها، حقًّا وصدقًا وعدلًا، لبَشَّرت الكتبُ به، وتنبأت الرسل عليه، ودَعَت النُّذُر اليه، تزيينا له وترغيبا فيه، وأمرا به . ولو كان ضَلالةً وجهالة وعَمَايةً، لتقدّموا فى التحذير منه، والترهيدِ فيه، والتثبيط عنه، فيدعو ذلك الى أن تنظروا(٢) الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل . فايمُ الله لئن طلبتَ لتجدنّ، ولئن آجتهدتَ لتُوَفَّقَنّ . وما الصواب بممنوع، ولا الخيرُ بمحظور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراءُ بالتأويل تجده، ولكنها كانت تكتُمُه بتحريف كلامِ الكتب عن مواضعه، وصَرف تأويل الحكم الى أشباهه، حَسَدًا من عند أنفسهم وبَغْيًا بعد ما تبيّن لهم . ثم لقد آقتديتُم بهم وجَرَيتم معهم وأخذتم عنهم، بلا حجة لكم، ولا قوة معكم إلا الآقتداء بالآباء والآتّباع للآثار . فاتّقِ اللهَ فى نفسك، وآتّهمْ الرجالَ على دينك، ولا تجعَلِ النظرَ الى غيرك من ذوى الشك فى القلوب، والفسخ فى ... والتُّهَم(٣) فى التعطيل، الذين لعلهم يَعرِض لآرائهم ويقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعلّ ما يتلو عليكم أميرُ المؤمنين من آيات القرآن، ويقرع لكم من حجج الوحى شىءٌ زيدَ

---

(١) هكذا فى الأصل . (٢) فى الأصل «أن ينظروا ...» بياء الغيبة . (٣) كذا فى الأصل . وظاهر أن كلمة بعد «فى» سقطت من الناسخ سهوا .

فى المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى، وذاك الشاك فى شهادات الرجال، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة، وشعوب وقبائل متفرّقة، ليس يدعوهم الى ماشهدوا دِينٌ، ولا يحمِلُهم على ما آتّفقوا عليه دنيا، لا يستقيم له أن يؤمن (١) بما لم تدركه جوارحه وتُحيط به حواسّه؛ لإسقاطه حجّةَ الإجماع وإبطاله شهادةَ العوامّ. وآتفاقُ المختلفين دلالةٌ واضحة . فهو سائلكم عن الحجّة فى الإنجيل والبيّنة على التوراة ، شكًّا فى الربّ وتكذيبًا بالرسل، فما كنتَ قائلَه له أو مُجيبَه به فى كتابكم، فأجِبْه بمثله فى كتابنا وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما، ويتفق أمرهما، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان، إنما كان فعلا أثبت من بعده، ولم يكن الفعال موضوعا بعده (٢) . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكًّا فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

ولقد علم أميرُ المؤمنين أن كُتُبَ الله عز وجل محفوظة، وأن حُجَجه مخزونة، لا يُزاد فيها على تَقَادُم عهد، ولا يُنْتَقَص منها على تَقَارُب دَهْر، وأن ذلك ثبت فى الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام، وأنه قال لمن آجتمع اليه من الحواريين : "بالوحى أكلّمكم، والأمثالَ أضربُ لكم". فأمثالُه المضروبة كلام، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بالُ الشكّ يُنْفَى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وَصَف أميرُ المؤمنين لكم، وسيان فى تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه (٢)، إما ما قربا من عهده ومعاينة وحيه وآجتماع على حفظه، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرفون ووسوها (٣) بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أمّا طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك ما لا يَسُوغ الأقاويلُ فيه ، ولا تدخُلُ الشبهة عليه؛ لآنتشار القرآن وآمتداد الزمان،

(١) فى الأصل : «لا يستقيم له أن يؤمن له بما ...» . بزيادة "له" . وهى قلقة فى موضعها فلعلها زيدت من الناسخ . (٢) فى هذا الموضع اضطراب فى الكلمات، والمراد واضح . (٣) كذا فى الأصل .

وكثرة الحملة لآياته فيهم، والحفظة للسانه منهم ؛ ولكن الدين الذى نزل به القرآن ، وقبض النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة ، على أقوام [لبث] النبى صلى الله عليه وسلم عشرين حجةً فيهم يتلو كتابَ الله عز وجل فى كل عام عليهم ، حتى حملوه فى صدورهم ، وحفظوه فى قلوبهم ، وكُرِّر فى آذانهم مسموعا ، وأُمِرّ على أبصارهم مكتوبا ، وجَرَى على ألسنتهم متلواً ، وجمعه كثيرٌ منهم محفوظا ؛ ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدّوه الينا ، وأوفوا به عندنا ، من مواضع متفاوتة ، وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتّفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحالُ من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخاصين ليسوا فى الزيادة متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين ، بعد ما حفظته قلوبهم ، ووعته أسماعهم ، ثم تُكْتَم القدرةُ لهم وتُسْتَر الزيادةُ منهم ! هذا ما لايقدر عليه منافق ، ولا يطيقه مُشرك ولا فاسق . وأيمُ الله أن لو قدرتِ اليهودُ على الزيادة فى الإنجيل ، لأفسدوا كتابكم وغيّروا دينكم ؛ ولو جعل الله المنافقين على الزيادة فى كتابه قادرين ، لبدّلوا ديننا وغيّروا حالنا . ولو كانوا لذلك مُقْرِنين وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذى كتب به أميرُ المؤمنين اليكم ، وأورده من حجج الله عليكم ، أولى ما تلقون ، ورأس ما تقترفون . فلا تُلقِيَنّ الى ما قاله [المضل] سمعَك ، ولا تُنصِتِ الدهرَ اليه ذهنَك ، فإنه اتّخذ الشكَّ فى كتابنا ذَريعةً الى الإخلال بكتابك ، وسُلّمًا الى الشكّ فى دينك (١) وعلّةً فى الطعن على مِلّتك ، ولكن قل ياولىَّ الشيطان : أنّى وقعَ لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شهدت الجيرةُ ، واجتمعت العَشيرة ، واتّفق المختلفون ، فذهب الشك ، وزال الريب ، ووقع الإيقان ، من غير العيان؟ صَدَقتَ . فما بالُ الشكّ فيما اجتمعَت العامّة على القول به ، واتّفقت الجماعةُ فى الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده (٢)

(١) فى الأصل " فى دينه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفــة خُلِق ، ومن رَحِم خَرَج ، فإن جحدوا بى ألا يؤمن بما لا يرى ، فقل : أرأيتَ لو كنت سميعًا أعمى ، أكنتَ تُؤمن بشىء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العِيانُ ولم يقبله إلا عن الناس؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالربّ[1] ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتّقِ الله إذ كنتَ إمامًا وقائدًا لأهــل ملكك ، لا تقدهم الى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من أبين آيات الوحى ، وأدلّ علامات النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمرًا من تلقاء نفســه ، ولا يتقدّم فى الأمور بين يَدَىْ ربّه . والله أظهر فيما أنزل من الكتاب أمورًا كان يحسبها صــلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديبًا له ، وإخبارًا لمن آمن من بعـده[2] : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْــهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْــدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْــهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِــيرًا ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدسِ الى البلد الحرام حين سكنت القلوبُ اليها ، وأنِسَت النفوس بها : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وكانت القبلة التى صرفه الله اليها وأمَرَه بها عظيمةٌ على المنافقين واقعــةٌ بخلاف الكافرين ، كبيرةٌ[3] إلا على الذين هَــدى الله من المؤمنين ، فإنهــم قالوا : اذا اختلفت القبلتان وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ فيهما واحدة لا اختــلافَ فيها ولا افتراقَ عليهــا . وكيف تختلف الطاعة من رجلٍ بَنَى بأمر الله عز وجل ثم هَدَمَ بوحى الله .

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل : "لمن آمن من بعده إذ يقول ..." وظاهر أن كلمة "إذ يقول" غير مفيدة هنا . فلعلها زيدت سهوا من الناسخ . (٣) فى الأصل : "كثيرة ..." .

فإن قلتَ : إن الله حَوّله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين، فلا سواء فى الفضل البيّن والخير السرّ : قبلة سلّط الله عليها الكافرين ولم يمنعْها من الظالمين، وقبلة منَعها بجنودٍ من عنده، وعَصَمَها بغيرما حَوْلٍ من خَلْقه ولاحرمةٍ يَدّعِيها أحدٌ ممن فيها ؛ فأرسل طيراً أبابيل تَرْمِى الأعداءَ بحجارةٍ من سِجّيلٍ، فجعلهم كعَصْفٍ مأكول . فإن تقلْ : هذا خَبَرٌ نُنْكِره، وقول لا نعرفه، فبأىّ حديثٍ بعدَ هذا تؤمن ، وتَشْهد لله عز وجل أنه من قِبَلِه ، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورةَ الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم خبّرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقل : إنه أراد أن يفرّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب، ويقذفوه بالحمق ، ويصموه بالجنون، ويظنّون به الظنون[1]، كلا ! ما كان نبى ولاغير نبى ليجاهد أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا، وتكذيب ما عاينوا . فلا تكونن فى هذا من الممترين، ولا بأمر الفيل من المكذّبين .

فلعمرُ الله لو كان من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ما تُلْحِد أنت وقومُك إليه لما قام معه رجلان ولا آختلف فيه سيفان . وإن فيما صنَع الله عز وجل بالفيل وأتباعه، دلالةً على قبلة الله وأنبيائه . فآتق الله! فقد شرح أميرُ المؤمنين علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم وكَشَفَ الأغطيةَ لك عن النُّور بآيات الوحى . فإن مالت الأهواءُ بك ، وغَلَبت الأساقفةُ عليك ، وحضرك الرؤساءُ الذين يجعلون مع الله آلهةً أُخرى بلا حجّةٍ عندهم، ولا سلطانٍ أتاهم فقل : أنبئونى عما آجتمعت عليه النَّصْرانية وذهبتْ إليه بهم المعانى من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروفٌ تتعسّفونها، أم لغة تعرِفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلّمون ، فهم إذًا قوم يلعبون . وإن قالوا : إنهم يتكلّمون بلغة معروفة ومعانٍ معلومة، فقل : أخبرونى عن قولكم : أب وآبن، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع فى القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى

(١) كذا بالأصل .

تذهب أوهام العباد اليه، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل: "بكرى" لا يعنى ولادة الرحم؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: "أنتم إخوتى" لايعنى أُخوّةَ النسب. فذلك قولٌ لايجدون معه بدًّا من أن ينسبوا عيسى عليه الســلام عبدًا. و إن قالوا: بل هو ماتجرى به ألسن العباد، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعــروفة والأبوّة المعــلومة، فليخبرونا متى كان الأب والدا، والأبنُ مولودا: أقبــل الولادة أم بعدها؟ فإن قالوا: قبلها، رجعوا عن القول الأوّل بتثبيت الأبوة. إلا أن ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليــه الأوهام، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام.

ولا بدّ اذا سقطت الولادةُ المعــروفة وبَطَلت الأبوّة الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والأبن آسمان عُلّقا على غير معنى، ونَسَبانِ أضيفا الى غير حق؛ فيقرّون أن عيسى عليه السلامُ خُلِقَ مثلَهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحدٍ منهم.

و إن قالوا: إنمـا كان الأبن مولودا والأب والدا بعد الولادة، فقد أقرّوا بأن الأبن حَدَث مخلوق وعبــد مربوب، لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِد، ولم يُولد حتى خُلِق. وقل لمن يقول الزورَ العظيم، ويقذف بالإفك المبين: أليس الأبُ أبًا على حياله ولم يزل، والأبن آبنا نُحِل، وروحُ القدُس كذلك؟ فإن قالوا: نعم، فقد أقرّوا بأنهم ثلاثةٌ متباينةٌ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة، وتركوا قولَهم: إنهم ثلاثةٌ أصلُهم واحد.

و إن قالوا: الأب والأبن وروح القدس واحد، ولكنّ بعضه أبٌ وبعضَه ابن و بعضه روح القدس، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عنــدهم، وقالوا فى التبعيض بما هو كفرٌ قِبلَهم. و إن قالوا: ليس مُبَعَّضا، ولا مجزّأ، ولا محدودا، ولا ثلاثة متباينين، فإذًا هم قوم يلعبــون: يقولون: الأبُ ابنٌ، والابن أب، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل. وهذا من أبين المحال وأخلف المقال. وليس من المنطق مالا يوجد فى لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمّة من الأمم. و إنما

أرسل الله عز وجل كل نبيّ بلسان قومه ليبيّن لهم، فيُضلّ الله الظالمين . ولولا ذلك لما فَهِمت الأممُ مذاهبَ أقاويلِ الرسل ولا معانىَ أحاديث الكتب . فلا تُطِع الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلّمون بغير لغتهم، ويقولون : الثلاثةُ واحدٌ ، والواحد ثلاثة؛ وهذا محالٌ فى مَجارى المَقال، ومعانى الفِعال .

لعمرُ الله لئن آتّهمتَ عقولَ الأساقفة على دينك ، وآهتممتَ بالنظر فى توحيدك ، لَتعلمَنّ أن الواحدَ لايكون ثلاثةً وأن الثلاثةَ لا تكون واحدا ، إلا على وجه ماله ثانٍ يقول به ، ولا منه مَخرجٌ تستريح اليه . فألقِ نحوَه سمعَك ، وأنصِتْ اليه فهمَك ؛ فإن أميرالمؤمنين واصِفُه لك ، وليس واقعًا إلا على المخلوقين ، ولا لازمًا غيرَ المحدودين ، ولا داخلًا على رب العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصلُه واحد وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الانسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزمها أسماء ، فليس الجزءُ بالأصل ، ولا الأصلُ بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزءَ ، قلت يد الانسان وسَمْع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق مجزّأ مبعّض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصلُ واحد ، وهى شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشُعَاع الشمس ودقيقُها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سمّيتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حِياله إنسانًا ، وكلّ جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونسبتَ فعلَ الأصل الى بعض أجزائه ، وتركتَ أن تنسُب الأصلَ فاعلًا ببعض الأجزاء ، كما تقول : بَسَط الانسانُ بيده ، ومَشى برجله ، ونَظر بعينه ، ثم ضربتَ ذلك لله عزوجلّ مَثَلا وجعلتَ الله له قياسًا ، فقلت : الأصلُ واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة وهى أب وآبن وروح القدس ، وكل جزء منها إلهٌ على حِياله وربٌّ دون غيره ، لم تجِدْ بُدًّا أن تُلحِقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والآبن ورُوح القُدُس ، فتُكثِرَ آلهتَك ، وتحدِّدَ ربّك ، وتترك قولك : إن الله ليس محدودًا ولامجزّأ ولا مبعّضا ؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أبٌ وآبنٌ ورُوح القدس .

فإن كنتَ تقول هذا وكنتَ إنما تعبد أسماء، فما تجد بدًّا من أن تعبدَ الأسماء كلها وتقول : إنها آلهةٌ على حِيالها ، حتى تقول باسمِ آرحمنى ، وبثانٍ اغفر لى . فاتّقوا الله ياأهل الكتاب ؛ فإن الله عز وجل ليس بأب ولا آبن ولا آسم ، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يُلحِدون فى أسمائه سيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفةُ الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسانٌ بكماله . وكذلك إن أشاروا الى بعض الشمس فقالوا: أليس هذا الشمس طالعا، فقل لا، ولكنه بعضها، ولو كانت الأسماءُ التى تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء شمسا وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدتَ بالإجابة لمسالك هـذه الأودية ، لبطَلَتِ الحجج الداحضة وآنقطعت الأقاويلُ المتناقضة . وسل مَنْ قِبَلَك من أساقِف أُمّتك وشَمامِسَة أهل مِلّتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح، ويرفعونه أن يكون عبدًا : على أى شىء وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إلهٌ دون غيره ، فقد أقروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشى ويركب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبينا قِبَلَهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع آسم المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح اذًا دون غيره، والمسيحُ اذًا مخلوقٌ عندهم ، والإله إنسانٌ اذًا مثلهم ، فلِمَ يعبُدون المخلوقَ ويدعون من خَلَقه وبَرَأه . وإن قالوا : وقع الآسم على الروح والجسد جميعا، فلن يجدوا مَخْرَجا ولا بُدًّا ولا مَحِيصًا، اذا أوقعوا الآسمَ عليهما، من أن يُضيفوا الأعمالَ إليهما، فيقولوا : إن الجسد المخلوقَ هو خَلَقَهم ، وإن الرُّوحَ الخالقة قد ماتت قَبْلَهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موتِ عيسى عليه السلام فى الكُتُب عندهم وفى الإنجيل الذى قِبَلَهم. وسل مَنْ قِبَلَك عن الأب والآبن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ؛ فإن قالوا : الأب أعظم والآبن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحدٌ وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الآبن ،

ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نقض حينئذ جوابهم، وأ كذب المسيحُ عليه السلام كلامَهم، حيث يقول: "لو كنتم تحبّونى لفرحتم حيثُ أذهب الى إلهى فإنّ إلهى أعظم منّى"[1] فلم يَقُل أعظمَ منى، إلا وهو مقرٌّ بأنه أصغرُ منه. وسلهم عن قول المسيح: "أنا أذهب الى إلهى وإلهكم"[2]، فقل: مَنْ هذا الإلهُ الذى ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم: إلهٌ فى السماء متباينٌ منه منقطعٌ عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إلهٌ كان به متّصلًا وكانا جميعًا واحدًا؟ فكيف اذًا يجوز له أن يقول اذًا أذهبُ اليه! إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم فى صفة الربّ عزّ وجل.

وسَلْ مَنْ قِبَلَك: أخرج المسيحُ من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغا وكان هو منه بكماله خارجا؟ فإن قالوا: نعم، فقد انكسر قولهم: إن الله بكل مكان. وإن قالوا: لم يخرُج المسيح ولم يخلُ البطن، فقد كذَبوا اذًا فى قولهم: إنه قد خرَج، وأقرّوا أنه قد وُلِدَ. فتعالى الله عما يَصفون، وتنزّه عما يُشركون. وسَلْهم لِمَ هبَط عيسى الى بطن مريم، وتجسّد باللحم والدم، فإن قالوا: ليَمْحَق الخطايا من الأرض ويربُطَ الشيطان عن الخلق، فقل: كيف اذًا لم يربطه عن نفسه! وكيف جلاباه[3] من اليهود بصلبه! ولِمَ سُلِّطَ على أهل دينه يُتَبَّعون فى كل شِعْبٍ ويُقتَلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالقَ فى كل مكانٍ من السماء والأرض وغير ذلك: أيهما أعظم: المحيطُ المشتمِلُ، أم المُحاط المشتمَل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون. فإن قالوا: إنما التحم بعضه دون بعض، فقد حدُّوا وبعّضوا ونقَصوا وانتقصوا، وإمّا قالوا فلن يجدوا بدًّا من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذى جعلوه ربهم، وهو إله عندهم، ميّت بعضه جيفة، وإن بعضه حىٌّ طيب، لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حىٍّ فيه

(١) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢م): «فلو كنتم تحبونى لكنتم تفرحون بأنى ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم منى».

(٢) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس): «إنى صاعد الى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم». (٣) كذا بالأصل.

رُوح، فلابدَّ اذًا أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفزع والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفكٌ مبين. فاتّقِ عقوبةَ الله ربك، ولا تمشِ مُكِبًّا على وجهك، ولكن ٱطلبْ وٱلتمس وٱبحث، فقد قال عيسى عليه السلام فى الإنجيل[1]: "من سَأَلَ أُعْطِىَ ومن طَلَب وَجَد ومن استفتح فُتِحَ له".

اجمَعِ العلماءَ والبصراءَ [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قِبلَك، فقل: لأى شىء نَسَبتم المسيح إلهًا وجعلتموه ربًّا؟ ونجد الله سمّاه فى الكتاب ابنًا، وقد تجدونه قال: "إنى أذهبُ الى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم أيضا". وهـذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولَى به، وقولٌ لايحتمل إلا وجهًا وهو الرُّبُوبيّة. أم كيف تنظرون الى كلامه: "أذهب الى أبى وأبيكم". فتُفْرِدونها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره!

فاتّقِ الله وكن من القائمين بالحق، الموحِّدين للرب. إن أمير المؤمنين قد ضَرَب لك أمثالًا جمّةً، وصَرَف اليك مسائلَ كثيرة، وبيّن لك من آياتِ النبى صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحى قليلًا من كثير، واضحًا من تفسير، لا تمتنع العقولُ من التصديق به، ولا القلوبُ من الإقرار به.

وسيذكر لك أميرُ المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل، ما يُكْتَفَى به، إن شاء الله، وباليسـير منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحُجَجه محروسة، لا يزاد فيها ولا ينقص منها. واذا وجدتَ فيها كلمةً تدلّك على حق وتَهْدِيك الى رُشْد، فلستَ واجدًا أخرى تَصُدُّك عنه وتشكِّكُك فيه، اذا تُلِىَ ذلك بالحق ووُضِع على الصـدق. ولكن ضلّت اليهودُ والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسـير الكُتُب. وأميرُ المؤمنين يسأل الله العِصْمَة والتوفيق.

---

(١) الوارد فى إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ج ٣ من الكتاب المقدس): «من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه». والوارد فى إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدس). «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له».

من ذلك ما قد شَهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم وبيّنه فى الإنجيل لكم ، إذ قال للحَوَارِيّين [١] : "أنا أذهبُ وسيأتيكم البار قليط روح الحق الذى لا يتكلّم من قِبل نفسه إنما يقول كما يُقَال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شىء أعدّ الله لكم يخبركم به" . وترجمة البار قليط : أحمد . هذا ما لا شكّ ولا مريةَ فيه ، وهو الذى يُخبر بما وَعَد الله المؤمنين وصالحى الحوَارِيّين فى القرآن؛ ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشْعَيَا [٢] النبى عليه السلام : "قيل لى : اقم بطارا ما ترى بخبرى؟ [٣] قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوته [٤]" . ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام [٥] : "اللهم ابعث جاعلَ السُّنَّة كى يعلم الناسُ أنهم بشر" يقول : كى يتبيّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنّةً تُنسَب اليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نَصَب سُنّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حَبَقّوق [٦] المتنبىء فى زمان دانيال : "جاء الله من السماء [٧] والقِدّيس من جبال فاران، وآمتلأت السماء من تحميد أحمد وتقديسه، ومَسَح الأرضَ بيمينه، وملَك رقابَ الأمم" . وقال أيضا [٨] : "تضىء لنوره الأرضُ، وتُحمَل خيلُه فى البحر" . فالى من

---

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدّس) .

(٢) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدّس) . (٣) كذا بالأصل، ولم نوفق الى تصحيحه . (٤) فى الأصل : «المنحرة» وقد استأنسنا فى اثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر المزامير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدّس) . (٦) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس). (٧) فى الأصل : "من السهان ..." .

(٨) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس) .

يمحو هـذا القول، والى أين يُذْهَبُ بهذا المعنى؟ لئن ذُهِبَ به إلى غير الذى [تحمل] (١) خيلُه فى البحر، وبدأ من جبال فاران أمره، وغَلَبَ على الأرض ومسحها (٢)، ومَلَكَ رقابَ الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبُور (٣): "صَدِّقوا وسَبِّحوا الربَّ تسبيحًا حديثا سَبِّحوا الذى هلَّله (٤) الصالحون. ليفرَحْ إسرائيلُ بخالقه ويتوب صِهيونُ من أجل أن الله اصطفى له أمته، وأعطاه النصر وسَدَّد الصالحين بالكرامة، يسبِّحونه على مَضَاجعهم، ويكبِّرون الله بأصواتٍ عالية، بأيديهم سيوفٌ ذاتُ شَفْرَتين، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثم يقيِّد ملوكهم بالقيود وأشرافَهم بالأغلال". فأيّما أُمةٍ يكبِّرون اللهَ بأصواتٍ وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شَرَف وعند كل حرب، وأيّما أمةٍ كانت سيوفُها ذاتَ شَفْرتين إلا أُمة محمد صلى الله عليه وسلم!

ومن ذلك قول أشْعَيَا (٥): "سَبِّحوا الربَّ تسبيحًا حديثا، ويسبِّحه من آفاق الأرض فرح يكون فى بنى فيار (٦)". وبنو فيار قريش أهل فاران الذى نزل فيه القرآن. وأيّما أُمةٍ تسبِّح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. عدى أكدى (٧).

ومن ذلك قول أشعيا (٨): "عبدى الذى وجب به حبّى الذى بشرت به نفسى أُفيض عليه رُوحى، يُوصِى الأممَ بالوصايا، لا يضحَك ولا يُسْمَع صوتُه فى الأسواق، ويفتح العيون العُور، ويُسمِع الآذانَ الصُّمّ، ويُحْيى القلوبَ الغُلْف، وما أُعطيه لا أُعطى غيرَه، أحمد يَحمَد اللهَ حمدًا حديثا، تهليلُه يأتى من أقصى الأرض، يجوز الماءَ بشدة أمواجه (٩)، ويفرح وكورها، سكانها يحمدون الله على كل شَرَف، ويكبِّرونه على كل رابية".

---

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها. (٢) فى الأصل: "ومتحها ...". (٣) راجع سفر المزامير (فصل ١٤٩ آية ١ — ٩ ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس). (٤) فى الأصل "هلكه الصالحون...". (٥) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٦) كذا فى الأصل. ولعله محرف عن «فوج». والفوج: الجماعة من الناس. (٧) كذا بالأصل، ولم ندر ما هاتين الكلمتين ولا لذكرهما معنى. (٨) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٩) كذا بالأصل.

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور[1] الخامس والأربعين[2]، يقول الله عز وجل لمحمد فى الزبور : "انصبّت رحمتى على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهر[3]، تقلّد السيف على الأمم ، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسباء بهاك وحمدك أحمد على الرمنك كلمة الحق وذلت لك الأشياء سيفك محسمه يمينك ونبالك مسمومة و تسقط عند الأمم" . فأى نبى كان على الأمم جبارا ولهم يأذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك فى آخر التوراة[4] : " جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فَارَان ، وجاء عن يمينه ربوات القدّيسين " . وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى فى طُورِسيناء ، وأنزل الإنجيلَ على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير وهو جبل بالشام، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى جبال فَارَان وهى بلاد مكة . وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكرّرا وتعرفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام[5] «سأُقيمُ لهم من إخوتهم مثلَكَ أجعلُ كلامى على فهمه ولا يتكلّمُ إلا بما آمرُه به» . فمَنْ إخوة بنى اسرائيل إلا بنو إسماعيل ! أَمَا تعلم أن لو كان الله عزّ وجل يعنى أحدًا منهم لقال لهم: أُقيم لكم نبيا منكم ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوتكم، وهو يريد من أنفسكم، فهَبْ أميرَ المؤمنين قَبِلَ هذا الخُلْفَ منكم ووَسّعَ فى هذا المجال لكم، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراة : "مثلُ موسى فى بنى إسرائيل لايقوم" فهل تجدون من هذا مَخْرجًا، ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدًّا .

---

(١) راجع سفر المزامير (فصل ٤٤ « وفى بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل : « فى خمسة وأربعين مزمورا » . (٣) فى الأصل : « من أجل ذلك باركل الدهر . واستعنا فى تصحيحها بالكتاب المقدس الذى وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انسكبت النعمة على شفتيك فلذلك باركك الله الى الأبد » . أما الباقى فلم نوفق الى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل .

(٤) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .

(٥) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أجعَـلُ كلامى على فمه كى يُغْنَى به ، أمّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب" .

أوليس قد أمر عيسى عليه السـلام حَوَاريِّيه أن يقولوا فى صَلَوَاتهم[(١)] : «ياأبانا الذى فى السماء تقدس آسمك» . كيف صار عيسى دونهم ابنا ، وصار له دونهم أبا[(٢)]، وهم يقولون : ياأبانا ! أم كيف لم يُجْعَلْ سليمانُ بن داود إلهًا وقد قال الله عز وجل لداود : "يُولَد لك غلامٌ يُسَمَّى لى وأُسَمَّى له" ! ولِمَ لايجعلون إسرائيلَ إلها وقد قال الله عز وجل له : "أنت بِكْرِى" ! بل لِمَ لا يُسَمُّون المؤمنين عامةً والحواريّين خاصة[آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أنتم إخوتى ، وقد قال فى الانجيل[(٣)] : "أعطِ كلَّ من آمن بى سلطاناً يُدْعَى له" . و إن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول فى مواضع جمّة وأماكن كثيرة إنه ابن الانسان ! فكيف يكون ابنُ الانسان آبنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابنَ الانسـان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً قديما وجعلوا الله إنسانا حديثا ، وجعلوا المسيحَ ابنَ الله لم يَزَلْ ، وابنَ الإنسان فيما حَدَث . وهذه أمورٌ متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيحَ لأنه رُفِعَ الى السماء ، فليعبدوا الملائكةَ فإنهم فى السماء قبله ، وإدريسَ فقد رفعه الله وغيرَه . و إن كانوا يعبدون المسـيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذكر ، فآدمُ وحوّاء لم يُخْلَقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يَقَعَـا من غمّ الرحم وضِـيق البطن وحال الصِّبا فيما [وقع] فيه المسيح .

و إن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل[(٤)] أكثر ، وما كان من اليَسَع تلميذ إليـاس أعجب ؛ لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السـنين . و إن طلبتم ذلك فى سِيَر الملوك عند قصة اليسع أصبتموه ، إن شاء الله .

---

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل : «وصار دونه أبا ... » . (٣) لم نجد هذا فى الإنجيل . (٤) حزقيل نبيّ بعثه الله تعالى الى بنى اسرائيل ، وهو الذى أحيا الله به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته . وهو ما يشير اليه قوله تعالى : (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيحَ من أجل الأسقام التى أبرأ والعجائبِ التى أرَى، فعجائبُ موسى أعجب وآياته أعظم. أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب موسى: من انقلاب البحر له، وسلوك الجيش معه! أم أين ذلك من حجرٍ يضربه فيتفجّر بعيون الماء، ويحمله معه حيث شاء! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يُوشَعَ الشمسَ[1] ثلاثَ ساعات! وكلُّ ماصنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه. فاتّقِ الله وكن من القائلين بالحق، الموحِّدين للرب، ولا تقل على عيسى ما لم يَقُل، فإنكم لاتجدونه قال لكم فى شىء من كتبكم: اعبدونى فإنى ربكم. تعالى الله عما يقول الظالمون، ويذهب اليه الجاحدون.

وإن أمير المؤمنين قد أحبَّ أن ينصح لك، فى أَوْلَى دارَيْك بك وأهمِّ شأنَيْك لك، فدعاك الى الإسلام وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار. فإن قبلتَ فحَظَّك أصبتَ، ونفسَك أحرزت، ولك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم. وإن رددتَ نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك، فإن أميرَ المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك: من إعطاء الجزيةِ التى يحقن الله بها دماءكم ويحرّم بها سباءكم، ويجعلها قِوامًا لمَعاشكم، وصَلاحًا لبلادكم، وتوفيرًا لأموالكم، وأَمْنًا لجنابكم، وسعةً لِسِرْبكم[2]، وبركةً على فقرائكم، وغِنًى لأهل الحاجة والفاقة والمَسْكنة منكم.

ولن يذكر أمير المؤمنين فى الجزية لكم من حلول الأمن فيكم، وعموم العافية إياكم، واستقامة البركة عليكم، وكفِّ أيدى المسلمين عنكم، وبَسْطها على الأعداء منكم، شيئا إلا وفى قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التى كان الله أجرى نعمتَها لكم على يده، وفتح بركتَها عليكم من قِبَله، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر، ويشهدُ له على حقّه فيما يقول ان شاء الله. فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طَرَف من أطرافكم،

(١) إشارة الى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس؛ فقد روى أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه، فدعا الله تعالى، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم.

(٢) السرب: الطريق.

وصِنْف من أصنافكم، بتلك الفدية، أمورًا عظيمةَ البركة، واسعةَ المنفعة، فى أمورٍ غير واحدة :

منها : أن قادةَ جنودكم وساسةَ حربكم، كانوا بعد وقوع أمرها وآستحكام عَقْدها، فِراغًا لمحاربة أعدائكم ومناصبةِ من ناوأكم، بين أن يستعجموهم(١) فى بلادهم وينزلوا عليهم فى ديارهم، ولا يرهبون تَعَقُّبَ بَشَرٍ إن ساروا فى أرضهم، ولا يتخوّفون طِرادًا إن آجتمعوا لقتالهم أن يقيموا فى خَفْضٍ ودَعة، وأمْنٍ وسَعَة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحَال، وهم اليوم يترقّبون الجيوش من كل شِعْب ويتخوّفون الحتوفَ فى كل وقت، لا يهدأ لهم جاش(٢)، ولا يسكن لهم فَزَع، ولا ينامُ لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قطَعت الهمومُ دابرَهم، وأضمرت المخاوفُ جُنُوبَهم، وآستأصلت الجنودُ أموالَهم .

ومنها : أن أهل الحِراثة وإخوان العِمارة، فى بلادك وأطراف أرضك، كانوا سِراعًا الى عِمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قِوامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاءَ لدينهم إلا معه؛ قد أمِنوا الجيوشَ ومَعَرَّتَها، والجنودَ وبادرتها، وآنتشروا للعمارة، وآبتكروا فى الزراعة، فارقوا رءوسَ الجبال وإكامَ الغِياض، وراحوا فى أوساط أوطانهم وظِلال محالّهم، يشقّقون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويُنَجِّرون العيون، حتى نَمَت الأموال، وآخضرّت الحال، وأخصب الجنَاب؛ وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللحراثة تاركين، وبغيرها مشتغلين فى إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال فى الحصون، ورمِّ القِلَاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد آنتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار الغِياض، وبطون الأودية؛ فليس يبلُغون من عِمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقِوام معاشهم مثلَ ما كانوا يبلُغون، ولا ينالون من خَفْض العيش وطِيب الأمن ولذّة الدَّعة، قريبًا مما كانوا ينالون .

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل : «ولا سكن لهم الخ» .

ومنها : أن إخوان التجارات، وأصحاب الأموال وأهل الظِّلف والحافر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا (١) وما قاربهم من أسواقنا، فينفّقون تجاراتهم ويُغلون بضائعهم، فتعظُم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم، فعمّت البركة وسَهُلت المنفعة، حتى نالت الرعاءَ فى جبالها وافيالها (٢)، والنساءَ فى غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبَلك من ذوى العبادة والزهادة والتألُّه والنسك والنيات ، كنتم على عافيـة من أيام الرضا بالحرب، وسلامةٍ من أوزار الحضّ على قتال الحوف، قد تَجوَّبتم من معصية المسيح فى الدنيا التى نهاكم عنها، والأمور التى أمركم بها، من نحو قوله (٣) : "مَنْ لَطَم خدّك الأيمن فأمكِنه من الأيسر، ومَنْ انتزع قميصَك فأعطه كساءَك ، ومن لَطَمك فاغفرْ له ، ومن شتمك فأعرِضْ عنه" .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حوزتك ،قد ذاقوا تلك الأيامَ من لذة الخفض، ودعة الحال، وحلاوة الأمن، ورَفاهِيَة العيش، وسَعَةِ العافية من سِباء أزواجهم، وهَيْض أولادهم، وحطم معاشهم، وأسر رجالهم، وغنيمة بقرهم وغنمهم، وإفساد شجرهم وثمارهم، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم، ما لم يكن لهم رأىٌ يعرفه ، ولا ظنٌّ يبلُغه ، ولا طَمَعٌ يُقاربه ، ولا أملٌ يذهب إليـه . وما قد عرفت الخاصّةُ من بطارقتكم ، والعامةُ من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتِكم لهم ، وشَفَقتِكم عليهم ، وأَثَرتِكم إياهم ، وبركةِ ولايتكم ملكَهم ، ومنفعةِ سياستكم أمرَهم ، ما قد آزدادوا لكم به محبةً ، وفى بقائكم رغبةً ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقةً ، وفيما نابكم نصيحةً ؛ مع ما قد آزددتم بذلك من الهيبة فى صدور الأعداء ، والشرف فى قلوب النظراء ، والعظم فى عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصـدق النية ، ولطف الحيلة التى

(١) فى الأصـل : "من بلادهم ..." . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحل رأيكم فيها ؛ على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قُوُّوا ، ولفقرائكم حتى استغنوا ، ولقرائكم حتى سدوا وحيو وفووا المسلمين (١) من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر (١) القتل ، وذل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، واستوثقتم منهم بالرهن .

فاذا ذكرتَ ما كان من هـذا وأشباهه وأمثاله فى الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم فى الجزية ، فلا يكونن لك رأىٌ غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة فى بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسباء والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدًا استدركم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجبَ عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل فى نقض عهده ، واستخفافكم بحقه فى خَفْر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذى وضعه الله عز وجل حَرَمًا بين ظهرانَىْ خلقه ، وأمانًا أفاضه فى عباده ، لتسكُنَ اليه نفوسهم ، وتطمئنّ به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقيموا به من دنياهم ودينهم ؛ فما من ملك من الملوك ولا امة من الأمم ، تبيح حِمَى الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نقمته منكم بأيدى المسلمين ، بعد إذ كان اعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلظة ، والعهود المؤكدة ، التى قد اعتقدها فى رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامعَ بها مَنْ حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم . فلا الله اتقيتم ، ولا من الناس استحييتم ، نكثًا للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

(١) كذا فى الأصل .

وختراً بالأمانة، وإباحةً لحمى . فتوقعوا العقوبة، وانتظروا الغيب؛ فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إبطاء الجيوش بلادكم، واستباء المقاتلة أرضكم، والتفرُّغ لكم من كل شغل، والإيثار لجهادكم على كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدُّوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون . فكونوا على عدة من الجزية، ويقين من الانتجاع الذى لاطاقة لكم إن شاء الله به، ولا صبر لكم بإذن الله عليه؛ فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة، ونفسه سخية بالإنفاق، ويده مطلقة بالبذل ، والمسلمون نِشاط اليكم، منقلبون عليكم، قد عوّدهم الله فى لقائكم عادة يرجون انتظار مثلها، وأبلاهم فى قتالكم بلاء من أمثالها، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ، ومُقدّمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدُّوا الجزية عن التى دعاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومن قِبَلك عليها، رحمةً للضعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجعا للمساكين مما لا توَجّع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة، ولا تدفعون عنهم بحيلة، ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطُّف عليهم ، أدب المسيح إياكم، وقولَه فى الكتاب لكم[1] : "طوبى للذين يرحمون الناس ؛ فإن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم" .

وآيم الله لو يعلم مَنْ قِبَلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحدّروا عليه وأقبلوا اليه، من إيوائهم، وإنزالهم الأرض الواسعة، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقاربه، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا اليهم ، مع تخليته إياهم وادياتهم، لا يُكرههم على خلافها ولا يجبرهم على

(١) راجع انجيل متى (فصل ٥ آية ٧ ج ٣ ص ٧ من الكتاب المقدس) .

غيرها ، لأختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذوا[1] أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم فى كل عام ويلقون من كل غزاة . فاتق الله وآقبل ما عُرِض عليك من الجزية ، ولا يمنعنك ما فيه[2] الحظ لك ولأهل مملكتك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم فى الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حميةٌ ولا نقيصة ولا عار ، والذين يَفُون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرًا لدينه وخوفا من ربه ، ولما قذف الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من آجتماع الكلمة ، وآتفاق الأفئدة ، والتناصح فى السر والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فابذُل من الجزية ما شئت ، وسِم منها ماهَوِيت . وآعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به اليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سببا لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدى — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت اليه ، والحاجة كانت فيها عليه ،[3] ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة اليها ، ولا آستعظام لها ، ولقد كان يعطى فى المجلس الواحد مرارا أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم اذ آستبان له غدركم ونقضكم ونكثكم وآستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم : إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من آتبع الهدى .

---

(١) فى الأصل : " ولأبتذلوا ... " . (٢) كذا فى الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة " ولا يمنعك الشيطان مما فيه ... الخ " فسقط هذا أو نحوه سهوا من الناسخ . (٣) كذا فى الأصل .

٣ — رسالة يحيى بن زياد فى تقريظ الرشيد

أما بعدُ، فإنى أسألُ اللهَ لأمير المؤمنين فى غابر أموره، أحسنَ ما عوَّده فى سالفها من السلامةِ التى حرَسه بها من المكاره، والعزّ الذى قهر له به الأعداءَ، والنصرِ الذى مكّن له فى البلاد، والهدى الذى وهب له به المحبةَ، والرِّفقِ الذى أدرّ له به الحَلْبَ، والاستصلاح الذى اتّسقتْ له به الرعيةُ، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مُستقبَلٌ به منه، أبعدَ خُلَفائه فى الخير ذِكرًا، وأبقاهم فى العدل أثرًا، وأطولَهم فى العمر مدّةً، وأحسنَهم فى المَعاد مُنقلبًا.

ثم نحمَدُ الله الذى جعل نعمتَه على أمير المؤمنين شَواهِدَ منه على منزِلَته منه ومكانه عنده، لا يحتاج معها الى شهادات المُثْنِين، ولا صفاتِ المقرِّظين، ثم جعل ذِكرَ نعمتِه على أمير المؤمنين ومُناصحَتَها والمجاهدةَ لمن كادها فريضةً أوجَبَها على العِباد، ومحبةً امتحنَهم بها، وفُرقانًا ميّز به بينهم، فمن أصبح من رعيّته أكثرُ شغلِه أن يستعملَ لسانَه فى صِفَتِه، وذِكرِ محاسنه وفضائله، ووجوبِ حقّه وطاعته، فقد أصبح آثرًا أولى الأمور وأحسنَها مَغَبّةً فى دنياه ودينه، ومن بدّل ذلك عن قدرةٍ عليه، ودفَعَه بعد معرفة، لم يَدَعه إلا عن خِذْلان حاقَ به، أو بِدْعةٍ استمالته، كانت حُجّةُ الله لأمير المؤمنين عليه هى الكافيةَ لمؤونته. وقد كان علماءُ الناس وجُهّالهم يَسْوُون فى عامّ المعرفة بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاصّ فلأهل الفضل فيه فَضْلُهم، غيرَ أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على مَنازل ثلاث: حاسدٌ حَجَب الحسدُ بصرَه عن مَواقع الصّواب أن يراه، والنعمةِ أن يشكرها، والحقِّ أن يُؤدّيَه، وكانت معرفتُه عليه وَبالًا، وحسدُه الى الضر (١) به قائدًا. أو ذُو هَوًى قاده الهوى الى البدعة وأخرجتْه الضّلالةُ من الجماعة، فهو عُرْضَةٌ لسُوء الأدب أو سيفِ النَّكال، لم يُوحِش اللهُ أحدًا بفقده، ولم يُعَزِّز أحدا بمُوالاته. وموفَّقٌ (٢) معصوم استنقذه [الله]

(١) فى الأصل: «الغير».
(٢) فى الأصل: موفق معصوم ثم استنقذه بمولاة الخ.

بمُوَالاةِ أمير المؤمنين من غِلّ الحسد وبِدَع الآراء وجبَلَه على صحّة الهوى، فهو إن نظَر فبعينه ينظر، وإن قال فبلسانه يقول، لا يأمَنُ حتى يعلم أنّ أمير المؤمنين قد آستَوْطأ مِهادَ الخَفْض، ولا يزال له طليعةُ رَأْيٍ تُوفِي على خُطّة حَزْم وغامض فِطْنة، تَغَلْغَلُ الى لطيف منفعته و[تكون] سهم مكيدة نحو عروة[(١)]، قد علِم أنّ يومَ أمير المؤمنين يومُه، وأن غده غدُه، فهو وإن تعرّض لأداء الحقّ فى نصيحته ينظر لنفسه نظَرَ من لا يأمُل السلامةَ إلا بسلامته، ولا البقاءَ إلا ببقائه. وقد رجوتُ بالقرابة التى جعلها الله لى به، والواجبِ الذى عرَفتُه من حقّه، والعظيمِ الذى حمَلتُه من معروفه، ألّا يكونَ أحدٌ ينظر اليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهلَه منّى، فإن أبلُغ الذى أردتُ فبتوفيق الله، وإن أقصّر فعَنْ مثل ما حاولتُ قصَّر المجتهدُ .

فأوّلُ ما أنا ذاكِرُه من فضله: أنّ الله قدّم له الصُّنْعَ فى سابِق علمه، فجعل مَحْتِدَه خيرَ المحاتد عُنصرًا، ثم آختار له أبًا فأبًا لا ينقله من أبٍ الى أبٍ إلا نَقَل معه وإليه فضيلةَ العنصرُ الذى هو منه حتى صَيَّره بعدَ فضائلِ آبائه الى أفضل بَدْنة، فكان خيرَ خَلَفٍ من خير سَلَفٍ، وأفضلَ ولد من أفضل أُبُوّةٍ، وأرضى إمامٍ من أزكى أئمة، ثم آختار له مكارمَ الأخلاق، وألبسه جمالَ الصُّورة، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفةً أبعدَ فى حِلمه من ذُلّ، ولا فى هَيْبته من تجبُّر، ولا فى شِدّته من عُنف، ولا فى لِينه من وَهْن، ولا فى أناته من غَفْلة، ولا فى آقتصاده من بُخْل، ولا فى بَذْله من إضاعة، ولا أرقّ وجهًا عند لِقاء، ولا أحسن بِشْرا عند تحيّة، ولا أغزرَ دمعًا عند مَوعِظة، ولا ألينَ قِيادًا عند تذكير بالله منـــه .

ثم أفضتُ اليه الخلافةُ وفى المــال ما فيه من القِلّة، وفى الناس ما فيهم من الإحراج[(٢)]، فما دَفَع عن مال يُعطيه عن قلّة، ولا قطع عادةَ تَوْسِعَة على رعيته، ثم آستدرّ الحَلْبَ برِفْقه، فكلّما دَرّ له منه شُخْب[(٣)] فوّقه[(٤)] طائفةً من جُنْده حتى سقاهم بعد التفويق رِيًّا، وبعد النَّهَل

(١) فى الأصل: "عورة". (٢) الاحراج: الضيق وفى الأصل. "الاستخراج".
(٣) الشخب (بالضم): ما خرج من تحت يد الحالب عند كل غمزة وعصرة للضرع. (٤) فوقه الشيء: أعطاه إياه قليلا قليلا.

عَلَلا، ثم ساس رعيّته بألين السياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعَاقَبَ، وآمَنَ خائفَها ولو طلب لأدْرَك، ودفَع بالحسنة السيئة ولو كَانَا لقَدَر، فما بَرِحَ صُنْعُ اللهِ له يَفُضّ جُمُوعَ الضّلالة بلاقتال، و يُعِزّ له النّصْرَ بلا مُكَاثَرَة، حتى فرغ بشُغْله من كان لايَفْرُغُ من الوزراء، ونام بسهره من كان لا ينام من العامّة، وآطمأنّتْ بما آته[1] للأسفار دارُ من كان لا يَنالُ الخَفْض من الجنود حتى آسْتَوْطَئُوا مَرْكَبَ الأمْن فكلّهم ضَنِينٌ بمفارقته. أما ذُو النيّة فرَكَن الى النّقْض. وأما من لا يبدله فقعل ما كان يُؤْخَذ به من الاستكراه. وأما الحَشْر من الجند والرَّعَاع فغلبت عليهم عادةُ الهُوَيْنا، حتى لو رأيناه يجذبُه الأمرُ فما يَجِد له الأمرُ غَناءً عنده ولا نشاطا ولا حدا إن وكلَه الى قوّته، وقوّاه بماله[2] .

فلما رأى ما رأى من تَخَاذُلِ العامّة ، وتواكُلِ الجنود، ونُزُورِ الفيء، وجُمُودِ الحَلْب، وآستكلابِ العمّال على الخيانة ، وجُرْأة الرعيّة على منع الحق، ومال الفراغُ بكثيرٍ من الناس عن القَصْد ، فتحرّكت الأهواءُ ، وآستَعَرتْ نيرانُ العصبيّة ، وجاشَتْ صدورُ الحَسَدة وأشياعِهم بالأمانى، وظنّوا أن لا شدّةَ معه، وأنّ عفوَه لا نكيرَ بعده، وأميرُ المؤمنين يرمُقُهم بعينٍ بصيرةٍ، وأذُنٍ مُصيخة، وقلبٍ يَقْظان ، وقد وَقُر الحِلْمُ أن يَخِفّ لأوّل بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمُدْبِر أن يُقبل، و بالمائد أن يَعْتَدِل، و بالمغلوب على رأيه أن يتذكّر فُيبصِر، شمّر فى إثْرهم تشميرَ من قدّم الرّويّةَ قبل العجَلَة، والعفوَ قبل العقوبة، والتثبّتَ قبل الإقدام، فاتّخذ روابطَ أنتجها على الجَلَد والنّشاط ، ليست لهم سوابقُ تدعوهم الى الإدلال ، وتسمو بهم الى كثير لم ينالوه ، إنما همُّهم أن يتفاضلوا فى النجدة، و يستوْجبوا بالغَناء، ثم فرّقهم على خَوَاصّ خَدَمه، فإذا أراد أن يتناولَ بهم فرصةً ممكنةً، أو عَدوًّا غاط[3]، أو راتِقَ فَتْقٍ قبل الساعة، يغمس يديه الى أيّهم أراده، فينفُذُ لامره ولم يَشْركه فيه مُشير، ولم يخرج به توقيع ، ولم يخصّ فيه عامّة، ولم يُطْلَعْ منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جُنْدا

(١) فى الأصل : « بمفا آته » . (٢) فى الأصل : « إن وكله إلى قوته ولا نشاطا ولا حدا وقواه بماله » . (٣) غاط : دخل .

أسرع نهضةً اذا مُروا ، وأحسن إجابةً اذا دُعوا ، وأفضلَ غَناء اذا آستكفوا مِنْ جُنده. ثم قَصَدَ بنفســه حتى مَثل بين النواحى الى اهمّها له فَسادًا فى البَيْضَــة ، وآنتقاصًا من الأطراف ، فأتى ناحيةَ الشام فَوطئها وَطْأةً جمع الله بها لهم شَتاتَ الفُرقة ، وأخْمَد بها بينهم نار الفتنة .

وأما الجَزيرةُ فإنه ألفاها وهى كالجُرْح النَّغِل ، فاستأصل اللهُ به منها شَأفَةَ الداء ، وأطفأ به عنهـا بَوادرَ الســفهاء ، وخُبِّرَ أميرُ المؤمنـين من منزله الذى هو به منزلا جمع من بَسْطَته فى الموضع ، ورَفَاهيته فى المعاش ، أنه حاملٌ للجنود ، جامعٌ للمَرافق ، فباشر أمْرَه أمْرًا أمْرًا ، حتى اذا آستُدْبِرله منها مُبْرَمٌ ، آستُقْبِل بعــده جُسَامٌ مُنتَقِضٌ ؛ واذا أثخن من ثغوره ثغرًا لم يَرْضَ حتى يفتتحَ من حصون أعدائه حصـنا ، واذا قضى اللهُ عنه حِجَّةً ، وصل خَطْوه منهــا غزًا ؛ ثم رأينا ما عزَم اللهُ به عليه من تَرْك الصَّوائف(١) مُراقبًا للذى كان من غُمُوط أهل الشام لمـا كانوا فيــه من النِّعمة ، فلم نَتَشكَّك فى أنه توفيــقٌ من الله له وافَقَ سُخْطًا عليهم حتى آستباحوا الحُرَم ، وتَسافكوا الدماءَ ، ونقَضُوا ما بينهم من مُبْرَم حَبْلِ الإسلام .

ومن ذلك أن أرْمِينِيَةَ كانت فيها جنودُ تُخْرَجُ عليهم أطماعٌ تحمل اليها ، بعــد آعترافهم بإخراجهم الأموال من كُوَر الشام ، فلما رأى ذلك فعلَ كذا وكذا ، فلم يتوكَّل على الله فى أمرٍ فوكَلَه الى نفســه ، ولم يكْتَفِ به فى حفظ طَرَف أو قاصِيَة ثغرٍ إلا كَفاه مؤونتَه ، وعَلِمَ أن ما يدخل مُمَن أضعاف العافية من عَوارض العِلَل ، إنمـا هو بتقدير من الله لا يَمْتنع بعذر ، ولا يُستطاع دفعُه بحيلة ، يصيبُ فيه أقوامًا بالبلايا والتمحيص ، ويَقْسِم فيه لأقوامٍ الأجرَ والجهادَ والسعادةَ ، فرأى أن فى عاجل ما يَرْفع عن أهـل أرْمِينِيَة من ضرر مؤونتهم وغَمْطِهم نفعًا للرعية ، وإجمالًا للفَىْء ، ورِفقًا بالعامّة مع آقتصاده فى الأبواب على أكْتاف سحِيَتها ، وفى سائر أرمينية على المُقَاتِلة من أهلها ، ولم يَزَل منذ أراه اللهُ ذلك ، يكفيه مؤونةَ ذلك الثغر ، ويَكُفُّ عنه بَوائقَه ، حتى كأنه فى هُدُوء الأحداث عنه ، وسُكُون الأفئدة من

(١) الصوائف : جمع صائفة وهى الغزوة فى الصيف .

رَوْعاته مِصْرٌ من الأمصار، واسِطُ المحَلّة مَأمُون النّائِرة . فلما آغتنم خاقانُ ما آغتنم ، وآنتهز الفرصةَ مُبادِرًا ، لِما قد ايقن من معالجة المؤمنين إيّاه ، فكأنه حين بلغه ذلك من إعظامه إياه بسببه له ،وما أنْصَب فيه من بَدَنه ، وأسْهر فيه من ليله ، وأنْصَب فيه من نهاره ،لم يعلم الذى يكون من آشتباهه فى الأزمنة الماضية قَبْلَه ، وأنه بذلك لجِدُّ عالم؛ غير أن حَمِيّته للإسلام وشفقته عليه وآمتعاضه من أن يُتَناول شئٌ من أطرافه ، قد زاد ذلك عنده قَدْرا فى العِظَم ، وتفاقُمًا فى الخَطْب ، حتى أكمل البَعْثَ بأكثر العدد ، وأكمل العُدّة ، وآستقلّ أهل الكُوَر والأمصار ، وندَب له من أهل بيته مَنْ لم يَتْرك بعده نهايةً فى التّخيُّر ، وكان قد صرَف باَله الى هذين الثّغرَيْن من الخزَر والروم ، والى هذين العدوّيْن المحاربيْن له من المارِقَة المتعصِّبَة .

فلما بَلغ اللهُ فى إحكام أمْرِهما ما بلغ ، لم يَسْتَغْن عن إعادة النظرِ فى أمر غيرِهما من نواحيه ليَسْتَبْرِئَ به ،و إرادته فى أقوامٍ يُدَافع ظنونَهم به فى أخرى ، وعلِم غيرَهُما أنّ ماشَمِلَ مَنْ بمدينة السلام من الأَمْن والفَرَاغ نتيجةٌ مكروهةٌ ، فشَخَص عنها لتحقيق ذلك مُؤثِرًا لأبْغَض وَطَنيْه على أحبهما وأخْشَن عَيْشَيْه على ألْيَنهما ، فلما ظهرتْ له العَوْرَةُ أقدمَ إقدامَ ذى الحُجّة ، فلم يرِ مثلها نارًا خَبَتْ ، وسحابةً أقشعت ، لم يَسْفك بها دمَ آمرِئٍ مُسْلِم صَبْرًا ، ولم يَنْتَهِك فيها حُرْمة مُحَرّم إباحةً .

وذلك أنه بَسَط يَدَه بَسْطَ من يُريد الآستصلاحَ لا من يريد الآنتقامَ ، فلمْ يلبث الظالعُ أن رَجَع عن ظَلْعه ، والناطِقُ أن صَمَتَ عن بِدْعَته ، والناكِثُ أنْ رجع الى قَصْده ، وآزداد البرىء على البراءة فرحا ، والسالم بالسلامة آغتباطًا ، ولم تَرَ مثلَه فيما أفضى اللهُ به اليه من خلافته ، وحَمّله من أمور عباده ، أما لَيْلُه بمُنَاجاة ربِّه فيها وآستعانته إيّاه عليها فساهر؛ وأما نَهارُه فى حَلْب فَيْئِها و إحكام أمورها فتَعِبٌ ؛ وأما صدَقاته على فقرائها وأهلِ الحاجة لجارِيَةٌ؛ وأما مَجْلِسُه من فُقهائها وصُلحائها فَغاصٌ؛ وأما غِلْظَته على ظالمها فمَتِيدة؛ وأما أفضالُه لمظلومها فَمبسُوطةٌ ؛ ولئن كان الحقُّ ألزَمَ أقواماً آستوجبوا فى أنْفُسهم وأموالهم،

إنا لنعلم أن ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطأة على أقوام لحمّل الواحد منهم مثل الذى حمّله للجميع ، ولكنه رضى بالعفو، وسخا نفسًا عن الاستقصاء، فأوجب أن يبسط يدًا بغلظة ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظره فى هذه البقايا التى هى فىءُ المسلمين ومالُ الله ، غير أن الله جعله قيّمه فيه ، وفى أخذه وصرفه فى وجوهه ؛ فلما رأى ضَراوة(١) العمّال بها ومصانعتهم دونها ، وأن قد صارت كالسُّنّة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورّعًا ، ولا شريفهم تنزّهًا ، أحبّ مع توفيره للمسلمين فيئهم ، أن يحدث لهم أدبًا يقطع به عنهم أهل الضراوة ، ويعرف به ذوو الاستخفاف بالأمانة ، والأمر للتبعة ، أن(٢) عليهم من تفقّده وأدبه عينًا ترمق ، ويدًا تقبض ، ولو أنه حين هم بأخذ تلك البقايا حمل على الموسر بقدر يساره ، وأخذ المعسر بطاعته ، كان قد أنصف ، كلّا ! ولكنه أحبّ أن يستبق قوة ، ولا يبلغ من المكثر جهدًا ، واقتصر بهم على العشر من ذلك ، كرمًا فى القدرة حين رأى موضع الرفق ، وتجافى عن العلّة حين عرف مكان الغدر ، فأى نعمة أعظم ، وأى بلاء أحسن من هذه البقايا ! كانت فى أيديهم جمامًا ، فلما اطّلع طلعها ، وأخذ ما أخذ ، وترك ما ترك ، محلّلًا مع ما جعل الله فى ذلك من [كلمات(٣)] المقصر من العمال المؤدية التى لم تكن تعدو أفواههم ، فليس منهم أحدٌ إلا وكان منه له واعظ ألا يكسر شيئًا من الخراج تضييعًا ، أو يأخذه غلولًا(٤) أو ينفقه إسرافًا ، أو يتركه إرهابًا .

فلما تفرغ من علاج الداء المخوف واستأصله ، ومن الفىء المتفرق بجمعه ، ومن الأمور المعطّلة فأحكمها ، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ ، ولا لين عن تشدد ، ولا يستحل الأكف عن نقض ما أبرم ، ولا مزاولة ما أحكم ، ولا فتح ما أغلق ، ولا إغلاق ما فتح ، فلان خيرة أبويه ، ومخ بيضته ، وجوهر أرومته ، الفائت سبقًا ، البين عدوًا ، الراسخ عرقًا ، المنفجر بحرًا ، المحمود أمرًا ، القائل فصلًا ،

---

(١) الضراوة : اللهج بالشىء والإغراء به . (٢) فى الأصل : «لم» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وضعنا هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق ، ومكانها فى الأصل بياض . (٤) الغلول : الطعام أو الشراب الذى يدخل فى الجوف .

الحاكم عَدْلا، ثم انصرف بما أفاده الله من الأجر الى جَنَاحه الذى كان مدّه على من خَلَف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سليلة صُلْبه، وثمرة قلبه، المُحْتَنك مع فَتاء سِنّه عَقْلا، والمأمون مع شِدّة شكيمته حَمْلا، والمحصد مع لينه وتعطفه أمْرا، الشبيه بأمير المؤمنين إن نَطَق نُطْقا، وإن نَظَر لَحْظا، وإن سُئِل جُودا، وإن اهتصر عُودا، وإن ساس رِفْقا، وإن غَضِب حِلْما، وإن وَصَف عِلْما، وإن كُلِّم فَهْما، وإن قدر عَفْوا، وإن لَقِيَ بِشْرا، وإن نازع فَلْجا، وإن قارع ظَفَرا، فكان عند ظنّه به، رِعايةً لحُرْمة، وحَزْما فى المكيدة، وحَلْبا للفيء، وحِياطةً للغائب، ومباشرةً للشاهد، هذا قليلٌ من كثير. مما جعلك الله أهلَه، وإنما اقتصرتُ عليه لأنى رأيتُ المتكلّمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببتُ أن يعلَم أميرُ المؤمنين أن له فى كلّ أمرٍ عمِل به فى رعيته حجّةً واضحة، وعذرًا معروفا، إن قام به متكلّمٌ فى خاصّة حَسُن مَوْقِعه، وإن قُرِئ به كتابٌ فى عامّة، قوِيت به حجّتُه.

والحمدُ لله الذى جعله وذرّيّته أولياءَ هذه النِّعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُبْقِيَه وإيّاهم للدِّين الذى سدّ بهم عَوْرته، والحقِّ الذى أقرّ بهم جادّته، والعدلِ الذى أوضح بهم أعلامَه، حتى يكونوا وَرَثَةَ هذه الأمة وخلفاءَها فى غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلّين بالعدل، موفَّقين للسّداد، معصومين من الشُّبهات، مُستوجِبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المَعاد. والسلام[1].

(١) هذه الرسالة ورسالة أبى الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.

كتب الرشـــيد

١ — كتاب عهـد البيعـة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتابٌ لعبـد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمدُ بن هارون أمير المؤمنين فى صحّةٍ من عقـله ، وجوازٍ من أمره ، طائعًا غير مُكْرَه ؛ إن أميرَ المؤمنـين ولّانى العهدَ من بعـده ، وصيّر البيعـةَ لى فى رقاب المسـلمين جميعا ، وولّى عبـدَ الله بن هارون أمير المؤمنين العهدَ والخلافةَ ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضًا منّى وتسليم ، طائعًا غير مُكْرَه . وولّاه خُراسانَ وثغورَها ، وكُوَرَها وحَرْبَها ، وجندَها وخَراجَها ، وطِرازَها وبَرِيدَها ، وبيوتَ أموالها وصَدَقاتها ، وعُشْرَها وعُشُورها ، وجميعَ أعمالها فى حياته وبعده ؛ وشَرَطْتُ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطيب نفس ، أنّ لأخى عبد الله بن هارون علىَّ الوفاءَ بما عقَدَ له هارونُ أميرُ المؤمنين : من العَهْد والوِلاية والخلافة ، وأمورِ المسلمين جميعا بعدى ، وتسليمِ ذلك له وما جُعِل له من ولاية خُراسان وأعمالِها كلِّها ، وما أقطعه أميرُ المؤمنين من قَطِيعة ، أو جعَل له من عُقْـدَةٍ أو ضَيْعَةٍ من ضِيَاعه ، أو ابتاع من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحّتـه من مال ، أو حُلِىٍّ أو جَوْهر ، أو مَتَاعٍ أو كُسْوةٍ ، أو متزلٍ أو دَوابَّ ، أو قليلٍ أو كثير ؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، مُوَفَّرًا عليه مسلَّما له . وقد عَرَفْتُ ذلك كلّه شيئا شيئا ، فإن حَدَث بأمير المؤمنين حَدَثُ الموت ، وأفضت الخـلافة الى محمـد ابن أمير المؤمنين ، فعلى محمـد إنفاذُ ما أمَره به هارون أمير المؤمنين ، فى تَوْلِيَة عبـد الله بن هارون أمير المؤمنين خُرَاسانَ وثغورَها ، ومن ضُمَّ اليـه من أهـل بيت أمير المؤمنين بقَرْمَاسِين[2] ، وأن يُمْضِى عبدُ الله ابن أمير المؤمنين الى خراسان والرَّىّ ، والكُوَر

(١) هذا العهد ورد فى تاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة ليدن) وفيـه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا عن الطبرى .

(٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التى سمّاها أميرُ المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع من ضَمّ اليه أمير المؤمنين حيث أحبّ من لَدُن الرَّىّ الى أقصى عمل خُراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوِّل عنه قائدًا ولا مَقُودًا ولا رجلا واحدًا ممن ضُمّ اليه من أصحابه الذين ضمّهم اليه أميرُ المؤمنين؛ ولا يحوّل عبدَ الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين: من ثغور خُراسان وأعمالها كلّها، ما بين عمل الرَّىّ مما يلى هَمَذان الى أقصى خراسان، وثغورها وبلادها، وما هو منسوب اليها ولا تَخُصّه اليه؛ ولا يفرق أحدًا من أصحابه وقوّاده عنه، ولا يُوَلّى عليه أحدًا، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عمّاله وَوُلاةِ أموره بُنْدارًا[1] ولا محاسبًا ولا عاملا، ولا يُدْخل عليه فى صغيرٍ من أمره ولا كبيرٍ ضررًا، ولا يَحُول بينه وبين العمل فى ذلك كلّه برأيه وتدبيره، ولا يَعرِض لأحد ممن ضَمّ اليه أميرُ المؤمنين من أهل بيته وصَحَابته، وقُضَاته وعُمّاله، وكُتّابه وقوّاده، وخَدَمه ومَوَاليه وجنده، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم، ولا قَرَاباتهم ولا مَوَاليهم، ولا أحد يَتَنَسّل منهم؛ ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم، ولا فى ضِياعهم ودُورِهم، ورِباعهم وأمتعتهم، ورَقِيقهم ودوابّهم، شيئا من ذلك صغيرًا ولا كبيرًا؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له فى ذلك، وإدهان منه فيه لأحد من وَلَد آدم، ولا يحكمُ فى أمرهم، ولا أحدٌ من قُضَاته ومن عمّاله، وممّن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قُضَاته؛ وإن نَزَع اليه أحدٌ ممّن ضَمّ أميرُ المؤمنين الى عبد الله ابن أمير المؤمنين، من أهل بيت أمير المؤمنين وصَحَابته، وقُوّاده وعمّاله وكتّابه وخَدَمه، ومواليه وجنده، ورفَضَ اسمَه ومَكْتَبَه ومكانَه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين، عاصيا له، أو مخالفا عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رَدُّه الى عبد الله ابن أمير المؤمنين، بصغَرٍ له وقَمَاء[2]، حتى يُنَفِّذَ فيه رأيَه وأمرَه؛ فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خَلْعَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بَعْده، أو عَزْلَ عبد الله ابن أمير المؤمنين

(١) البندار: الحافظ. (٢) القماء: الذل والخضوع.

عن ولاية خراسان ، وثغورها وأعمالها ، والذى مِن حَدّ عملها مما يَلِى همذان ، والكُوَر التى سمّاها أميرُ المؤمنيـن فى كتابه هـذا ، أو صَرْف أحدٍ من قواده الذين ضمّهـم أميرُ المؤمنين اليه ، ممن قَدِم قَرْمَاسِين ، أو أن يَنْتَقِصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلةٍ من الحِيَـل ، صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ ، فَلِعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المُقَدَّم على محمد آبن أمير المؤمنين ، وهو ولِىُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطَّاعةُ من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العَطَاء ، وجميع المسلمين فى جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيامُ معه ، والمُجَاهدةُ لمن خالفه ، والنَّصرُ له والذَّبُّ عنه ، ما كانت الحيـاةُ فى أبدانهم ، وليس لأحدٍ منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يَعْصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمدَ آبن أمير المؤمنين فى خَلْع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصَرْف العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا ممـا جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، فى حيـاته وصحّته ، وآشـترط فى كتابه الذى كَتَبه عليه فى البيت الحرام ، وفى هـذا الكتاب ، وعبدُ الله آبن أمير المؤمنين المصدَّق فى قوله ، وأنتم فى حِلّ من البَيْعة التى فى أعناقكم لمحمد آبن أمير المؤمنين هارون ، إن نَقَصَ شيئا مما جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقادَ لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويُسَـلِم له الخلافةَ ؛ وليس لمحمد آبن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله آبن أمير المؤمنين ، أن يَخْلَعا القاسمَ آبن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدّما عليه أحدًا من أولادهما وقَرَاباتهما ، ولا غيرهم من جميع البريّة ؛ فإذا أفضت الخلافةُ إلى عبد الله آبن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه فى إمضـاء ما جعلهَ أميرُ المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرْف ذلك عنـه إلى مَنْ رَأَى بن ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقـدّم قبلَه ، وتَصْيير القاسم بن أمير المؤمنين بعـد من يقدّم قبـله ، يحكم فى ذلك بمـا أحبَّ ورَأَى ؛ فعليكم مَعْشَرَ المسلمين إنفاذُ ما كتَب به أميرُ المؤمنين فى كتابه هذا ، وشَرَط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمعُ والطاعةُ لأمير المؤمنيـن فيما ألزمكم وأوجَبَ عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهدُ الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين ، والعهودَ والمواثيق التى أخذ اللهُ على الملائكة المُقرَّبين والنبيِّين والمرسلين ، ووكَّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بَنِى أمير المؤمنين بما سمّى ، وكتَب فى كتابه هذا واشترط عليكم ، وأقررتم به على أنفسكم ؛ فإن أنتم بدلتم من ذلك شيئا ، أو غيرتم أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أميرُ المؤمنين ، واشترط عليكم فى كتابه هذا ، فبرئتْ منكم ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صَدَقَةٌ على المساكين ، وعلى كلّ رجل منكم المَشْىُ الى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حجّة ، نَذْرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلّا الوفاءَ بذلك ، وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يُسْتَقبَل الى خمسين سنة حُرّ ، وكلّ امرأة له فهى طالق ثلاثا البتّة ، طلاق الحرَج لا مَثْنَوِيّة فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراعٍ ، وكفى بالله حسيبا .

٢ — نسخةُ الشرط الذى كتَب عبدُ الله بن أمير المؤمنين بخطّ يده فى الكعبة

هـذا كتابٌ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتَبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى صحّةٍ من عقله ، وجَوازٍ من أمره ، وصِدْق نية فيما كتب فى كتابه هـذا ، ومعرفةٍ بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعةِ المسلمين .

إنّ أمير المؤمنين هارون ولّانى العهدَ والخلافة ، وجميعَ أمور المسلمين فى سلطانه ، بعـد أخى محمد بن هارون ، وولّانى فى حياته ثغورَ خُراسان وكُوَرها وجميعَ أعمالها ، وشَرط على محمد بن هارون الوفاءَ بما عَقد لى من الخلافة ، وولايةِ أمور العباد والبلاد بعده ، وولايةِ خراسان وجميع أعمالها ، ولا يَعْرِض لى فى شىء مما أقطَعنى أميرُ المؤمنين ، وابتاع لى من الضِّياع والعُقَد والرِّباع ، وابتعتُ منه من ذلك ، وما أعطانى أميرُالمؤمنين من الأموال والجوهر والكِساء ، والمتاع والدوابّ ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يَعرِض لى ولا لأحد من

عمّالى وكُتّابى بسبب محاسبة، ولا يتّبع لى فى ذلك، ولا لأحدٍ منهم أبدا، ولا يُدْخل علىّ ولا عليهـم، ولا على من كان معى، ومن آستعنتُ به من جميع الناس مكروهًا فى نفس ولا دَمٍ ولا شَعرٍ ولا بَشَرٍ ولا مال، ولا صغيرٍ من الأمور ولا كبير، فأجابه الى ذلك وأقرّ به، وكتب له كتابا أكّد فيه على نفســه، ورضى به أميرُ المؤمنين هارون، وقَبِله وعَرَف صدقَ نيّته فيه؛ فشَرَطتُ لأمير المؤمنين، وجعلتُ له على نفسى أن أسمع لمحمد، وأُطيع ولا أعصِـيه؛ وأنصحه ولا أغشّـه، وأُوفى ببيعته وولايته، ولا أغدر ولا أنكُث، وأُنفّذ كُتُبه وأموره، وأُحسِن مُؤازرته وجِهادَ عدوّه فى ناحيتى؛ ما وفّى لى بمـا شَرَط لأمير المؤمنين فى أمرى، وسمّى فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين، ورضى به أمير المؤمنين، ولم يتّبعنى بشىء من ذلك، ولم يَنقُض أمرًا من الأمور التى شرَطها أمير المؤمنين لى عليه؛ فإن آحتاج محمد آبنُ أمير المؤمنين إلى جُندٍ، وكتب إلىّ يأمرنى بإشخاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النّواحى، أو إلى عدوّ من أعدائه خالفه، أو أراد نقص شىء من سلطانه أو سـلطانى الذى أسْنَده أميرُ المؤمنين إلينا، وولّانا إياه، فعلىّ أن أُنفّذ أمره، ولا أخالفه ولا أُقصّر فى شىء كتب به إلىّ؛ وإن أراد محمد أن يولّى رجلا من ولده العهدَ والخلافَة من بعدى، فذلك له ما وفّى لى بما جعله أميرُ المؤمنين إلىّ، وآشترطه لى عليه، وشرَط على نفسه فى أمرى؛ وعلىّ إنفاذُ ذلك والوفاءُ له به لا أنقُص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله ولا أقدّم قبْلَه أحدًا من ولدى ولا قريبا ولا بعيدا من النـاس أجمعين؛ إلا أن يولّى أميرُ المؤمنين هارونُ أحدًا من ولده العهدَ من بعدى، فيُلزِمنى ومحمدًا الوفاءَ له، وجعلتُ لأمير المؤمنين ومحمـد علىّ الوفاءَ بمـا شرطتُ وسمّيت فى كتابى هـذا، ما وفّى لى محمـد بجميع ما اشترط لى أميرُ المؤمنين عليـه فى نفسى، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من جميع الأشياء المُسمّاة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى؛ وعلىّ عهـدُ الله وميثاقه، وذمّةُ أمير المؤمنـين وذمّتى، وذمم آبائى وذمم المؤمنين؛ وأشـدُّ ما أخذ اللهُ على النبيّين والمرسلين من خَلْقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمانُ المؤكّدة التى أمر الله بالوفاء بهـا، ونهى عن نقضها وتبـديلها؛ فإن أنا نقَضتُ شيئا ممـا شرطت

وسمّيت فى كتابى هذا، أو غيّرت أو بدّلت أو نكثتُ أو غدرت، فبرئتُ من الله عزّ وجلّ، ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيتُ الله يوم القيامة كافرا مشركا؛ وكلّ امرأة هى لى اليومَ، أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتّة، طلاقَ الحَرَج؛ وكلّ مملوك هو لى اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلىّ المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكّة ثلاثين حجّة، نذرا واجبا علىّ فى عُنُق، حافيًا راجلا لا يقبلُ الله منّى إلّا الوفاء بذلك؛ وكلّ مال لى أو أملكه إلى ثلاثين سنة هَدْىٌ بالغُ الكعبة، وكلّ ما جعَلتُ لأمير المؤمنين، وشرطتُ فى كتابى هذا لازمٌ لى، لا أُضمِر غيرَه، ولا أنوى غيرَه. وشهِد سليمانُ بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان. وكُتِبَ فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

٣ — نسخة كتاب الرشيد الى العمّال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإنّ الله وَلِىُّ أمير المؤمنين وولىّ ماولّاه، والحافظ لما آسترعاه، وأكرمَه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأخّر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد فى مشارق الأرض ومغاربها، والكالئ والحافظ والكافى من جميع خَلْقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسئول تمامَ حُسْن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهامَ ما يَرضى به ويُوجب له عليه أحسنَ المزيد من فضله؛ وقد كان من نعمة الله عزّ وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عَوام المسلمين ما تولّى اللهُ من محمد وعبد الله آبنىْ أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسنَ ما أمّلت الأمةُ ومدّت اليه أعناقها، وقذَف اللهُ لهما فى قلوب العامّة من المحبّة والمودّة والسكون اليهما والثقة بهما لعِماد دينهم وقِوام أمورهم وجَمْع أُلفتهم وصلاح دَهْمائهم ودَفْع المحذور والمكروه من الشّتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزِمّتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصفقات أيْمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلَّظة عليهم؛ أراده اللهُ فلم يكن له مردٌّ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صَرْف له عن محبّته ومشيئته، وما سبق فى علمه منه؛ وأميرُ المؤمنين يرجو تمامَ النعمة

عليه وعليهما فى ذلك ،وعلى الأمة كافّة لاعاقِبَ لأمر الله ولارادَّ لقضائه ولا معقِّبَ لحكمه ؛ ولم يزل أميرُ المؤمنين منذ آجتمعت الأُمّةُ على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعـد أمير المؤمنين ، ولعبد الله آبن أمير المؤمنين من بعد محمد آبن أمير المؤمنين يُعْمِل فكرَه ورأيَه ونظره ورويّته ، فيما فيه الصلاحُ لهما ولجميع الرعيّة ، والجمعُ للكلمة ، واللّم للشّعث ، والدّفعُ للشّتات والفرقة ، والحسمُ لكَيْد أعداء النّعم من أهل الكفر والنّفاق ، والغِـلّ والشّقاق ، والقطع لآمالهم من كلّ فرصة يرجون إدراكها وآنتهازَها منهما بانتقاص حقّهما ، ويَسْتَخير الله أميرُ المؤمنين فى ذلك ويسأله العزيمةَ له على مافيه الخِيرَة لهما ،ولجميع الأمة والقوّة فى أمر الله وحقّــه وآئتلاف أهوائهما ، وصـلاح ذات بينهما ، وتحصينهما من كيد أعداء النّعم ، وردّ حَسَدهم ومكرهم وبَغيهم وسعيهم بالفساد بينهما ، فعزَم اللهُ لأمير المؤمنين على الشُّخُوص بهما الى بيت الله وأخذ البيعـة منهما لأمير المؤمنــين بالسّمع والطّاعة والإنفـاذ لأمره ، وآكتتاب الشّرْط على كلّ واحد منهما لأمير المؤ منين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود ، وأغْلَظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما آلتمس به أمير المؤمنين آجتماع ألفتهما ومودّتهما وتَواصُلهما ومُؤَازرتهما ومكانفتهما على حسن النظر لأنفسهما ، ولرعيّــة أمير المؤمنين التى آسترعاهما ، والجماعة لدين الله عزّ وجل وكتابه وسُنَن نبيّه صلّى الله عليه وسـلم ، والجهاد لعدوّ المسلمين مَن كانوا وحيث كانوا وقَطْع طَمَع كلّ عدوّ مُظْهِر للعداوة ومُسِرّ لهـا ، وكلّ منافق ومارق ، وأهلِ الأهواء الضّالة المضلّة من فُرْقة تَكِيد بكَيْد توقعه بينهــما ، وبدَحْس يُدْحَس[1] به لها ، وما يلتمس أعداءُ الله وأعداءُ النّعم وأعداءُ دينــه من الضّرب بين الأمّة والسّــعى بالفساد فى الأرض ، والدعاء الى البدع والضلالة ، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيّته ، ولأمّة نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم ، ومناصحةً لله ولجميع المسلمين ، وذَبّا عن سلطان الله الذى قدّره وتوحّد فيه للذى حمّله إيّاه ؛ والاجتهاد فى كلّ ما فيه قُرْبةٌ الى الله ، وما يُنال به رضوانُه والوسيلة عنده .

---

(١) الدحس : الفساد .

فلما قَدِم مكّةَ أظهر لمحمد وعبد الله رأيَه فى ذلك وما نَظَر فيه لهما، فقَبِلا كلَّ مادعاهما اليه من التوكيد على أنفسهما بقَبوله، وكَتَبا لأمير المؤمنين فى بَطْن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما بمَحْضر ممن شَهِد المَوْسِمَ من أهل بيت أمير المؤمنين وقوّاده، وصحَابته وقُضَاته، وحَجَبة الكعبة وشهاداتهم عليهما، كتابَيْن آستودعهما أميرُ المؤمنين الحَجَبَةَ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة؛ فلمـا فرَغ أميرُ المؤمنين من ذلك كلّه فى داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قُضَاتَه الذين شهِدوا عليهما وحضَروا كتابَيهما أن يُعْلِموا جميعَ مَن حضَر الموسم من الحاجّ والعُمّار ووفود الأمصار، ما شهدوا عليه من شَرْطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم، ليُفَهِّموه ويَعُوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدّوه الى إخوانهم وأهلِ بلدانهم وأمْصارهم، ففعلوا ذلك، وقُرِئ عليهم الشرطان جميعا فى المسـجد الحرام؛ فانصرفوا وقد آشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشَّهادة عليـه، وعرَفوا نَظَرَ أمير المؤمنين وعنايتَه بصلاحهم، وحَقْن دمائهم ولَمّ شَعَثهم، وإطْفَاء جَمْرة أعداء الله وأعداء دينـه وكتابه وجمـاعة المسلمين عنهـم، وأظهروا الدُّعاء لأمير المؤمنين والشكرَ لمـا كان منه فى ذلك، وقد نَسَخ لك أميرُ المؤمنين ذَيْنِـكَ الشرطَيْنِ اللذين كتبهما لأمير المؤمنين آبناه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسـفل كتابه هـذا؛ فاحمَد الله عزّ وجل على ما صنع لمحمد وعبـد الله وليَّىْ عهد المسلمين حَمْدا كثيرا، وآشكره ببلائه عنـد أمير المؤمنين وعند وليّىْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمّة محمد صلى الله عليه وسـلم كثيرا؛ وآقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَن قِبَلك من المسـلمين وأفهِمْهم إيّاه، وقُمْ به بينهم وأثبته فى الديوان قِبَلك، وقِبَل قوّاد أمير المؤمنين ورعيّته قِبَلك، وآكتُب الى أمير المؤمنين بمـا يكون فى ذلك، إن شـاء الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحَوْلُ والقوّة والطَّوْلُ. كَتَبه اسماعيل بن صَبيح يوم السبت لسـبع ليال بقين من المحرّم سـنة ست وثمانين ومائة.

باب المنظـــوم

صوّرنا لك بالمجلد الأوّل حالة الشعر فى صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ماوعدناك به .

١ – بَشّـار بن بُرْد العُقَيْلِىّ (١)

سأله المهدىُّ لـما دخل عليه فقال له : فيمن تَعْتَدّ يابشّار؟ فقال : أمّا اللّسان والزِّىّ فعَرَبِيّان، وأما الأصل فعَجَمِىّ، كما قلتُ فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونبّئْتُ قـومًا بهـم جِنّـةٌ ٭ يقولون مَنْ ذا وكنتُ العَلَمْ
ألا أيّهـا السـائلى جاهِـدًا ٭ ليعـرفنى أنا أنفُ الكَرَمْ

(١) هو أبو معاذ بشار المرعث بن برد ، أشعر مخضرمى الدولتين ، ورأس الشـعراء المحدثين ، وممهد طريق الاختراع ، والبديع للمتفننين ، وأحد البلغاء المكفوفين . وأصله من فرس طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة ، ووقع ملك أبويه لبنى عقيل بن كعب ، فنشأ بشار فيهم وتربى فى منازلهم ، واختلف الى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشـعر . وكان أكمه مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، متوقد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الدراية ، شديد المجون والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة للوقوع فيه ، متهما بالزندقة شعوبيا ، متعصبا على العرب ، شديد التبرم بالنـاس ، نهاشا لأعراضهم ، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه ، فانه إن لم يصبه فى عرضه أصابه فى ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، وما بلغ الحلم إلا وهو مخشىّ معرّة لسانه .

وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم الى معاطاة البديع ، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذع .

وأنه أوّل من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتق عن المعانى الدقيقة ، والأخيلة اللطيفة ، حتى عدّ شعره برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة .

وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحدّ المألوف عند أهل زمنه ، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون لـما رأوا من سوء أثره فى شبان البصرة .

وقـد نهاه المهدى عن التشبيب ، فكان اذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء ويقول : إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرمه الجائزة ، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورعا ، فهجاهما ، فكان ذلك الى زندقته سبب قتله . توفى سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نمتْ فى الكرام بنى عامرٍ * فروعى وأصْلى قريشُ العجَم
فإنى لأغنى مقام الفتى * وأُصْبى الفتاةَ فما تعتصِم

وكان أبو دُلَامة حاضرًا ، فقال : كلّا ! لوَجْهُك أقبح من ذلك ، وجهى مع وجهك ، فقال بشّار : كلّا ! والله ما رأيتُ رجلا أصدقَ على نفسه وأكذبَ على جليسه منك ، والله إنى لطويلُ القامة ، عظيمُ الهامة ، تامُّ الألواح ، أسْجحُ الخدّين ، ولربّ مُسْتَرْخى المزورين للعين فيه مُرَاد . ثم قال له المهدىّ : من أىّ العجم أصلك ؟ فقال : من أكثرها فى الفُرسان وأشدّها على الأقران ، أهل طَخَارِسْتان ، فقال بعضُ القوم : أولئك الصُّغْد ، فقال : لا ! الصّغد تجّار ، فلم يَرْدُدْ ذلك المهدىّ .

وكان بشار كثيرَ التلوّن فى وَلَائه ، شديدَ التشيُّع والتعصّب للعجم ، مرّةً يقول يفتخر بولائه فى قيْس :

أمِنتُ مَضَرّةَ الفُحشاء إنى * أرى قيْسا تُشَبُّ[1] ولا تُضَارُ
كأن الناس حين تغيبُ عنهم * نباتُ الأرض أخطأه القِطَار
وقد كانت بتَدْمُرَ خيْلُ قيس * فكان لتَدْمُرٍ فيها دَمَار
بحىٍّ من بَنِى عَيْلان شُوسٍ * يسيرُ الموتُ حيث يقال ساروا
وما نلقاهم إلا صَدَرْنا * بِرِىٍّ منهمُ وهم حِرَار

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أصبحتُ مولى ذى الجَلالِ وبعضُهم * مولى العُرَيْب فخُذْ بفضلك فافخَرِ
مولاك أكرمُ من تَميم كلّها * أهلِ الفِعال ومن قُرَيْش المَشْعَر
فارجِع الى مولاك غيرَ مُدَافَع * سبحان مولاك الأجلِّ الأكبر

وقال يفتخر بولاء بنى عُقَيْل :

إنّنى من بنى عقيل بن كَعْب * موضعُ السيف من طُلَى الأعناق

---

(١) تشب : تزداد وترتفع .

وَوُلد بشار أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبّه الأشياءَ بعضها ببعض فى شعره، فيأتى بما لا يقدِر البُصَراء أن يأتوا بمثله؛ فقيل له يوما وقد أنشَد قوله :

كأن مُثارَ النَّقْع فوق رءوسنا ٭ وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبُه

ما قال أحد أحسنَ من هذا التشبيه، فمن أين لك هـذا ولم تَرَ الدنيا قطّ ولا شيئا فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغلَ بما ينظر اليه من الأشياء، فيتوفّر حسُّه وتذكو قريحتُه؛ ثم أنشدهم قوله :

عَمِيتُ جنينا والذكاءُ من العمى ٭ فجئتُ عجيبَ الظنّ للعلم مَوْئِلا
وغَاضَ ضِياءُ العينِ للعلم رافدا ٭ بقلبٍ اذا ما ضَيّع الناسُ حَصّلا
وشعرٍ كَنَوْر الروض لَاءَمْتُ بينه ٭ بقول اذا ما أحْزَنَ الشعرُ أسْهلا

وكان من أشدّ الناس تبرّمًا بالناس . وكان يقول : الحمد لله الذى ذهب ببصرى . فقيل له : ولم يا أبا مُعَاذ؟ قال : لئلا أرى ما أُبْغِض .

قال الأصمعى : بشّارٌ خاتمة الشعراء، والله لولا أن أيامه تأخرتْ لفضّلتُه على كثير منهم .

وقيل لأبى عُبَيْدة : أمَرْوَان أشعر أم بشّار؟ فقال : حكَمَ بشّارٌ لنفسه بالاستظهار، إنه قال ثلاثةَ عشرَ ألف بيْت جيّد، ولا يكون عددُ الجيّد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد، وما أحسبهم بَرّزُوا فى مثلها، ومروان أمدحُ للملوك .

وسئل الأصمعىُّ عن بشار ومروان أيهما أشْعَر؟ فقال : بشار؛ فَسُئل عن السبب لذلك؛ فقال : لأن مروان سلَكَ طريقًا كَثُر من يسلُكه، فلم يَلْحَق بمن تقدّمه وشركه فيه من كان فى عصره، وبشّار سلَك طريقا لم يُسْلَك وأحسنَ فيه وتفرّد به، وهو أكثر تصرّفًا وفنون شعرٍ، وأغزرُ وأوسع بَديعًا، ومروان لم يتجاوز مَذْهَبَ الأوائل .

وقيل لبشّارٍ : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا آستنكرته العرب من ألفاظهم وشُكّ فيه، وإنه ليس فى شعرك ما يُشَكّ فيه؛ قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ وُولِدتُ هَا هُنا، ونشأتُ فى حُجُور ثمانين شيخا من فُصَحاء بنى عُقَيل ما فيهم أحد يعرف كلمةً

من الخطأ، وان دخلتُ الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعتُ فأبديتُ[1] الى أن أدركتُ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟ .

كان جَرير بن المُنذرِ السَّدُوسِىّ يفاخر بشّارا، فقال فيه بشّار :

أمثــل بنى مُضَرٍ وائلٌ * فقــدْتُكَ من فاخرٍ ما أجَنّْ
أفى النوم هــذا أبا منــذرٍ ° فخيراً رأيتَ وخيرا يكُنّْ
رأيتُــك والفخرَ فى مثلها * كعاجنة غير ما تطّحن

كان بشار يهوى آمرأةً من أهل البصرة، فراسلها يسألهــا زيارتَه، فوعَدته بذلك ثم أخلَفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأته أرسل اليها يعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها، فكتب اليها بهذه الأبيات :

يا ليــلتى تزدادُ نُكْرا * من حُبِّ من أحببتُ بِكْرا
حوراء ان نظرتْ اليـ ° ـك سَــقَتْك بالعينين خَمْرا
وكأن رَجْعَ حــديثها * قِطَعُ الرياض كُسِينَ زَهْرا
وكأن تحت لســانها * هاروتَ ينفُث فيــه سِحْرا
وتخــالُ ما جُمِعَتْ عليـ * ـه ثيــابُها ذَهَبــا وعِطْرا
وكأنّهـــا بَــرْدُ الشّرا * ب صَفَا وصادَفَ منك فِطْرا
جنّيـــةٌ إنســـيّةٌ * أو بين ذاك أجلّ أمْرا
وكفاك أنى لم أحِطْ * بشَكاة من أحببتُ خُبْرا
إلا مقــالةَ زائـــرٍ * نثرتْ لى الأحزانَ نَثْرا
متخشّــعا تحتَ الهــوى * عَشْرا وتحتَ الموت عَشْرا

وكان إسحاق الموصلىّ لا يعتدّ بشار ويقول : هو كثير التخليط فى شعره، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

(١) أبديت أى أخرجت الى البادية .

إنما عَظْمُ سُلَيْمى حُبَّتى ٭ قَصَبُ السُّكَّرِ لا عَظْمُ الجَمَل

وإذا أدنيْتَ منها بَصَلًا ٭ غلَبَ المِسْكُ على ريح البصل

لو قال: كلّ شيء جيّد ثم أُضيف إليه هذا لزيّفه. وكان يُقدّم عليه مروانَ ويقول: هو أشدُّ استواءَ شعرٍ منه، وكلامُه ومذهبُه أشبه بكلام العرب ومذاهبها. وكان لا يعدّ أبانُواس البتّةَ ولا يرى فيه خيرا.

قال الجاحظُ: كان بشّار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسَجْع ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع، المتفنّنين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضُروبه. وقال الشعرَ في حياة جرير وتعرّض له، وحكى أنه قال: هجوتُ جريرًا فأعرض عنّي، ولو هاجاني لكنتُ أشعر الناس، وكان يَدين بالرَّجعة، ويكفّر جميعَ الأئمة. ويصوّب رأيَ إبليس في تقديم النار على الطين، وذكَر مثلَ ذلك في شعره فقال:

الأرضُ مُظلِمةٌ والنار مُشْرِقةٌ ٭ والنارُ معبودةٌ مُذْ كانت النارُ

وقال بعضُ الرُّواة لأبي عمرو: مَنْ أبدع الناس بيتا؟ قال الذي يقول:

لم يَطُلْ لَيْلي ولكن لم أَنَمْ ٭ ونَفَى عنّي الكرى طيفٌ أَلَمّ

وإذا قلتُ لها جُودي لنا ٭ خرجتْ بالصَّمْت عن لا ونَعَم

رَوِّحي يا عَبْدَ عنّي وأعلمي ٭ أنني يا عبدُ من لحمٍ ودَمْ

إن في بُرْدَيَّ جسما ناحلا ٭ لو توكأت عليه لانْهَدَم

وهذه الأبياتُ لبشار.

قال: فمن أمدح الناس؟ قال الذي يقول:

لَمَسْتُ بكفّي كفّه أبتغي الغِنَى ٭ ولم أدرِ أن الجُودَ من كفّه يُعْدِي

فلا أنا منه ما أفاد ذَوُو الغنى ٭ أفدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي

وهذه الأبيات لبشار.

ودخل بشّارٌ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصورَ ويُشير عليه برأى يستعمله فى أمره، فلما قُتِل إبراهيم خاف بشار، فقلَب الكُنْيَة وأظهر أنه كان قالها فى أبى مُسْلم، وحذَف منها أبياتا، وأولُها :

أبا جَعْفرٍ ما طولُ عَيْشٍ بدائمٍ ٭ ولا سالِمٌ عمّا قليلٍ بسالِمِ

قلَب هذا البيت فقال : أبا مسلم :

على الملك الجبّار يَقْتَحِم الردى ٭ ويَصْرَعه فى المَأزِق المُتَلاحِمِ
كأنك لم تسمعْ بقتلِ مُتَوَّجٍ ٭ عظيمٍ ولم تسمع بفَتْكِ الأعاجم
تَقَسّم كسرى رهطُه بسيوفهم ٭ وأمسى أبو العباس أحلامَ نائم

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يَخشى انقلابَ مكيدةٍ ٭ عليه ولا جَرْىَ النُّحوس الأشائم
مُقِيمًا على اللذات حتى بدت له ٭ وجُوهُ المنايا حاسراتِ العَمائم
وقد تَرِدُ الأيامُ غُرّا وربما ٭ وَرَدْنَ كُلُوحًا باديات الشَّكائم
ومَرْوانُ قد دارت على رأسه الرَّحا ٭ وكان لِمَا أجْرَمْتَ نَزْرَ الجرائم
فأصبحتَ تجرى سادرا فى طريقهم ٭ ولا تَتّقى أشباهَ تلك النّقائم
تجرّدتَ للإسلام تعفو سبيلَه ٭ وتُعْرِى مَطاه(١) لِلّيوث الضّراغم
فما زلتَ حتى استنصر الدِّينُ أهلَه ٭ عليك فعاذُوا بالسيوف الصّوارم
فرُمْ وَزَرًا يُنْجِيك يابنَ سَلامة ٭ فلستَ بِناجٍ من مَضِيمٍ وضائم

جعل موضع "يابن سلامة" "يابن وشيكة" وهى أم أبى مسلم

لحَا اللهُ قوما رأّسُوك عليهمُ ٭ وما زلتَ مرءوسا خبيثَ المَطاعِم
أقول لِبَسّامٍ عليه جلالةٌ ٭ غدا أرْيَحيًّا عاشقا للمكارم
من الفاطِميِّين الدُّعاة الى الهدى ٭ جِهارا ومن يَهديك مثلُ ابنِ فاطم

(١) مطاه : ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشّار من الأبيات :

سِراجٌ لعينِ المُستضِيء وتارةً * يكون ظلاما للعـدوّ المُزاحِم
اذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستَعِن ° برأى نَصيحٍ أو نصيحةِ حازم
ولا تجعلِ الشُّورى عليك غَضاضةً (١) * فإن الخَـوافى (٢) قوّةٌ للقوادم
وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلّ (٣) أختَها ° وما خيرُ سـيفٍ لم يُؤيَّد بقـائم
وخَلِّ الهُوَيْنا للضعيف ولا تكن * نَؤُوما فإن الحـزمَ ليس بنائم
وحارِبْ اذا لم تُعطَ إلا ظُـلامةً * شَبا (٤) الحربِ خيرٌ من قَبول المظالم
وأدنِ على القُربى المقرَّبَ نفسَه * ولا تُشهِد الشورى امرأً غيرَ كاتم
فإنك لا تَستطرِدُ الهمَّ بالمُـنى * ولا تبـلُغُ العَليـا بغير المـكارم
اذا كنتَ فَردا هرّك القومُ مُقبِلا ° وإن كنتَ أدنى لم تَفُزْ بالعـزائم
وما قَـرَعَ الأقـوامَ مثلُ مُشيَّعٍ (٥) * أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثـلُ عالم

قال أبو عبيدة : ميميّةُ بشّار هذه أحبّ إلى من ميميّتَى جرير والفرزدق . وقال الأصمعى لبشار: يا أبا معاذ، إن الناس يُعجَبون من أبياتك فى المشورة؛ فقال له : يا أبا سَعيد، إن المُشاوِر بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يُشارك فى مكروهه؛ فقال له : أنتَ فى قولك هذا أشعر منك فى شـعرك .

تُوفِّىَ ابنٌ لبشّار فجزع عليه ، فقيل له : أجرٌ قدّمتَه ، وفَرَطٌ افترطتَه ، وذُخرٌ أحرزتَه ؛ فقال : ولدٌ دفنتُه ، وثُكلٌ تعجّلتُه ، وغيبٌ وُعِدتُه فانتظرته ، والله لئن لم أجزع للنَّقص لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

---

(١) الغضاضة : المنقصة . (٢) الخوافى : الريشات الصغيرات التى فى جناح الطائر اذا ضمّها خفيت ، واحدتها خافية ضد القوادم . (٣) الغل بالضم : الحديدة التى تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الجامعة .
(٤) الشبا بالفتح جمع شباة وهى من كل شىء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أجارتَنا لا تجزعى وأنيبى ❊ أتانى من الموت المُطِلّ نَصيبى
بُنَىّ على رغمى وسُخطى رُزِئْتُه ❊ وبُدِّل أحجارا وجالَ(١) قليب
وكان كريحانِ العروس تخالُهُ ❊ ذوى بعد إشراقٍ يَسُرّ وطيب
أصِبتُ به فى حين أورقَ غصنُه ❊ وألقى علىّ الهمّ كلّ قريب
عَجِبتُ لإسراع المنيّة نحوه ❊ وما كان لو مُلّيتُه بعجيب

قيل لبشّار : إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت ؛ قال : وما ذاك؟ قيل : بينما تقول شعرا يُثير النقع وتُخلَع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيّةً ❊ هَتَكْنا حِجابَ الشمس أو تُمطِرَ الدّما
اذا ما أعَرْنا سيّدا من قبيلة ❊ ذُرَى منبرٍ صلّى علينا وسلّما

تقول :

رَبابَةُ رَبّةُ البَيْت ❊ تَصُبّ الخَلّ فى الزّيْت
لها عَشْرُ دَجاجاتٍ ❊ وَدِيكٌ حَسَنُ الصّوت

فقال : لكلّ وجهٌ ، فالقول الأوّل جِدّ ، وهذا قلته فى ربابةَ جاريتى ، وأنا لا آكل البيضَ من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهى تجمع لى البيض ، فهذا عندها أحسن من «قِفَا نَبْكِ» عندك . وسألته جاريةٌ مغنية لبعض ولَد سليمان بن على ، وكانت محسنة بارعة الظَّرْف ، أن يذكرها فى قصيدة ولا يذكر فيها آسمها ولا آسمَ سيدها ويكتب بها اليها ، فانصرف وكتب اليها :

وذاتِ دَلٍّ كأن البدر صورتُها ❊ باتت تغنّى عَميدَ القلبِ سَكْرانا
« إن العيونَ التى فى طَرْفها حَوَرٌ ❊ قَتَلْنَنا ثم لم يُحْيِينَ قتلانا »
فقلتُ أحسنتِ يا سُؤْلى ويا أملى ❊ فأسْمِعِينى جَزاكِ الله إحسانا
« يا حَبّذا جَبَلُ الرّيّان من جبل ❊ وحبّذا ساكِنُ الرّيان مَنْ كانا »
قالت فهلّا فَدَتْكَ النّفس أحسَنُ من ❊ هذا لمن كان صَبَّ القلب حَيْرانا

(١) الجال : حافة القبر ونواحيه .

« يا قوم أُذُنِى لبعض الحىِّ عاشـقةٌ * والأذنُ تعشَقُ قبـل العين أحيانا »
فقلتُ أحسنتِ أنت الشمسُ طالعةً * أضْرَمْتِ فى القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعينِىَ صوتاً مُطْرِبا هزَجاً * يَزِيـد صَـبّاً محبّاً فيـك أشجانا
يا ليتنى كنتُ تُفاحاً مفلّجةً * أو كنتُ من قُضُبِ الريحان ريحانا
حتى إذا وجَـدَتْ ريحى فأعجبها * ونحن فى خَـلْوَةٍ مثلّتُ إنسانا
فحـرّكَتْ عُودَها ثم انثنتْ طَرَبا * تَشْـدُو به ثم لا تُخفيــه كِتْمانا
« أصبحتُ أطوعَ خَلْقِ الله كلّهم * لأكْثَر الخَلْق لى فى الحبّ عِصْيانا »
فقلتُ أطْرَبْتِنَا يازَيْنَ مجلسنا * فهاتِ إنّك بالإحسان أوْلانا
لو كنتُ أعلم أنّ الحب يقتُلُنى * أعددتُ لى قبـل أن ألقاك أكفانا
فغنّت الشَّرْبَ صوتاً مونِقا رَمَلا * يُذْكِى السرور ويُبْكِى العينَ ألوانا
« لا يقتـل اللهُ من دامتْ مودتُه * واللهُ يقتـل أهلَ الغـدر أحيانا »

كان الزُّوّارُ يُسَمَّوْنَ فى قديم الدهر الى أيام خالد بن بَرْمك السُّؤّالَ، فقال خالد : هذا والله اسم أستثقِله لطلّاب الخير، وأرفعُ قدْرَ الكرم عن أن يُسَمَّى به أمثالُ هؤلاء المؤمّنين، لأن فيهم الأشرافَ والأحرار وأبناء النعيم، ومن لعلّه خيرٌ ممّن يقصِد وأفضل أدباً، ولكننا نسمّيهم الزوّار، فقال بشّار يمدحه بذلك :

حَذَا خالد فى فعله حَذْوَ برمك * فمَجْدٌ له مُسْـتَطْرَفٌ وأصيلُ
وكان ذَوُو الآمالِ يُدْعَوْن قبله * بلفظٍ على الإعدام فيه دليـل
يسمَّوْن بالسؤّال فى كل موطنٍ * وإن كان فيهـم نابِهٌ وجليـل
فسمّاهمُ الزوّارَ سَـتْرا عليهـمُ * فأستارُه فى المهتدين سُدُول

وقال بشّار هـذا الشعرَ فى مجلس خالد فى الساعة التى تكلّم خالد بهـذا فى أمر الزوّار، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشّار على عُقْبة بن سَلْم فأنشده بعضَ مدائحه فيه، وعنده عُقْبة بن رُؤْبة ينشده رَجَزا يمدحُه به، فسمِعه بشّار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرَغ، ثم أقبل على بشّار فقال: هذا طِراز لا تُحسِنه أنت يا أبا مُعاذ، فقال بشّار: ألِى يقال هذا! أنا والله أرجَزُ منك ومن أبيك وجدّك، فقال له: عقبةُ أنا وأبى فتَحْنا للناس بابَ الغريب وباب الرّجَز، وإنى لخليقٌ أن أسُدّه عليهم، فقال بشّار: ٱرحمْهم رحِمَك الله، ولمّا كان من غَدٍ غدا على عقبة ٱبن سلم وعنده عقبة بن رؤبة، فأنشده أُرْجُوزته التى مدحه فيها:

يا طَلَلَ الحىِّ بذات الصمْدِ * بالله خبِّرْ كيف كنتَ بعدى
أوحشْت من دَعْدٍ وتِرْب دعد * سَقْيًا لأسماء ٱبنة الأشدّ
قامت تَراءى إذ رأتنى وحدى * كالشمس تحت الزِّبْرِج[1] المنقَدّ
صدَّتْ بخَدّ وجَلَتْ عن خَدّ * ثم انثنتْ كالنَّفس المُرْتَدّ
عَهْدِى بها سَقْيًا له من عَهْد * تُخلِف وعدا وتَفى بوعد
فنحن من جَهْد الهوى فى جهد * وزاهر من سَبِط وجَعْد
أهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهد * أفوافَ نَوْر الحِبَرَ المُجَدّ
يلقى الضّحى ريحانه بسُجْد * بُدِّلتُ من ذاك بُكًى لا يُجدى
وافق حظًّا من سَعَى بجِدّ * ما ضرّ أهلَ النوْك ضَعْفُ الجَدّ
الحُرّ يُلْحَى والعصا للعبد * وليس للمُلحِف مثلُ الرّدّ
والنَّصْفُ يكفيك من التعدّى * وصاحبٍ كالدُّمَّل المُمِدّ
حملتُه فى رقعة من جِلْدى * أرقُبُ منه مثلَ يوم الوِرْد
حتى مضى غيرَ فقيدِ الفَقْد * وما درَى ما رغبتى من زُهد
إسْلَمْ وحُيِّيت أبا المُلِدّ * مفتاح باب الحدث المُنْسَدّ
مُشْتَرَك النَّيْل ورِىّ الزَّنْد * أغرّ لبّاسَ ثياب الحمد

(١) الزبرج: الزينة من وشى أوجوهر.

ما كان منّى لك غيرُ الودّ ❊ ثم ثناءٌ مثلُ ريح الوَرْد
نَسَجتُه فى مُحكَمات النَّدّ ❊ فالبَس طِرازى غيرَ مُستَرَدّ
لله أيامك فى معدّ ❊ وفى بنى قَحْطان غيرَ عدّ
يومًا بذى طِخْفَةَ(١) عند الحدّ ❊ ومثله أودعْتَ أرض الهند
بالمُرهَفات والحديد السَّرْد ❊ والمُقْرَبات(٢) المبعدات الجُرْد
اذا الحيا أكدى بها لا تُكدِى ❊ تَلحُم أمرًا وأمورا تُسْدِى
وابن حكيم إن أتاك يَرْدِى ❊ أصمّ لا يسمع صوتَ الرعد
حَيَّتَه بتحفةِ المُعدّ ❊ فانْهَدّ مثل الجبل المنهدّ
كلّ امرئٍ رَهْنٌ بما يؤدّى ❊ وربَّ ذى تاج كريم الجدّ
كآل كسرى وكآل بُرْد ❊ أنكبَ جافٍ عن سبيل القصد
❊ فَصلْتَه عن ماله والوُلْد ❊

فطرِب عقبةُ بن سلم وأجزَل صِلته، وقام عقبةُ بن رؤبة فخرج عن المجلس يخزِى وهرب من تحت ليلته فلم يعُد اليه .

قال الجاحظ : فانظر الى سُوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجمل بشّارٌ محضَره وعشرته، فقابلَه بهذه المقابلة القبيحة، وكان أبوه أعلمَ خلق الله به، لأنه قال له وقد فاخره بشعره : أنت يابنىّ ذهبان الشعر، اذا متّ مات شعرك معك، فلم يُوجد من يَرْويه بعدك ، فكان كما قال له ، ما يُعرف له بيتٌ واحد ولا خبرٌ غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه، الدالّ على سُخْفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشّار فى هوًى له كانت بالبصرة، ثم خرجتْ مع زوجها الى عُمان :

هوى صاحبى ريحَ الشَّمال اذا جرتْ ❊ وأشْفَى لقلبى أن تَهُبّ جَنُوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهى ❊ تناهَى وفيها من عُبَيْدة طِيب

(١) طخفة : موضع بعد النباج و بعد إمرة فى طريق البصرة الى مكة، ومنه يوم طخفة لبنى يربوع على قابوس ابن المنذر بن ماء السماء . (٢) المقربات : الخيل التى يقرب مربطها ومعلفها لكرامتها .

عَذيرى من العُـذَّال إذ يَعْـذُلُونَنى * سَـفَاهًا وما فى العاذلين لبيب
يقولون لو عَزَّيت قلبَـك لأرعوى * فقلتُ وهـل للعاشقين قلوب
اذا نطَـق القـومُ الجلوسُ فإننى * مُكِبٌّ كأنى فى الجميـع غريب

جاء أبو الشَّمَقْمَق الى بشّار يشكو اليه الضيقَة ويحلف له أنه ما عنده شىء ، فقال له بشّار : والله ما عندى ما يغنيك ، ولكن قُمْ معى الى عُقْبَة بن سَـلْم ، فقام معه ، فذكر له أبا الشمقمق وقال : هو شاعر وله شكرٌ وثناء ، فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال له بشّار :

ياواحدَ العـربِ الذى * أمسى وليس له نَظِـير
لو كان مثلُك آخرًا * ما كان فى الدنيا فقـير

فأمر لبشّـار بألفى درهم ، فقال أبو الشمقمق : نَفَعْتنا ونفعناك يا أبا معاذ ، فجعل بشّار يضحك .

دخل يزيدُ بن منصور الحِمْيَرِى على المهدىّ وبشّار بين يديه يُنشِـده قصيدةً آمتدحه بها ، فلما فرَغ منها أقبل عليه يزيدُ ، وكانت فيه غَفْلةٌ ، فقال : ياشيخ ، ماصِناعتُك؟ فقال : أثقُبُ اللؤلؤ ، فضحك المهدىّ ، ثم قال لبشّار : أُغْرُبْ ويلك ! أتتَنَادَر على خالى ؟ فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى يُنشِد الخليفةَ شعرًا ويسأله عن صناعته .

وقف على بشّار بعض المُجّان ، وهو ينشد شعرا ، فقال له : آسْتُرْ شعرَك هـذا كما تستر عَوْرَتك ، فصفّق بشّار بيديه وغضب ثم قال له : ومن أنت؟ ويلك ! قال : أنا — أعزك الله — رجل من بَاهِـلَة ، وأخوالى سَـلُول ، وأصْهارى عُكْل ، وآسمى كَلْب ، ومولدى بأُضَاخ[1] ، ومنزلى بظفر بلال ، فضحك بشّار ، ثم قال : آذهب ويلك ! فأنت عتيقُ لؤمك ، قد علم الله أنك آستترتَ منّى بحصون من حديد .

مرّ بشّار برجل قد رَمَحَتْه بغلةٌ وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له بشّار آستَزِدْه يَزِدْك . ومرّ به قومٌ يحملون جنازة وهم يُسرعون المشى بها ، فقال : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يُلْحَقوا فيؤخذ منهم .

(١) من قرى اليمامة لبنى نمير .

رفع غلامُ بشّار إليه فى حساب نَفَقته جِلاءَ مِرآةٍ عشرةَ دراهم، فصاح به بشار وقال: والله ما فى الدنيا أعجب من جِلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صَدِئتْ عينُ الشمس حتى يبقَ العالَمَ فى ظُلْمة ما بلغتْ أجرةُ من يجلوها عشرة دراهم .

قال قُدَامةُ بن نُوح : كان بشّارٌ يحشو شعرَه إذا أعْوَزته القافيـةُ والمعنى بالأشياء التى لا حقيقةَ لها، فمن ذلك أنه أنْشد يوما شعرًا له فقال فيه : « غنّنى للغريض يا بن قنان » فقيل له : من ابن قنان هذا ؟ لسنا نعرفه من مُغَنّى البصرة، قال : وما عليكم منه؟ أَلَكُم قِبَله دَيْن فتطالبوه به، أو ثأرٌ تريدون أن تُدركوه، أو كَفَلْتُ لكم به، فاذا غاب طالبتمونى بإحضاره، قالوا : ليس بيننا و بينه شىء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال : هو رجل يغنّى لى ولا يخرج من بيتى، فقالوا له : إلى متى؟ فقال : مذ يوم وُلِد و إلى أن يموت . وذكر أيضـا فى هذه القصيدة « البردان» فقيل له : يا أبا معاذ، أين البردان هـذا ؟ لسنا نعرفه بالبصرة، فقال : هو بيت فى بيتى سمّيته بالبردان، أفعليكم من تَسْمِيتى دارى و بيوتَها شىء فتسألونى عنه ؟ .

قالت امرأةٌ لبشّار : أىّ رجل أنت لو كنتَ أسود اللحية والرأس، قال : أما علمتِ أن بِيض البُزاة أشهر من سودِ الغِربان ؟ فقالت له : أما قولُك فحسن فى السمع، ومن لك بأن يَحسُن شَيْبك فى العين كما حسن قولُك فى السمع؟ فكان بشّار يقول : ما أفحمنى قطّ غير هذه المـــرأة .

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب، ولما أراد الانصراف قامت جاريةٌ للرجل وأخذت بيده، فلما صار بالصَّحْن أومأ اليها لِيُقبّلها، فأرسلتْ يدَها من يده، فجعل يجول فى العَرْصة وخرج مَوْلى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ؟ فقال : أذنبتُ ذَنْبًا ولا أبرح أو أقول شعرا، فقـــال :

أتوبُ اليك من السّيئات ۝ وأستغفرُ الله من فعلتى
تناولتُ ما لم أُرِدْ نَيْـــله ۝ على جهل أمرى وفى سَكْرتى

ووالله والله ما جئتــه * لِعَمْدٍ ولا كان من هِمّتى
وإلا فَمِتُّ إذًا ضائعا * وعَــذّبنى اللهُ فى مِيتَتى
فمن نال خَـيْرا على قُبْلةٍ * فــلا بارك اللهُ فى قُبلتى

لما كثُرَ آستهتار نساء البصرة وشبّانها بشعر بشار، وقال سوّار بن عبد الله ومالكُ بن دِينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة الى الفِسْق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يَعِظانه وكان واصِلُ بن عَطاء يقول: إن من أخْدَع حبائل الشيطان وأغواها لَكلماتِ هذا الأعمى المُلحِد، فلما كثر ذلك وآنتهى خبرُه إلى المهدىّ نهاه عن ذِكْر النساء وقول التشبيب، وكان المهدىّ من أشد الناس غَيْرة، فقال فى ذلك :

يا مَنْظَرًا حَسَـنا رأيتُــه * فى وجه جارية فَدَيْتُــه
بعثَــتْ إلىّ تَسُــومُنى * ثوْبَ الشباب وقد طويتُه
والله رَبِّ محمــــدٍ * ما إن غَدرتُ ولا نَويتُــه
أمسكتُ عنــك وربمـا * عَرَض البَلاءُ وما آبتغيتُه
إن الخليفة قــد أبَى * وإذا أبى شيئًا أبيتُــه
ومُخَضَّبٍ رَخْصِ البَنا * نِ بكَى علىّ وما بكيتُه
ويَشُــوقنى بيتُ الحبيـ * ـبِ اذا آدّكَرْتُ وأين بيتُه
قام الخليفــةُ دونَــه * فصبرتُ عنــه وما قَلَيْتُه
ونَهـانِىَ الملكُ الهُـما * مُ عن النسـاء وما عصيتُه
لا بل وفيتُ فــلم أُضِع * عهــدا ولا رأيا رأيتُــه
وأنا المُطِلّ على العِـدا * وإذا غلا الحمـدُ آشتريتُه
أُصْفِى الخليــلَ إذا دنا * وإذا نأى عـنى نأيتُــه
وأميــلُ فى أُنْسِ النديـ * ـم من الحياء وما آشتهيتُه

وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها .

وكان لبشار خمسة نُدَماء، فمات منهم أربعة وبقى واحد يقال له : البراء، فركب فى زورق يُريد عبور دِجْلة العَوْراء فغرق، فكان بشّار يقول : ماخير فى الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقـول الإمامُ * فى فتـاة بالقلب منهـا أُوَامُ
بتُّ من حبّها أُوَقَّـرُ بالكأ * س ويهفـو على فؤادى الهُيام
لم يكن بينها وبينى إلّا * كُتُبُ العاشقين والأحـلام
يابن موسى آسْقِنى ودَعْ عنك سَلْمى * إن سلمى حِمًى وفىّ آحْتِشام
ربّ كأس كالسلسبيل تعلّلـ * ـتُ بهـا والعيونُ عنّى نيـام
حُبِست للشُّراة فى بَيْتَ رأس(١) * عَتَقَتْ عانِسًا عليها الختام
نَفَحَتْ نفحةً فَهَـزّت نديمى * بنسـيم وآنشقّ عنها الزُّكام
وكأنّ المَعْلول منهـا إذا را * ح شَـجٍ فى لسـانه بِرْسـام(٢)
صَـدَمَتْه الشَّمولُ حـتى بعينيـ * ـه آنكسارٌ وفى المفاصل خَام
وهو باقى الأطراف حَيْثُ به الكأ(٣) * سُ وماتت أوصـالُه والكلام
وفـتى يشـرَبُ المُدامـةَ بالمـا * ل ويمشى يروم ما لا يُرام
أنفدَتْ كأسُه الدنانيرَ حـتى * ذَهَب العَيْنُ وآستمرّ السُّـوام
تركته الصهبـاءُ يرنو بعيـنـ * ـنام إنسانُهـا وليست تَنـام
جُنّ من شَرْبة تُعَـلّ بأخرى * وبكى حين سـار فيـه المُدام
كان لى صاحبًـا فأودى به الدهـ * ـرُ وفارقْتُـه عليـه السـلام
بَقِىَ النـاسُ بعـد هُلْك نَدامَا * ى وُقُوعًا لم يشـعروا ما الكلام
كجَزُور الأيْسَـار(٤) لا كَبِدٌ فيهـ * ـا لبَـاغٍ ولا عليهـا سَـنام

(١) بيت رأس : قرية بالشام من قرى حلب ينسب اليها الخمر . (٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو ورم حار يعرض للحجاب الذى بين الكبد والأمعاء ثم يتصل الى الدماغ . (٣) حيث بالإدغام لغة فى حى كرضى . (٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقداح .

يابن موسى فَقْدُ الحبيب على العيـ * ـن قَذَاةٌ وفى الفـؤاد سَـقَام
كيف يصفو لىَ النعيمُ وحيدًا * والأَخِـلَّاءُ فى المقابر هَام
نَفِسَتهم علىّ أمُّ المنايا[1] * فأنامتهـمُ بعُنْف فناموا
لا يَغِيض انْسِجَامُ عينى عليهم * إنما غايةُ الحزين السِّجَامُ

وقال فى نَهْى الخليفة إياه عن ذِكْر النساء :

والله لولا رِضا الخليفـة ما * أعطيْتُ ضَيْمًا علىّ فى شجَن
وربما خيـرَ لابن آدم فى الـ * كُرْه وشَقّ الهوى على البدن
فاشربْ على أُبْنَـةِ الزمان فما * تلق زمانًا صَفا من الأُبَن
الله يُعطيك من فواضِـله * والمرء يُغْضِى عَيْنًا على الكُمَن[2]
قد عِشْتُ بين الرَّيْحان والرّاح والزِّ * هرِ فى ظِـلّ مجلسٍ حَسَن
وقد ملأْتُ البلاد ما بين فغـ * ـفور الى القيْروان فاليمن
شِعْرًا تُصَلِّى له العواتقُ والثّـ * ـيبُ صلاةَ الغُواة للوَثَن
ثم نهانى المهـدىُّ فانصرفَتْ * نفسى صنيعَ الموفّق اللّقِن
فالحمـدُ لله لا شـريكَ له * ليس بباقٍ شىءٌ على الزمن

وأنشد المهدىَّ قصيدته التى أولها :

تجالَلْتُ عن فِهْرٍ وعن جَارتَىْ فهر * وودّعْتُ نُعْمًا بالسـلام وبالبِشر
وقالت سُلَيْمى فيك عنّا جَلادة * محلّك دانٍ والزيارةُ عن عُفْرِ[3]
أخى فى الهوى مالى أراكَ جَفَوْتنا * وقد كنتَ تَقْفُونا على العُسْر واليُسر
تثاقلتَ إلا عن يَدٍ أستفيدُها * وزَوْرة أملاكٍ أشُدُّ بها أزْرى
وأخرجنى من وِزْر خمسين حِجّة * فتًى هاشمىٌّ يَقْشَعِرّ من الوِزر

(١) نفستهم : حسدتهم . (٢) الكمن واحدها كمنة وهى جرب وحمرة تبقى فى العين من رمد يساء علاجه .
(٣) العفر : قلة الزيارة ، يقال : ما تأتينا الا عن عفر أى بعد قلة زيارة وطول عهد .

دَفَنْتُ الهوى حيّـا فلستُ بزائرٍ ٭ سليمى ولا صنراء ما قرقر القُمْرِى
ومُصْـفَرَّةٍ بالزعفران جلودُها ٭ اذا اجْتُلِيَتْ مثل المفرطحة الصفر
فربّ ثقـال الرِّدْفِ هبّتْ تلومنى ٭ ولو شَهدت قبرى لَصَلَّتْ على قبرى
تركتُ لمهدىّ الأنام وِصالها ٭ وراعيتُ عهدا بيننا ليس بالختْر
ولولا أميرُ المؤمنين محمـدٌ ٭ لقبّلتُ فاها أو لكان بها فِطْرى
لعمرى لقد أوْقرتُ نفسى خطيئةً ٭ فما أنا بالمُزداد وقْـرا على وقـر
تَسلّى عن الأحبـاب صَرّامُ خُلّةٍ ٭ وَوَصّال أخرى ما يُقيم على أمر
وركّاض أفراس الصّبابة والهوى ٭ جرت حِجَجًا ثم استقرّتْ فلا تجرى
فأصبحن ما يُركَبْنَ إلا الى الوغى ٭ وأصبحتُ لا يُزْرَى علىّ ولا أُزْرى
فهذا وإنى قــد شرَعْتُ مع التُّقَى ٭ وماتت همومى الطّارقات فماتَسْرى

ثم قال يصف السفينة :

وعذراء لا تجـرى بلحم ولا دَم ٭ قليــلة شكوى الأيْن مُلْجَمة الدُّبْر
اذا ظَعنَتْ فيهـا الفُلُول تَشَخّصتْ ٭ بفُرسانها لا فى وُعُوثٍ ولا وَعْر
وإن قصـدَتْ زلّت على متنصب ٭ ذليل القوى لا شىء يَفْرى كما تَفْرى
تُلاعِبُ تيّـارَ[1] البحـور وربمـا ٭ رأيتَ نفوسَ القوم من جَرْيها تجرى
الى مَلِك من هاشِم فى نُبُـوّةٍ ٭ ومن حِمْيَرٍ فى المُلْك والعــدد الدَّثْر[2]
من المُشترين الحمدَ تَندَى من النّدى ٭ يداه و يَنْدَى عارِضاه من العِطْر
فألزمتُ حَبْلى حبـل من لا تُغِبّـه ٭ عُفَاةُ النّدى من حيث يدرى ولا يدرى
بنى لك عبـدُ الله بيتَ خلافــة ٭ نزلتَ بهـا بين الفراقد والنّسْر
وعندك عهــدٌ من وَصَاةِ محمـد ٭ فَرَعْتَ به الأملاكَ من ولد النّضْر

---

(١) كان قد قال : نينان البحور ، فعابه بذلك سيبويه ، فجعله تيار البحور .

(٢) الدثر : الكثير .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السّاقيان صُبّا شرابى ٭ واسْقيانى من رِيقِ بيضاءَ رُودِ(١)
إن دائى الظّمَا وإن دوائى ٭ شَرْبَةٌ من رُضَاب ثغرٍ بَرُود
ولها مَضْحك كغُرّ الأقاحى ٭ وحديثٌ كالوَشْى وَشْىِ البرود
نزلتْ فى السّواد من حَبّة القلـ ٭ ـبِ ونالتْ زيادةَ المُسْتزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليال ٭ والليالى يُبْلِين كلَّ جديد
عندها الصبرُ عن لقائى وعندى ٭ زَفراتٌ يأكُلْنَ قلبَ الحديد

طَرِب الوليدُ وقال : من لى بمزج كأسى هذه من رِيق سَلْمَى ، فيَرْوَى ظمئى ، وتَطْفأُ غُلّتى ، ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه ، وقال : إن فاتنا ذاك فهذا .

مدح بشار خالدَ بن برمك فقال فيه :

لعمرى لقد أجدى علىّ ابنُ برمك ٭ وما كلُّ من كان الغنى عنده يُجْدى
حلبتُ بشعرى راحتيه فَدَرّتا ٭ سَماحًا كما دَرّ السّحابُ مع الرّعْد
إذا جئته للحمد أشرَقَ وجهُه ٭ اليك وأعطاك الكرامةَ بالحمد
له نِعَمٌ فى القوم لا يَسْتثيبها ٭ جزاءً وكيْلَ التّاجر المُدّ بالمُدّ
مُفيدٌ ومِتْلافٌ سبيلُ تُراثه ٭ اذا ما غدا أو راح كالجَزْر والمَدّ
أخالدُ إن الحمدَ يبقى لأهله ٭ جمَالا ولا تبقى الكنوزُ على الكدّ
فأطْعِمْ وكُلْ من عارَةٍ مُسْتَرَدّةٍ ٭ ولا تُبْقِها إن العَوارِىَ للردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألفَ درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وِفادة خمسة آلاف درهم ، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه ، وقال ابنه يحيى ابن خالد : آخر ما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

---

(١) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وكان إسحاق الموصلي يطعن على شعر بشار ويضع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضُه بعضا، فقيل له : أتقول هذا لمن يقول :

إذا كنتَ فى كلّ الأمور مُعاتِبًا ٭ صديقَك لم تلقَ الذى لا تعاتبُهْ
فعِشْ واحدًا أوصِلْ أخاك فإنه ٭ مُقارِفُ(١) ذنبٍ مرّة ومُجانِبُهْ
إذا أنتَ لم تشربْ مِرارًا على القَذَى(٢) ٭ ظَمِئتَ وأىُّ الناس تصفو مَشاربه

وهى من غُرَر قصائده، مدح بها عمر بن هُبَيْرة، ومنها قوله :

يخاف المنايا إن تَرحّلتُ صاحبى ٭ كأن المنايا فى المُقام تُناسِبه
فقلت له إن العراقَ مُقامُه ٭ وخِيمٌ إذا هبّتْ عليك جَنائبُه
لألْقَ بَنى عَيْلان إن فَعالهم ٭ تزيد على كل الفَعال مراتبُه
أولاك الأُلَى شَقّوا العَمى بسيوفهم ٭ عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبه
وجيش كجنح الليل يَزْحف بالحصا ٭ وبالشوك والخَطّىِّ حُمْرًا ثعالبه
غدَوْنا له والشمسُ فى خِدْر أمّها ٭ تطالِعُنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائبُه
بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ٭ وتُدرِك من نَجَّى الفِرارُ مَثالبُه
كأنّ مُثارَ النقع فوق رءوسنا ٭ وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبه
بعثنا لهم موتَ الفُجاءة إننا ٭ بنو الموتِ خَفّاقٌ علينا سَبائبُه(٣)
فراحوا فريق فى الإسارِ ومثلُه ٭ قتيلٌ ومثلٌ لاذَ بالبحر هاربُه

ومنها :

إذا الملك الجبّارُ صَعّر خدَّه ٭ مشَيْنا إليه بالسيوف نعاتبُه
رُوَيدًا تَصاهلْ بالعراق جِيادُنا ٭ كأنك بالضَّحّاك قد قام نادبُه
وسامٍ لمَرْوانٍ ومن دونه الشَّجا ٭ وهولٌ كلُجّ البحر جاشت غواربه

---

(١) مقارف ذنب : مخالطه ومرتكبه من قارف الخطيئة اذا خالطها . (٢) القذى : ما يسقط فى الشراب من ذباب أو غيره . (٣) السبائب : جمع سبيبة، وهى شقة من الكتان رقيقة يريد بها الألوية .

أحلّتْ به أمُّ المنايا بناتِها * بأسيافنا إنا ردَى مَن نحاربه
وكنّا إذا دبّ العدوُّ لسخْطنا * وراقبنا فى ظاهرٍ لا نراقبُه
ركبنا له جهْرا بكل مثقّف * وأبيضَ تستسقى الدماءَ مضاربُه

ومنها :

فلما تولّى الحىّ واعتصر الثرى * لظَى الصيف من نجمٍ توقد لاهبُه
وطارت عصافيرُ الشقائق واكتسى * من الآل أمثالَ المجرّة ناضبه
غدت عانةٌ[1] تشكو بأبصارها الصّدى * الى الجأب إلا أنها لا تخاطبه

ومن حسن شعره :

لو كنت تلقَينَ ما نلقَى قسمتِ لنا * يوما نعيش به منكم ونبتهجُ
لا خير فى العيش إن كنّا كذا أبدا * ما فى التلاقى ولا فى قُبلَة حَرج
مَنْ راقبَ الناسَ لم يظفَرْ بحاجته * وفاز بالطيّبَات الفاتكُ اللّهِج
أشكو إلى الله همًّا ما يفارقنى * وشُرّعًا فى فؤادى الدهرَ تعتلِج

وقال يهجو عبيد الله بن قزعة :

خليلىَّ من كعْبٍ أعينا أخاكما * على دهره إن الكريمَ معينُ
كأن عبيد الله لم يلْق ماجدا * مخافةَ أن يرجو نداه حزين
ولا تبخلا بخْلَ ابن قزعة إنه * ولم يدْر أن المكرمات تكون
فقل لأبى يحيى متى تُدْرِك العلا * وفى كل معروف عليك يمين
اذا جئته فى حاجةٍ سدّ بابه * فلم تلقه إلا وأنت كمين

وفد على خالد بن برمك فأنشده :

أخالِ لم أخبِط[2] اليك بذمّة * سوى أننى عافٍ وأنت جوادُ
أخالدُ بين الأجرِ والحمد حاجتى * فأيّهما تأتى فأنت عمادُ

(١) العانة : القطعة من الحمير . والجأب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين فى أحداقها فغارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحمار والأتن .
(٢) أى لم اطلب معروفك متوسلا اليك بعهد أو قرابة .

فإن تُعطِنى أُفْرِغ عليك مدائحى * وإن تأب لم يُضْرب علىّ سِدَادُ
ركابى على حَرْف(١) وقلبى مشيَّع * ومالى بأرض الباخلين بلاد
اذا أنكرتنى بلدةٌ أو نكرتُها * خرجت مع البازى علىّ سواد

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار فى أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله، وآخرين بين يديه، وآخر خلفه، وقال : ياأبا معاذ، هل آستقلّ العماد؟ فلمس الأكياسَ ثم قال: استقلّ والله أيها الأمير .

قال أبَان بن عبد الحميد : نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قَيْس بن عَيْلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشّار يأتيهم وينشدهم أشعارَه التى يمدح بها قيسا، فيجلّونه لذلك ويعظّمونه، وكان نساؤهم يجلسن معه ويتحدثن اليه وينشدهن أشعارَه فى الغزل، وكنت كثيرا ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأتيتُهم يوما فاذا هم آرتحلوا، فجئتُ الى بشّار فقلت : ياأبا معاذ: أعلمتَ أن القوم قد آرتحلوا؟ قال: لا، فقلتُ: فاعلم، قال: قد علمت لا علمتَ، ومضيتُ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناسَ ينشدون :

دعا بفراق من تَهْوى أبَانُ * ففاض الدمعُ وآحترق الجَنانُ
كأن شرارةً وقَعت بقلبى * لها فى مقلتى ودمى آستِنَان
اذا أنشَدْتُ أو نَسَمَتْ عليها * رياحُ الصيف هَاج لها دُخَان

فعلمت أنها لبشّار، فأتيتُه فقلت : يا أبا معاذ، ما ذنبى اليك ؟ قال: ذنبُ غراب البَيْن، فقلت : هل ذكرتنى بغير هذا ؟ قال : لا ، فقلتُ : أُنْشِدك اللهَ ألّا تزيد ، فقال : آمض لشأنك فقد تركتُك .

مدح بشّار المهدىَّ فلم يُعطه شيئا ، فقيل له : لم يَسْتَجِدْ شعرك ، فقال : والله لقد قلتُ فيه شعرًا لوقيل فى الدهر لم يُخْشَ صَرْفُه على أحدٍ، ولكنّا نكذب فى القول فيكذب فى الأمل .

(١) الحرف : الناقة المهزولة .

مدح بشّار سليمانَ بن هشام بن عبد الملك، وكان مقيما بحرّان وخرج اليه، فأنشده قوله فيـه :

نأتكَ على طول التجاوُر زينبُ * وماشعرتْ أنّ النوى سوف تشعَبُ
يرى الناسُ ماتلقى بزينب إذ نأتْ * عجيبـا وما تُخفِى بزينب أعجَب
وقائلة لى حين جدّ رحيلُنـا * وأجفانُ عينيها تجـودُ وتسكُبُ
أغادٍ الى حرّانَ فى غير شِيعةٍ * وذلك شأوٌ عن هواهـا مغـرِّب
فقلتُ لهـا كلّفتِنى طلبَ الغنى * وليس وراء آبن الخليفة مذهَب
سيكفِى فتًى من سَعْيه حَدُّ سيفه * وكَوْرٌ عِلافىٌّ[1] ووجنـاء[2] ذِعْلِب
اذا آستوغرتْ دارٌ عليه رمى بها * بناتَ الصُّوَى منها ركُوبٌ ومُصْعَب
فعـدِّى الى يوم آرتحلت وسائلى * بزَوْرك والرحّالُ من جاء يضرِب
لعلّكِ أن تستيقنى أن زَوْرتى * سليمانَ من سيرِ الهواجرِ تُعقِبُ
أغرّ هشامىّ القناةِ اذا آنتمى * نمتْـه بدور ليس فيهنّ كوكب
وما قصدتْ يومًا لخيلين خيلُه * فتُصرَف إلا عن دماء تَصَبَّبُ

فوصـله سليمان بخمسة آلاف درهم، وكان يبخّل، فلم يرضَها وآنصرف عنـه مُغْضَبًا، فقال :

إن أمس منقبضَ اليدين عن الندى * وعن العـدو مخيّس الشيطان
فلقـد أروح على اللئام مسـلّطًا * ثَلِج المقيـل منعَّم النَّـدْمان
فى ظل عيش عشـيرة محـمودة * تَنْـدَى يدى ويُخاف فَرْط لسانى
أزمان خيّبنى الشبابُ مطاوع * وإذ الأمـيرُ علىّ من حرّان
ريم بأحْـوِيَة العـراق اذا بدا * برقت عليـه أكِلّةُ المَرْجان
فاكحَـلْ بعَبْدة مقلتيك من القذى * وبِوَشْـك رؤيتهـا من الهمَلان
فلقُـرْبُ من تهـوى وأنت متيمٌ * أشْـفَى لدائك من بنى مروان

(١) العلافىّ : الرحل العظيم . (٢) وجناء ذعلب أى ناقة شديدة سريعة .

قدِم بشّار على المهدىّ بالرصافة فدخل عليه فى البستان، فأنشده مديحا فيه تشبيب حسن، فنهاه عن التشبيب لغَيْرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما جئتُـه أبشّـرُه * ولم أجئْ راغبا ومُحْتَلِبا
يزيّن المنبر الأشمّ بِعِطْفَيْـ * ـهِ وأقواله إذا خَطبا
تُشَمّ نَعْلاه فى النّدِىّ كما * يُشَمّ ماءُ الريحان مُنْتَهِبا

قال : وقد طلب منه أن يُنْشده شيئاً من غَزَله :

وقائلٍ هَاتِ شَوِّقْنَا فقلتُ له * أنائمٌ أنتَ ياعمرو بن سَمْعان
أما سمِعتَ بما قد شاع فى مُضَرٍ * وفى الحليفَيْن من بكْرٍ وقَحْطَان
قال الخليفةُ لا تَنْسِبْ بجارية * إيّاك إيّاك أن تَشْقَى بعصيان

وقال له المهدىّ : قل فى الحب شعرا ولا تُطل، وٱجعل الحب قاضيا بين المحبّين لا تُسَمِّ أحدا، فقال :

ٱجعل الحبَّ بين حِبّى وبينى * قاضِيـا إننى به اليوم راضِ
فاجتمعنا فقلت يا حِب نفسى * إن عينى قليلـةُ الإغماض
أنتَ عذّبتنى وأنحلت جسمى * فٱرحم اليوم دائمَ الأمراض
قال لى لا يَحِلّ حكمى عليها * أنتَ أولى بالسّقم والإعراض
قلتُ لما أجابنى بهواها * شَمِلَ الجورُ فى الهوى كلَّ قاض

فبعث اليه المهدىّ : حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشّار فى عشق السَّمْع :

يا قومُ أُذْنى لبعض الحى عاشقةٌ * والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمَنْ لا تَرى تَهْذِى فقلتُ لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا
هل من دواء لمشغوفٍ بجارية * يَلْقَى بلُقْيانها رَوْحاً وريحانا

وقال فى مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلّقها * قلبي فأضحى به من حبّها أثَرُ
أنّى ولم ترها تَهْـذِى فقلتُ لهم * إن الفـؤادَ يرى مالا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيْران مجتنبًا * لم يقض وِرْدا ولا يُرْجَى له صَدَر

وقال :

يزهـدُنى فى حبّ عَبْدة مَعْشَرٌ * قلوبهُـم فيها مخالفـةٌ قلبى
فقلتُ دعوا قلبي وما اختار وارتضى * فبالقلبِ لا بالعين يُبْصِرُ ذُو الحبّ
فما تبصر العيْنان فى موضع الهوى * ولا تسمع الأذْنان إلا من القلب
وما الحسنُ إلا كلّ حسنٍ دعا الصبا * وألّف بين العشق والعاشق الصبّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تَقِـرُ * إيّاك أعنى وعنـدك الخبَرُ
أذعت بعد الألى مضوْا حُرَقًا * ما ضاع ما اسْتَوْدَعُوك إذ بكَروا

وقال :

إنّ سُلَيْمى واللهُ يكلؤها * كالسُّـكْر يزداد على السُّكْر
بلّغتُ عنها شـكلا فأعجبنى * والسّـمعُ يكفيك غَيْبَة البَصَر

وقال وقد مدح المهدىّ فحرمه :

خليلىّ إن العُسْرَ سوف يُفيق * وإن يَسَـارا فى غـد لخَليق
وما كنتُ إلا كالزمان اذا صحا * صحوتُ وإن ماقَ(١) الزمان أموق
أأدماء لا أسطيع فى قـلّة الثرا * خُزوزًا ووشـيا والقليل محيق
خذى من يدى ما قل إن زماننا * شَمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيق
لقد كنتُ لا أرضى بأدنى معيشةٍ * ولا يَشْتكى بخـلًا علىّ رفيق

(١) ماق : حمق فى غباوة .

خليلىّ إن المال ليس بنافع * اذا لم ينل منه أخٌ وصديق
وكنتُ اذا ضاقت علىّ محلّة (١) * تيمّمتُ أخرى ما علىّ تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل * له فى التقى أو فى المحامد سُوق
ولا ضاق فضلُ الله عن متعفّف * ولكنّ أخلاقَ الرجال تَضيق

هجا بشّار يعقوب بن داود وزير المهدىّ فقال :

بنى أميّـــةَ هبُّوا طال نومُكم * إن الخليفـة يعقوب بن داوُد (٢)
ضاعَتْ خلافتُكم ياقوم فالتمسوا * خليفةَ الله بين النّـاى والعُود

فاتهمه عند المهدىّ بالزندقة وقال : إنّه قد هجا المهدىّ، فأمر، فضُربَ بالسياط حتى مات.

(١) المحلة : منزل القوم .
(٢) أصله من الموالى، وقد استوزره الخليفة المهدى وسلمه الأمور كلها واشتغل هو باللهو .

٢ — حمّادُ عَجْرَد [1]

«ولو أنى أحببتُ أن أشخّص حمّادا لوصفتُه قبل كل شيء بحدّة الطبع، وسُوء الخُلُق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة فى القول، والملاءمة بينه وبين العمل، وبكُرهِ النّفاق والانصراف عنه، لا يَعنِيه أرَضى الناسُ عنه أم سَخِطوا عليه، ثم بحدّةِ اللسان ومُضيِّه وإقذاعه وكَلَفه بفاحش القول وبحثه عن أسوئه وأقبحه، ثم بالسُّخْرية من الناس وازدرائهم، لا على أنه يتّخذُ ذلك فلسفةً وأصلًا من أصول الحياة كالوليد ومُطيع وأبى نُواس، بل على أنه يتّخذُ ذلك وسيلةً من وسائل الشعراء يتخلّص بها كلّما ضاقتْ عليه المذاهبُ وأُخذَتْ عليه، أو دعتْه إلى ذلك حاجةٌ. لم يكن حمّادٌ يحفِلُ بما يحفِلُ به الناسُ من الوفاء والانصراف عن التناقُض، وإنما كان صديقًا مُخلِصا حتى تبدو له حاجة أو تسنَح له فرصةٌ أو تضطّره ضرورةٌ، فإذا صَداقتُه قد استحالتْ إلى عَداء، وإذا هو ليس أقلّ صِدقًا وإخلاصًا فى العَداء منه فى المودة والحُبّ: فقد مدح يحيى بن زياد واتّخذه صديقًا ونال جوائزَه، ثم كان الخلافُ فهجاه. وصادَق بشّارا وصافاه، ثم اختصما فلم يعرِفا فى الخصومة رحمة ولا رِفقًا. وصاقَ مُطيعا وأحبّه ومدَحه وأكثر فى الثناء عليه، ثم اختصما فى امرأةٍ مرّةً وفى غلامٍ مرّةً أخرى، فهجاه وأقذع فى هجائه. وكان على هذا كلّه يؤثر شعره وضروراته على البِرّ بالناس فى معاملتهم: هجا ذاتَ يومٍ رجلا يقال له حُشَيْشٌ وجعل اسمه قافيةً لهذا الشعر وأراد أن يبالغ فى ذمّه فشبّهه بحُجَيش، وكان حُجَيشٌ هذا رجلًا من أهل البَصْرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة. نشأ فى الكوفة ثم واسط. وعاصر الدولتين، لكنه نبغ فى الدولة العباسية بعد أن نادم الوليد بن يزيد الأموى. وجاء بغداد أيام المهدى ومعه مطيع بن إياس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين فى دينهم. وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجنا ظريفا خليعا متهما فى دينه مرميا بالزندقة. وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، عالما كان أو خليفة. توفى سنة ١٦١ هـ. وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وادِعًا لا يعرف حمّادًا ولا يعرفه حمّادٌ، فلما قرأ الرجلُ هذا الشعرَ جَزِع له وسافرَ من البصرة حتى بلغ الكوفةَ فعاتَب حمّادًا، فقال له حماد ضاحِكًا معتذِرًا: لا بأسَ عليك فإن هذا من آثام القافية ولن أعود إليه » .

وكان السبب فى مُهَاجاةِ حمّاد وبشّار أن حمّادًا كان نديمًا لِنافِع بن عُقْبة، فسأله بشّار تَنجيزَ حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشّارٌ فيه :

مَوَاعِيدُ حَمّادٍ سَماءٌ مُخِيلَةٌ * تَكَشَّفُ عن رَعْدٍ ولكن سَتَبْرُقُ

اذا جئته يوما أحالَ على غَدٍ * كما وَعَدَ الكَمُّون ماليس يَصْدُقُ

وفى نافع عنّى جَفَاءٌ وإنّنى * لأُطْرِقُ أحيانًا وذو اللبِّ يُطْرِق

ولِلنَّقَرى(١) قومٌ فلو كنتُ منهم * دُعيتُ ولكن دُونِيَ البابُ مُغْلَق

ومازلت أَستأنيك حتى حَسَرْتَنى * بوَعْدٍ كَجَارى الآلِ يَخْفَى ويَخْفُق

فغَضِب حمّادٌ وأنشَد نافعًا الشعرَ فمنع بشارا، فقال بشّار :

أبا عُمَرٍ مافى طِلابِكَ حَاجَةٌ * ولا فى الذى مَنَّيْتَنَا ثم أَضْجَرا

وَعدتَ فلم تَصْدُق وقلتَ غدًا غدًا * كما وعَد الكَمُّون شربًا مؤخَّرا

فكان ذلك سببَ التهاجى بين بشّار وحمّاد . وكان بشّارٌ يرمى حمادًا بالزندقة ، وفى ذلك يقـول :

ابنُ نِهيى رَأْسٌ علىّ ثَقِيلُ * واحتمالُ الرءوس خَطْبٌ جَليلُ

أُدْعُ غيرى إلى عِبادةِ الاثْنَيـ * ـن فإنى بواحد مشغولُ

يابنَ نِهيى بَرِئتُ منكَ إلى الله جِهَارًا وذاك منّى قليل

فأشاع حمّادٌ هذه الأبيات لبشّار، وجَعل فيها مكان : « فإنى بواحدٍ مشغول » « فإنى عن واحد مشغول » ليصحّ عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبياتُ تدور فى الناس حتى انتهتْ الى بشّار ، فاضطرب منها وجزِع وقال : أشاط ابنُ الفَاعِلةِ بدَمِى، واللهِ ما قلتُ إلا « فإنى بواحد مشغول » فغيّرها حتى شُهِرتْ فى الناس .

(١) النقرى : الدعوة الخاصة .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حمّاد و بشار على اتفاقٍ منهما ورضًا بأن ينقُل الى كل واحد منهما وعنه الشعرَ، فدخَل يومًا الى بشّار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال ابن الفاعلة؟ فأنشَدَه :

إن تاه بشّارٌ عليكم فقد * أمكنتُ بشّارًا من التّيه

فقال بشّار : بأىّ شىءٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سمّيتُه باسمه * ولم يكن حُرًّا نُسَمّيه

قال : سخنتْ عينُه، فبأىّ شىء كنتُ أُعرَف! إيه، فقال :

فصار إنسانًا بِذِكرى له * ما يبتغى من بعد ذِكْرِيه!

فقال : ما صنَع شيئا، إيه ويحك! فقال :

لم أهجُ بشّارا ولكنّنى * هجوتُ نفسى بهجائيه

فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتمامُ الأبيات :

لم آتِ شيئًا قطّ فيما مضى * ولستُ فيما عشتُ آتيه

أسوأ لى فى الناس أُحْدُوثةً * من خطَا أخطأتُه فيه

فأصبح اليومَ لِسَبّى له * أعظمَ شأنًا من مَوالِيه

وقال بشّارٌ لراويةِ حمّاد : ما هجانى به اليومَ حمّاد؟ فأنشده :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنّى الـ * ـذى والدُه بُرْدُ

فقال : صَدق ابنُ الفاعلةِ فما يكون ؟ فقال :

إذا ما نُسِبَ الناسُ * فلا قَبْلٌ ولا بَعْدُ

فقال : كذَب، أين هذه العرَصَاتُ من عُقَيل! فما يكون؟ فقال :

وأعمى قَلْطَبانٌ[1] ما * على قاذِفِه حَدُّ

---

(١) القلطبان : الذى لا يغار.

فقال : كذب ، بل عليه ثمانونَ جَلْدةً ، هِيه ، فقال :

وأعمى يُشْــبِهُ القِرْدَ ∘ إذا ما عَمِيَ القِــرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شبّهني بقِردٍ ، حَسْبُك حَسْبُك ! ثم صفّق بيـديه وقال : ما حيلتي ! يراني فيُشبّهني ولا أراه فأُشبّهه . وتمامُ الأبيات :

دَنِيٌّ لم يَـرُحْ يومًا ∘ الى مجْـدٍ ولم يغْـدُ
ولم يَحْضُر مع الحُضّا ∘ رِ فى خَيْرٍ ولم يَبْـدُ
ولم يُخْشَ لـه ذَمٌّ ∘ ولم يُـرْجَ له حَمْـدُ
جَرى بالنّحس مُذْ كان ∘ ولم يَجْـرِ له سَـعْد
هو الكلبُ اذا مات ∘ فلم يُـوجَد له فَقْـد

وقال علىّ بن مَهْدِىّ : أجمع علماء البصرة أنه ليس فى هجاء حمّاد عَجْرد لبشّار إلا أربعون بيتًا معدودة ، ولبشّار فيه من الهجاء أكثرُ من ألف بيتٍ جيّد . وكلُّ واحدٍ منهما هو الذى هتك صاحبَه بالزندقة وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حمّادٌ وهُتِك بفضل بلاغة بشّار وجَوْدة معانيه ، وبَقِى بشّار على حاله لم يسقُط ، حتى عُرِف مذهبُه فى الزندقة فقُتِل به .

ومن أغلظ ما هجا به حمّادٌ بشّارًا :

نَهارُه أخبثُ من ليـله ∘ ويومُه أخبثُ من أمسِه
وليس بالمُقْلِـع عن غَيِّه ∘ حتى يُوارَى فى ثَرى رَمْسِه

كان حمّادٌ صديقا ليحيى بن زِياد ، فأظهر يحيى تورُّعًا وقراءةً ونُزُوعًا عمّا كان فيه وهجر حمادًا وأشباهَه ، فكان اذا ذُكِر عنده ثَلَبَه وذكَرَ تهتُّكه ومُجونه ، فبلغ ذلك حمادًا فكتب اليه :

هَلْ تَذْكُرنْ دَلَجِى اليـ ∘ ـك على المُضَمَّرةِ القِلاص
أيامَ تُعْطِيــنى وتا ∘ خُذُ من أباريق الرَّصاص
إن كان نُسْكُك لا يَتِـ ∘ ـمُّ بغير شَتْمى وانتقاصى
أو كنتَ لستَ بغيرذا ∘ ك تَنال مَنزلةَ الخَلاص

فعليك فاشتمُ آمنًا * كلَّ الأمان من القِصاص
وأقْعُد وقُمْ بى ما بدا * لك فى الأدانى والأقاصى
فلطالما زكَّيْتَنِى * وأنا المقيمُ على المعاصى
أيامَ أنتَ اذا ذُكِرْ * تُ مُنَاضِلٌ عنِّى مُنَاصِى (١)
وأنا وأنتَ على آرتكا * بِ المُوبِقاتِ من الحِرَاص
وبِنَا مَوَاطِنُ ما بنا * فى البِرّ آهِلَةُ العِرَاص

فاتصل هذا الشعرُ بيحيى بن زياد، فَنَسَب حمادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام؛ فقال حمّاد فيه :

لا مُؤمِنٌ يُعْرَفُ إيمانُه * وليس يَحْيى بالفتى الكافِرِ
منافقٌ ظاهِرُه ناسِكٌ * مخالِفُ الباطنِ للظاهِرِ

كان حمّادٌ صَدِيقا لحُرَيْث بن أبى الصَّلْت الثَّقَفِى، وكان يَعِيبُه بالبخل، وفيه يقول :

حُرَيْثُ أبو الفَضْلِ ذو خِبْرةٍ * بما يُصْلِحُ المَعِدَ الفاسده
تَخَوَّفَ تُخْمَةَ أضيافِه * فعوَّدهمْ أَكْلَةً واحده

ومن قوله :

ألا قُلْ لعبد الله إنّك واحدٌ * ومثلُك فى هذا الزمان كثيرُ
قطعتَ إخائى ظالمًا وهجرتَنى * وليس أخى من فى الإخاء يَجور
أُديم لأهل الوُدّ وُدّى وإنّنى * لمن رام هَجْرى ظالمًا لَهَجُور
ولو أن بَعْضِى رابَنى لقطعتُه * وإنى بِقَطْعِ الرائبين جَدِير
فلا تَحْسَبَنْ مَنْحِى لك الوُدَّ خالِصا * لِعِزٍّ ولا أنّى إليك فقير
ودونَك حَظِّى منك لستُ أُريده * طَوالَ الليالى ما أقام ثَبِير (٢)

---

(١) مناص : مدافع، من قولهم ناصاه مناصاة : أخذ كل بناصية صاحبه . (٢) ثبير : اسم جبل .

كان حَمّادٌ صديقاً لحفص بن أبى بُرْدَة ، وكان حَفْصٌ أعْمَش أفْطَس أعْضَبَ مُقَبَّح الوجه، فاجتمعوا يوماً على شَرابٍ وجعلوا يَتَناشَدون و يتحدّثون ، فأخذ حفصٌ يَطْعَن على مُرَقِّش ويعيبُ شِعْره و يُلَحِّنه، فقال له حمّاد :

لقد كان فى عينيك يا حفصُ شاغِلٌ ٭ وأنفٌ كَثِيلِ(١) العَوْدِ عما تَتَبَّعُ
تَتَبَّــعُ لَحْنًا فى كلام مُرَقِّش ٭ ووجهُــك مَبْنِىٌّ على اللحن أجْمَع
فأُذْناكَ إقْواءٌ وأنفُــكَ مُكْفَأٌ ٭ وعَيْنــاك إيطــاءٌ فأنت المُرَقَّــعُ

ومن قوله :

إنّى أحبُّك فاعلمِى ٭ إن لم تكونى تَعْلَمِينا
حبًّا أقَلُّ قليـــلِه ٭ كجميع حبِّ العالَمِينا

وأنْشَدَ بشّارٌ قولَ حمّاد عجرد :

أخِى كُفَّ عن لَوْمى فإنّك لا تدرى ٭ بما فعــل الحبُّ المبرّح فى صــدرى
أخى أنتَ تَلْحَانى وقلبُــك فارغٌ ٭ وقلبِىَ مشـغولُ الجوانح بالفِكـر
دَوائى ودَائى عنــد من لو رأيتَه ٭ يقلِّبُ عَيْنَيه لأقصَرْتَ عن زَجْــرى
فأُقسم لو أصبحتَ فى لوعة الهوى ٭ لأقصرتَ عن لومى وأطْنَبتَ فى عُذْرى
ولكنْ بَلائى منك أنّك ناصحٌ ٭ وأنّك لا تدرى بأنّك لا تدرى

فطَرِب بشّارٌ ثم قال: ويْلَكُم أحسَن والله! مَنْ هذا؟ قالوا: حمّاد عجرد، قال: أوّه وكَتمْتُمونى والله بقيّــةَ يومى لَمٌّ طويل ، والله لا أطْعَمُ بقيّــةَ يومى طَعَاما، ولأصُومَنّ غمًّا بمـا يقول النَّبَطِىّ مثل هذا .

قال محمدُ بن الفَضْل السَّلُولىّ: لَقِيتُ حماد عجرد بِواسِط وهو يمشى وأنا راكبٌ، فقلتُ له : انطلق بنا الى المنزل، فإنى الساعةَ فارغٌ لنتحدّث، وحبَستُ عليه الدّابّةَ، فقطع شُغْلٌ عَرَضَ لى لم أقدِر على تركه ، فمضيتُ وأُنسيتُه، فلما بلغتُ المنزل خِفْتُ شرّه فكتبتُ اليه :

(١) الثيل : وعاء قضيب البعير، والعود : البعير .

أبا عُمَــرَ اغْفِرْها هُــدِيتَ فإنّنى * قَــدَ أذْنبْتُ ذَنْبًا مخطئًا غيرَ عامِد
فلا تَجِدَنْ فيــه علىّ فإنّنى * أُقِرُّ بإجْــرامى ولستُ بعائد
وهَبْــه لنا تَفْــدِيك نفسى فإنّنى * أرى نِعْمَةً أن كنتَ لستَ بواجد
وعُدْ منك بالفضل الذى أنتَ أهلُه * فإنك ذو فضــلٍ طَريفٍ وتَالد

فأجابنى عن الأبيات :

محمدُ يا أبا الفضــلِ يا ذا المحامدِ * ويابهجةَ النادى وزَيْنَ المَشاهد
وحقِّك ما أذنبتَ منذ عرفتَنى * على خطأ يوما ولا عَمْدِ عامد
ولو كان ما ألفيتنى متسرّعا * اليك به يومًا تَسَرُّعَ واجــد(١)
ولو كان ذوفضلٍ يُسَمَّى لفضله * بغير اسمــه سُمّيتَ أمَّ القلائد

فبينا رقعتُه فى يدى وأنا أقرؤها اذ جاءنى رسولُه برقعة فيها :

قد غَفَرْنا الذنبَ يابنَ الـ * ـفضــلِ والذنبُ عظيمُ
ومُسِيءٌ أنتَ يابن الـ * ـفضــلِ فى ذاك مُلِيمُ
حين تخشانى على الذنـ * ـبِ كما يُخْشَى اللئيمُ
ليس لى إن كان ما خِفْـ * ـتَ من الأمرِ حريمُ
أنا واللهِ ولا أفـ * ـخَرُ للغيظ كَظُوم
وبأصحــابى ولا ريـ * ـبَــةَ بَرٌّ ورحـــيم
وبمــا يُرْضِـــيهمُ عنـ * ـى ويُرْضِينى علـــيم

كان عثمان بن شَيْبَةَ مُبَخَّلا وكان حمّاد يهجوه ، فجاء رجل كان يقول الشعرَ الى حماد فقــال له :

أغِثْنى من غِنَاك ببيْت شِــعْرٍ * على فقرى لعثمان بن شــيبه

فقــال :

فإنك إن رَضِيتَ به خليــلًا * ملأتَ يديْك من فقر وخَيْبه

(١) أى لو كان لك ذنب ما صادفتنى مسرعا اليك بالمكافأة .

فقـال له الرجل : جَزاكَ اللهُ خيرا فقـد عرّفتنى من أخلاقه ما قطعنى عن مدحه وصفت وجهى عنه .

لما مات محمدُ بن أبى العباس طلَب محمد بن سليمان حمادَ عجرد لما كان يقوله فى أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مُقامَ له معه بالبصرة ، فاستجار بقبر أبيه سليمان بن على وقال فيه :

مِنْ مُقِرٍّ بالذنب لم يُوجِب اللـ ∗ ـهُ عليه بِسَيِّئٍ إقـرارا
ليس إلا بفضـل حلمك يَعْـ ∗ ـتَدّ بـلاءً وما يعُـدّ اعتذارا
يا ابنَ بنتِ النبىِّ أحمدَ لا أجـ ∗ ـعَلُ إلا اليـك منـك الفِرارا
غيرَ أنّى جعلتُ قـبرَ أبى أيو ∗ بَ لى من حوادث الدهرِ جارا
وحرىٌّ من استجار بذاك الـ ∗ ـقـبرِ أن يأمَنَ الرَّدى والعِثارا
لم أجِد لى من العِباد مُجيرا ∗ فاستجرتُ الترابَ والأحجـارا
لستُ أعتاضُ منك فى بُغيَةِ العـزّة قَحْطانَ كلّها أو نـزارا
فأنا اليومَ جارُ من ليس فى الأر ∗ ضِ مُجيرٌ أعزُّ منـه جِوارا
يا ابنَ بنتِ النبىِّ يا خيرَ من خطّـ ∗ ـتْ اليه الغَواربُ الأكوارا
إن أكن مذنبًا فأنتَ ابنُ من كا ∗ نَ لمن كان مذنبًا غفّارا
فاعْفُ عنّى فقد قدَرْتَ وخيرُ الـ ∗ ـعفو ما قلتَ : كُن ، فكانَ اقتدارا
لو يُطيـلُ الأعمارَ جَارٌ لعزٍّ ∗ كان جارى يُطوّل الأعمارا

فقـال : واللهِ لأبُلَّنَّ قبرَ أبى من دمه ، فهرب حماد إلى بغـداد ، فعاذ بجعفر بن المنصـور فأجاره ، وقال : لا أرضى أو تهجوَ محمد بن سليمان ، فقال يهجوه :

قل لوَجْه الخَصِىّ ذى العار إنى ∗ سوف أُهدى لزينبَ الأشعارا
قد لَعَمْرى فررْتُ من شدّة الخو ∗ فِ وأنكرتُ صاحِبىَّ نهـارا
وظننتُ القبورَ تمنـع جارًا ∗ فاستجرتُ الترابَ والأحجارا

كنتُ عند آستجارتى بأبى أيّـ * ـوب أبغى ضلالةً وخسارا
لم يُجِرْنى ولم أجد فيه حظًّا * أضرم اللهُ ذلك القبر نارا

فبلغ هجاؤه محمدَ بن سليمان فقال : والله لا يُفْلِتُنى أبدا ، وإنما يزداد حَنَقًا بلسانه ! ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبدا .

ومن قوله :

إن الكريمَ ليخفِى عنك عُسْرَتَه * حتى تراه غنيًّا وهو مجهود
وللبخيلِ على أمواله عِلَلٌ * زُرْقُ العيون عليها أوجهٌ سُود
إذا تكرّمتَ أن تُعطى القليلَ ولم * تَقدر على سَعَةٍ لم يَظْهرِ الجُود
أَبْرِقْ بخير تُرَجَّى للنوال فما * تُرْجَى الثمارُ إذا لم يُورِقِ العُود
بُثَّ النوالَ ولا تَمنعْك قِلّتُه * فكُلُّ ما سَدّ فقرًا فهو محمود

وقال أيضا :

كم من أخٍ لك لستَ تُنْكِرُه * ما دمتَ من دنياك فى يُسْر
مُتَصَنّعٍ لك فى مَوَدّته * يلقاك بالترحيب والبِشْر
يُطْرى الوفاءَ وذا الوفاء ويَلْـ * ـحَى الغَدْر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا ، والدهرُ ذو غِيَرٍ ، * دهرٌ عليك عَدَا مع الدهر
فارفُض بإجمالٍ مودّةَ مَنْ * يَقْلِى المُقِلَّ ويَعْشَقُ المُثْرِى
وعليك مَنْ حالاه واحدةٌ * فى العُسر إمّا كنت واليسر
لا تَخْلِطَنَّهُمُ بغيرهمُ * من يَخْلِطُ العِقيانَ بالصُّفْر !

وهو القائل فى محمد بن طلحة :

زرتُ آمرأً فى بيته مرةً * له حَياءٌ وله خِيرُ
يكره أن يُتْخِمَ إخوانَه * إنّ أذى التُّخْمةِ محذور
ويشتهى أن يُؤْجَروا عنده * بالصَّوْم والصائمُ مأجورُ
يا ابن أبى شُهْدَةَ أنتَ آمرؤٌ * بصحّة الأبدان مسرور

وهو القائل فى محمد بن أبى العبّاس السَّفاح :

أرجوك بعد أبى العباس إذ بَانا * يا أكرَمَ الناس أعْرَاقا وأغصانا
لوَمَجَّ عُودٌ على قــوم عُصارتَه * لمَجَّ عودُك فينا المِسْك والبَانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهْوَاز ، فأقام هناك مُسْتتِرا ، وبلَغ محمدا خبرُه فأرسل مولى له الى الأهواز، فلم يزل يطلبُه حتى ظفر به فقتله غِيلةً . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة، فمر بشِيرَاز فى طريقه، فمرِض بها، فٱضْطُرّ الى المقام بسبب علّته، فٱشتدّ مرضُه فمات هناك ودُفِن على تَلْعَـةٍ . وكان بشّارٌ بلغه أن حمادًا عليـلٌ ، ثم نُعِيَ اليه قبل موته ، فقال بشّـار :

لو عاش حمّـاد لَهَوْنا به * لكنّه صار الى النّـار

فبلغ هذا البيتُ حمادًا قبل أن يموت وهو فى السِّياقِ(١)، فقال يرد عليه :

نُبِّئتُ بشّارًا نعَـانى ولا * ـموتِ برانى الخالقُ البارى
يا ليتنى مِتُّ ولم أهْجُـه * نَعَم ولو صِرتُ الى النّـار
وأىّ خِزْىٍ هو أخزى من آن * يُقـال لى يا سِبُّ(٢) بشّـار

فلما قتل المهدىّ بشارًا بالبَطِيحَة ٱتّفق أن حُمِل الى منزله ميّتًا، فدُفِن مع حمّاد على تلك التَّلْعَـةِ ، فمَرّ بها أبو هِشام البَاهِلىّ الشـاعر البصرى الذى كان يُهاجى بشارًا ، فوقَف على قبريهما فقـال :

قد تَبِـع الأعمى قفا عجـرِدٍ * فأصبحا جارَيْن فى دار
قالت بِقاعُ الأرض لا مَرْحبًا * بقُــرْبِ حمّـادٍ وبشّار
تجَـاوَرا بَعْــد تنائِيهما * ما أبغضَ الجارَ الى الجار
صـارا جميعا فى يَدَىْ مالِك * فى النارِ والكافرُ فى النار

(١) السياق : الاحتضار . (٢) السب : الكثير السباب .

٣ — مَرْوان بن أبى حَفْصة (١)

« لم يكن مَرْوانُ (٢) متصرِّفا فى فنون الشعر ، ولعله لم يَعْدُ منها فنًّا أو فنَّين ؛ فلسنا نعرف له غَزَلا إلا هـذا الغزل الذى تعوّد الشعراءُ أن يبدءوا به مدائحَهم ؛ ولسنا نعرف له هجاءً إلا هذا النحوَ من الهجاء الذى يضطر اليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم . على أنّ موقف مروان كان فى هذا دقيقا جدا ، فهو لم يكن ينصُر بنى العباس على بنى أمية فيبلغُ منهم ما يريد ، ويهجوهم فى حُرّية ، وإنما كان السيف هو الذى آنتصر للعباسيين من بنى أمية ، وكان العباسيون فى حاجة الى مَن ينصرهم على العَلَويّين وأتباعهم من بنى هاشم ، ولم يكن هجاء العلويّين يسيرا ! كان الدّين يأباه فى ذلك الوقت ، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضا ، فالعلويُّون من بنى هاشم وهجاؤهم هجاءٌ للعباسيين ؛ ومن هنا سلك مَرْوان وأمثالُه من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلكَ الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقَذْف ، فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسنَ وقعًا من هجاء أولئك الشتّامين المسرفين فى الشتم ؛ ثم لا نعرف

---

(١) هو من الشعراء الموالى أصل جده من سبى اصطخر ، وكان غلاما اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم ، وأقام بعدئذ باليمامة ، وقد اختلفوا فى حقيقة نسبه . شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالى بنى أمية وقد حارب معهم ، وكان شجاعا مجرّبا ، فلما نبغ فى الشعر قدم بغداد ومدح المهدى ثم الرشيد ، وكان يتقرّب اليه بهجاء العلويين ، وهو من الفحول المقدّمين ، أوّل ما شهره ونوّه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة نونية مدحه بها ، مطلعها :

معن بن زائدة الذى زيدت به ٭ شرفا على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معنا مطلعها :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ٭ أسود لهم فى بطن خفان أشبل

فأجازه عليها بمال كثير ، فكان كلما زاده معن عطاء زاده مروان مدحا . توفى سنة ١٨١ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ٣٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وخزانة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لابن النديم (ص ١٦٠) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لمروان مُجُونا ولا عَبَثا، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابثا وإنما كان بخيلا، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه باللحم وطيِّبات الطعام لم يستبح لنفسه خمرا ولا ما تستتبعه الخمر. ثم لا نعرف لمروان فخرا وما نحسَب أنه فاخر أو مال الى الفخر. فقد كان رجلا عمليًا يَعْنيه أن يظفَر بالمكانة والثروة وكان يضنّ بوقته وجُهْده على الفخر الذى لا يفيد. لم يَعْرِض إذنْ إلا لفنَّين آثنين: المدح والرِّثاء، وهو فى المدح أشعر منه فى الرثاء وهذا طَبَعِىّ، فهو راغبٌ حين يَمدح، يطلب المال ويحرِص على أن يظفَر به، فمعقولٌ أن يُجيد وأن يبلُغ من الإجادة حظّا عظيما؛ أما فى الرثاء فهو لا يرغَب ولا يطلب مالا وإنما يَفِى بعهد ويشكر صنيعة. ومعقولٌ أنّ موقفه هذا لا يدفعه الى الإجادة إلّا أن يكون حسّاسا دقيقَ الشعور راقِىَ النفس، ولم يكن مروان من هذا كله فى شىء، وإنما كان كما قلتُ لك رجلا عمليًا يريد المال. على أنّ رثاءه لمَعْنٍ ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للمهدىّ، وهل نستطيع أن نَعُدّ رثاءه للمهدى رثاء! هو مدح لأنه عَزاء للخليفة الجديد، ففيه ذِكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المَثُوبة والعطاء. فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء.

أما مَدْح مروان فمن آيات المدح العربىّ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرّقات قليلة ولكنها تكفى لنحكم أنّ مروان كان قد أتقنَ المدح وبَرَع فيه، بل نحسب أنه برَّز فى هذا الفنّ على غيره من المعاصرين، ولكنّ مَدْح مروان ينقسم الى قسمين متمايزين:

أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجّه لمعن بن زائدة، فهو يَفْتَنّ فى وصف مَعْن بالجود والكرم والشجاعة والحبّ، ثم يفتنّ فى مدح بنى شَيْبان الذين ينتمى اليهم معن، وهو لا يخرج فى مدحه هذا عن سُنّة الشعراء من قبله، ولكنه جيّد المعانى مُنتقاها، حَسَن الألفاظ صافيها.

وأما القسم الثانى فهو هذا المدح السياسىّ الذى كان يُنْشِده الخلفاءَ من بنى العباس، وهو مدح إن شئتَ ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسىّ

الذى كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصر العباسيين دون أن يزدرى خصومهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عنيدا ماهرا فى الخصام .

ثم هناك شيئان لا بد من الإشارة اليهما ليكمل رأينا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معللا إن صح هذا التعبير :

الأول : أن مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الإقامة فى العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل المجون والعبث ، و إنما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يبرحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الى اليمامة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره فى شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الجاهليين والإسلاميين منه الى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية ، تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة التى تخلو أو تكاد تخلو من الدعابة والخفة ، وتمتاز بشىء من الجلال والرصانة ، يمثل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا فى أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إيثاره على بشار وأبى نواس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوى القديم ، ولكن أنى لهم ذلك ! وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبى نواس فاضطروا الى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار وإيثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التى كان يعنى بها علماء اللغة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والأسلوب ، لا يقاس الى مروان فى هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلاف الفنون التى طرقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبى نواس بنوع خاص ، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنه لا يخاف

ولا يهاب فصَدَقَ نفسه وصَدَقَ الناسَ، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالمُ اللغوىّ هو ابن الأعرابىّ الذى ختم الشعر بمروان وأبى أن يدوّن لأحد من المحْدَثين بعده، والذى كان يُنشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيّدة من شعر مروان، وهى:

بنُــو مَطَرٍ يومَ اللقاءِ كأنهــم ◦ أُسودٌ لها فى بَطْن خَفَّانَ أشْــبُلُ
هُم يَمنعــون الجار حـــتى كأنما ◦ لِجارِهمُ بين السِّمَاكَيْنِ مَــنْزِلُ
لَهَامِيمُ[1] فى الإسلام سادُوا ولم يكن ◦ كأوّلهم فى الجاهليّــة أوّلُ
هُمُ القومُ إنْ قالوا أصابوا وإنْ دُعوا ◦ اجابُوا وإنْ أَعْطَوْا أَطابُوا وأَجْزَلُوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعَالَهم ◦ وإنْ أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وكان ابن الأعرابىّ يقول : لو أنّ مَعْنًا أعطى مروان كلّ ما يملك بهذه الأبيات لَمَا بلغ حقه .

الثانى : أنّ مروان لم يكن سريعا فى الشعر ولا متعجّلا ولا مسترسلا مع الطبع وإنما كان بطيئا متمهّلا . كان يجيد الشعر لأنه كان يُجوّده . كان يسلك هذه الطريقة التى يزعُم الرُّواة أنّ زُهَيرا كان يسلكها فى هذه القصائد التى يُسَمُّونها الحَوْليّات، كان يُنفق أَشْهُرًا فى إنشاء القصيدة وأشهرا فى إصلاحها وأشهرا فى عَرْضها حتى اذا استقام له هــذا كلّه أنشد قصيدته لممدوحه خليفــةً كان أو وزيرا أو أميرا، فليس عجيبا مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يُستنكَر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معا . ولقد يحدّثنا الرواة بطائفــة من أخبــار مروان مع اللغويين والشــعراء الذين كان يَعْرِض عليهم شعرَه قبل أن يُنشــده الخلفاءَ . ولستُ أُشير إلّا إلى سيرته مع بَشّار فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشّار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيّــدة أو بأنها رديئة، بل يُقدّر له قيمــة القصيدة ماليًّا، فيقول : سيعطونك عليها كذا وكذا ... وقد صــدق بشار مرّتين فأظهر له مروانُ العَجَبَ من ذلك، فقال بشار : ألم أقل لك إنى أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

(١) لهاميم واحدها لهموم، وهو العظيم الكثير الخير .

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التى كان من شأنها أن تُجْزِل حظّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقُضٌ مفهوم، كان شديدَ الحرص على الإجادة، فكان يشكّ فى شعره، ويستشير فيه الشعراء والنُّحاة، ولكنّه كان مع ذلك مُعجَبا بنفسه لا يقدِّم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . واسمع رأيه فيهم وفى نفسه، فقد عَقَدَه شعرا لِيَثْبُتَ كما يقول :

ذَهَبَ الفَرَزْدَقُ بالفَخَار وإنما ۞ حُلْوُ القَرِيضِ ومُرُّهُ لِجَرِيرِ
ولقد هجَا فأ ... أخطلُ تَغْلِب ۞ وحَوَى اللُّهَى ببيانه المشهور
كُلُّ الثلاثة قد أجادَ فمدحُه ۞ وهجاؤه قد سارَ كلَّ مَسِير
ولقد جَرَيتُ فَفُتُّ غيرَ مهلّل ۞ بجِراءٍ لا قَرِفٍ ولا مبهور
إنى لآنف أَنْ أُحبّرَ مِدْحة ۞ أبدًا لغير خليفة ووزير
ما ضرّنى حَسَدُ اللئام ولم يَزَل ۞ ذو الفضل يَحْسُدُه ذوو التقصير

أما رأْىُ مروان فى النقد فبديع، كان يُنشِد الشعر لامرئ القيس ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعر الناس، حتى اذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرآهم جميعا أشعرَ الناس ، قال ضاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرِف رأيا كهذا الرأى يمثّل الشك فى نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد» .

وننتقل من ذاك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبى حَفْصة على المهدى بعد وفاة مَعْن، فأنشده مديحا فيه، فقال له المهدى : ألستَ القائل :

أقَمْنا باليمامة بعدَ مَعْنٍ ۞ مُقاما لا نُرِيدُ به زَوالَا
وقلنا أين نَرْحلُ بعد مَعْنٍ ۞ وقد ذهب النوالُ فلا نَوالا

قد ذهب النوال فيا زعمتَ، فلِمَ جئتَ تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عنـدنا . فلمـا كان من العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمثَل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرقتْـكَ زائرةٌ فحىِّ خيالَهـا * بيضاءُ تخلِـط بالجمـال دَلالها
قادتْ فؤادَكَ فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوب الى الصِّبا فأمالها
فكأنما طَرقتْ بنفحة رَوْضةٍ * سَحَّتْ بها دِيَمُ الربيـع طِلالَهَا
باتتْ تسائل فى المنام مُعرِّسًا * بالبيدِ أشعثَ لا يمَـلّ سؤالها
فى فتيةٍ هجعوا غِرارا بعـد ما * سئِموا مُراعشة السُّرى ومطالها
فكأنّ حَشْوَ ثيابهـم هِنـديّةٌ * نَحلتْ وأغفلتِ القُيونُ صِقالَهَا
وضعوا الخدودَ لدى سواهم جُنَّحٍ * تشكو كُلومَ صِفاحها وكَلالَهَا
طَلَبتْ أميرَ المؤمنين فواصلتْ * بعـد السُّرى بغُدُوّها آصالَهَـا
نَزعتْ اليكَ صواديًا فتقاذفتْ * تطوِى الفـلاةَ حُزونَها ورمالَهَا
يتبعن ناجيـةً يهُـزّ مِراحُها * بعـد النحول تَلِيلَها(١) وقَذالها
هوجاءَ تدَّرِع الرُّبا وتشُـقّها * شقّ الشَّموس إذا تُراع جلالَهَا
تنجو(٢) إذا دَفَع القَطِيعُ كما نجتْ * خرجاءُ(٣) بادرتِ الظلامَ رِئالهـا(٤)
كالقوس ساهمةً أتتك وقد ترى * كالبُرْج تملأ رَحْلها وحِبالها

وفيها يقول
هل تَطمِسون من السماء نجومَها * بأكفّكم أو تَسْتُرون هلالهـا
أو تجحَدون مقالةً عن ربِّكم * جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالها
شَهِدتْ من الأنفال آخرُ آيةٍ * بتُراثهـم فأردتُمُ إبطالها

ومنها
أحيـا أميرُ المؤمنين محمدٌ * سُـنَنَ النبىّ حرامَها وحلالها
ملك تَفـرّع نبـعةً من هاشم * مدّ الإلهُ على الأنام ظِلالَهَـا
جبَـلٌ لأمّتـه تلوذ بركنهِ * رادَى جبالَ عدوّها فأزالهـا

(١) التليل : العنق . (٢) تنجو : تسرع . (٣) الخرجاء : النعامة . (٤) الرئال : فراخ النعامة واحدها رأل .

لم يَغشَها مما يَخاف عظيمةٌ * إلا أجال لها الأمورَ مُجالَها
حتى يُفرِّجها أغرُّ مهذب * ألفَى أباه مُفرِّجا أمثالَها
ثَبْتٌ على زَلَل الحوادث راكبٌ * من صَرْفهن لكل حالٍ حالَها
كِلتا يديْك جَعلتَ فضلَ نوالها * للمسلمين وللعدوّ وَبالَها
وقعتْ مواقعها بعفوكَ أنفسٌ * أذهبتَ بعد مخافة أوجالَها
ونصبتَ نفسكَ خيرَ نفسٍ دونَها * وجعلتَ مالكَ واقيًا أموالَها
هل تعلمون خليفةً مِنْ قبله * أجرى لغايته التى أجرى لها
طلَع الدروبَ مُشمِّرا عن ساقه * بالخيل مُنصلِتا يُجدّ نعالَها
قُودٌ تَريع إلى أغرَّ لوجهه * نورٌ يُضىء أمامها وخلالَها
قصُرتْ حمائله عليه فقَلَصتْ * ولقد تحفّظ قَيْنُها فأطالَها
حتى إذا وردتْ أوائلُ خيله * جَيْحانَ بثّ على العدوّ رِعالَها (١)
أحمى بلادَ المسلمين عليهمُ * وأباح سهلَ بلادهم وجبالَها
أدمتْ دوابرَ خيله وشكيمَها * غاراتُهن وألحقتْ آطالَها
لم يُبق بعد مُغارها وطِرادها * إلا نَحائزَها (٢) وإلا آلَها
رفع الخليفةُ ناظرِىّ ورَاشَنى * بيد مباركة شكرتُ نَوالَها
وحُسِدتُ حتى قيل أصبح باغيا * فى المشى مُترَف شيمةٍ مُختالَها
ولقد حذوتَ لمن أطاع ومن عصى * نعلا ورثتَ عن النبىّ مثالَها

فزحَف المهدىّ من صدر مُصلّاه حتى صار على البِساط إعجابا بما سمع ، ثم قال : كم هى؟ قال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانتْ أول مائة ألف درهم أُعطِيَها شاعر فى أيام بنى العباس ، وهكذا فعل معه الرشيد لما أنشده قصيدته التى يقول فيها :

لَعَمْرُكَ ما أنسى غَداة المُحَصَّبِ * إشارة سَلْمَى بالبنان المُخَضَّبِ
وقد صدَر الحُجّاجُ إلا أقلَّهم * مصادرَ شتى مَوْكِبا بعد مَوْكِبِ

(١) الرعال : القطع من الخيل واحدها رعلة .
(٢) النحائز : الأنساع .

قال مروان : دخلتُ على المهـدى فى قصر السلام، فلما سلّمت عليه وذلك بِعَقِب سُخْطه على يعقوب بن داود، فقلت : يا أمـير المؤمنين، إن يعقوب رجل رَافضىّ، وإنه سمعنى أقول فى الوِراثة :

أنّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ * لِبَنى البناتِ وِراثةُ الأعمامِ

فذلك الذى حمله على عداوتى، ثم أنشدته :

كأنّ أمير المؤمنين محمدا * لرأفتـه بالنـاس للناس والدُ

فقال له المهدىّ: والله ما أعطيك إلا من صُلْب مالى، فاعذِرنى، وأمر لى بثلاثين ألف درهم وكسانى جُبّة ومُطْرَفا، وفرض لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لـمـا قدِم مَعْن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاصٌّ بأهله، فأخذ بعِضادتَى الباب وأنشأ يقول :

أرى القلبَ أمسى بالأوانس مولَعًا * وإن كان من عهد الصِّبا قد تمتّعا

ويقول فيها :

ولـمـا سَرَى الهم الغـريب قريْتُـه * قِرَى من ازال الشكَّ عنـه وأزمعا

عزمتُ فعجّلتُ الرحيل ولم أكن * كذِى لُوثة لا يطلع الهـمّ مطلعا

فأمت ركابى أرضَ مَعْنٍ ولم تزل * الى أرض مَعْنٍ حيثما كان نُزّعا

نجائب لولا أنهـا سُخّـرَت لنـا * أبتْ عِزّةً من جهلهـا أن تورّعا

كسونا رِحال المَيْس(١) منهـا غواربًا * تدارَك فيهـا النَّىُّ(٢) صَـيْفا ومَرْبعا

فـما بلغَتْ صَنْعاءَ حتى تواضعتْ * ذُراها وزال الجهـلُ عنها وأقلعا

الى أن قال :

وما الغيثُ اذ عمّ البـلادَ بصَوْبه * على الناس مِنْ معروف مَعْنٍ بأوسعا

تدارك مَعْنٌ قبّـةَ الدّين بعـدَ ما * خَشِينا على أوتادها أن تُنَزّعا

---

(١) الميس : شجر عظيم تتخذ منه الرحال . (٢) النىّ : الشحم .

أقام على الثغر المخوف وهاشمٌ * تُساقى سماما بالأسنة مُنقعا
مُقام امرئٍ يأبى سوى الخطة التى * تكون لدى غِبّ الأحاديث أنفعا
وما أحجم الأعداءُ عنك بقيّةً * عليك ولكن لم يروا فيك مَطمعا
رأوا مُخدراً قد جرّبوه وعاينوا * لدى غِيله منهم مَجرًّا ومَصرعا
وليس بثانيه اذا شدّ أن يرى * لدى نحره زُرْق الأسنّة شُرّعا
له راحتان الغيثُ والحتفُ فيهما * أبى الله إلا أن تضرّا وتنفعا
لقد دوّخ الأعداءَ مَعْنٌ فأصبحوا * وأمنعُهم لا يدفع الذلَّ مَدْفعا
نجيبُ مناجيبٍ وسيّدُ سادةٍ * ذُرى المجد من قَرْعَىْ نزارٍ تفرّعا
لبانتْ خِصال الخير فيه وأكملتْ * وما كمُلتْ خمسا سنُوه وأربعا
لقد أصبحتْ فى كلّ شرقٍ ومغربٍ * بسيفك أعناقُ المُريبين خُضّعا
وطئتَ خدود الحضرميّين وطأةً * لها هُدّ ركنٌ منهمُ فتضعضعا
فأقعوا على الأذناب إقعاء مَعْشرٍ * يرون لزوم السّلم أبقى وأودعا
فلو مُدّت الأيدى إلى الحرب كلها * لكفّوا وما مدّوا الى الحرب أصبعا

فقال له مَعْن : احتكم، قال: عشرة آلاف درهم، فقال مَعْن: رَبِحنا عليك تسعين ألفا، قال : أقلْنى، قال : لا أقال الله من يُقيلُك .

لما مات المهدى وفدت العرب على موسى الهادى يهنئونه بالخلافة ويُعزّونه عن المهدى، فدخل مروان فأخذ بعضادتَى الباب وقال :

لقد أصبحتْ تختالُ فى كلّ بلدةٍ * بقبر أمير المؤمنين المقابرُ
ولو لم تُسكّن بابنه فى مكانه * لما برِحتْ تبكى عليه المنابرُ

مرض عمرو بن مَسْعدة فدخل عليه مروان وقد أبَلّ من مرضه، فأنشأ يقول :

صحّ الجسم يا عمرو * لك التمحيص والأجرُ
ولله علينا الحمـ * ـدُ والمنّة والشكر
فقد كان شكا شوقًا * إليك النهى والأمر

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبى حفصة فى وقت من الأوقات سبعين ألف درهم ، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مَزْيَد ، فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيَد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا علىّ ، أودعنى مروان خمسين ومائة ألف درهم ، وهو يشترى الخبز من البقّال ؛ فغضب يحيى ثم قال : علىّ بمروان ، فأُتى به ، فقال له : قد أخبرنى أبو خالد بما أودعتَه من المال وما تبتاعه من البقّال ، والله لَمَا يُرَى من أثر البخل عليك أضرّ من الفقر لو كان بك . ويُروى أنه قال له : والله لَلبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صِرْتَ اليه فلا تبخل . وقال عمر بن شَبَّة قال مروان : ما فرِحتُ بشىء قطُّ فرحى بمائة ألف وهبها لِى أمير المؤمنين المهدىّ ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشتريت به لحما . وقال جَهْم بن خَلَف : أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أبى حفصة فأطعمنا تمرا وأرسل غلامه بفَلْس وسُكُرّجة ليشترىَ زيتا ، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خُنْتَنى ؛ قال : من فَلْس ! كيف أخونك ؟ قال : أخذتَ الفَلْس لنفسك وآستوهبتَ الزيت . وقال التَّوَّزىّ : مرّ مروان بن أبى حفصة فى بعض سفراته وهو يريد مَغْنَى آمرأة من العرب ، فأضافته ؛ فقال : لله علىّ إنْ وهب لى الأمير مائةَ ألف أنْ أهَب لك دِرْهما ؛ فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاها أربعة دَوانق . وقال أبو دعامة : آشترى مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه فى القدر وكاد ينضَج دعاه صديق له ، فردّه على القصّاب بنقصان دانق ، فشكاه القصّاب وجعل ينادى هذا لحم مروان ، وظنّ أنه يأنف لذلك ؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا ؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادى فأنشده قوله فيه :

تَشَابه يومَا بأسِـــه ونوالِه ٭ فما أحـــدٌ يدرى لأيّهما الفضلُ

فقال له الهادى : أيّما أحبّ اليك ؟ أثلاثون ألفا معجّلة ، أم مائةُ ألف تدوّن فى الدواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسن ما هو خير من هذا ، ولكنّك أُنْسِيتَه ، أفتأذن لى أن أذكّرك ؟ قال : نعم ؛ قال : تُعجّل لى الثلاثين ألفا وتُدوّن المائة ألف فى الدواوين ، فضحك وقال : بل يُعجّلان جميعا ، فحُمل اليه المال أجمع .

قال محمد النوفلى : آجتاز مروان برجل من باهلة من أهل اليمامة، وهو يُنشد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروانَ بن محمد، وأنه قُتِل قبل أن يلقاه ويُنشده إياه، أوله :

مروانُ يابن محمدٍ أنت الذى * زِيدتْ به شرفا بنو مروانِ

فأعجبته القصيدة، فأمهل الباهلى حتى قام من مجلسه، ثم أتاه فى منزله فقال له : إنى سمعت قصيدتك وأعجبتنى، ومروان قد مضى ومضى أهلُه، وفاتك ما قدَّرتَ عنده. أفتبيعُنى القصيدة حتى أنتحلها، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير؟ قال : نعم، قال : بكم؟ قال : بثلثمائة درهم، قال : قد آبتعتُها، فأعطاه الدراهم وحلّفه بالطلاق ثلاثا وبالأيمان المُحْرِجة ألّا ينتحلها أبدا، ولا يَنسُبَها الى نفسه ولا يُنشدَها، وآنصرف بها الى منزله فغيّرَ منها أبياتا وزاد فيها وجعلها فى مَعْن، وقال فى ذلك البيت :

مَعْنُ بن زائدة الذى زِيدتْ به * شرفا على شرف بنو شَيْبانِ

ووفد بها الى معن حتى أثرى وآتسعتْ حاله، فكان معن أول من رفع ذكره ونوه به. وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفة ومراثٍ حسنة. قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا، فحدثنى معن باليمن أنه آضطرّ لشدة الطلب الى أن قام فى الشمس حتى لوّحتْ وجهَه، وخفّف عارضيه ولحيته، ولبس جُبّة صوف غليظة، وركب جملا من الجمال النقّالة يمضى الى البادية فيقيم بها، وكان قد أبلى فى حرب يزيد آبن عمر بن هُبَيْرة بلاء حسنا غاظ المنصور وجدّ فى طلبه، قال معن : فلمّا خرجتُ من باب حرب تبِعنى أسودُ متقلّدا سيفا حتى اذا غبتُ عن الحرس قبض على خِطام جملى فأناخه وقبض علىّ، فقلت له : مالك؟ قال : أنت طَلِبة أمير المؤمنين، قلت : ومن أنا حتى يَطلبَنى أمير المؤمنين؟ قال : معن آبن زائدة، قلت : يا هذا، آتّق الله، وأين أنا من معن؟ قال : دع هذا عنك، فأنا والله أعرفُ بك منك، فقلت له : فإن كانت القصّة كما تقول، فهذا جوهر حملتُه معى يَفِى بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بى، فخذه ولا تسفك دمى، قال : هاته، فأخرجته اليه، فنظر اليه ساعةً وقال : صدقتَ فى قيمته، ولستُ قابلَه حتى أسألك

عن شيء ، فإن صدقتني أطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إن النـاس قد وصفوك بالجود فأخبرني ، هل وهبتَ قطُّ مالك كلّه؟ قلت : لا ، قال : فنصفه؟ قلت : لا ، قال : فثلثه؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييتُ ، فقلت : أظن أني قد فعلتَ هذا ، فقال : ما أراك فعلتَه ، أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبتُه لك ، ووهبتـك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا أجودَ منك فلا تعجبك نفسُك ، ولتُحقِّر بعد هذا كلّ شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمى بالعِقد في حجري وخلّى خِطام البعير وانصرف ، فقلت : ياهذا ، قد والله فضحتني ولَسفكُ دمي أهون عليّ ممـا فعلت ، فخذ ما دفعتُه اليـك فإني غنيّ عنه ، فضحك وقال : أردتَ أن تكذّبني في مقامي هذا ، والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمنا أبدا ومضى ؛ فو الله لقد طلبته بعـد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء ، فما عرفت له خبرا وكأن الأرض ابتلعته . وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية[1] ، فلمّا وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معن وهو متلثّم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا وذبّ القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولجامها بيد الربيع فقال له : تنحّ فإني أحقّ باللجام منك في هذا الوقت وأعظم فيه غَناء ؛ فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه ، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت؟ لله أبوك! قال : أنا طَلِبتك يا أمير المؤمنين معنُ بن زائدة ؛ قال : قد أمّنك الله على نفســك ومالك ومثلك يُصْطَنَع ، ثم أخذه معه وخلع عليــه وحباه وزيّنه ، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أمّلتك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال : كما يُحبّ أميرُ المؤمنين ؛ قال : قد ولّيتك اليمنَ فابسُط السيفَ فيهم حتى يَنْقضَ حِلف ربيعة واليمن ، وابلُغ من ذلك ما يحبّ أمير المؤمنين ؛ فولّاه اليمنَ وتوجّه اليها فبسط السيف فيهـم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لما ولى الخلافة نزل بقصر ابن هبيرة واستتم بناءه وجعله مدينـة وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونهـا إلى ابن هبيرة على العادة ، فقال : ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنهـا ، فرفضها وبنى حيالها مدينة سماها الهاشمية ونزلها .

أسرف. قال مروان: وقدِم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور، فقال له بعد كلام طويل: قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانُك عنده ورأيه فيك لغَضب عليك؛ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك:

معنُ بنُ زائدة الذى زِيدتْ به ٭ شرفًا على شرف بنو شيبانِ
إن عُدّ أيام الفعال فإنما ٭ يوماه يومُ نَدى ويومُ طعان

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بلغَك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله:

ما زِلتَ يومَ الهاشمية مُعلِنًا ٭ بالسيف دونَ خليفةِ الرحمن
فمنعتَ حوزَته وكنت وِقاءَه ٭ مِنْ وقع كلّ مهنّدٍ وسِنان

فاستحيا المنصور وقال: إنما أعطيتَه ما أعطيتَه لهذا القول؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ والله لولا مخافة الشُّنْعة لأمكنتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأبحتُه إيّاها؛ فقال له المنصور: لله درّك من أعرابيّ! ما أهونَ عليك ما يعزّ على الرجال وأهل الحزم!

وأختم هذه الترجمة بموت مروان بقُصّة قاتلُه. روى صاحب الأغاني عن رجل يقال له صالح بن عطيّة الأضجم أنه قال:

لما قال مروان:

أنّى يكونُ وليس ذاكَ بكائنٍ ٭ لبنى البنات وِراثةُ الأعمامِ

لَزِمتُه وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أيّ وقتٍ أمكننى، وما زلت ألاطفه وأبرّه، وأكتب أشعاره حتى خُصِصْتُ به فأنِس بى جدا، وعرفتْ ذلك بنو حفصة جميعا فأنِسوا بى، ولم أزل أطلب غِرّة حتى مرِض من حُمّى أصابته، فلم أزل أُظهر له الجزع عليه وألازمه وألاطفه حتى خلا لى البيت يوما، فوثبتُ عليه فأخذت بحلْقه فما فارقته حتى مات، فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميّتا وارتفعت الصَّيْحة، فحضرتُ وتباكيتُ وأظهرت الجزع عليه حتى دُفن وما فَطِن لما فعلت أحد ولا اتّهمنى به.

٤ — أبو دُلَامَـــةَ (١)

كان أوّلُ ما حُفظ من شعره وأُسنيت الجوائزُ له به، قصيدةً مَدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتلَه أبا مُسْلِم يقول فيها:

أبا مسلمٍ خوّفتني القتلَ فانتحَى (٢) ＊ عليك بما خوّفتني الأسدُ الوَرْدُ

أبا مسـلمٍ ما غيّر الله نعـمةً ＊ على عبـده حتى يُغيِّرها العبـد

أنشـدها المنصورَ فى مَحْفِل من الناس فقال له: آحتكم، فطلب عشرة آلاف درهم، فأمر له بها، فلما خلا قال له: إيه، أمَا والله لو تعدّيتَها لقتلتك.

أمر أبو جعفر أصحابَه بلُبْس السواد وقلانِسَ طِوالٍ تُدعَم بعيدان من داخلها، وأن يعلّقوا السيوف فى المناطق ويكتبوا على ظهورهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ فقال أبو دلامة:

وكنّا نُرجّى من إمامٍ زيادةً ＊ فجادَ (٣) بطُولٍ زادَه فى القلانس

تَراها على هامِ الرجال كأنها ＊ دِنانُ يهـودٍ جُلِّلت بالبرانس

ودخل الى المنصور مرّة فأنشده:

إن الخَليط أجَدّ البَيْنَ فانتـجعوا ＊ وزوّدوك خَبالا، بئسما صَـنعوا

واللهُ يعـلم أنْ كادتْ لبَيْنهمُ ＊ يومَ الفِراق حَصاةُ القلب تَنصدِع

عَجِبتُ من صِبْيتى يوما وأُمِّهـم ＊ أُمُّ الدُّلامة لمّا هاجها الجَـزَع

(١) هو زند بن الجون، وسمى أبا دلامة نسبة إلى ابنه دلامة، وهو كوفى المنشأ أسود اللون مولى لبنى أسد، وكان أبوه عبدا لرجل منهم فأعتقه. أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية، ولكنه نبغ فى الدولة العباسية، وانقطع إلى أبى العباس السفاح والمنصور والمهدى، وكانوا يقـدّمونه ويصلونه ويستطيبون محاسنه ونوادره، وفيـه دعابة وظرف، لا يخلو حديثـه من نكتة أو ملحة، وكان مع ذلك معـدودا فى جملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين، وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فروضا. توفى سنة ١٦١ هـ. وأخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ١٢٠) وابن خلكان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشـعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميرى (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف (ج ٢ ص ٤٣). (٢) فى الشعر والشعراء: "أبا مجرم". (٣) فى الطبرى ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا "فزاد الامام المصطفى".

لا بارك الله فيها من مُنَبِّهةٍ ٭ هبّت تلوم عيالى بعد ما هجعوا
ونحن مُشْتَبِهِ الألوانِ أوْجُهُنا ٭ سُودٌ قِباحٌ وفى أسمائنا شَنَع
إذا تَشَكَّت إلىَّ الجُوعَ قلتُ لها ٭ ما هاجَ جوعَكِ إلّا الرِّىُّ والشِّبَع
لا والذى يا أميرَ المؤمنين قضَى ٭ لك الخِلافةَ فى أسبابها الرِّفَع
ما زلتُ أُخْلِصها كَسْبِى فتأكُلُه ٭ دُونِى ودونَ عِيالى ثم تَضطجع
شَوْهاءُ مَشْنَأةٌ فى بطنها بَجَرٌ[1] ٭ وفى المفاصل من أوصالها قَدَع
ذَكَّرتُها بكتاب الله حُرْمَتَنا ٭ ولم تكن بكتاب الله تنتفع
فاخْرَنْطَمَتْ[2] ثم قالت وهى مُغْضَبَةٌ ٭ أأنت تتلو كتابَ الله يا لُكَع
أُخْرُجْ لِتَبْغ لنا مالًا ومَزْرَعَةً ٭ كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ
واخْدَعْ خليفتنا عنّا بمسألة ٭ إن الخليفة للسُّؤَّال يَنْخدِع

فضحك أبو جعفر وكتب له بضيعة .

كان واقفا بين يدَى السَّفّاح فقال له : سلنى حاجتَك، قال : كلب أتصيّد به، قال : أعطوه إيّاه، قال : ودابّةٌ أتصيّد عليها، قال : أعطوه دابّةً، قال : وغلام يَصيد بالكلب ويقودُه ، قال : أعطوه غلاما، قال : وجارية تُصلح لنا الصَّيْد وتُطعمنا منه، قال : أعطوه جارية، قال : هؤلاء يا أميرَ المؤمنين عبيدُك، فلا بدّ لهم من دارٍ يسكنونها، قال : أعطوهم دارًا تجمعهم، قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال : قد أعطيتك مائة جَرِيب عامرة، ومائة جَرِيب غامرة، قال : وما الغامرة؟ قال ما لا نباتَ فيه، فقال : قد أقطعتُك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَرِيب غامرة من فيافى بنى أسد ، فضحكَ وقال : اجعلوها عامرة ، قال : فأذَنْ لى أن أقبِّل يدَك ، قال : أما هذه فدَعْها، قال : والله ما منعتَ عيالى شيئا أقلّ ضررا عليهم منها، قال الجاحظ : فانظر الى حِذْقه بالمسألة ولُطْفه فيها، ابتدأ

---

(١) البجر : خروج السرة ونتوءها وغلظ أصلها . والقدع : اعوجاج فى الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف والقدم الى إنسيها .
(٢) أى غضبت .

بكلب فسهّل القصة به وجعل يأتى بمـا يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة لمـا وصل اليه .

قال علىّ بن سـلّام : كنت أسقى أبا دلامة والسِّندىّ إذ خرجت بنتٌ لأبى دلامة، فقال فيها أبو دلامة :

فما وَلَدتكِ مريمُ أمُّ عيسى * ولا رَبّاكِ لقمانُ الحكيم

أجزْ يا أبا عطاء، فقال :

ولكنْ قد تَضُمُّك أمُّ سوءٍ * الى لَبّاتها وأبٌ لئـيم

فضحك لذلك، ثم غدا أبو دلامة الى المنصور فأتاه فى الرَّحَبة يُصلِح فيها شيئا يريده، فأخبره بقصة ابنته وأنشده البيتين، ثم آندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يَقْعُد فوقَ الشمس من كَرَمٍ * قومٌ لَقِيل آقعـدوا يا آل عبّاس

ثم آرتقُوا فى شُعاع الشمس كلُّكمُ * الى السماء فأنتم أطهـرُ النـاس

وقدِّموا القـائمَ المنصورَ رأسَكُمُ * فالعينُ والأنفُ والأُذْنان فى الراس

فاستحسنها وقال : بأىّ شىء تحبُّ أن أُعينَك على قُبْح آبنتك هـذه ؟ فأخرجَ خريطة كان قد خاطها من الليل، فقال : تملأ لى هذه دراهمَ، فمُلِئتْ فوسِعت أربعةَ آلاف درهم .

لمـا تُوفّىَ أبو العباس السفّاح دخل أبو دُلامةَ على المنصور والناسُ عنده يعزّونه، فأنشأ أبو دلامة يقول :

أمسيتَ بالأنْبـار يا ابنَ محمـدٍ * لم تستطِـع عن عُقْرها تحويلا

ويْلى عليك وويلَ أهلى كلِّهم * وَيْلًا وعَوْلًا فى الحياة طويلا

فلتبكِيَنَّ لك النسـاءُ بعَـبْرةٍ * وليبـكِيَنَّ لك الرجال عَويلا

مات النَّدَى إذ مُتَّ يا ابنَ محمدٍ * فجعلته لك فى التراب عَديلا

إنى سألتُ الناسَ بعدك كلَّهمُ * فوجدتُ أسمحَ من سألتُ بخيلا

ألِشِـقْوَتى أُخِّرتُ بعدك للتى * تَدَعُ العزيزَ من الرجال ذليـلا

فلأحلِفنّ يمينَ حقٍّ بَرّةً * بالله ما أُعطِيتُ بعدك سُـولا

فأبكى النّاسَ قولُه ، فغضب المنصور غضبا شديدا وقال : لئن سمعتك تُنْشِد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانَك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لى مُكرِما ، وهو الذى جاء بى من البَدْو كما جاء الله بإخوة يوسف اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسُرّىَ عن المنصور وقال : قد أقلْناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتَك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمرَ لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أَقبِضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممّن حَضَر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجَهْم فقالا : صدق أبو دلامةَ نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبى أيّوبَ الخازن وهو مَغِيظ : ياسليمان ، ادفعها اليه وسيِّره الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن على » وقد كان خرج بناحيــة الشام وأظهر الخلاف ، فوثَب أبو دلامة فقال : يا أميرَ المؤمنين إنّى أعيذك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشئوم ، فقال المنصور : امْضِ ، فإن يُمْنى يَغلِب شؤمَك فاخْرُج ، فقال : والله يا أميرَ المؤمنين ما أحبّ لك أن تجرّب ذلك منّى على مثل هذا العسكر ، فإنّى لا أدرى أيّهما يَغلِب ، أيُمْنُك أم شؤمى ، الا أنى بنفسى أَوْثَق وأَعْرَف وأطْوَل تَجرِبةً ، قال : دعنى من هذا فمالَك من الخروج بُدٌّ ، فقال : إنى أَصْدُقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلُّها هُزِمت وكنتُ سببَها ، فإن شئتَ الآن على بصــيرة أن يكون عسكرُك العشرين فافعل ، فاسْتَغْرَبَ أبو جعفر ضحكا وأمره أن يَتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أُتِىَ بى المنصورُ أو المهدىّ وأنا سكرانُ ، فحلف لَيُخرِجَنّى فى بَعْث حرب ، فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المُهَلّبى لقتال الشُّراة ، فلما التقى الجَمْعان قلت لِرَوْح : أمَا والله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سلاحَك لأثّرتُ فى عدوّك اليوم أثرا تَرتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعنّ ذلك إليك ولآخذنّك بالوفاء بشَرْطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلىّ ودعا بغيرهما فاستَبْدَل بهما ، فلما حصل ذلك فى يدى وزالت عنى حلاوة الطَّمَع قلت له : أيها الأمير هذا مُقام العائذ بك ، وقد قلت أبياتا فاسمعْها ، قالَ : هات ، فأنشدتُه :

إنى استجرتُك أن أُقدَّم فى الوغى * لتطاعُنٍ وتنازُلٍ وحِـراب(١)

فهبِ السيوفَ رأيتُها مشهورةً * فتركتُها ومضيتُ فى الهُـراب

ماذا تقول لِمـا يجيء وما يُرَى * من واردات الموت فى النُّشّاب

فقال : دَعْ عنك هذا وسَتَعلَمْ ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة : فقال : اخرج اليه يا أبا دلامة ، فقلت : أَنشُدك الله أيها الأمير فى دَمى ، قال : والله لتَخرُجنّ ، فقلت : أيها الأمير فإنه أوّلُ يوم من أيّام الآخرة وآخرُ يوم من أيّام الدنيا وأنا والله جائع ما شَبِعَت منّى جارحةٌ من الجوع ، فمُرْ لى بشيء آكلُه ثم أخرُج ، فأمر لى برغيفين ودَجاجة ، فأخذتُ ذلك وبرزتُ عن الصفّ ، فلما رآنى الشّارى أقبل نحوى وعليه فَرْو قد أصابه المطر فابتلّ وأصابته الشمس فاقفعل(٢) وعيناه تَقِدَان ، فأسرع إلىّ ، فقلت له : على رِسْلك ياهذا ، كما أنت ، فوقف ، فقلت : أتقتل من لا يقاتلك؟ قال : لا ، قلت : أتقتل رجلا على دِينك؟ قال : لا ، قلت : أفتستحلّ ذلك قبل أن تدعو مَن تقاتله الى دينـك ؟ قال : لا ، فاذهب عنى الى لعنة الله ، قلت : لا أفعل أو تسمعَ منى ، قال : قُلْ ، قلت : هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ أو تِرَةٌ أو تَعرِفنى بحال تُحفِظُك علىّ أو تعلم بينى وبين أهلك وِتْرا ، قال : لا والله ، قلت : ولا أنا والله أضمِر لك إلا جميل الرأى ، وإنّى لأهواك وأنتحل مذهبك ، وأدِين دينك ، وأريد السوء لمن أرادَه لك ، قال : ياهـذا جزاك الله خيرا فانصرف ، قلت : إن معى زاداً أحبّ أن آكُلَه معك وأحبّ مواكلتكَ لتتأكّدَ المودّةُ بيننا ويرى أهلُ العسكر هَوانَهم علينا ، قال : فافعل ، فتقدّمت اليه حتى اختلفت أعناقُ دوابّنا ، وجمعنا أرْجُلَنا على مَعارفها والناس قد غُلِبوا ضَحِكا ، فلمـا استوفينا ودّعنى ، ثم قلت له : إن هذا الجاهل إن أقامَ على طلب المبارزة ندبنى اليـك فتُتعبنى وتتعب نفسك ، فإن رأيتَ ألّا تبرُز اليوم فافعل ، قال : قد فعلت ، ثم انصرف وانصرفت فقلت لرَوْح : أما أنا فقد كفيتُك قِرْنى ، فقل لغيرى أن يكفيَك قِرنَه كما كفيتك ، فأمسك ، وخرج آخر يدعو الى البِراز ، فقال لى : اخرج اليه ، فقلت :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفى الأغانى « ضراب » .

(٢) هكذا بالأصل ولعلها : اقفعل ، من قولهم اقفعلت يده : تقبضت .

إنى أعـــوذ برَوْح أن يقدّمَنى * الى البِراز فتخزَى بِى بنو أسَــد

إنَّ البِراز الى الأقران أعلمُه * ممـا يفرّق بين الروح والجســد

قد حالفتك المنايا إن صَمَدْتَ لها * وأصبحتْ لجميع الخلق بالرَّصَد

إن المُهَلَّب حبَّ الموتِ أورثكم * وما ورِثتُ آختيارَ الموت عن أحَد

لو أن لى مُهجةً أخرى لجُدتُ بها * لكنها خُلِقتْ فردا فلم أجِد

فضحك وأعفانى .

قال أبو أيّوب المورِيانى لأبى جعفر وكان يشنأُ أبا دلامة : إن أبا دُلامة مُعتكِفٌ على الخمر، فما يَحضُرُ صلاةً ولا مسجدا وقد أفسد فِتيانَ العسكر، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأجِرْتَ فيه وفى غيره من فتيان عسكرك بقطْعِه عنهم، فلما دخل عليه أبو دلامة قال له : ماهذا المُجُون الذى يَبلُغُنى عنك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا والمُجُون وقد شارفتُ بابَ قبرى ! ، قال : دَعْنى من آستكانتك وتضرُّعك، وإيّاك أن تفوتَك الظهر والعصر فى مسجدى، فلئن فاتتاك لأُحسنَنّ أدبَك ولأُطيلنّ حبسكَ، فوقع فى شرّ ولزم المسجد أياما، ثم كتب قصة ودفعها الى المهدىّ فأوصلها الى أبيه وكان فيها :

ألم تعلما أنّ الخليفة لزّنى[1] * بمسجده والقصرِ، مالى وللقصر

أُصَلِّى به الأُولى جميعا وعصرَها * فويلى من الأولى وويلى من العصر

أصليهما بالكُره فى غير مسجدى * فمالىَ فى الأولى ولا العصرِ من أجْر

لقد كان فى قومى مساجدُ جمّةٌ * ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى

يكلّفنى من بعد ما شِبتُ خُطّة * يُحَطّ بها عنّى الثقيلُ من الوِزْر

وما ضرّه واللهُ يغفر ذنبَــه * لوآنّ ذنوب العالمين على ظهرى

فقال : صدق، ما يَضُرّنى ذلك، والله لا يصلى هذا أبدا، فدعوه يعمل ما يشاء .

---

(١) لزه بالشئ : ألزمه إياه .

وقال الهَيْثَمُ فى خَبَره : قد أعفيناك من هذا الحال، ولكن على ألّا تدعَ القيامَ معنا فى ليالى شهر رمضان فقد أظَلَّ، فقال : أفعل، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك والله لئن فعلتَ لأحُدَّنّك، فقال أبو دلامة : البَلِيّة فى شهر أخفّ منها فى طول الدهر، سمعًا وطاعةً، فلما حضر شهرُ رمضانَ لزِم المسجدَ، وكان المهدىّ يبعث اليه فى كل ليلة حَرَسِيًّا يجىء به، فشَقَّ ذلك عليه وفَزِع الى الخَيْزُران والى أبى عبيد الله وكلٍّ من يلوذ بالمهدىّ ليشفعوا له فى الإعفاء من القيام، فلم يجبهم، فقال له أبو عبيد الله : الدالّ على الخير كفاعله، فكيف شُكْرُك؟ قال : أتمُّ شكر، قال : عليك برَيْطة فإنه لا يخالفها، قال : صدقت، ثم رفع اليها رُقعة يقول فيها :

أبلغا رَيْطــةَ أنى * كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمــه الـ * ـله وأوصى بى اليها
وأراها نَسِــيَتْنى * مثل نِسْيانِ أخيها
جاء شهر الصوم يمشى * مِشْيةً ما أشتهيها
قائدًا لى ليـلةَ القد * ر كأنى أبتغيها
تَنطَح القِبْـلةَ شهرا * جَبْهَــتى لا تأتليها
ولقـد عشتُ زمانا * فى فَيافٍ وجيها
فى ليـالٍ من شتاء * كنت شيخا أصطليها
قاعدًا أُوقِــد نارا * لِضباب أشْتَويها
وصَبُوح وغَبُــوق * فى عِلاب أحتسيها
ما أبالى ليـلةَ القـد * ر ولا تُسْــمِعنيها
فاطلبى لى فَـرَجًا منـ * ـها وأجرى لكِ فيها

فلما قرأتِ الرُّقعة ضحكتْ وأرسلتْ اليه : آصطبِر حتى تمضى ليلةُ القدر، فكتب اليها : إنى لم أسألْكِ أن تكلّميه فى إعفائى عاما قابِلا، واذا مضتْ ليلة القدر فقد فَنِىَ الشهر، وكتب تحتها أبياتا :

خافِى إلهَكِ فى نفس قد ٱحتُضِرت * قامت قيامتُها بين المُصَلّينا
ما ليلة القَدْر من هَمّى فاطلبها * إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
ياليلةَ القدر قد كسّرت أرجلَنا * ياليلةَ القدر حقا ما تُمَنّينا
لا بارك الله فى خير أؤمّله * فى ليلةٍ بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأتِ الرُّقعة ضحِكتْ ودخلتْ الى المهدىّ فشَفَعتْ له اليه وأنشدتْه الأبيات، فضَحِك حتى ٱستلق ودعا به ورَيْطةُ معه فى المَجَلّة، فدخل، فأخرج رأسه اليه وقال: قد شَفَعْنا رَيْطةَ فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم، فقال: أما شفاعة سيدتى فىّ حتى أعفيتَنى فأعفاها الله من النار، وأما السبعة الآلاف فما أعجَبَنى ما فعلتَه إما أن تُتِمّها بثلاثة آلاف فتصير عشرة أو تُنقِصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف، فإنى لا أُحسن حساب السبعة، فقال: قد جعلتُها خمسة، فقال: أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت، فعبِث به المهدىّ ساعة، ثم تكلمت فيه رَيْطة، فأتمّها له عشرة آلاف درهم.

شرِب أبو دلامة فى بعض الحانات فسكِر وٱنصرف وهو يميل، فلقيَه العَسَس، فأخذوه وقالوا له: من أنت، وما دينك؟ فقال:

دِينى على دِينِ بَنِى العبّاس * ما خُتِمَ الطينُ على القرطاس
انى ٱصطحَبْتُ أربعًا بالكاس * فقد أدار شُرْبُها براسى
* فهل بما قُلْتُ لكم من باسِ *

فأخذوه ومضَوْا وخرّقوا ثيابَه وساجَه(١)، وأُتِىَ به أبو جعفر، وكان يُؤتَى بكلّ من أخذه العَسَسُ، فحبَسه مع الدَّجاج فى بيت، فلما أفاق جعَل ينادى غلامَه مرّة وجاريتَه مرّة، فلم يُجِبْه أحد، وبينا هو فى ذلك إذ سمع صوت الدَّجاج وزُقاء الدُّيوك، فلما أكثر قال له السجّان: ما شأنك؟ قال: ويلَك من أنت؟ وأين أنا؟ قال: فى الحبس وأنا فلان

(١) الساج: الطيلسان الأخضر، وقيل الأسود.

السجّان ، قال : من حبَسَنى ؟ قال : أميرُ المؤمنين ، قال : ومن خَرَق طَيْلسانِى؟ قال : الحَرَس ، فطلب منه أن يأتيه بدواةٍ وقرطاس ، ففعل ، فكتب الى أبى جعفر :

أميرَ المؤمنينَ فدتك نفسى * علامَ حَبَسْتنى وخَرَقتَ ساجى
أمن صفراءَ صافيــةِ المِزاج * كأن شُـعاعها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبِخت بنار الله حــتى * لقدصارت من النُّطَف النِّضَاج
تَهَشّ لهـا القلوبُ وتشتهيهـا * اذا برزت تَرَقرقُ فى الزجاج
أُقاد الى السجون بغـير جُرمٍ * كأنى بعضُ عُمّـال الخَـراج
ولو معهم حُبست لكان سهلًا * ولكنّى حُبست مع الدّجاج

فدعا به وقال : أين حُبست يا أبا دلامة؟ قال : مع الدجاج ، قال : فمـا كنت تصـنع؟ قال : أُقَوق معهن حتى أصبحتُ ، فضحك وخلّى سبيلَه وأمر له بجائزة ، فلما خرج قال له الربيـع : إنه شرب الخمر يا أميرَ المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طُبِخت بنار الله ، يعنى الشمس؟ فأمر بردّه ، ثم قال : ياخبيث ، شَرِبتَ الخمر؟ قال : لا ، قال : أفلم تقل : طُبِختْ بنـار الله تعنى الشمس ؟ قال : لا والله ما عَنَيْتُ إلا نار الله المُوقَدة التى تطّلِع على فؤاد الرّبيع ، فضحك وقال : خذها يا ربيع ولا تُعاوِد .

صام الناس فى سنة شديدة الحرّ على عهد المهدىّ ، وكان أبو دلامة يَتَنجّزُ جائزةً أمر له المهدىُّ بها ، فكتب اليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحرّ والصَّوْم ، وهى :

أَدْعوك بالرَّحِم التى قد جَمّعتْ * فى القرب بين قريبنا والأبعـد
إلاسمعتَ وأنتَ أكرم من مشَى * من مُنشِد يرجو جَزاءَ المنشَد
جاء الصِّيامُ فصُمْتُه متعبِّدًا * أرجو رَجاءَ الصائم المتعبِّـد
ولَقِيتُ من أمر الصِّيام وحَرّه * أمرين قِيسَا بالعذاب المُوصَد
وسجدتُ حتى جَبْهتى مشجُوجةٌ * مما يُناطحنى الحصا فى المسجد
فامنُنْ بتسريحى بمَطْلك بالذى * أسلَفْتَنِيه من البـلاء المُرصَد

فلما قرأ المهدىُّ رُقْعتَه غضب وقال : أىُّ قرابة بينى و بينك؟ قال : رحمُ آدمَ وحوَّاء، أنَسِيتَهما يا أمير المؤمنين! فضحك وقال : لا والله ما نَسِيتُهما ، وأمر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه، وأنشده أيضا فى ذم الصَّوم :

هَل فى البلاد لرزق الله مُفترَش ٭ أم لا ففى جِلدِه من خُشْنةٍ بَرَش(١)
أضحى الصيام مُنيخًا وسط عَرْصتنا ٭ ليت الصيام بأرض دونها جُرُش
إن صمتُ أوجعنى بطنى وأقلقنى ٭ بين الجوانح مَسُّ الجوع والعطش
وإن خرجت بليلٍ نحو مَسجدهم ٭ أضرَّنى بَصَر قد خانه العَمَش

دخل أبو دلامة على سعيد بن دَعْلَج مولى بنى تميم فقال :

إذا جئتَ الأميرَ فقل سلامٌ ٭ عليك ورحمةُ الله الرحيم
وأما بعد ذاك فلى غريمٌ ٭ من الأعراب قُبِّح من غريم
غريم لازمٌ بِفناء بيتى ٭ لزومَ الكلب أصحابَ الرَّقيم
له مائة علىَّ ونِصفُ أُخرى ٭ ونِصف النِّصف فى صَكٍّ قديم
دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكن ٭ وصلتُ بها شيوخَ بنى تميم
أتَوْنى بالعشيرة يسألونى ٭ ولم أكُ فى العشيرة باللئيم

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : ما أساء مَن أنصفَ، وقد كافأتُك عن قومك وزدتُك مائة .

دخل أبو دلامة على المهدىِّ فأنشده قصيدتَه فى بَغلته المشهورة :

أتانى، بغلةً يَستام منّى، ٭ عَريقٌ فى الخَسارة والضَّلال
فقال تَبيعها قلت ٱرتَبِطْها ٭ بحُكمك إن بَيعى غيرُ غال
فأقبل ضاحكا نحوى سرورا ٭ وقال أراك سَمْحًا ذا جَمال
هلمَّ إلىَّ يخلو بى خداعا ٭ وما يدرى الشقىُّ لمن يُخالى

(١) البرش : نقط بيض فى الجلد .

فقلتُ بأربعين، فقال أحسنْ * إلىّ فإن مثلك ذو سِجال

فأترك خمسة منها لعلمى * بما فيه يصير من الحِبال

فقال المهدى : لقد أفلتَّ من بلاء عظيم، قال : والله ياأمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقع صاحبها أن يردّها، ثم أنشده :

فأبدِلْنى بها يا ربّ طِرفًا * يكون جمالُ مَرْكَبِه جمالى

فقال لصاحب دوابّه : خيِّره من الإصطبل بين مركبين، قال : يا أمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لى وقعتُ فى شرّ من البغلة، ولكن مُرْه أن يختار لى، فاختار له .

خاصم رجل أبا دلامة فى داره فارتفعا الى عافيةَ القاضى، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمَتْنى دُهاةُ الرجال * وخاصمتُها سَنَةً وافيه

فما أدحَضَ الله لى حجّةً * ولا خيَّبَ الله لى قافيه

ومن خِفت من جَوْره فى القضاء * فلست أخافك يا عافيه

فقال له عافية : والله لأشكونّك الى أمير المؤمنين ، ولأعلمنّه أنك هجوتنى ، قال : إذًا يَعزِلك، قال : ولِمَه؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهِجاء، فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر لأبى دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهدىّ وعنده إسماعيل بن محمد و عيسى بن موسى والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن ابراهيم الإمام و جماعة من بنى هاشم فقال له : أنا اعطى الله عهدا لئن لم تَهْجُ واحدا ممّن فى البيت لأقطعنّ لسانك، فنظر اليه القوم، فكلما نظر الى واحد منهم غمزه بأن عليه رِضاه، قال أبو دلامة : فعلمت أنى قد وقعت وأنها عَزْمة من عزَماته لابد منها، فلم أر أحدا أحقّ بالهِجاء منّى، ولا أدْعَى الى السلامة من هِجاء نفسى، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامه * فليس من الكِرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كان قِردا * وخنزيرا إذا نزع العمامه

جمعتَ دمامة وجمعتَ لؤما * كذاك اللؤم تتبعه الدَّمامه
فإن تك قد أصبتَ نعيمَ دنيا * فلا تفرح فقد دنتِ القيامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

خرج المهدى وعلىّ بن سليمان الى الصيد، فسنح لهما قطيع من الظباء، فأرسلت الكلاب وأُجريت الخيل، فرمى المهدى ظبيا بسهم فصرعه، ورمى علىّ بن سليمان، فأصاب بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة :

قد رَمَى المهدىّ ظبيا * شكّ بالسهم فؤاده
وعلىّ بن سليما * ن رمَى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كـ * ـلُّ امرئ يأكل زاده

فضحك المهدى حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلامة، وأمر له بجائزة سنيّة، فلُقّب علىّ بن سليمان صائدَ الكلب، وعلق به .

أنشد أبو دلامة المنصورَ يوما :

هاتيك والدتى عجوزٌ همّةٌ (١) * مثل البليّة درعها فى المِشْجَب (٢)
مهزولةُ اللَّحيين من يرها يقل * أبصرتُ غُولا أو خيالَ القُطْرُب (٣)
ما إن تركتَ لها ولا لابنٍ لها * مالًا يؤمَّل غير بكرٍ أجرب
ودجائجًا خمسا يرحْن اليهمُ * لمّا يبضن وغير عنز مُغْرُب (٤)
كتبوا الىّ صحيفة مطبوعة * جعلوا عليها طينة كالعقرب
فعلمت أن الشرّ عند فكاكها * ففككتُهاعن مثل ريح الجورب
واذا شبيه بالأفاعى رقّشت * يُوعِدْننى بتلمّظ وتثوّب
يشكون أن الجوع أهلك بعضهم * لزبا فهل لك فى عيال لُزَّب

(١) همة : هرمة . (٢) المشجب : خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر .
(٣) القطرب : ذكر الغيلان . (٤) المغرب : الأبيض من كل شىء .

لا يسألونك غيرَ طَـلّ سحابةٍ * تغشاهمُ من سَـيلك المُتحلّب

يا باذلَ الخيرات يابنَ بَذُولها * وابنَ الكِرام وكلِّ قَرْمٍ مُنْجِب

أنتم بنو العباس يُعْلَم أنكم * قِدَمًا فوارسُ كل يوم أشْهَب

أحْلاس[1] خيل الله وهى مُغيرة * يَخْرُجْنَ من خَلَل الغُبار الأكْهَب

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبة من قصره، فأمر أن تزاد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته اليها، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قولَه :

يابن عمّ النبىّ دعوةَ شيخٍ * قـد دنا هَـدْمُ داره ودَمَارُهْ

فهو كالماخض التى آعتادها الطَّلْـ * ـقُ فقــرّتْ وما يَقِـرّ قراره

إن تُحِزْ عُسْرةٌ بكفَّيـك يوما * فبكفَّيـك عُسْره ويَسـاره

أو تَدَعْـه فللبَـوار وأنَّى * ولمــاذا وأنتَ حىّ بَوَاره

هل يخاف الهلاكَ شاعرُ قومٍ * قُدِّمتْ فى مَديحهم أشعاره

لكم الأرض كلُّهـا فأعِيروا * شيخَكم ما آحتوى عليه جِداره

فكأنْ قد مضى وخلّف فيكم * ما أعرتم وأقْفَرتْ منه داره

فاستعبر المنصورُ وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهـدىّ يوما وعنده مُحْرِز ومُقاتِل آبنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبـه أبا دلامة ويَعيبانه عنده فقال :

ألا أيها المهدىّ هل أنت مُخبِرِى * وإن انت لم تفعل فهل أنت سائلى

ألم ترجم اللَّحْيَيْنِ من لِحيَتَيهما * وكلتاهمــا فى طولها غير طائل

وإن أنت لم تفعل فهل أنت مُكرِمى * بحلقهما من مُحْرِزٍ ومُقـاتِل

فان يأذن المهدىّ لى فيهما أقُلْ * مقالا كوقع السيف بين المَقَاتل

وإلّا تَدَعْنى والهمــومُ تنوبُنى * وقلبى من العِلْجَيْن جمُّ البَـلابل

(١) يقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها .

فقال : أو آخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يَفديان بهما أعراضهما منك ، قال : ذلك الى أمير المؤمنين، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون، فدفع اليها رُقعة قد كتبها الى الخَيْزُرَان فيها :

أبلِغى سيّدتى بالله ٭ يا أمَّ عَبيده

أنها أرشدها الله ٭ وإن كانت رشيده

وعدتنى قبل أن تخرج للحج وليده

فتأنيت وارسلت ٭ بعشرين قصيده

كلما أخلَقْن أخلفت ٭ لها أخرى جديده

ليس فى بيتى لتمهيد فراشى من قعيده

غيرُ عجفاءَ عجوزٍ ٭ ساقها مثل القديده

وجهها أقبح من حُوت طرىٍّ فى عصيده

ما حياةٌ مع أنثى ٭ مثل عُرسى بسعيده

فلما قُرئت عليها الأبيات ضحكت وآستعادتها منه لقوله : «حُوت طَرِىٍّ فى عصيدة» وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدىّ فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هل بَقِىَ أحد من أهلى لم يَصلك؟ قال : إن أمنتنى أخبرتك وإن أعفيتَنى فهو أحبُّ إلىّ، قال : بل تُخبرنى وأنت آمن، قال : كلهم قد وصلنى إلا حاتم بنى العبّاس، قال : ومن هو؟ قال : عمُّك العبّاسَ ابن محمد، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جَأْ عُنُقَه، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : تَنَحَّ يا عبدَ السُّوء لا تُخنِثْ مولاك وتَنكُثْه عهدَه وأمانَه، فضحك المهدىّ وأمر الخادم فتنحّى عنه، ثم قال لأبى دلامة : ويلَك! والله عمّى أبخلُ الناس، فقال أبو دلامة : بل هو أسخَى الناس ، فقال له المهدىّ : والله لو مُتَّ ما أعطاك شيئا، قال : فإن أنا أتيته

فأجازنى ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم ، فانصرف أبو دلامة فحبّر للعباس قصيدةً ، ثم غدا بها عليه وأنشده :

قِف بالديار وأىّ الدهر لم تقِف * على المنازل بين الظَّهْرِ والنَّجَف
وما وقوفك فى أطلال منزلة * لولا الذى آستدرجتْ من قلبك الكَلِف
ان كنت أصبحت مشغوفا بساكنها * فلا وربّك لا تَشفيك من شغَف
دَعْ ذا وقُلْ فى الذى قد فاز من مُضَر * بالمكرُمات وعزٍّ غيرِ مُقتَرَف
هـذى رسالة شيخ من بنى أسـد * يُهدِى السلام الى العباس فى الصُّحُف
تخُطّها من جوارى المصر كاتبةٌ * قد طالما ضَربتْ فى اللام والألف
وطالما اختلفتْ صَيْفا وشاتيةً * الى مُعلّمها باللَّوح والكَتِف(١)
حتى اذا نَهَدَ الثَّدْيان وآمتلا * منها وخِيفت على الإسراف والقَرَف
صِينت ثلاثَ سنينٍ ما تَرَى أحدا * كما يصون تجارٌ دُرّةَ الصَّدَف
فبينا الشيخَ يهوى نحوَ مجلسه * مُبادِرا لصلاة الصبح بالسَّدَف(٢)
حانت له لمحةٌ منها فأبصَرها * مُطِلّةً بين سِجفَيْها من الغُرَف
فخرَّ والله ما يدرى غَداتئذ * أخَرَّ مُنكشِفًا أم غيرَ منكشف
وجاءه الناس أفواجا بمائهـمُ * ليَغْسِلوا الرجل المَغْشِىَّ بالنُّطف
ووسوسوا بقُرانٍ فى مسامعه * مخافةَ الجنُّ والإنسانُ لم يخَف
شيئا ولكنه من حبّ جارية * أمسَى وأصبح موقوفا على التلف
قالوا لك الويلُ ما أبصرتَ قلت لهم * تطلّعتْ من أعالى القصر ذى الشُّرَف
فقلت أيُّكمُ والله يأجُره * يُعين قوته فيها على ضَعَف
فقام شيخ بَهِىٌّ من رجالهمُ * قد طالما خدَع الأقوام بالحَلِف
فابتاعها لى بألفىْ درهمٍ فأتى * بها الىّ فألقاها على كَتِفى

(١) الكتف : عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس .
(٢) السدف : الضوء واقبال الصبح .

فبين ذاك كذا إذ جاء صاحبها . * يبغى الدراهم بالميزان ذى الكفف
وذكر حق على زند وصاحبه * والحق فى طرف والطين فى طرف
وبين ذاك شهود لا يضرهم * أكنت معترفا أم غير معترف
فإن يكن منك شىء فهو حقهم * أو لا فإنى مدفوع الى التلف

فضحك العباس وقال : ويحك ! أصادقٌ أنت ؟ قال : نعم والله، قال : ياغلام آدفع اليه ألفى درهم ثمنها، فأخذها ثم دخل على المهدى فأخبره القصة وما آحتال له ، فأمر له المهدى بستة آلاف درهم، وقال له المهدى : كيف لايضرهم ذلك؟ قال : لأنى مُعْدِم لا شىء عندى .

دخل على إسحاق الأزرق يعوده، وكان إسحاق قد مرض مرضا شديدا ثم تعافى منه وأفاق، فكان من ذلك ضعيفا وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تُقَوّى بدنه ، فقال أبودلامة للطبيب : أتصف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض؟ ما أردتَ والله إلا قتله ، ثم آلتفت الى إسحاق فقال : اسمع أيها الأمير منّى ، قال : هاتِ ما عندك يا أبا دلامة، فأنشأ يقول :

نَحِّ عنك الطبيب وآسمع لِنَعتى * إننى ناصح من النُّصّاح
ذوتجاريبَ قد تقلبتُ فى الصحـ * ـة دهرا وفى السَّقام المُتاح
غادِ هذا الجَنَابَ كلَّ صباح * من مُتُون الفَتِيَةِ السَّحّاح
فاذا ما عَطِشتَ فاشرب ثلاثا * من عتيق فى الشَّم كالتُّفاح
ثم عند المَساء فآعكُف على ذا * وعلى ذا بأعظم الأقداح
فَتُقَوّى ذا الضَّعف منك وتَلْق * عن ليال أصحَّ هذى الصِّحاح

فضحك إسحق وعُوّاده وأمر لأبى دلامة بخمسمائة درهم ، وكان الطبيب نصرانيًا فقال : أعوذ بالله من شرك ياركل «يريد يارجل» وقال الطبيب : اقبل منى أصلحك الله

ولا تسألنى عن شيء قُدَّامَه، فقال أبو دلامة : أمَا وقد أخذتُ أجرة صَفْقَتى وقضيت الحق فى نُصْح صديق فانعتْ له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهدى وبين يديه سَلَمَة الوَصيف واقفا، فقال: إنى أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهْرًا ليس لأحد مثله، فان رأيتَ أن تُشرِّفنى بقبوله، فأمر بإدخاله اليـه، فخرج وأدخل اليـه دابّته التى كانت تحته، فاذا بِرْذَوْن محطَّم أعجَف هَرِم، فقال له المهدى : أىّ شيء هذا؟ ألم تزعُم أنه مُهْر؟ قال له : أو ليس هذا سلمة الوصيف بين يديك قائمـا، تسمّيه الوصيف وله ثمانون سنة، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سلمة وصيفا فهذا مُهْر، فجعل سلمةُ يَشْتُمه والمهدى يضحك، ثم قال المهدى لسلمة : ويلك! إن لهـذه منه أخَوَات، وإن أتى بها فى مَحْفِل فَضَحك، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين، فليس من مَواليك أحد إلا وقد وصلنى غيرُه، فانى ما شربت له المـاء قطُّ، قال : فقد حكمت عليه أن يشترىَ نفســه منك بألف درهم حتى يتخلّص من يدك، قال : قد فعلت على ألّا يعاود، فقال له : ما ترى؟ قال : أفعـل، فلولا أنّى ما أخذت منه شيئا قطُّ ما فعلت معه مثل هذه، فمضى سلمة فحملها اليه .

٥ — أبان بن عبد الحميد اللاحقى[١]

ذكرنا فى المجلد الأول أن أبَانَ كان صديقًا للبرامكة متصلا بهم أشدّ اتصال، يستشيرونه ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم، جدّها وهزلها، صعبها وهيّنها. وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمى، وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصّلات. فغضب الشعراء لذلك، وكان أشدّهم غضبا أبو نواس الذى كان يكره البرامكة كرها شديدا، وكانت بينه وبين أبان مهاجاةٌ ذكرها صاحب الأغانى.

وكان أبان صديقا للمعذّل بن غَيْلان، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء، فيهجوه المعذّل بالكفر وينسُبه الى الشؤم. ويهجوه أبان وينسُبه الى الفُسَاء الذى تُهْجَى به عبد القيس وبالقِصَر، وكان المعذل قصيرا. فسعى فى الإصلاح بينهما أبو عُيَينة المهلّبىّ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه: يا أخى إن فى هذين شرًّا كثيرا ولا بد من أن يُخرجاه، فدعهما ليكون شرّهما بينهما وإلّا فرّقاه على الناس.

ومن قوله يهجو أبا النضير:

اذا قامتْ بواكيكْ * وقد هتّكن أستاركْ
أيُثْنِين على قبرِ * كَ أم يلعَنّ أحجارَكْ
وما تتركُ فى الدنيا * اذا زرتَ غدًا نارَكْ
ترى فى سَقَرَ المَثْوى * وإبليسَ غدًا جارَكْ
بلى تتركُ باكيكْ * ودنياكَ وأوتارَكْ
وخمسًا من بنات اللّيـ * ـل قد ألبسنَ أطمارَكْ
تعالى الله ما أقبـ * ـح إذ ولّيتَ أدبارَكْ

---

(١) تجد ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كليلة ودمنة. وقد أضفنا هنا مالم نذكره فى ترجمته هناك.

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدّة مديدة لا يصل اليه ، فتوسّل الى من وصّل له شعرا اليه ، وقال له :

يا عزيزَ النّدى ويا جوهرَ الجو * هرِ من آل هاشمٍ بالبِطَاح
إنّ ظنّى ، وليس يُخلِف ظنّى * بك فى حاجتى سبيلَ النّجاح
إنّ من دونها لمُصمَتَ بابٍ * أنت من دون قُفْله مِفتاحى
تاقت النفسُ يا خليلَ السّماح * نحو بحر النّدى مُجارِى الرياح
ثم فكّرتُ كيف لى واستخرتُ ا * للهَ عند الإمساء والإصباح
وامتدحتُ الأميرَ أصلحه ا * للهُ بشعر مُشهَّر الأوضاح

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعْجَب بنفسه ، مدلٌّ بعلمه وأدبه ، تياه لا حدّ لتيهه وغروره :

أنا من بغية الأمير وكنزٌ * من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ * ناصحٌ زائدٌ على النُّصّاح
شاعرٌ مُفْلِقٌ أخفّ من الريـ * ـشة مما يكون عند الجَنَاح

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أبانُ شديدَ الحِرص على المال يُضَحِّى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العَقِيدةُ والرأى . وكانَ يحسُد مَرْوانَ بن أبى حَفْصة لمكانه من الرشيد ولظَفَره بالصِّلات الضخمة والجوائز السنية ؛ فقد انتهى الأمر ببنى العبّاس مع مروان بن أبى حَفْصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاظ ذلك أبانَ وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مَرْوان ، فعاتَبَ أبانُ البرامكةَ على تركهم إيصالَه للرشيد وإيصالَ مديحه اليه ؛ فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظَى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إنّ لذلك مذهبا فى هجاء آل أبى طالبٍ وذمِّهم ، به يَحْظى وعليه يُعْطى ، فاسلكه حتى تفعل ؛ قال : لا أستحلّ ذلك ؛ قالوا : فما تصنع ، لا يَجِىء طلب الدنيا إلا بما لا يحلّ ! فقال أبان :

نَشَدتُ بحقِّ اللهِ مَنْ كانَ مُسْلِماً * أَعُمُّ بِمَا قد قُلْتُهُ العُجْمَ والعَرَبْ
أَعَمُّ رسولِ اللهِ أقربُ زُلْفَةً * لَدَيهِ أم ابْنُ العَمِّ فى رُتْبَةِ النَّسَبْ
وأَيُّهما أَوْلَى بِهِ وبعَهْدِهِ * ومَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التُّراثِ بما وَجَبْ
فإن كانَ عَبَّاسٌ أحقَّ بتلكُمُ * وكانَ علىٌّ بعد ذاك على سَبَبْ
فأبناءُ عبَّاسٍ هُمُ يَرِثُونَهُ * كما العَمُّ لابنِ العَمِّ فى الإرْثِ قد حَجَبْ

وهى طويلة .

فقال الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليومَ شىء أَعْجَبُ من أبياتك . فركِبَ فأنشدها الرشيدَ ، فأمَرَ لأبان بعشرين ألف درهم . ثم اتَّصلَ مدحُه للرشيد بعد ذلك وخُصَّ به .

وكان أبان هَجَّاء قبيحَ اللسان ، وكان مع هذا شِرِّيرًا قاسيًا يُؤْثِر الشرَّ ويجدُ فيه لذَّة . وقد رَوَى له أبو الفرج قصةً تُمَثِّل نصيبه من القسوة وحبِّ الشرِّ ، كما أنها تعطينا صورة من شعره ومن الحياة فى عصره . قالوا : كان يُقيم بالقُرْب من أبان رَجُلٌ ثَقَفِىٌّ يقال له : محمد ابن خالد ، وكان عَدُوًّا لأبان ، فتزوج محمدٌ هذا ثَقَفِيَّةً معروفةً هى عَمَّارة بنت عبد الوهاب ، وكانت عمارة غَنِيَّةً موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التى بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لما رأيتُ البزَّ والشارَهْ * والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّرَ يُرْمَى به * من فَوق ذى الدار وذى الدارَهْ
وأحضَرُوا المُلْهِينَ لم يتركوا * طَبْلًا ولا صاحبَ زَمَّارَهْ
قلتُ : لماذا قيل : أعجوبةٌ * محمدٌ زُوِّجَ عَمَّارَهْ
ما ذا رأتْ فيه وما ذا رَجَتْ * وهى من النِّسْوانِ مُخْتارَهْ
أَسْوَدُ كالسُّفُّودِ يَنْسَى لدى التَّنُّورِ بل مِحْرَاكُ قَيَّارَهْ(1)
يُجْرِى على أولاده خمسةً * أرغفةً كالريش طيَّارَهْ

(1) القيارة : محل إسالة القار .

وأهـلهُ فى الأرض من خوفه * إن أفرطوا فى الأكل سيّارهْ

ويحكِ يقِني واعصى ذا به * فهــذه أختُــك فــرّارهْ

اذا غفا بالليـل فاستيقظى * ثم آطفِـرى (١) إنك طفّارهْ

فصــعدتْ نائلــةً سُلّمًا * تخاف أن تَصعَدَه الفارهْ

"سرورُ" غرّتها فلا أفلحتْ * فإنهـا الخنـاء غــرّارهْ

لو نلت ما أبعدت من ريقها * إنّ لهـا نَفثَــةَ سحّارهْ

فلما بلغت هذه القصيدة عمّارة هَرَبت، فحُرِم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيرة التى أولها * فصعدت نائلة سلما * زادها فى القصيدة بعد أن هربت .

جلس أبان ليلة فى قوم فثَلَبَ أبا عُبَيْدة فقال : يقدح فى الأنساب ولا نسب له . فبلغ ذلك أبا عبيـدة فقال فى مجلســه : لقد أغفل السلطان كل شىء حين أغفل أخذ الجزية من أبان اللاحق ، وهو وأهـله يهود ، وهـذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيهـا مصحف ، وأوضحُ الدّلالة على يهـوديتهم أن أكثرهم يدَّعى حفـظ التـوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلّى به . فبلغ ذلك أبان فقال :

لا تثِقَنَّ عن صديق حديثا * وآســتعِذْ من تسرُّر النمّامِ

وآخفِضِ الصوتَ إن نطقتَ بليلٍ * وآلتفِتْ بالنهار قبـلَ الكلامِ

قال عيسى بن اسماعيل : كنا فى مجلس أبى زيد الأنصارى فذكروا أبان بن عبد الحميد، فقالوا : كان كافرا، فغضب أبو زيد وقال : كان جارى فما فقدت قراءته فى ليلة قط .

⁂

وكان أبان يفوق الشعراء فى شىء نحسب أنه هو الذى سبق اليه، فقد ابتكر فى الأدب العربى -فنًّا لم يتعاطَه أحد من قبله، وهو فنّ الشعر التعليمى- طرَق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين. وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهُل عليهم

(١) طفر : وثب فى آرتفاع .

حفظُه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفرٌ بأن يكون راويتَه . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصُّولى . وفى هذا الكتاب قطعةٌ صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التى رواها أبو الفرج . وها هى ذى :

هـذا كتابُ كَذِبٍ ومِحْنَـهْ * وَهُوَ الذى يُدْعَى كَلِيلَه دِمْنَهْ
فِيـه دَلالاتٌ وفيـه رُشْـدُ * وهو كتابٌ وَضَعَتْهُ الهِنْـدُ
فَوَصَـفُوا آدابَ كُلِّ عَالَمِ * حِكَايَةً عن أَلْسُنِ البهائمِ
فالحكماءُ يَعْرِفون فَضْلَهُ * والسخفاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ
وهْـوَ على ذاكَ يَسِيرُ الحِفْظِ * لَذٌّ على اللسانِ عِنْدَ اللفظِ
يا نفس لا تشاركى الجهّالا * فى حبّ مذمومٍ كأنْ قد زالا
يا نفسُ لا تَشْقَىْ ولا تَعَنَّىْ * فى طلب الدنيا ولا تمعَنَّىْ
ما لم ينـلْه أحـدٌ إلا نَدِمْ * اذا تولّى ذاك عنه وسَدِمْ (١)
دنياكِ بالأحباب والإخوانِ * كثيرة الآلام والأحزانِ
وهى وإن نِيل بها السرورُ * آفاتُها وغمُّها كثيرُ
يا نفس لا يحمِلْكِ حبُّ أهدِ * ولا أَدانيك على أن تَهلِكي
فى جمع ما يرضيهمُ فإنه * يضرب من أمثال ذاك الدُّخْنَهْ (٢)
ينال قوم عَرْفَها وتحترقْ * رأىٌ به يرضى أخو الرأى الحَمِقْ
وجدتُ ذا النُّسْكِ الذى قد فكّرا * فزاده تفكيرُه توقُّرا
وقلَّ لمّا رضىَ آهتمامُهُ * وتمّ من سروره تمامُهُ

(١) ندم وحزن . (٢) الدخنة : بخور يدخن به الثياب أو البيت وفى الأصل : «الدجنة» بالجيم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يُقاسى الكدَّ من أنصابها
فعندها نجا من الشرورِ * ونال أقصى غايةِ السرورِ
ثم سخت عن كلّ فانٍ نفسُهُ * فلقىَ السعدَ وغاب نحسُهُ
وأبصر الثوابَ فى القيامهْ * فأمن الحسرةَ والندامهْ
ومثَلُ الدنيا كبرقِ الخُلَّب * من يغتررْ منه بسَقْيٍ يُكذَب
وهو قياسا مثلُ نوم النائمِ * تُفرِحهُ أضغاثُ حُلْمِ الحالمِ
حتى اذا آستيقظ صار همّا * ما كان فى النوم به ألمَّا
فكيف بالصبر على أيّامِ * عمّا قليلٍ هُنَّ لانصرامِ
وكيف والدنيا بلاءٌ كلّها * لا يأمن الآفاتِ فيها أهلُها
أشهد أن الله فردٌ واحدُ * أقرّ أو أنكرَ ذاك جاحدُ
ليس له كفوا ولا نِدًّا أحدْ * لم يَلِدِ اللهُ ولا له ولدْ
وإنى بما عملت مرتهنْ * ما كان منه من قبيحٍ وحسَنْ

من باب الأسد والثور

وإنّ من كان دنىَّ النفسِ * يرضى من الأرفع بالأخسّ
كمثلِ الكلب الشقىِّ البائسِ * يفرحُ بالعظم العتيق اليابسِ
وإن أهلَ الفضل لا يُرضيهمُ * شىءٌ اذا ما كان لا يعنيهمُ
كالأسد الذى يصيد الأرنبا * ثم الى العَيْرِ(١) المجدّ هربا
فيرسلُ الأرنبَ من أظفارهِ * ويتبع العيرَ على أدبارهِ
والكلب من رِقّته تُرضيهِ * بلقمةٍ تقذفها فى فيهِ
فمن يعش ما عاش غيرَ خاملْ * له سرورٌ دائمٌ ونائلْ
فهو وإن كان قصيرَ العمرِ * أطولُ عمرا من حليف فقرِ
ومن يعش فى وحشةٍ وضيقِ * وقلّة المعروفِ فى الصديقِ

(١) فى الأصل "ثم للعير" والعير: الحمار .

فهو وإن عُمِّرَ طولَ دهرِهِ * ليس بمغبوطٍ بطولِ عمرِهِ
وقيل أيضا إنه قد ينبغي * للرجل الفاضل فيما يبتغي
ألّا يُرَى إلا مع الأملاكِ (١) * أو يعبدَ اللهَ مع النُّسّاكِ
كالفيل لا يصلحُ إلا مَرْكبا * لملك أو راعيًا مسيّبا
قال له السبعُ لقد سمعتُ * وكلّ ما تقول قد فهمتُ
لكنني لستُ أظنّ ما تظنّ * بالثور من غشٍّ بل ظنّي حسن (٢)
قال له دمنةُ من ثَمّ أُتِي * وهذه مَنْ حالُهُ هي التي
رفعتَه حتى تعدّى طورَه * وكان هذا لك منه شكره
وتلك أخلاق اللئيم الفاجرِ * الكافرِ المغرورِ غيرِ الشاكر
ما إن يزال ناصحا نفّاعا * حتى يرى من حاله ارتفاعا
فعندها يسمو الى ما فوقَها * الى التي لا تستطيع أوقَها (٣)
وربما كان هلاكُ الشجرِ * في حُسْنِ الغصن وطيب الثمرِ
وذنب الطاووس فهو زَيْنُهُ * كذاك أحيانا وفيه حَيْنُهُ
وباذل النصح لمن لم يشكرْهُ * كطارحٍ في سَبَخٍ ما يبذُرُهُ
لا خير للعاقل في ذي المَنْظَرَهْ * إن هو لم يحمَدْهُ عند المَخْبَرَهْ
وليس في الصديق ذي الصفاءِ * خيرٌ اذا لم يك ذا وفاء
الرجلُ العاقلُ من لا تُسكِرُهْ * كأسُ سموٍّ واقتدار يبطِرُه (٤)
فالجبلُ الثابتُ في أصولِهِ * لا تقدِرُ الريحُ على تحويلِهِ
والناقصُ العقلِ الذي لا رأيَ لَهْ * يطغى إذا ما نال أدنى منزلَهْ
مثلُ الحشيش أيّما ريحٍ جرتْ * مالت به فأقبلتْ وأدبرتْ
الأهلُ والإخوان والأعوانُ * عند ذوي الأموال حيث كانوا

---

(١) الأملاك : الملوك . (٢) كذا في الأصل ولعله : «بل الظن الحسن» .
(٣) أوقها : ثقلها . (٤) في الأصل هكذا "سطره" .

والمال هادى الرأى والمروهْ * وهو على كل الأمور قوهْ
والمالُ فيه العزُّ والجمالُ * والذلُّ حيث لا يكون المالُ
وربما دعا الفقيرَ فقرُه * الى التى يُحبَطُ فيها أجرُه
فيخسر الدِّينَ كما كان خسرْ * دنياه والخسران ما لا ينجبرْ
وليس من شىء يكون مَدْحا * لذى الغنَى إلا يكون بَرْحا
على الفقير ويكون ذمَّا * كذاك يُدْعَى وبه يُسمَّى
فإن يكن نجدًا يقولوا أهوجُ[1] * كذاك عند الحرب لا يعرِّجُ
وهو إذا كان جوادًا سيّدا * سُمِّىَ للفقر مُضيعاً مُفسِدا
أو يك ذا حِلم يُقَل ضعيفُ * أو يك بسّاما يُقَل سخيفُ
الرجلُ العاقلُ فيما يُسدِى * مغتبطُ بكسبه للحمدِ
لأنه باع قليلا فانيا * واعتاض من ذاك كثيرا باقيا
فاغبطُ الناسِ الكثيرُ نائلُهْ * ومدركُ النجح لديه سائلُهْ
فلا تعُدَّنْ ذا غنًى غنيّا * حتى يكونَ ماجدا سريّا
واعلم بأنَّ الملكَ المشاورا * ذا العقل فيما نابه المؤازرا
فإنه يُعضَدُ بالتأييد * يَغْنَى به عن كثرة الجنودِ
والحازمُ التابع أمرَ الحَزَمَهْ * النصحاءِ غيرِ أهل التُّهَمَهْ
يزداد حزما بهمُ ورُشْدا * زيادةَ البحر إذا ما مُدَّا
بما يُصَبّ فيه من أنهارِهِ * حتى يهيجَ الموجُ من تيّارِهِ
والموتُ من مات كريما صابرا * خيرٌ من العيش ذليلا صاغرا

ولم ينقل لنا الصّولىّ فى كتابه إلا هذه القطعة . ويعدّ أبان فى هذا ناظما لكتاب معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة، روى منها الصّولىّ طرفا .

(١) الهوج : الحمق . وفى الأصل : «لهوج» باللام وهو تحريف .

فقيل لأبان بعد أن نظم كليلة ودمنة : ألا تعمل شعرا فى الزهد ؟ فعمل قصيدة مزدوجة فى الصيام والزكاة . وترجمتها :

"قصيدة الصيام والزكاة * نقلُ أبان من فم الرواة"

وها هى ذى القصيدة :

هذا كتابُ الصوم وهو جامعُ * لكلّ ما قامت به الشرائعُ
من ذلك المُنْزَلُ فى القرآنِ * فضلا على من كان ذا بيانِ
ومنه ما جاء عن النبىّ * من عهده المتّبَع المرضىّ
صلّى الإلهُ وعليه سلّما * كما هدَى اللهُ به وعلّما
وبعضُه على آختلاف الناسِ * من أثرٍ ماضٍ ومن قياسِ
والجامعُ الذى اليه صاروا * رأى أبى يوسف مما آختاروا
قال أبو يوسف أمّا المفترَضْ * فرمضانُ صومُه اذا عَرَضْ
والصوْم فى كفّارة الأيمانِ * من حيثُ ما يجرى على اللسانِ
ومَعَهُ الحجّ وفى الظِّهارِ[1] * الصوْم لا يُدفَع بالإنكارِ
وخطأ القتل وحَلْق المُحرِمِ * لراسه فيه الصيامُ فافهمِ
فرمضانُ شهرُه معروفُ * وصومُه مفترَض موصوفُ[2]
والصوم فى الظهار ان لم يَقدِرِ * مظاهِرٌ يوما على محرَّرِ
والقتلُ إن لم يكُ عَمْدا قَتْلُهُ * فإنّ ذاك فى الصيام مثلُهُ
شهران فى العِدّةِ كاملانِ * متّصلان لا مفرّقانِ
والحِنْثُ فى روايةٍ مقبولهْ * ثلاثةٌ أيامُها موصولهْ
ومثلُها فى عدّة الأيامِ * لمُحرِمِ الحالِق فى الإحرامِ
ثلاثةٌ يصومها إن حلقا * لا بأس إن تابعها أو فرّقا

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من آمرأته اذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، فكنّى بالظهر عن البطن تأدبا .

(٢) فى الأصل : "موطوف" .

والصومُ فى المُتعة ان لم يجـدِ * هدْيًا وكان بالصيام يفتـدى
صـيامُ أيامٍ مؤقتـاتِ * ثلاثةٍ فى الحج مفـروضاتِ
وبعد ما يرجع صومُ سبعه * عشـرةٌ كاملة فى المتعـه
أمّا الثـلاثةُ التى فى الحجّ * فكان مَنْ أدركتُ من محتجّ
أو غيرُه ممن يَرَى أن يرويَهْ * يقول يوما قبـل يوم التَّروِيَهْ
ويومها وصـوم يومِ عرفَهْ * مؤتلفاتِ الصـوم لا مختلفَـهْ
قالوا وإن أحبَّ أن يُفـرِّقا * فذاك ما ليس عليـه ضيِّقا
إن كان ذاك الصوم منه بعدما * يكون فى عُمـرَتِهِ قـد أحرما
ولو أراد الصـومَ فى شوّالِ * من بعـد أن يوجب بالهلالِ
عمـرتَه لكان ذاك مُجزِيا * بذاك يُفتَى من أتى مسـتفتيا

وهى طويلة جدّا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدّب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلا . وليس من شك فى أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة حينما نظم كليلة ودمنة قد أطمعته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميـد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولى : حدثنى محمد بن زياد قال : كانت فى عبد الصمد بن المعذّل عربدة اذا سكر، فعربد يوما فى مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان، وكان أيِّدا[1]، فقال لهم : كِلُوه إلىّ وحدى، وأخذه وكتفه وجعله فى بيت وأغلق بابه، وقال : اذا أصبحتم فأطلقوه، وآنصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف ليهجونّه سنة، فقال حمدان يهجوه :

(١) أيدا : قويا .

قل لعبد الصمد الأحـ * ـمق لا تغضبْ عليّهْ
وعلى أمّك فاغضـ * ـبْ وا رْكها فى المَنِ كيّهْ
أمك العقلاء جاءتـ * ـنى بسلمى ورُقيّهْ
وهى ساقت ليلةً فا * طمةً أخرى إليّهْ
فقضينا فيهم الحق * وقلْبنا السويّهْ

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبد الحميد ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما بالُ أهلِ الأدبِ * منا وأهلِ الكتب
قد وضعوا الآدابا * وأتعبوا الكتّابا
لكلّ فنٍّ دفترُ * منقّطٌ محبَّرُ
فُرِّقتْ أجناسا * وعلّموها الناسا
بالحِيَل الرقيقه * والفِطَن الدقيقه
فأرشدوا الضُّلّالا * وعلّموا الجُهّالا
سِوى المحبينَ فلمْ[1] * يرْعَوا لهم حقَّ الذمَمْ
فى عِلم ما قد جهلوا * وما به قد ابتُلُوا
قد غَلِقتْ رُهونُهمْ * واستعبرتْ عيونُهمْ
وحالفوا السُّهادا * وخالفوا الرُّقادا
فليلُهم طويلُ * ونومُهم قليلُ
أبدانُهم نحيلهْ * مُتعَبةٌ عليلهْ
نفوسُهم حزينهْ * مشغوفةٌ رزينهْ
ظاهرةٌ غمومُهمْ * باطنةٌ كلومُهمْ

(١) فى الأصل : "فكم" .

باكيةٌ عيونُهم * قريحةٌ جفونُهم
إن ظُلموا لم يَظلموا * وإن شكَوْا لم يُرحَموا
أحبابُهم فى لَعِبِ * وفى دوام الطرَبِ
صافيةٌ ألوانُهمْ * ضاحكةٌ أسنانُهمْ
قد سكَنوا القُصورا * وقارَنوا السُّرورا
تفرَّغوا للهَجْرِ * وللنَّوى والغدْرِ
بعاشقٍ يهواهُمُ * بالله ما أقساهُمُ
وَعْدُهُمُ وَعِيدُ * إقرارهُمْ جُحودُ
بؤسى لأهلِ العشقِ * أهلِ الضَّنا والرِّقِّ
ليس لهم وسيلَهْ * ولا وجوهُ حيلَهْ
رأيتُ لمَّا خُذِلُوا * وفى هواهُمْ وَحِلُوا
أنْ أُرشِدَ المُغَفَّلا * الجاهلَ المضَلَّلا
الى الطريقِ الواضحِ * عند البلاءِ الفادحِ
وأبتدى كتابا * للوصف بابا بابا (١)
يا أيّها الناسُ فَعُوا * وصيَّتى وآستمعُوا
ففى صِفاتى عَجَبُ * وفى كتابى أدب
قصيدتى مقوَّمَهْ * ألفاظُها منظَّمَه
فيها هَوَى العُشَّاقِ * ومُنيَةُ المشتاقِ
وَصَفْتُ أهلَ العشقِ * ولم أَمِلْ عن حقِّ
فاسمعْ مقالا صادقا * يا من يبيتُ عاشقا
للحبِّ خَلَّتانِ * هُما هُما اللتانِ
الصبرُ والرفقُ معا * يومًا اذا ما آجتَمعا

(١) فى الأصل : « لوصف باب بابا »

في عاشقٍ مهجورِ * مباعَدٍ مغرورِ
قضى قريبا وطَرا * وبلَّغاهُ الوطَرا
ما الحسنُ والإحسانُ * والملكُ والسلطانُ
يعدِلُ وصلَ الإلفِ * وكسرهُ للطَّرفِ
ما حسَنٌ في العينِ * أحسنُ من إلفينِ
يوما اذا ما ٱلتقيا * في مجلسٍ فاشتفيا
مُداوِمَينِ للنظرْ * قد أمِنا كلَّ حذرْ
يبادران الخلوهْ * ويُظهران الصبوهْ
مساعدَينِ ٱتفقا * باتا ولم يفترِقا
هواهما مخزونُ * سرُّهما مدفونُ
مداريَينِ أصبحا * للناس لم يفتضحا
من جرَّب الحبَّ عرَفْ * ما بين ملكٍ وأسفْ
لن يبلغَ الصبُّ المُنَى * إلا بصبرٍ وعَنا
إن الهوى ضُروبُ * وأمره عجيبُ
وأهلُه أطوارُ * فيه لهم أوطارُ
للعاقلِ الشريفِ * والأحمقِ السخيفِ
فمنهمُ مرزوقُ * محبَّبٌ معشوقُ
على ٱضطرابِ الخلقِ * منه وسوءِ الخُلقِ
تُقضَى له الأوطارُ * وتُعملُ الأشعارُ
مقرَّبٌ ما يُقصَى * مطاوَعٌ ما يُعصَى
ومنهمُ محرومُ * محارَفٌ(١) مشئومُ

(١) محارف : محروم محدود اذا طلب لا يرزق .

على جمـالِ هيئتِـهْ * وحسـنِه وبهجتِـهْ
ومنهُمُ من يُبتدَا * ينـالُ عيشًـا رَغَدَا
من غير سعى وطلَبْ * وغـيرِ كدٍّ ونَصَبْ
فَـذُ ذاك الأسـعدُ * والبختُ منه أجْوَدُ
إذ فاز باللـذَّاتِ * ودَرَكِ الحـاجاتِ
ومنهُمُ من يتعَبُ * فى حبّـِه ويدأبُ
أسقمه طولُ الهوى * وشفَّه وجدُ الجوى
فذاك صبٌّ قد شَقِى * بؤسَى له ما ذا لَـقِى
ومنهُـمُ البصـيرُ * العـاقلُ النّحـريرُ
يحتمـل الهجـرانا * ويحمِـلُ الأحـزانا
فـلا يزالُ مبتَـلَى * حتى ينـالَ أمـلا
ومنهـم العميـدُ * الجاهـلُ البليـدُ
يُحبُّ بالتضـجُّرِ * والجهـلِ والتكبُّرِ
يَلقَى الحبيبَ باهتـا * فـلا يزالُ ساكتا
ومنهُمُ من يهوَى * بالغيب يأتى عفـوا
فـيزرَعُ الغُمــوما * مستجلِبًا هُمــوما
فـذاك حبُّ الغيبِ * ليس به من عيبِ
من دونه حجابُ * ودونـه أبوابُ
فما لـذاك لَبْثُ * وليس منـه مُكثُ
حتى يُرَى مقهـورا * فى حبّـِه محسورا
ومنهُـمُ جبّارُ * فى حبّـِه آزورارُ
يُزْهَى اذا ما عَشِـقا * ورهنُهُ قـد غَلِقا

يلتزم اللجاجه * فليس يبدي الحاجه
فذاك حب الفوت * وفيه كرب الموت
ومنهم من للنظر * يهوى ولم يعد البصر
اذا رأى خليله * داوى به غليله
يكتم ما يقاسي * من أعين الجلاس
ومنهم من اقتصر * على الحديث والنظر
غايته السلام * واللحظ والكلام
مدافع عن حبه * يكتم وجد قلبه
ينفي الهوى وينكره * وبالتبري يستره
فذاك حب العاقل * حب أديب كامل
وبعضهم لا يقنعه * إلا عمود يودعه
قد طلب الحراما * والتمس الأثاما
فذاك حب النهم * الماجن المغتلم
حق له الحرمان * والمنع والخذلان
وبعضهم مذاق * معانث ملاق
مستعمل للكذب * مخرف في الكتب
فذاك حب الزور * يلسع كالزنبور
وبعضهم عميد * غايته ما يريد
خلوة من يهواه * في مشهد يلقاه
لحظته مسارقه * مبيته معانقه
مكاتم لحبه * في بعده وقربه
فذاك حب يحمد * نيرانه لا تخمد

ومنهم مَنْ يهتِفُ * بالحبّ حين يُشغَفُ
اذا الحبيبُ صدًّا * ولم يُنِلْه وُدًّا
تاهَ عليه وحَزِقْ[1] * وصدَّ عنه وحَمِقْ

وقال فى آخرها :

قد تمّ منى وَصْفُ * ولم يَخْفَ الرّصفُ
وانقضتِ القصيدَهْ * محبوبةٌ حميدَهْ
والحمدُ للرحمنِ * ذى العزّ والسُّلطانِ
والذمُّ للشيطانِ * ذى العَرِم[2] والطُّغيانِ

(١) حزق : ضن عليه وبخل .
(٢) العرم : الشدة والشراسة . وفى الأصل : « العزم » .

٦ — منصور النَّمَرىّ (١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسرُّه أن يُمدح بنفى الإمامة عن علىّ والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبى حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب — لكنه لم يصرّح بالهجاء والسب كما فعل مروان ؛ ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أميرَ المؤمنين اليك خُضْنا * غِمار الهَوْل من بَلَد شَطِير
بخُوص كالأهِلّة خافقاتٍ * تلين على السُّرى وعلى الهَجير
حَمَلْن اليك أحمالا ثِقالا * ومثلَ الصخرة الدُّرّ النثير
فقد وَقَف المَديح بمُنْتهاه * وغايتِه وصار الى المصير
الى من لا تُشير الى رسولٍ * اذا ذُكِر النَّدى كفُّ المُشير

وذكر فى القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يذلّل من رقاب بنى علىّ * ومنّ ليس بالمنّ الصغير
مننتَ عَلَى ابن عبد الله يَحْيَى * وكان من الحُتوف على شَفِير

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة النمرى الربعى ، من النمر بن قاسط ، ثم من ربيعة بن نزار ، شاعر من شعراء الدولة العباسية ، من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته ، عنه أخذ ، ومن بحره استقى ، وبمذهبه تشبه . وصفه العتابى للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد وجرت بعد ذلك بينه وبين العتابى وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما فى هلاك صاحبه ؛ وكان النمرى قد مدح الفضل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العتابى اليه واسترفده له وسأله استصحابه ، فأذن له فى القدوم ، فحظى عنده ، وعرف مذهب الرشيد فى الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الإمامة عن ولد على بن أبى طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه فى ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء فى الجوائز ، فسلك مذهب مروان فى ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسبّ كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأومأ ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبى طالب وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبق ولا يذر . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ و ج ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء، وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم * وإلّا فالنّدامة للكفور
وإن قالوا بنـو بنت لحقٌ * وردّوا ما يناسب للذُّكور
وما لبنى بنـاتٍ من تُراثٍ * مع الأعمام فى ورَق الزَّبور

ومنهـا :

بنى حَسَن ورَهْطَ بَنِى حُسَين * عليكم بالسَّداد من الأمور
فقـد ذُقتم قِرَاع بنى أبيكم * غداةَ الرَّوع بالبيض الذُّكور
أحين شَفَوْكُمُ من كل وِتْر * وضَمُّـوكم الى كَنَف وَثير
وجادُوكم على ظمأ شـديد * سُقيتم من نوالهم الغـزير
فـا كان العقوق لهم جَزاءً * بفعلهـم وآدى للشُّكور
وإنك حين تُبلغهم أذاةً * وإن ظلَموا لمحزونُ الضمير

فقال له : صدقت وإلا فعلىّ وعلىّ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيدَ يوما قصيدتَه التى أولها :

ما تنقضى حَسْرَةٌ منّى ولا جَزَعٌ * اذا ذكرتُ شَـبَابا ليس يُرْتَجعُ
بانَ الشبابُ وفاتنى بِلَذّته * صُرُوفُ دَهْرٍ وأيامٌ لها خِدَعُ
ما كنت أُوفِى شبابى كُنْهَ غِرّتِه * حتى ٱنقضَى فاذا الدنيا له تَبَعُ

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يَتهَنّى أحد بعَيش حتى يَخطِر فى رِداء الشباب

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أىّ امرئ بات من هارونَ فى سخط * فليس بالصلوات الخمس يَنْتَفِـع
إنّ المكارم والمعـروفَ أوديةٌ * أحلّك اللهُ منها حيث تَجْتَمِـع (١)

---

(١) رواية الأغانى : "تتسع" .

اذا رَفعتَ آمرءًا فاللهُ يَرفعُـه * ومَنْ وَضعتَ من الأقوام مُتَّضِعُ
نَفسِى فِداؤك والأبطالُ مُعْلمة * يومَ الوَغَى والمنايا صابُها فزَعَ

ومن قوله يمدح الرشيد :

يامَنزِلَ الحى ذا المَغانى * إنعمْ صَباحًا على بِلاكا
هارونُ ياخيرَ من يُرجَّى * لم يُطِع اللهَ مَنْ عَصاكا
فى خيرِ دِينٍ وخيرِ دنيا * من آتقى اللهَ وآتقاكا

وناهيك بقصيدته التى رفعت السيفَ عن ربيعةَ بنَصِيبِين بعد أن جرده فيها الرشيد وهى التى يقول فيها :

وقد علم العُدوانُ والجَورُ والخَنا * بأنك عَيَّاف لهن مُزايـلُ
ولو عملوا فينا بأمرك لم يكن * ينـال بَريًا بالأذى مُتَناولُ
لنا منك أرحامٌ ونعتـدّ طاعةً * وبأسا إذا آصطكّ القَنا والقنابل(١)
وما يَحْفَظ الإحسانَ مثلك حافظٌ * ولا يَصِلُ الأرحامَ مثلك واصل
جعلناك فامنعْنا مَعـاذًا ومَفزَعًا * لنا حين عضّتنا الخطوبُ الجلائلُ
لأنت إذا عاذت بوجهك عُوَّذٌ * تَطامَنَ خوف وآسـتقرّت بلابل

اجتمع جماعة من الشعراء ببَغْداد وفيهم منصور النمرى ، وكانوا على نَبيذ، فأبى منصور أن يشرب معهم ، فقالوا له : إنمـا تعاف الشَّراب لأنك رافِضِىٌّ ، وتَسـمع وتُصغى الى الغِناء ، وليس تَرْكُكَ النَّبيذ من وَرع ، فقال :

خلا بين نَدْمانَىَّ موضـعُ مَجْلسى * ولم يبق عندى للوِصال نَصيب
وردّتْ على الساقى تَفيض ورُبّما * رددتُ عليه الكأسَ وهو سَليب
وأىّ آمرئٍ لايَستهِشّ اذا جرتْ * عليه بَنـانُ كَفُّهن خَضيب

---

(١) مفرده قنبل بفتح فسكون ثم فتح : الطائفة من الناس .

قال النمرى : كنت واقفا على جِسْر بَغداد أنا وعبيد الله بن هشام، وقد وَخَطَنِى الشيبُ يومئذ، وعبد الله شابٌّ حديث السِّنّ، فاذا أنا بقَصْرِيَّةٍ ظريفة قد وقفتْ، فجعلت أنظر اليها وهى تنظر الى عبيد الله ثم انصرفتْ، وقلت فيها :

لـمـا رأيتِ سَـوَامَ الشَّيب منتشراً * فى لِمَّـتى وعبيـدَ الله لم يَشِب
سَلَلْتِ سهمين من عينيكِ فانتضلا * على سَـبِيَّةِ ذى الأذيال والطرب
كذا الغـوانى نرى منهنّ قاصدة * الى الفروع مُعَـرَّاة عن الخشب
لا أنتِ أصبحت تعقدُ بيننا أرَبا[1] * ولا وعيشك ما أصبحت من أرَبى
إحدى وخمسين قد أنضيت جِدَّتَها * تحـول بينى و بين اللّهـو واللّعِب
لاتحسبينى و إن أغضَيْتِ عن بصَرى * عَفَاتُ عنك ولا عن شأنك العَجَب

غضب الرشيد على منصور النمرى لـمـا أُنْشِد قصيدتَه فى مدح العلويين وأوّلها :

شاءٌ من الناس راتـعٌ هاملْ * يعـللون النفوسَ بالباطلْ

وفيها يقول :

ألّا مَسَاعيرُ[2] يغضبون لـهـا * بسَلّة البِيض والقَنَا الذابلْ

فغضب من ذلك غَضَبا شديدا وقال للفضل بن الربيع : أحضرْه الساعةَ ، فبعث الفضل فى ذلك، فوجده قد تُوُفِّىَ، فأمر بنبشه ليُحرِقه، فلم يزل الفضل يُلطِفُ له حتى كَفَّ عنه .

واليك قصيدتَه فى مدح العلويين نقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب الأغانى أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاءٌ من النـاس راتـعٌ هامِلْ * يُعَلّلون النفـــوسَ بالبـاطلْ
تُقتَـــل ذُرّيةُ ٱلنبىّ ويَرْ * جونَ جِنانَ الخُــلود للقاتلْ
وَيْلَك يا قاتلَ الحسين لقـــد * نُؤْتَ بحِمْـــل يَنُـــوءُ با لحامل

(١) كذا فى الأصل ولعله : * لا أنت أصبحت يعقد بيننا أرب * بتسكين الفعل يعقد للضرورة وتسكين الفعل فى الضرورة وارد ومنه قول امرئ القيس : فاليوم أشرب غير مستحقب * إثما من الله ولا واغل

(٢) فى الشعر والشعراء "مصاليت" .

أىّ حِباءٍ حَبَوتَ أحمدَ فى * حُفْرَته من حَرارة الثاكِلِ
بأىّ وجه تَلقَى النبىَّ وقد * دَخَلتَ فى قتله مع الداخل
هَلُمّ فاطْلُبْ غدًا شفاعتَه * أولا فَرِدْ حَوْضَه مع الناهل
ما الشك عندى فى حال قاتله * لكننى أشكّ فى الخاذل
نفسى فداء الحسين حين غدا * إلى المنايا غُدُوَّ لا قافل
ذلك يومٌ أنحَى بشَفْرَته * على سَنام الإسلام والكاهِل
حتى مَتَى أنتِ تَعْجَبِينَ ألا * تَنزِلُ بالقوم نِقْمةُ العاجل
لا يَعْجَلُ الله إن عَجِلْتِ وما * ربُّك عما يريد بالغافل
وعاذلى أننى أحبّ بَنِى * أحمدَ فالتُّرب فى فَمِ العاذِل
قد ذُقْتُ ما دينُكم عليه فما * وَصَلْتُ من دينكم إلى طائل
دينكمُ جَفْوَةُ النبىّ وما الـ * ـجافى لآل النبىّ كالواصل
مظلومةٌ والنبىّ والدها * تَدِيرُ أرجاءِ مُقْلةٍ حافِل
ألا مَصاليتُ يَغْضَبُون لها * بسَلّة البِيض والقَنا الذابِل

وقال أيضا :

آل النبىّ ومن يُحبُّهمُ * يتطامنون مخافةَ القتل
أمِنُوا النَّصارَى واليهودَ وهم * من أمّة التوحيد فى أزْلِ (١)

وأُنشِدَ الرشيدُ هذا بعد موته فقال : لقد هَمَمْتُ أن أنبُشَه ثم أحرقه .

ومن جيد شعره قوله فى الرشيد :

يا زائرَينا من الخيامِ * حيّاكما الله بالسلامِ
يُحْزِنُنى أن أطَفْتُمابى * ولم تَنالا سِوَى الكلام

(١) الأزل : الضيق والشدة .

لم تَطْــرُقانى وبى حَرَاكٌ * إلى حَــلَال ولا حَرَام
هَيْهاتَ للّهــو والتصَابى * وللغــوانى وللمُــدَام
أقصرَ جَهْلِي وثَابَ حِلْمِي * ونَهْنَهَ الشَّيبُ من عُرَامى (١)
عَمْــرُ أبيهـا لقد تولَّت * سالمَةَ الحدّ من عِذامى (٢)
لله حِـبّى وتِرْبُ حِبّى * ليـلةَ أعياهمـا مَرامى
آذَنَتَانِى بِطُــولَ هَجْرٍ * وغَرَّتانى مع السَّــوَام
واَنطَـوَتا لى على مَـلامٍ * والشَيْب شرٌّ من المَــلَام
بُورِكَ هارونُ من إمَامٍ * بطاعة الله ذى اعتِصـام
له الى ذى الجَـلَال قُرْبَى * ليست لعَــدْل ولا إمام
يَسْــمَى على أمة تَمــنَّى * أن لو تَقِيهِ من الحِمَام
لو استطاعت لقاسَمَتْــه * أعمـارَها قِسمة السِّهـام
يا خيرَ ماضٍ وخيــرَ باقٍ * بعــدَ النبيين فى الأنام
ما استُودِعَ الدينُ من إمام * حامَى عليــه كما تُحامى
يؤنس من رأيه برأى * أصــدقَ من سَلّة الحُسام

وقال :

أعُمَيْرُ كيف لحاجة * طُلِبَتْ الى صُمّ الصُخُورِ
لله دَرُّ عُداتِكُمْ * كيف انتسَبْنَ الى الغُرُور
ان اللّيــالى ضمْنَنِي * ووَسَمْنَنى سِمــةَ الكبير
أطفَأنَ نُورَ شَبِيبَتِى * وفرشْنَنى كَنَفَ الغَيُــور
ولقــد تبيتُ أنامِــلى * يَجْنِينَ رُمّانَ النُحور

(١) العرام : الحدّة . (٢) العذم الشفة كالعض بالأسنان .

٧ — السيّد الحميرىّ[1]

« لم يكن السيد الحميرى[2] من أنصار الحسَن والحُسَين، أو بعبارة أصحّ لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين، وإنما كان من الكَيْسانية الذين كانوا ينصرون الآبنَ الثالث من أبناء علىّ: محمدَ بن خَوْلة الحنفية، والذين كانوا يَدينون بأنه لم يمت وإنما تغيّب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جَوْرا، فلم يكن على السيد الحميرى بأسٌ أن يمدح بنى العباس ويتقرب منهم مادام صاحبُه محمدُ بنُ الحنفية لم يَعُد من غيبته بعد. ثم نستطيع أن نُميّز هذا الشاعر بخَصْلة لم نرها فى شاعر من الذين تحدّثنا عنهم، وهى أنه كان سخيفًا ضعيفَ العقل شديدَ الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه الخصلةَ جاءته من مذهبه نفسِه فى الرجعة، فقد أسرف فى هذا المذهب كما أسرف فى مدح العَلَويّين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يُقبل وما لا يُقبل؛ فكان كلّ خير يمكن أن يُنسَب إلى العلويّين، رضيه العقلُ أم لم يرضه، وكان كل شرّ يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رضيه العقل أم لم يرضه، وكان يكفى أن يسمع رجلا من أهل القَصَص ورُواةِ الأساطير يروى كرامة من الكرامات يُضيفها إلى أحد العلويين حتى يَنظِم فيها قصيدة طويلة جيّدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلةً إلى ذمّ السلَف والنعى عليه.

---

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم، كان شاعرا متقدما مطبوعا، يقال إن أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد، فانه لا يعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فى شعره ويستعمله فى قذفهم والطعن عليهم فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تخوّفا وترقيا، وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم. توفى سنة ١٧٣ ﻫ. وتجد ترجمته وأخباره فى الأغانى (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وخَصْلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفةً واهيةً فى الوقت نفسه .

وهى أنه كان يستبيح ضروبا من اللهو والمنكر، ويُسرف فى شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العبث، لا لأنه كان يجحد الدين أو يَزدريه بل لأنه كان يدلّ على صاحب الدين، كان يحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وآله ويمنحهم مودّته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه لِمَا قدّم بين يديه من مَدْح العلويين ونَصْرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو علىّ خاصّة يُطْمِعُونه فى ذلك ويعترفون له به، فإذا ذُكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأىّ ذَنْب يعظُم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إنّ مَنْ أحبَّ آلَ علىّ لم تزلّ له قَدَمٌ إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هـذا كان السيّد الحميرىّ يلهو آمنا فى دينه ودُنياه، يعتمد فى دينه على العلويّين، ويعتمد فى دنياه على العباسيين، يقـدّر أنّ العلويين سيشفعون له عند الله ، ويعلم أنّ العباسيين يتّقون شرّه ويُؤْثرون مدحه على هجائه ؛ وكان من مُعاصِريه مَنْ يكره ذلك ويمقُتُـه كلّ المقت، ويُضمر للسيّد عِداءً وحِقْدا لايعدلها عِداءٌ ولا حِقْد؛ ومن هؤلاء سَوّار بن عبد الله العَنْبَرى قاضى البصرة للمنصور ، فقد كان العداءُ بينه وبين السيد شـديدا ، وكان قد أجمع ألّا يَقْبل للسيّد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غيرَ مرّة ؛ وكان السيد قد هجاه فأسرف فى هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فنهاه المنصورُ عنه وأمره أن يذهب الى القاضى فيعتذرَ اليه، وأبى القاضى أن يقبل معـذرته، فاستأنف السيد الهجاء وألحّ فيه . ويقال إنّ سوّارا أعدّ شهودا يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك فجزِع وفزع الى المنصور ، فعزل المنصور سوّارا من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوّار أن مات فتبعه السيد بعدائه وبُغْضه وهجائه » .

قال أبو جعفر الأعْرَج : كان السيد أسمر تامَّ القامة، أشنبَ ذا وَفْرة، حسنَ الألفاظ جميلَ الخطاب، اذا تحدّث فى مجلس قوم أعطى كلّ رجل فى المجلس نصيبَه من حديثـه ،

وقال الفرزدق : إن هٰهنا لرجلين لو أخذا فى معنى الناس لما كنّا معهما فى شىء: السيد الحميرى وعمران بن حطّان السَّدوسىّ ، ولكنّ الله عزّ وجلّ قد شغل كلّ واحد منهما بالقول فى مذهبه ، وقال الأصمعى لما أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفُحول لولا مذهبُه ، ولولا ما فى شعره ما قدّمتُ عليه أحدا من طبقته ، وكان أبو عُبيدة يقول : أشعرُ المُحْدَثين السيّد الحِمْيَرِىّ وبشّارٌ .

وكان السيّد يذهب مذهبَ الكَيْسانيّة ويقول بإمامة محمد بن الحنفيّة ، وله فى ذلك شعر كثير .

وقف السيّد على بشّار وهو يُنشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أيها المادحُ العبادَ لِيُعْطَى * إنّ لله ما بأيدى العبادِ
فاسأل الله ما طلبت إليهم * وارجُ نفعَ المنزِّلِ العَوّادِ
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه * وتُسمّى البخيلَ باسم الجَوادِ

قال بشّار : مَن هذا؟ فعرّفه ، فقال : لولا أنّ هذا الرجلَ قد شُغِل عنّا بمدح بنى هاشم لشغَلَنا ، ولو شاركنا فى مذهبنا لَتعِبنا .

ومن قول السيّد :

أتعرِفُ رَسْمًا بالثُّوَيَّيْنِ قد دَثَرْ * عَفَتْه أهاضيبُ السحائبِ والمطَرْ
وجرّتْ به الأذيالَ ريحانِ خِلفةً * صَبًا ودَبُورٌ بالعشيّات والبُكَرْ
منازلُ قد كانتْ تكونُ بجوّها * هَضيمُ الحشَى ريّا الشَّوَى سِحْرُها النَّظَرْ
قَطُوفُ الخُطَا خُمْصانةٌ بَخْتَرِيّةٌ * كأنّ مُحيّاها سَنا دارةِ القمَرْ
رمتْنى ببُعدٍ بعد قُربٍ بها النّوى * فبانتْ ولمّا أقضِ من عَبْدةَ الوَطَرْ
ولمّا رأتنى خشيةَ البَيْنِ مُوجَعًا * أُكفكِفُ منى أدمُعا بيضُها دُرَرْ
أشارتْ بأطرافٍ إلىّ ودمعُها * كنظمِ جُمانٍ خانَه السِّلْكُ فانتثرْ
وقد كنتُ مما أحدثَ البَيْنُ حاذرا * فلم يُغنِ عنّى منه خوفى والحذَرْ

لما استقام الأمر لبنى العباس قام السيّد الى أبى العباس السفّاح حين نزل عن المنبر فقال :

دُونَكُمُوها يا بنى هاشم * فجدّدوا من عهدها الدارسَا
دونكموها لا علا كَعْبُ مَن * كانَ عليكم مُلْكُها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجَهَا * لا تَعْدَموا منكم له لابسا
لو خُيِّرَ المنـبرُ فُرسانَهُ * ما آختارَ إلاّ منكمُ فارسا
قد ساسها قبلكم ساسةٌ * لم يتركوا رَطْبًا ولا يابسا
ولستُ من أن تملكوها الى * مَهْبط عيسى فيكم آيسا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدىّ يسأله ألّا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قل لآبن عبّاسٍ سَمِىِّ محمّـد * لا تُعْطِيَنَّ بنى عدىٍّ درهما
احرِمْ بنى تَيم بن مُرَّة إنهـم * شرُّ البـرية آخرا ومُقـدما
إن تعطهم لن يشكروا لك نعمةً * ويكافئوك بأن تُذَمَّ وتُشْتَمَا
وإن آئتمنتهـم أو آستعملتهم * خانوك وآتخذوا خَرَاجَك مَغْنَمَا
ولئن مَنَعتَهمُ لقـد بدءوكمُ * بالمنـع إذ مَلَكوا وكانوا أظلما
مَنَعوا تُرَاثَ محمـد أعمامَـه * وبَنِيهِ وآبنتـه عَديلةَ مَريَما
وتأمّروا من غير أن يُسْتَخْلَفوا * وكَفَى بمـا فَعَلُوا هنالك مأثَما
لم يشكروا لمحمد إنعـامَهُ * أفيشكرون لغـيره إنْ أنعمَا
والله مَنَّ عليهـمُو بمحمّـد * وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم آنبروا لوصيِّه ووليِّـه * بالمنكرات فجرَّعوه العلقما

أنشد السيّد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أُمْرُرْ على جَدَث الحُسَيـ * ـن فقُـلْ لأعظُمِهِ الزكيّهْ
آأعظُمًا لا زِلْتِ مِنْ * وَطْفَاءَ ساكبةٍ رَوِيّهْ
واذا مَرَرْتَ بقـبره * فأَطِلْ به وَقْفَ المطيّـهْ

وأبـوك المُطَهَّـرُ لِلُطَـ * ـهْرِ والمُطَهَّـرَة النَّقِيَّـةْ
كبكاءِ مُعْـوِلَةٍ أتَتْ * يوماً لواحدها المنيَّـةْ

فانحدرتْ دموعُ جعفر على خدّيه وارتفع الصراخُ والبكاء من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك .

ومن قول السيد فى إمامة ابن الحنفيّة :

أَلَا يا أيُّها الجَدِلُ المعنّى * لَنَا ما نحنُ وَيْحَكَ والعَنَاءُ
أتُبْصِرُ ما تقولُ وأنتَ كَهْلٌ * تراكَ عليكَ من وَرَعٍ رِدَاءُ
أَلَا إنَّ الأئمةَ من قُرَيْشٍ * وُلَاةُ الحقّ أربعةٌ سواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بَنِيهِ[1] * هُمُ أسباطُهُ والأوصياءُ
فأنّى فى وصيّتهِ اليهم * يكونُ الشكُّ منّا والمِرَاءُ
بِهِمْ أوصاهُمُ ودعا اليه * جميعَ الخَلْقِ لَوْ سُمِعَ الدعاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وحِلْمٍ * وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلَاءُ
سَقَى جَدَثًا تضمّنه مُلِثٌّ * هَتوفُ الرعد مُرْتَجِزٌ رَوَاءُ
تَظَلُّ مُظِلَّةً منها عَزَالٍ[2] * عليه وتغتدى أُخْرَى مِلَاءُ
وسِبْطٌ لا يذوق الموت حتى * يَقودَ الخيلَ يَقْدُمُها اللواءُ
من البيت المحجَّبِ فى سَرَاةٍ * شُرَاةٍ لَفَّ بينهم الإخاءُ
عَصَائبُ ليس دون أغرّ أجلَى * بمكّةَ قائمٌ لهم انتهاءُ

وأنشد العتبىّ قصيدته اللامية التى أولها :

هل عندَ مَنْ أحببتَ تَنْوِيلُ * أم لا فإنّ اللوم تَضْلِيلُ
أم فى الحَشَى منكَ جَوًى باطِلٌ * ليس تُداوِيهِ الأباطِيلُ

---

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها ، و يقال : أنزلت السماء عزاليها إشارة الى شدة وقوع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المزادات .

عَلِقتَ يامغـرورُ خَدّاعةً ٭ بالوعد منهـا لكَ تخييـل
رَيّا رَداحَ النَّوم خُمصـانةً ٭ كأنّهـا أدماءُ عُطبُول
يَشفِيكَ منهـا حين تخلو بها ٭ ضَمٌّ الى النحر وتقبيـل
وذَوقُ رِيـقٍ طَيِّبٍ طعمُه ٭ كأنّه بالمسـك مَعلول
فى نسوةٍ مثـلِ المهَـا خُرَّدٍ ٭ تَضيق عنهُنّ الخلاخيـل

يقول فيها :

أُقسِم بالله وآلائـه ٭ والمَرءُ عمّا قال مسئول
إن عليَّ بن أبى طالبٍ ٭ على التُّقَى والبرِّ مجبول

فقال : أحسنَ والله ما شاء، هذا والله الشعرُ الذى يَهجُم على القلب بلا حجاب .

قيل للسيد : مالكَ لا تستعملُ فى شِعرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ قال : لأَنْ أقولَ شعرا قريبا من القلوب يَلَذّه مَنْ سمعه، خيرٌ من أن أقول شيئا مُعقَّدًا تَضلّ فيه الأوهام .

تقدّم السيّد الى سَوّار القاضى ليَشهد عنده، فلم يرضَ به، فقام مُغضَبا من مجلسه، وكتب رُقعة يقول فيها :

يا أمينَ الله يا منـ ٭ ـصورُ يا خيرَ الوُلاةِ
إنّ سَوّارَ بنَ عبد الله ٭ من شرِّ القُضَاة
نَعثَليٌّ جَمَلِيٌّ ٭ لكمُ غيرُ مُوات
جدُّه سارقُ عَنْزٍ ٭ فَجْرَةً من فَجَرات
لرسول الله والقا ٭ ذِفُه بالمُنكَرات
وابنُ مَنْ كان يُنادِى ٭ من وراء الحُجُرات
ياهَناهُ اخرُجْ الينا ٭ إننا أهلُ هَنات
مَدحُنا المدحُ ومَن نَرْ ٭ مِ يُصَبْ بالزَّفَرات
فاكفِنيه لا كفاهُ ا ٭ للهُ شرَّ الطارقات

قيل : فلمّا قرأها سوّارٌ وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازلٌ بالجسر، فسبقه السّيد اليه فأنشده :

قــل للإمام الذى يُنجى بطاعته ☆ يومَ القيامة من بُحْبُوحة النار
لا تَستَعِنْ وجزاكَ اللهُ صالحــةً ☆ ياخيرَ مَن دبَّ فى حُكْمٍ بسَــوّار
لاتستَعِنْ بخبيث الرأى ذى صَلَفٍ ☆ جَمّ العيــوب عظيمِ الكِبْرِ جَبّارِ
يُضْحِى الخصومُ لديه مِنْ تَجَبُّره ☆ لا يرفعون اليــه لَحْظَ أبصار
تِيهاً وكِبْراً ولولا ما رَفَعْتَ له ☆ من ضَبْعِه كان عينَ الجائع العارى

ودخل سوّار، فلمّا رآه المنصور تبسّم وقال : أمَا بلغك خبرُ إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد فى الشهود ؟ فما أحْوَجَكَ للتعرّض للسيّد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته.

دخل السيد على المهدى- لمّا بايع لابنيه موسى وهارونَ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَجْرَى دَمْعك الساجِمِ ☆ أمِنْ قَذًى باتَ بها لازِمِ
أم مِنْ هَوًى أنتَ له ساهرٌ ☆ صبابَــةً مِن قلبكَ الهائم
آلَيتُ لا أمــدح ذا نائلٍ ☆ مِن مَعْشرٍ غيرِ بنى هاشم
أوْليتُهم عنــدى يدَ المصطفى ☆ ذى الفضل والمَنِّ أبى القاسِم
فإنّها بيضــاءُ محمــودةٌ ☆ جــزاؤُها الشكرُ على العالم
جزاؤُها حِفْظُ أبى جعــفرٍ ☆ خليفةِ الرحمن والقائم
وطاعةُ المهــدىّ ثم ابْنــه ☆ موسى على ذى الإرْبَةِ الحازم
وللرشــيد الرابــع المرتضى ☆ مُفْتَرَضٌ من حقه اللازم
مُلْكُهم خمسون معدودةٌ ☆ برغم أنف الحاســد الراغم
ليس علينا ما بَقُــوا غــيرُهم ☆ فى هــذه الأمّة من حاكم
حتى يردّوها الى هابط ☆ عليــه عيسى منهم ناجــم

ومن شعر السيد :

ما جرت خَطْرةٌ على القلب منّى ٭ فيكِ إلّا استترتُ عن أصحابى
من دموعٍ تجرى فإن كنتُ وحدى ٭ خاليا أسعدتْ دموعى انتحابى
إنّ حبّى إياكِ قد سلَّ جسمى ٭ ورمانى بالشيب قبلَ الشباب
لو مَنَحتِ اللقا شفى بكِ صبًّا ٭ هائمَ القلب قد ثَوَى فى التراب

ومما قاله فى الحبس :

قِفْ بالديار وحيِّها يا مَرْبَعُ ٭ وآسأل وكيف يُجيب مَنْ لا يسمعُ
إنّ الديار خلَتْ وليس بجوِّها ٭ إلا الضوابحُ والحمامُ الوُقَّعُ
ولقد تكونُ بها أوانسُ كالدُّمَى ٭ جُمْلٌ وعزّةُ والرَّبابُ وبَرْوَعُ
حورٌ نواعمُ لا تُرَى فى مثلها ٭ أمثالُهن من الصيانة أربع
فَعرِينَ بعد تألّفٍ وتجمّعٍ ٭ والدهر صاحٍ مُشَتّتٌ ما يجمع
فاسلَمْ فإنّكَ قد نزلتَ بمنزلٍ ٭ عند الأمير تضُرّ فيه وتنفع
تُؤتَى هواكَ اذا نطقتَ بحاجةٍ ٭ فيه وتَشْفَعُ عنده فتُشَفَّعُ
قُلْ للأمير اذا ظفرتَ بخلوةٍ ٭ منه ولم يكُ عنده مَنْ يَسْمَعُ
هَبْ لى الذى أحببتُه فى أحمدٍ ٭ وبنيه إنك حاصدٌ ما تزرعُ
يَخْتَصُّ آلُ محمدٍ بمحبّةٍ ٭ فى الصدر قد طُوِيَتْ عليها الأضلع

وقال يهجو آمرأة وارث·مُوَيبِر من خلّانه، وكانت تعذُل زوجَها على إسرافه :

أقول ياليتَ ليْلَى فى يَدَىْ حَنِقٍ ٭ من العداوة من أعْدَى أعاديها
يعلُو بها فوقَ رَعْنٍ[1] ثم يُحْدِرها ٭ فى هُوّةٍ فتَدَهْدَى يومَها فيها
أوْ ليْتَها فى غمارِ البحرِ قد عصفَتْ ٭ فيه الرياحُ فهاجَتْ مِنْ أواذيها[2]

---

(١) الرعن : أنف يتقدم الجبل جمعه رعون ورعان . والجبل : الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى دحرجه فتدحرج .
(٢) الأواذى : أمواج البحر ،مفردها آذىّ .

أوْ لَيْتَها قددنَتْ يومًا الى فرسي ٭ قد شُـدَّ منه الى هاديه هاديها
حتى يُرَى لحمُها من حُضْره زِيمًا (١) ٭ وقد أتى القومَ بعدَ الموت ناعيها
فَمَنْ بكاها فلا جَفَّت مدامعُه ٭ لا أسخَنَ اللهُ إلّا عينَ باكيها

وقيل : إن آخر قصيدة له هى قوله :

أشاقَتْكَ المنـازلُ بعـدَ هنْدِ ٭ وتِرْبَيْهـا وذاتِ الدَّلِّ دَعْدِ
منـازلُ أقفرتْ منهنّ مَحَتْ ٭ معالمَهنّ مِنْ سيلٍ ورعدِ
وريحٍ خَرْجَفٍ تَسْتَنُّ فيهـا ٭ بسافى التُّرْبِ تُلحِم ما تُسَدِّى
ألَمْ يَبْلُغْـكَ والأنبـاءُ تَنْمِى ٭ مقـالُ محمّـدٍ فيما يُؤَدّى
الى ذى علمِه الهـادى علىٍّ ٭ وخَوْلَةَ خادمٍ فى البيت تَرْدِى
ألَمْ ترأنّ خَوْلَةَ سـوف تأتى ٭ بوارى الزَّنْدِ صافى الخِيمِ نَجْدِ
يفوز بكُنْيَتى واسمى لأنّى ٭ نَحَلْتُهما هو المهـدىّ بعـدى
يُغَيَّبُ عنهـمُ حتّى يقولوا ٭ تضمّنه بِطَيْبَةَ بطنُ لحدِ
سنينَ وأشهرًا ويُرَى برضْوَى ٭ بشِعبٍ بين أنمـارٍ وأُسْـدِ
مقـيمٌ بين آرامٍ وعِيـنٍ ٭ وحُفّانٍ (٢) تَرُوحُ خِلالَ رُبْدِ
تُراعيها السباعُ وليس منهـا ٭ مُلاقيهنّ مُفْتَرِسًا بحَدِّ
أَمِنَّ به الرَّدَى فرتَعْنَ طورًا ٭ بلا خوفٍ لدى مَرْعًى ووِرْدِ
حلَفْتُ بربِّ مكّةَ والمُصلَّى ٭ وبيتٍ طاهرِ الأركانِ فَرْدِ
يطوف به الحجيجُ وكلّ عامٍ ٭ يَحُـلّ لديه وَفْدٌ بعـدَ وفدِ
لقد كان ابنُ خَوْلَةَ غيرَ شكٍّ ٭ صفاءَ وِلايتى وخلوصَ وُدّى
فما أحـدٌ أحبَّ الىَّ فيما ٭ أُسِرُّ وما أبوح به وأُبْـدِى
سوى ذى الوَحْىِ أحمدَ أو علىٍّ ٭ ولا أزكى وأطيبَ منه عندى

(١) الزيم : المتفرق من اللحم .   (٢) الحفان : صغار النعام .

وَمَنْ ذا يا ابنَ خولةَ إذ رمتنى * بأسهمها المنيّةُ حين وَعْدِى
يُذَبِّب عنكمُ ويَسُـدّ مما * تَثَلَّم من حصونكمُ كَسَدِّى
ومالى أنْ أُمَرَّ به ولكنْ * أُؤمِّل أنْ يُؤخَّر يومُ فَقْـدِى
فأُدرِك دولةً لك لستَ فيها * بجبّارٍ فتُوصَفَ بالتعدّى
على قومٍ بَغَوْا فيكمْ علينا * لتُعْـدَى منكمُ يا خيرَ مُعْـد
لِتَعْلُ بنا عليهمْ حيث كانوا * بغَوْرٍ من تِهامَةَ أو بنَجْد
إذا ما سِرْتَ من بلدٍ حرامٍ * الى مَنْ بالمدينـة من مَعَـدّ
وماذا عزُّهمْ والخير منهمْ * بأشْوَسَ أعْصَل الأنياب وَرْد
وأنتَ لمَنْ بغى وَعَدا وأذْكى * عليكَ الحربَ وآستَرداكَ مُرْد

٨ – سلم بن عمرو الخاسر[١]

كان منقطعًا الى البرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصًا من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهيـة :

إنما الفَضْل لسَلْمٍ وحدَه ٭ ليس فيه لِسوَى سَلْمٍ دَرَكْ

وكان هذا أحدَ الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبى العتاهية. ولسَلْمٍ يقول أبو العتاهية وقد حَجّ مع عُتْبة :

واللهِ واللهِ ما أُبالى متى ٭ ما متُّ يا سَلْمُ بعد ذا السفَرِ
أليس قد طُفْتُ حيث طافتْ وقبـ ٭ ـلتُ الذى قبَّلَتْ من الحجرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حُبِس ابراهيمُ المَوْصِلىّ :

سَلْمُ يا سَلْمُ ليس دونَك سِرٌّ ٭ حُبِسَ الموصلىُّ فالعيشُ مُرُّ
ما استطاب اللذّاتِ ، مُذْ سكن المُطْـ ٭ ـبَق رأسُ اللذاتِ واللهِ ، حُرُّ
تَرك الموصلىُّ مَنْ خلق اللـ ٭ ـه جميعًا وعيشُهم مُقْشَعِر

---

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبى بكر الصديق ، نشأ فى البصرة ، وكان شاعرا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر ، وكان متظاهرا بالخلاعة والفسوق والمجون ، وزاد شاعرية وتمرسا بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راويته وتلميذه ، أخذ عنه واغترف من بحره ونسج على منواله ، وكثيرا ما كان يأخذ أقواله فيسلخها ويمسخها كما مسخ هـذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ٭ وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

بجعلـه :

من راقب الناس مات غما ٭ وفاز باللـذة الجسور

فبلغ بيته بشارا فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيده مادام حيا ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى وو بخه وقنعه بمخصرة كانت بيـده . وكان صديقا لابراهيم الموصلى المغنى المشهور ولأبى العتاهيـة . وكان يمـدح البرامكة وخصوصا الفضل بن يحيى . توفى سـنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى ج ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان ج ١ ص ١٩٨

لما قال بشارٌ قصيدتَه الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :

اذا نبهتك صِعَابُ الأمور * فنبّهْ لها عُمَـرًا ثم نَمْ
فتًى لا يبيتُ على دِمْنَـــةٍ(١) * ولا يشرب الماءَ إلا بدمْ

بَعث بها مع سلم الى عُمَر بن العلاء، فوافاه، فانشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : ان خادمَك — يعنى نفسه — قد قال فى طريقه فيك قصيدةً، قال : فإنك لُهناك ! قال : تسمع ثم تحكم، قال : هات، فانشده :

قد عزّنى الداءُ فما لى دواءْ * مما أُلَاقى من حِسَان النساءْ
قلبٌ صحيحٌ كنتُ أَسْطُو به * أصبح من سَلْمَى بداء عَيَاءْ
أنفاسُها مِسْكٌ وفى طَرْفها * سِحْرٌ وما لى غيرُها من دواءْ
وعدتنى وعـــدًا فأَوْفِ به * هل تصلُح الخمرةُ إلا بماءْ

ويقول فيها :

كم كُرْبةٍ قد مسّنى ضرُّها * ناديتُ فيها عُمَرَ بنَ العَلَاءْ

فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت اول عطية سَنِيّة وصلتْ اليه .

ومن قوله يَرْثِى يَاقُوتَةَ بنتَ المهدى :

أَوْدَى بياقوتةَ ريبُ الزمانْ * مؤنسةِ المهدىِّ والخيزُرَانْ
لم تَنْـــطَوِ الأرضُ على مثلها * مولودة حَنَّ لها الوالدانْ
يَاقُوتُ يا بنتَ إمامِ الهـــدى * أصبحتِ من زينة أهلِ الجِنَانْ
بكتْ لك الأرضُ وسكّانُها * فى كل أُفْقٍ بين إنسٍ وجانّْ

دخل سَلْم على الفضل بن يحيى فى يوم نَيْروزٍ والهدايا بين يديْه، فأنشد :

أمِنْ ربعٍ تسائلُهُ * وقـــد أقوتْ منازلُهُ
بقلبى مِنْ هَوَى الأطْلا * لِ حبٌّ ما يُزَايِـــلُهُ

(١) الدمنة : الحقد .

رُوَيدَكُمُ عن المَشـعو * فِ إن الحبَّ قاتـلُهُ
بَلَابِلُ صـدرِه تَبرى * وقـد نامتْ عَوَاذِلُهُ
أحقُّ النـاسِ بالتفضيـ * ـل من تُرْجَى فواضله
رأيتُ مكارمَ الأخلا * ق ما ضَمَّتْ حَمَائلُهُ
فلستُ أرَى فتًى فى النا * س إلّا الفضلُ فَاضِلُهُ
يقــول لسانُهُ خيرًا * فتفعــلُهُ أنامــلُهُ
ومَهْــما يُرْجَ من خيرٍ * فإنّ الفضــلَ فاعِلُهُ

وكان ابراهيمُ المَوْصِلى وابنُه إسحاقُ حاضرَيْن، فقال لإبراهيم : كيف ترى وتسمع ؟ قال : احسنَ مرئىّ ومسموعٍ، وفضلُ الأمير أكثرُ منه ، فقال : خذوا جميعَ ما أُهْدى الىَّ اليوم فاقتسِموه بينكم أثلاثًا إلّا ذلك التِّمْثالَ ، فإنى أريد أن أُهْدِيَه اليوم الى دَنَانِيرَ ، ثم قال : لا والله ما هكذا تفعلُ الأحرار ، يقوَّم ويُدْفَع اليهم ثمنُه ثم نُهْدِيه ، فقُوِّم بألفى دينار ، فحملها الى القوم من بيتِ ماله واقتسموا جميعَ الهدايا بينهم .

كان المهدىُّ يعطى مَرْوانَ وسَلْمًا الخاسرَ عطيَّةً واحدةً ، فكان سَلْمٌ يأتى باب المهدىّ على البِرْذَوْنِ الفَارِهِ ، قيمتُــه عشرةُ آلاف درهم بسَرْجٍ ولِجَامٍ مُفَضَّضَيْن ، ولباسُــه الخَزُّ والوَشْى وما أشبه ذلك من الثياب الغاليةِ الأثمان ، ورائحةُ المسك والطيب والغاليةِ تفُوح منه ، ويجىء مروانُ بن أبى حَفصة عليه فَرْوٌ كَبْلٌ[1] وقميصٌ كَرَابِيسُ[2] وعمامةُ كَرَابِيسَ وخُفَّا كَبْلٍ[3] وكِساءٌ غليظٌ ، وهو مُنتِنُ الرائحة ، وكان لا يأكل اللحمَ حتى يَقْرَم اليه بُخْلًا ، فاذا قَرِمَ أرسل غلامَه فاشترى له رأسًا فأكله ، فقال له قائل : أرَاك لا تأكلُ إلا الرأسَ ، قال : نعمْ أعرف سعره فآمَنُ خِيانةَ الغلام ولا أشترى لحمًا فيطبخُه فيأكلُ منه ، والرأس آكُل منه ألوانًا : آكل من عينيه لونًا ومن غَلْصَمتِه[4] لونًا ومن دِماغِه لونًا .

(١) قصير . (٢) الكرابيس : جمع كرباس وهو القطن . (٣) أى خفا فرو كثير الصوف غليظه . (٤) الغلصمة : أصل اللسان .

كان سَلْم قد بُلِيَ بالكيمياء، فكان يذهب بكل شيء له باطلًا، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرف أن بباب الشام صاحبَ كيمياء عجيبًا، وأنه لا يصل اليه أحد إلا ليلا، فسأل عنه، فدلُّوه عليه. قال: فدخلت اليه الى موضع مُعْوِر[1]، فدققتُ البابَ فخرج إليّ، فقال: من أنت عافاك الله؟ فقلت: رجل معجَبٌ بهذا العلم، قال: فلا تُشْهِرني فإني رجل مستورٌ إنما أعمل القوتَ، قلت: إني لا أُشْهِرك إنما أقتبس منك، قال: فاكتُمْ ذلك، وبين يديه كوزُ شَبَهٍ[2] صغيرٌ، فقال لي: اقلع عُرْوته، فقلعتُها، فقال: اسبكْها في البَوْتَقة[3]، فسبكتُها، فأخرج شيئًا من تحت مصلّاه فقال: ذُرّه عليه، ففعلت، فقال: أفرِغْه، فأفرغتُه، فقال: دَعْه معك، فاذا أصبحتَ فاخرجْ فبِعْه وعُدْ إليّ، فأخرجتُه الى باب الشام فبعتُ المثقالَ بأحد وعشرين درهمًا ورجعتُ اليه فأخبرتُه، فقال: اطلب الآنَ ما شئتَ، قلت: تُفيدُني؟ قال: بخمسمائة درهم على ألا تُعلّمه أحدا، فأعطيتُه وكتب لي صفةً فامتحنتُها فاذا هي باطلة، فعدتُ اليه، فقيل لي: قد تحوّل وإذا عُروة الكوزِ الشَّبَه من ذهبٍ مركبةٌ عليه، والكوز شَبَهٌ، ولذلك كان يدخُل اليه من يطلبه ليلا ليخفى عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بي خيرا وأن هذا كلَّه باطلٌ.

قال أبو المستهل: دخلت يوما على سلم واذا بين يديه قراطيسُ فيها أشعارٌ يرثي ببعضها أمَّ جعفر، وببعضها جاريةً غيرَ مسمّاة، وببعضها أقواماً لم يَمُوتُوا، وأمُّ جعفرٍ يومئـذ باقية، فقلت له: وَيحَك ما هذا؟ فقال: تحدُثُ الحوادثُ فيطالبونا بأن نقول فيها ويستعجلونا ولا يَجْمُل بنا أن نقولَ غيرَ الجيد، فنُعِدُّ لهم هذا قبلَ كَوْنه، فمتى حدث حادثٌ أظهرْنا ما قلناه فيه قديمًا على أنه قيل في الوقت.

دخل سلمٌ على الرشيد فأنشده: * حَيِّ الأحبةَ بالسلام * فقال الرشيد: حيّاهم الله بالسلام، فقال سلم: * أعلى وَداعٍ أم مُقام * فقال الرشيد: حياهم الله على أيِّ ذلك كان، فأنشده:

لم يَبْقَ منك ومنهمُ * غيرُ الجلود على العِظام

(١) معور: مخوف. (٢) الشبه: النحاس الأصفر. (٣) البوتقة: الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ.

فقال له الرشيد : بَلْ منكَ، وأمر بإخراجه، وتطيَّر منه ومن قوله، فلم يسمَع منه باقىَ الشعر ولا أثابه بشىء .

استوهب إسحاقُ المَوْصِلىّ من الرشيد تركةَ سَلْم، وكان قد مات عن غير وارث، فوهبها له قبل أن يتسلَّمها صاحبُ المواريث، فحصل منها على خمسين ألف دينار، ورُوى أنه رُفع الى الرشيد أن سلما قد توفِّى وخلَّف مما أخذه منه خاصةً ومن زُبَيدة ألفَ ألفِ وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلَّفه من عقارٍ وغيرِه مما اعتقَده[1] قديما، فقبَضه الرشيدُ وتظلَّمَ اليه مَوَاليه من آل أبى بَكْرٍ الصِّدِّيق رضوان الله عليه؛ فقال : هذا خادمى ونديمى، والذى خلَّفه من مالى فأنا أحقُّ به، فلم يُعْطِهم إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

(١) امتلكه .

٩ — رَبِيعَةُ الرَّقِّيُّ (١)

كان مُنقطعًا عن الحضارة ، بعيـدًا عن مجالسة الخلفاء ، فأُخمِل ذِكْرُه بسبب ذلك ، لكنّهم كانوا يستقدمونه اليهم . وأوّلُ من فعل ذلك المَهْدِيُّ ، فمدحه ونال جَوائزه ، وكان ابن المُعْتَزِّ يرى ربيعـة أشعرَ غزَلًا من أبى نُوَاس ، لأن فى غزَل أبى نُوَاس بَرْدًا كثيرا ، وغزَلُ هذا سليمٌ عذبٌ سهْل ، ولذلك فإن شهرته بلغتْ إلى بَلاط الخليفـة . وكان يمدحُ غيرَ الخلفاء ويَنالُ جوائزهم ويعُود الى بلده ، وإن قصّر أحدٌ فى إعطائه هجاه ، وله فى ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن على من أمراء بنى العبّاس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المُهلَّبى ويهجو يَزيد بن أُسَيْد السُّلَمِى :

حَلَفتُ يَمِينًا غيرَ ذِى مَثْنَوِيَّة (٢) * يمينَ امرئٍ آلى بها غيرَ آثم

لَشتَّانَ ما بَين اليَزِيدَين فى النَّدى * يَزِيدِ سُلَيْمٍ والأغرِّ ابن حاتم

يزيدُ سُلَيْم (٣) سالمُ المالِ ، والفتى * أخو الأزْدِ للأموال غيرُ مُسَالم

فهَمُّ الفتى الأزدِىِّ إتلافُ ماله * وهَمُّ الفتى القَيْسِىِّ جَمْعُ الدَّراهم

فلا يحسَبِ التَّمْتامُ أنّى هَجَوْته * ولكنّنى فضَّلْتُ أهلَ المكارم

قال رجلٌ لربيعة : يا أبا أُسَامَةَ ، ما حَملك على أن هجوتَ رَجُلًا من قومك وفضَّلْتَ عليه رجلا من الأزد؟ فقـال : أُخبِرُك ، أمْلَقْتُ فلم يَبْقَ لى إلّا دَارى ، فرهنتُها على خمسمائة درهم ، ورحَلْتُ اليه الى أرْمِينِيَة ، فأعلمتُه بمكانى ومدحتُه ، وأقمتُ عنده حَوْلا ، فوهَبَ لى

---

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شبابة ، وكان ينزل الرقة ، وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدى اليـه ، فمدحه بعـدة قصائد وأثابه عليها ثوابا كبيرا ، وهو من المكثرين المجيـدين ، وكان ضريرا وانما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ، ومع ذلك فما عدم مفضلا مقدما له . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٥ ص ٣٨) وخزانة الأدب للبغدادى (ج ٣ ص ٥٥) .

(٢) أى لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بنى سليم ، وأخو الأزد هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

خمسمائة درهم، فتحمّلتُ وصرت بها الى منزلى، فلم يبق معى كبيرُ شىء، فنزلتُ فى دار بكراء، فقلتُ : لو أتيتُ يزيدَ بن حاتم، ثم قلتُ : هذا ٱبن عمّى فعل بى هذا الفعلَ فكيف بغيره! ثم حمّلتُ نفسى على أن آتيـه ، فأُعلم بمكانى، فتركنى أشهرا حتى ضجِرتُ، فأكريتُ نفسى من الجمّالين . وكتبتُ بيتاً فى رُقعة فألقيتُه فى دِهليزه، والبيتُ :

أرانِى ولا كُفرانَ لله راجعًا ۔ بخُفَّىْ حُنَيْنٍ من يزيد بن حاتم

فوقعت الرقعـةُ فى يد حاجبـه ، فأوصلها اليـه من غير علمى ولا أمرى، فبعث خلفى، فلما دخلتُ عليه قال : هِيه أنْشِدنى ما قلتَ، فتمنّعتُ، فقال : والله لتُنشِدَنّى، فأنشدتُه، فقال : والله لا ترجع كذلك، ثم قال : ٱنزِعوا خُفّيه، فنُزِعا فحشاهُما دنانيرَ وأمر لى بغلمانٍ وجَوار وكُسًى، ألا ترى لى أن أمدح هذا وأهجُوَ ذاك ؟ قلتُ : بلى والله، وسار شِعْرى حتى بلغَ المهدىَّ، فكان سببَ دخولى اليه .

قيل لأبى زَيْد النّحوىّ : إن الأصمعى قال : لا يقـال شتّانَ ما بينهما، وإنما يقال : شتّانَ ما هما، وأنشد قول الأعشى : ۔ شتّان ما يومى على كُورِها ۔ فقال : كذَب الأصمعىُّ، يقال : شتّان ما هما وشتّان ما بينهما، وأنشد لربيعة الرّقى : « لشتّان ما بين اليزيدين » وفى ٱستشهاد مثلِ أبى زيد على دَفع قول مثل الأصمعىّ بشعرِ ربيعة كِفايةٌ له فى تفضيله .

ٱمتدح ربيعةُ العبّاسَ بن محمـد بن على بقصيدة لم يُسْبَق إليها حُسْنًا، وهى طويلة . يقول فيها :

لو قيـل للعبّـاس يٱبنَ محمد ۔ قُلْ «لا» وأنتَ مُخَلَّدٌ ما قالَها

ما إن أعُدُّ من المكارم خَصْلةً ۔ إلا وجدتُك عمّها أو خالَها

واذا الملوك تسايَرُوا فى بلدةٍ ۔ كانوا كواكبَها وكنتَ هلالَها

إن المكارمَ لم تزلْ معقـولةً ۔ حتى حللتَ براحتَيك عِقالَها

فبعَثَ اليـه بدينارين، وكان يُقدّرُ فيه ألفين، فلما نظر الى الدينارين كاد يُجَنّ غيظًا وقال للرسول : خُذْ هذين الدينارين فهما لك على أن تَرُدّ الرّقعـة الىّ من حيث لا يدرى العبّاسُ، ففعل الرسولُ ذلك، فأخذها ربيعةُ وأمر من كتب فى ظهرها :

مدحتُك مِدحةَ السّيف المحلّى * لتجرِيَ في الكرام كما جريتُ
فهبها مِدحةً ذهبت ضياعًا * كذبتُ عليك فيها واَفتريتُ
فأنتَ المرءُ ليس له وفاءٌ * كأنى إن مدحتُك قد زنيتُ

ثم دفعها الى الرسول وقال : ضَعْها فى الموضع الذى أخذتَها منه ، فردّها الرسولُ ، فلما كان من الغد أخذها العباسُ فنظرَ فيها، فلما قرأ الأبيات غَضِب وقام من وقته فركب إلى الرشيد، وكان أثيرًا(١) عنده يُجلّه ويقدّمه، وكان قد همّ أن يخطب اليه ابنته، فرأى الكراهةَ فى وجهه، فقال : ما شأنك؟ فقال : هجانى ربيعة الرَّقّى، فأُحْضِر، فقال له الرشيدُ : تهجو عمّى وآثرَ الخلق عندى ؟ لقد هَمَمْتُ أن أضرب عُنُقَك ، فقال : واللهِ يا أمير المؤمنين لقد مدحتُه بقصيدةٍ ما قال مثلَها أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء ، ولقد بالغتُ فى الثناء وأكثرتُ فى الوصف ،فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمُره بإحضارها ! فلما سمع الرشيدُ ذلك منه سكن غَضَبُه وأحبّ أن ينظر الى القصيدة، فأمر العباسَ بإحضار الرّقعة، فتلكأ عليه العباسُ، فقال له الرشيدُ : سألتُك بحقّ أمير المؤمنين إلّا أمرتَ بإحضارها، فعلم العباسُ أنه قد أخطأ وغلِط ، فأمر بإحضارها ، فأُحْضِرت ، فأخذها الرشيدُ واذا فيها القصيدةُ بعينها، فاستحسنها واستجادها وأُعجِب بها وقال : واللهِ ما قال أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء مثلَها ، لقد صدَق ربيعةُ وبرّ، ثم قال للعباس : بِمَ أثبتَه عليها؟ فسكتَ العباسُ وتغيّر لونُه وجرِض بريقه(٢)، فقال ربيعةُ : أثابنى عليها يا أميرَ المؤمنين بدينارين ، فتوهّم الرشيدُ أنه قال ذلك من المَوْجِدة على العبّاس، فقال : بحياتى يا رَقّى بكم أثابك ؟ قال : وحياتِك يا أميرَ المؤمنين ما أثابنى عليها إلا بدينارين ، فغضب الرشيدُ غضبًا شديدا ونظر فى وجه العباس وقال : سَوْءةً لك ! أىّ حالٍ قعدتْ بك عن إثابته؟ الأموالُ ؟ فوالله لقد موّلتُك جُهدى، أم انقطاعُ المادّةِ عنك؟ فوالله ما انقطعتْ ، أم أصلُك ؟ فهو الأصلُ لا يُدانيه شىءٌ ، أم نفسُك فعلتْ ذلك بك حتى فضحتَ آباءك وأجدادك وفضحتنى

(١) أثيرا : مكرّما . (٢) جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على هم وحزن .

ونفسك ؟ فنكس العباس رأسه ولم ينطق، فقال الرشيد : يا غلام، أعط ربيعة ثلاثين ألف درهم وخلعة واحمله على بغلة، فلما حمل المال بين يديه وألبس الخلعة قال : بحياتى يارقى لا تذكره فى شعرك لا تعريضا ولا تصريحا ، وفتر الرشيد عما كان هم به أن يتزوج اليه، وظهر له منه بعد ذلك جفاء كثير واطراح له .

قال أبو بشر : كنت حاضرا ربيعة الرقى يوما وجاءته امرأة فقالت : تقول لك فلانة إن بنت مولاى محمومة فإن كنت تعرف لها عوذة(١) فافعل ، فقال اكتب لها أبا بشر هذه العوذة :

تقوا تقوا باسم إلهى الذى ٭ لا يعرض السقم لمن قد شفى

أعيذ مولاتى ومولاتها ٭ وابنتها بعوذة المصطفى

من شر ما يعرض من علة ٭ فى الصبح والليل اذا أسدفا

فقلت له : يا أبا ثابت ، لست أحسن أن أكتب تقوا تقوا ، فكيف أكتبها ؟ قال انضح المداد من رأس القلم فى موضعين حتى يكون كالنفث(٢)، وادفع العوذة اليها فإنها نافعة، ففعلت ودفعتها إليها، فلم تلبث أن جاءت الجارية وهى لا تمالك ضحكا، فقالت له : يامجنون ما فعلت بنا ! كدنا نفتضح بما صنعت ! قال : فما أصنع ! أشاعر أنا أم صاحب تعاويذ ! .

واتفق للرقى أيضا مثل ذلك مع معن بن زائدة، وقد لقيه فى بعض قدماته إلى العراق، فمدحه، فلم يهش له، فهجاه بقصيدة مطلعها :

معن يا معن يابن زائدة الكلـ ٭ ـب الذى فى الذراع لا فى البنان

لا تفاخر إذا فخرت بآبا ٭ ئك وافخر بعمك الحوفزان(٣)

---

(١) العوذة : الرقية يرقى بها الانسان من فزع أو جنون أو مرض . (٢) النفث البصاق اليسير ينفثه الراقى فى العقدة عند الرقية .

(٣) الحوفزان هو الحارث بن شريك الشيبانى ، سمى بذلك لأن قيس بن عاصم التميمى حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته ، وقد فخر بذلك سوار بن حيان المنقرى فقال :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة ٭ سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

ومن غَزَله أبياتٌ يُغَنَّى بها، وهى :

وتزعُم أنّى قد تبدّلتُ خُلَّة(١) * سِواها وهذا الباطلُ المُتَقَوَّلُ

لحَا اللهُ من بَاع الصديقَ بغيره * فقالتْ نعم حَاشَاكَ إن تكُ تَفْعَلِ

سَتَصْرِمُ إنسانا اذا ما صَرَمْتَنِى * بحبِّك فانظر بعده من تبَدَّل

(١) الخلة : الخليلة .

١٠ — الرقاشى [1]

كان سَهْلَ الشعر مطبوعًا ، وكان مُنْقَطِعًا إلى آل بَرْمَك ، مُستغنيًا بهم عن سواهم ، وكانوا يَصُولون به على الشعراء ، ويُرَوُّون أولادَهم أشعارَه ، ويُدَوِّنونها القليلَ والكثيرَ منها ، تعصُّبًا له ، وحِفْظًا لخدمته ، وتنويهًا باسمه ، وتحريكًا لنشاطه ، لحفظ ذلك لهم . فلما نُكِبوا صار إليهم فى حَبْسِهم ، فأقام معهم مدةَ أيامِهم يُنْشِدُهم ويُسامِرُهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فأكثر من رثائهم ؛ فمن ذلك قولُه فى جعفر :

كم هاتِفٍ بك من باكٍ وباكيةٍ * يا طِيبَ للضَّيفِ إذ تُدْعى وللجارِ
إن يَعْدَمِ القَطْرَ كنتَ المُزْنَ بارِقُه * لَمْعُ الدنانيرِ لا ما خَيَّلَ السارى

وقوله :

لَعَمْرُكَ ما بالموت عارٌ على الفتى * اذا لم تُصِبْه فى الحياة المَعايِرُ [2]
وما أحَدٌ حَىٌّ وإن كان سالمًا * بأسْلَمَ ممّا غَيَّبَتْه المَقابِر
ومَنْ كان مما يُحْدِثُ الدهرُ جازعًا * فلا بدّ يومًا أن يُرَى وهو صابر
وليس لذى عَيْشٍ عن الموت مُقْصَرٌ * وليس على الأيام والدهرِ غابِر
وكلُّ شبابٍ أو جديدٍ إلى البِلى * وكلُّ امرئٍ يومًا الى الله صائر
فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ عنِّى جَعْفَرا * برُوحى ولو دارتْ علىَّ الدَّوائر
فآلَيْتُ لا أنفكُّ أبكيك ما دعَتْ * على فَنَنٍ وَرْقاءُ أو طارَ طائر

ومن ذلك قولُه لما صُلِب الفَضْلُ بن يحيى واجتاز به الرقاشىّ وهو مصلوبٌ على الجِذْع ، فوقف يبكى ثم قال :

---

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفى سنة ٢٠٠ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ١٥ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعاير : المعايب .

أما واللهِ لولا خَـــوفُ واشٍ * وعَيْنٌ للخليفـــة لا تَنَـامُ
لَطُفْنَا حول جِذْعِك واَسْـتَلَمْنا * كما للنـاسِ بالحَجَـرِ اسْـتلامُ
فما أبصرتُ قَبْلَك يابنَ يَحْيَى * حُساماً حَتْفُـه السيفُ الحُسَام
عـلى اللَّذَاتِ والدنيا جميعـا * ودولةِ آل بَرْمَـكَ السَّـلامُ

فكتبَ أهلُ الأخبار بذلك الى الرشيد، فأحضَره فقال : ماحمَلك على ما قلتَ؟ فقال: ياأميرَ المؤمنين كان إلىّ مُحْسِنًا ، فلما رأيتُه على الحال التى هو عليها حَرّكنى إحسانُه فما ملَكتُ نفسى حتى قلتُ الذى قلتُه، قال : وكم كان يُجْرى عليك ؟ قال : ألف دينارٍ فى كلّ سنة، قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يَصِفُ جارِيةً :

صِفَاتٌ وحُسْنٌ أَوْرَثا القلبَ لَوْعَةً * تَضَـرَّمُ فى أحْشَاء قَلْبٍ مُتَيَّمِ
تُمَثِّـلُها نفسى لعينى فأنْثَـنى * عليهـا بطَرْفِ النّاظرِ المتَنَدِّمِ
يُحَمِّلُنى حُـبِّى لهـا فوقَ طاقتى * من الشوق دَأْبَ الحائرِ المُتَقَسِّمِ

١١ - أبو العَتَاهِيَة (١)

قال أحمد بن زُهَيْر : سمعت مُصْعَب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ، فقلت له : بأىّ شىء استحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ * طِوالٍ أىّ آمال

وأقبلتُ على الدنيا * مُلِحًّا أىّ إقبال

أيا هذا تجهَّزْ لِـ * ـفراق الأهل والمال

فلا بدّ من الموت * على حالٍ من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق لا حَشْو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقر به الجاهل . وكان الأصمعى يستحسن قوله :

---

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد ، أطبع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولا وأسهلهم لفظا ، وأسرعهم بديهة وارتجالا ، وأوّل من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها ، وأكثر من الحكمة .

ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة فى عمل أهله . وكانوا باعة جرار ، إلا أنه ربأ بنفسه عن عمله وقال الشعر فى صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامى كله شعرا لفعلت» فذاع صيته وسلك طريق خلعاء الكوفة . ثم قدم بغداد ومدح المهدى وتعرف ببعض خدم قصر الخلافة وجواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة ، ولما يئس منها لها عنها ببعض الشىء . ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهد فى الدنيا قولا ومعيشة على إفراط منه فى حب المال والجمع له والبخل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على الزهد فى الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ، وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جوائزهم ، ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبه ، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك الغزل والهجاء ، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفى سنة ٢١١ هـ .

وله ديوان مطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٧ وتجد أخباره فى الأغانى ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أنتَ ما ٱستغنيتَ عن صا * حبِــك الدهرَ أخُوه
فاذا ٱحتجتَ إليــه * ساعةً مجَّك فُــوه

وأنشد له سَلْمٌ الخاسر :

سَكَنٌ يَبْقى له سَكَنٌ * ما بهــذا يُؤذِن الزمنُ
نحن فى دار يخــبِّرُنا * بِبلاها ناطِقٌ لَسِن
دارُ سُـوءٍ لم يَدُم فَرَحٌ * لأمرىء فيها ولا حَزَن
فى سـبيل الله أنفُسُنا * كلُّنا بالمـوت مُرْتَهَن
كلّ نفس عند مَيْتتها * حَظُّها من مالها الكفن
إن مالَ المـرء ليس له * منـه إلا ذكُره الحسن

وقال عبد الله بن عبد العزيز العُمَرىّ : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

ما ضَرّ من جَعَل التراب مِهادَه * ألّا ينامَ على الحرير اذا قَنِعْ

وقيل لأبى العتاهيـة : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردتُه قطّ إلا مَثَـل لى، فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامى شعرا كلّه لفعلتُ .

حُمَّ الرشيد فصار أبو العتاهية الى الفضل بن الربيع برقعة فيها :

لو علم الناسُ كيف أنتَ لهم * ماتوا اذا ما أَلِـتَ أجمَعُهمْ
خليفةَ الله أنتَ ترجَحُ بالنا * سِ اذا ما وُزِنتَ أنتَ وهُمْ
قد علم الناس أن وجهك يغْـ * ـنى اذا ما رآه مُعْـدِمُهم

فأنشدها الفضلُ بن الربيع الرشيدَ، فأمر بإحضار أبى العتاهية، فـما زال يُسامره ويحدّثه الى أن بَرِئَ، ووصل اليه بذلك السبب مالٌ جليـل . وقد حدّث ٱبن الأعرابى بهذا الحديث، فقال له رجل بالمجلس : ما هــذا الشعر بمستحقّ لمـا قلتَ؛ قال : ولم؟ قال : لأنه ضعيف ؛ فقال ابن الأعرابى، وكان أَحَدّ النـاس ، الضعيفُ والله عقلُك لا شِـعر

أبى العتاهية، ألأبى العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعرا قطّ أطبَعَ ولا أقدَر على بيت منه، وما أحسَب مَذْهَبه إلا ضَرْبا من السِّحر، ثم أنشد له :

قطّعتُ منك حبائل الآمال ° وحَطَطتُ عن ظَهْر المَطىّ رِحالى
ويَئستُ أن أبقى لشىء نِلتُ مما فيك يا دنيا وأن يبقى لى
فوجَدتُ بَرْد اليأس بين جوانحى ° وأرَحْتُ من حِلّ ومن تَرْحال
يأيها البَطِر الذى هو من غدٍ ° فى قبره متمزّق الأوصال
حذَفَ المُنَى عنه المُشَمِّرُ فى الهدى ° وأرى مُناك طويلةَ الأذيال
حِيَلُ ابن آدم فى الأمور كثيرةٌ ° والموتُ يقطع حِيلةَ المحتال
مالى أراك لحُرّ وجهك مُخْلِقا ° أخلقتِ يا دنيا وجُوه رِجال
قِسْتُ السُّؤال فكان أعظمَ قيمةً ° من كلّ عارفةٍ جَرَتْ بسؤال
فإذا ابتُليتَ ببَذْل وجهك سائلا ° فابذُله للمتكرِّم المِفضال
واذا خَشيتَ تَعَذُّرًا فى بلدة ° فاشدُدْ يديك بعاجل التَّرحال
واصبِرْ على غِيَر الزمان فإنما ° فَرَجُ الشدائد مثلُ حَلّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يُحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل : يا أبا عبد الله، جعلنى الله فداءك، إنى لم أردُد عليك ما قلت، ولكن الزهد مَذْهَبُ أبى العتاهية، وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد، فقال : أفليس الذى يقول فى المديح :

وهارونُ ماءُ المُزْن يَشفِى من الصَّدَى ° اذا ما الصَّدِى بالرِّيق غَصَّتْ حَناجِرُهْ
وأوسَطُ بيت فى قريش لَبيتُه ° وأوّلُ عزّ فى قريش وآخِرُه
وزَحْفٌ له تَحكى البروقَ سيوفُه ° وتحكى الرعودَ القاصفاتِ حوافرُه
اذا حَمِيَتْ شمسُ النهار تَضاحَكَتْ ° إلى الشمس فيه بَيْضُه ومَغافِره
اذا نُكِبَ الإسلامُ يوما بنَكبة ° فهارونُ من بين البَرِيّة ثائره
ومَنْ ذا يفوتُ الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ ° كذا لم يَفُتْ هارونَ ضِدٌّ يُنافِره

فتخلّص الرجل من شرّ ابن الأعرابى بأن قال له : القولُ كما قلتَ ، وما كنتُ سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال ثُمَامة بن أشْرَس أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المـال نفسَه * تملّكه المـالُ الذى هو مالكه

ألا إنمـا مالى الذى أنا مُنْفِقٌ * وليس لِىَ المـالُ الذى أنا تاركه

اذا كنتَ ذا مال فبَادِرْ به الذى * يَحِق وإلا آستهلكته مَهالـكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبِسْتَ فأبليتَ أو تصـدّقتَ فأمضيتَ" . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رســول الله صلى الله عليه وسلم وأنّه الحقّ؟ قال : نعم ؛ قلت : فلِمَ تَحْبِس عندك سبعا وعشرين بَدْرَةً فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكّى ولا تقـدّمها ذُخْرا ليوم فَقْرك وفاقَتِـك ؟ فقال : يا أبا مَعْن ، والله إنّ ما قلتَ لهو الحقّ ، ولكنى أخاف الفقر والحاجةَ الى الناس ؛ فقلتُ : وبِمَ تزيد حالُ من آفتقر علىْ حالك وأنتَ دائم الحرص ، دائمُ الجَمْع ، شحيحٌ على نفســك ، لا تشترى اللّحم إلا من عيد الى عيد؟ فترك جواب كلامى كلّه ، ثم قال لى : والله لقد آشتريتُ فى يوم عَاشُوراء لحمـا وتوابِلَه وما يتبعه بخمسة دراهم ؛ فلما قال هـذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومُعَاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شَرَح اللهُ صدرَه للإسلام .

زار مَرّة عمرو بن مَسْعَدة فحُجِب عنه ، فلَزِم منزله ، فاستبطأه عمرو ، فكتب اليه :

كسّلَنِى اليأسُ عنك فما أر * فـع طَرْفى اليك من كَسَلِ

إنى اذا لم يكن أخى ثِقَةً * قطعتُ منه حَبائلَ الأملِ

وكتب اليه مرة أخرى :

مالَكَ قد حُلْتَ عن إخائك وآسـ * ـتَبْدَلْتَ ياعمرو شِـيمةً كَدِره

إنى اذا البـابُ تاه حاجبُـه * لم يَكُ عنـدى فى هَجْره نَظِره (١)

(١) النظرة : التأخير والإمهال .

لستمْ تُرَجَّوْن للحساب ولا * يومَ تكون السماء مُنْفَطِره
لكن لدنيا كالظلّ بهجتُها * سريعةِ الإنقضاء مُنْشَمِره
قد كان وجهى لديك مَعْرِفَةً * فاليوم أضحى حَرْفا من النَّكِره

جلس المهدىّ للشعراء يوما فأذِن لهم، وفيهم بشّار وأشجع، وكان أشجع يأخذ عن بشّار ويعظّمه، وكان فى القوم غيرَ هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشّار كلام أبي العتاهية قال: يا أخا سُلَيْم، أهذا ذلك الكُوفِىّ المُلَقَّب؟ قلت: نعم، قال: لا جَزَى الله خيرا من جمعنا معه، ثم قال له المهدىّ: أنْشِد، فقال: ويحك! أو يُستنشد أيضا قَبْلنا؟ فقلتُ: قد ترى، فأنشد:

ألا ما لسيّدتى ما لَها * أدَلًّا فأحمل إدلالَها
وإلّا فَفِيمَ تجنّتْ وما * جنيت سقى الله أطلالَها
ألا إن جاريةً للإما * م قد أُسْكِنَ الحسن سِرْبالها
مشتْ بين حُورٍ قصارِ الخُطا * تُجاذِب فى المشى أكفالَها
وقد أتعب اللهُ نفسى بها * وأتعب باللّوْم عُذّالها

فقال بشّار لأشجع: ويحك يا أخا سليم! ما أدرى من أىّ أمْرَيْه أعجب، أمن ضعف، شعره أم من تشبيبه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأُذُنه؟ حتى أتى على قوله:

أتتْه الخلافةُ مُنقادةً * إليه تُجرِّر أذيالَها
فلم تَك تصلُح إلّا له * ولم يك يصلح إلّا لها
ولو رامها أحدٌ غيرُه * لزُلْزِلت الأرضُ زِلْزالها
ولو لم تُطِعْه بنات القلوب * لَمَا قَبِل اللهُ أعمالها
وإن الخليفة من بُغْض "لا" * إليه لَيُبْغِضُ مَنْ قالها

فقال بشار لأشجع وقد اهتزّ طَرَبا: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفىّ!

ولما آتهمه منصورُ بن عمّار بالزندقة، لأنه لا يذكر فى شعره الجنّة والنار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا واعظَ الناس قد أصبحتَ متَّهما * إذ عِبْتَ منهـم أمورا أنتَ تأتيها
كالمُلْبِس الثوبَ من عُرْى وعورتُه * للناس باديةٌ ما إن يُواريها
فأعظمُ الإثم بعـد الشرك نعلمُـه * فى كلّ نفس عَماها عن مَساويها
عِرْفانها بعيوب النـاس تُبصرها * منهـم ولا تبصر العيبَ الذى فيها

وقيـل له : زعَم الناس أنك زِنْديق، فقال : والله مادينى إلا التوحيد، فقيل له قل شيئا يُتحدّث به عنك، فقال :

ألا إننـا كلُّنا بائدُ * وأىّ بنى آدم خالدُ
وبَدْؤهم كان من رَبّهـم * وكلٌّ الى ربّه عائد
فيا عجبًا كيف يَعْصِى الإلـــهَ أم كيف يَجْحَدُه الجاحد
وفى كلّ شىء له آيةٌ * تدُلّ عـلى أنه واحـد

وسمِـع الجاحظُ مرّة من ينشد أُرْجُوزة أبى العتاهية التى سمّاها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

يالَلشباب المَرِح التصابى * روائحُ الجنّـة فى الشباب

فقال للمنشد : قِف، ثم قال : آنظروا الى قوله : «روائح الجنـة فى الشباب» فإن له معنًى كمعنى الطرب لايقدِر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخيرُ المعانى ما كان القلب الى قَبُوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبى العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مَثَل، منها قولُه :

حَسْـبُك مما تبتغيه القُـوتُ * ما أكثرَ القوتَ لمن يموت
الفقــرُ فيما جاوزَ الكَفَافا * مَن آتّــقى الله رجَا وخافا
هى المقـاديرُ فلُمْنِى أو فَــذَرْ * إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ

لكلّ ما يُؤذى وإن قلّ ألمْ * ما أطولَ الليلَ على من لم ينمْ

ما انتفع المرءُ بمثل عقله * وخيرُ ذُخر المرء حُسْنُ فعله

إن الفساد ضدّه الصلاحُ * ورُبّ جِدّ جرّه المُزاحُ

من جعل النمّام عيناً هلكا * مُبلغُك الشرّ كباغيه لكا

إن الشبابَ والفراغ والجِدَه * مَفْسَدَةٌ للمرء أىّ مَفْسَده

يُغنيك عن كلّ قبيح تركُه * يَرْتهِن الرأىَ الأصيلَ شكُّه

ما عيشُ مَنْ آفتُه بقاؤه * نغّص عيشاً كلّه فَناؤه

يارُبّ من أسخطنا بجَهْده * قد سرّنا اللهُ بغير حَمْده

ما تطلُع الشمسُ ولا تَغيبُ * إلا لأمرٍ شأنُه عجيبُ

لكلّ شىء مَعْدنٌ وجوهرُ * وأوسط وأصغَر وأكبرُ

مَنْ لك بالمَحْض وكُلٌّ مُمْتزِجْ * وَساوِسٌ فى الصدر منه تَعْتلِجْ

وكلُّ شىء لاحِقٌ بجوهره * أصغَرُه متّصلٌ بأكبَره

ما زالت الدنيا لنا دارَ أذى * ممزوجةَ الصَّفْو بألوان القَذَى

الخيرُ والشرّ بها أزواجُ * لذا نِتاجٌ ولذا نِتاجُ

مَنْ لك بالمَحْض وليس مَحْضُ * يَخْبُث بعضٌ ويَطيب بعضُ

لكلّ إنسان طَبيعتانِ * خيرٌ وشرّ وهما ضِدّانِ

إنك لو تَسْتنشِق الشَّحيحا * وجدْتَه أنتنَ شىء ريحا

والخيرُ والشرّ اذا ما عُدّا * بينهما بَوْنٌ بعيدٌ جِدّا

عجبتُ حتى غمّنى السكوتُ * صِرْتُ كأنّى حائرٌ مبهوتُ

كذا قضَى اللهُ فكيف أصنعُ * الصَّمتُ إن ضاق الكلامُ أوسعُ

ومن قول أبى العتاهية فى الوحدة والتبرُّم بالناس :

بَرِمتُ بالناس وأخلاقِهم * فصِرتُ أستأنِسُ بالوَحْده
ما أكثَرَ الناسَ لعمرى وما * أقلَّهم فى حاصِل العِدّه

قال الأصمعىّ : شِعرُ أبى العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزَف والنوى .

كان أبو العتاهيــة لا يفارق الرشيد فى سَفَر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يُجرى عليه فى كلّ ســنة خمسين ألف درهم سوى الجَوائز والمَعَاون، فلما قدِم الرشـيدُ الرَّقّة لَبِس أبو العتاهية الصُّوفَ وتزهّد، وترَك حضورَ المنادمة والقولَ فى الغزل، وأمر الرشيدُ بحبسه فحُبِس، فكتب إليه من وقته :

أنا اليومَ لِى والحمـدُ لله أشْهُرُ * يَروح علىّ الهم منكم ويَبْكُرُ
تذكّرْ أمينَ الله حقّى وحُرْمتى * وما كنتَ تُولِينى كذلك يُذْكَرُ
ليالِىَ تُدنى منك بالقرب مجلسى * ووجهُك من ماء البشاشة يقطُر
فَمَن لِىَ بالعين التى كنتَ مرّةً * إلىّ بها فى سالف الدهر تَنظُر

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك، فكتب اليه :

أرِقْتُ وطار عن عينى النُّعاسُ * ونام السامرون ولم يُواسُوا
أمينَ الله أمْنُك خيرُ أمنٍ * عليك من التُقى فيــه لِباس
تُساسُ من السماء بكلّ بِرّ * وأنتَ به تسـوس كما تُساس
كأنّ الخلقَ رُكّب فيــه رُوحٌ * له جسد وأنتَ عليــه راس
أمينَ الله إن الحبس باس * وقد أرسلتَ : ليس عليك باس

وكتب اليه أيضا فى الحبس :

وكلّفتنى ما حُلْتَ بينى و بينــه * وقلتُ سأبغى ما تُريد وما تَهْوَى
فلو كان لى قلْبان كلّفتُ واحدا * هواك وكلّفتُ الخَلِىَّ لما يَهْوَى

فأمر باطلاقه .

كان الهادى واجدا على أبى العتاهية لملازمته أخاه هارون فى خلافة المهدىّ، فلما ولى موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضْطَرِبُ الخوفُ والرجاءُ إذا * حَرّكَ موسى القضيبَ أو فَكّرْ
ما أَبينَ الفضلَ فى مَغيبِ وما * أَوْرَدَ من رأيه وما أَصْدَرْ
فكم تَرى عَزّ عند ذلك من * مَعْشَرِ قومٍ وذَلّ من معشرْ
يُثْمِر مِن مَسِّه القضيبُ ولو * يَمَسُّه غيرُه لما أَثْمَرْ
مَنْ مِثْلُ موسى ومثلُ والده الـ * ـمهدىّ أو جَدّه أبى جَعْفَر

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده :

لَهفِى على الزمن القَصِيرِ * بين الخَوَرْنَق والسَّدِيرِ
إذ نحن فى غُرَف الجِنا * نِ نعوم فى بحر السرور
فى فتيةٍ ملَكوا عِنا * نَ الدهرِ أمثال الصُّقُور
ما منهـم إلا الجَسُو * رُ على الهوى غير الحَصُور
يتعاورون مُدامةً * صَهباء من حَلَب العصير
عـذراءَ ربّاها شُعا * عُ الشمس فى حَرّ الهجير
لم تَدْنُ من نار ولم * يَعْلَق بها وَضَرُ القدور
ومُقَرْطَقٍ يمشى أما * م القـوم كالرَّشَإ الغرير
بزجاجةٍ تَسْتَخرِج الـ * ـسِّرّ الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب الـ * ـدُّرّىّ فى كَفّ المُدِير
تدعُ الكريمَ وليس يد * رى ما قَبِيلٌ من دَبِير
ومُخَصَّرات زُرْنَنا * بعد الهدوّ من الخدور
رَيّا رَوادفهنّ يَلْـ * ـبَسْن الخواتم فى الخصور
غُرّ الوجوه مُحَجَّبا * ت قاصرات الطَّرْف حُور

مُتنعِّمات فى النعـ * ـيم مُضمَّخات بالعبير
يرفُلن فى حُلل المحا * سن والمجاسد والحرير
ما إن يرَين الشمس إلا القُرْط من خَلَل الستور
والى أمين الله مَهْـ * ـربُنا من الدهر العَثُور
واليـه أتعبنا المطـا * يا بالرَّواح وبالبُكور
صُعْر الخدود كأنما * جُنِحْن أجنحة النُّسور
مُتسَرْبِلات بالظـلا * م على السُّهولة والوُعور
حتى وصلْن بنا الى * ربِّ المدائن والقصور
ما زال قبـلَ فِطامه * فى سِنّ مُكْتهِلٍ كبير

استنشده المأمونُ أحسن ما قال فى الموت فأنشده :

أنْسَاك مَحْيَاك المَماتا * فطلبتَ فى الدنيا الثَّباتا
أوَثِقتَ بالدنيـا وأنـ * ـتَ ترى جماعتها شَتاتا
وعزمتَ منك على الحيا * ة وطولِها عَزمًا بَتاتا
يا من رأى أبوَيْه فيـ * ـمن قد رأى كانا فماتا
هـل فيهما لك عِبرةٌ * أم خِلتَ أنّ لك انْفِلاتا
ومَن الذى طلب التفلُّـ * ـتَ من منيّتـه ففاتا
كلٌّ تُصبِّحه المنـ * ـيَّةُ أو تُبيِّتـه بياتا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

ما أحسنَ الدنيـا وإقبالَها * اذا أطاع اللهَ مَن نالَها
مَن لم يُواس الناسَ من فضلها * عـرّض للإدبار إقبالَها

فقال له المأمون : ما أجودَ البيتَ الأول، فأما الثانى فما صنعتَ فيه شيئا، الدنيا تُدْبِر عمن واسَى منها أوضنّ بها، وإنما تُوجِب السماحةُ بها الأجرَ والضنُّ بها الوِزرَ، فقال : صدقتَ

يا أميرالمؤمنين، أهلُ الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافلٍ أودى به الموتُ * لم يأخذ الأُهْبَــةَ للفَوْتِ
من لم تَزُل نعمته قَبْلَه * زالَ عن النّعمة بالمـوت

فقال له : أحسنتَ، طيّبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يَحُجّ كل سنة، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُرْدًا ومُطْرَفًا ونَعْلا سوداء ومَسَاويك أَرَاكٍ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرّة له كما كان يهدى كل سنة اذا قدِم، فلم يُثِبْه ولا بَعَث اليه بالوظيفة، فكتب اليه أبو العتاهية :

خبّرونى أن من ضَرْب السَّنَة * جُدُدًا بِيضا وصُـفرا حَسَنَهْ
أُحْدِثَتْ لكننى لم أرَهَـا * مثـلَ ماكنتُ أرى كلّ سنه

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال : أغفلناه حتى ذكّرنا .

أنشد المأمونُ بيتَ أبي العتاهية يخاطب سلماً الخاسر :

تعالى اللهُ يا سـلم بن عمرو * أذَلّ الحِرْصُ أعناق الرّجال

فقال المأمون : إن الحرص لَمُفْسِـد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجلٍ قط حرصًا ولا شَرَها فوجدتُ فيه مُصْطَنَعًا ، فبلغ ذلك سلما فقال : ويلى على الجرّار الزنديق جمع الأموال وكنَزَها وعبأ البدور فى بيته ثم تزهّد مُراءاةً ونِفاقا، فأخذ يهتف بى اذا تصدّيتُ للطلب .

كان الرشيدُ مما يعجبه غِناءُ الملاّحين فى الزلالات اذا ركبها، وكان يتأذّى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يغنّون فيه، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس، فوجّه اليه الرشيدُ : قل شعرا حتى أسمعه منهم، ولم يأمر بإطلاقه، فغاظَه ذلك وقال : والله لأقولنّ شعرا يُحزنه ولا يُسَرّ به، فعمل شعرا ودفعه الى من حفظه من الملاّحين، فلما ركب الحَرّاقة سمعه وهو :

خانَكَ الطَّرفُ الطَّموحُ ٭ أيها القلبُ الجَموحُ
لدواعى الخيرِ والشرِّ دُنُوٌّ ونُزُوحُ
هل لمطلوبٍ بذنبٍ ٭ توبةٌ منه نَصُوحُ
كيف إصلاحُ قلوبٍ ٭ إنما هُنَّ قُروحُ
أحسنَ اللهُ بنا ٭ إنَّ الخطايا لا تَفوحُ
فإذا المستورُ منا ٭ بينَ ثوبيه فضوحُ
كم رأينا من عزيزٍ ٭ طُوِيَتْ عنه الكُشُوحُ
صاحَ منه برحيلٍ ٭ صائحُ الدهرِ الصَّدُوحُ
موتُ بعضِ الناسِ فى الأرضِ على قومٍ فُتُوحُ
سيصيرُ المرءُ يوماً ٭ جسداً ما فيه رُوحُ
بينَ عينَىْ كلِّ حىٍّ ٭ عَلَمُ الموتِ يَلُوحُ
كلُّنا فى غفلةٍ والموتُ يغدو ويَرُوحُ
لِبنى الدنيا من الدنيا غُبُوقٌ وصَبُوحُ
رُحْنَ فى الوشى وأصبحنَ عليهنَّ المُسُوحُ
كلُّ نطَّاحٍ من الدهرِ له يوماً نَطُوحُ
نُحْ على نفسكَ يا مسكينُ إنْ كنتَ تنوحُ
لَتَموتَنَّ وإنْ عُمِّرتَ ما عُمِّرَ نُوحُ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكى وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً فى وقت المَوْعظة ، وأشدهم عَسْفاً فى وقت الغضب والغِلْظة ، فلما رأى الفضلُ بن الربيع كثرة بكائه أومأ الى المَلاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحلتُ عن الرَّبْعِ المُحيلِ قَعُودى ٭ الى ذى زُحُوفٍ جمَّةٍ وجُنودِ
وراعٍ يُراعى الليلَ فى حفظ أمّةٍ ٭ يدافع عنها الشرَّ غيرِ رَقُودِ

بألوِيَةٍ جبريلُ يَقْدُمُ أهلَها * ورايات نَصْرٍ حوله وبُنُود
تجافى عن الدنيا وأيقن أنها * مُفارِقةٌ ليست بدار خُلود
وشَدَّ عُرَى الإسلام منه بِفتية * ثلاثة أملاك وُلاة عُهود
هُمُ خيرُ أولاد لهم خيرُ والد * له خيرُ آباء مَضَتْ وجُدود
بَنُو المصطفى هارون حول سريره * فخيرُ قيامٍ حولَه وقُعُود
تقلَّب ألحاظُ المهابة بينهم * عيونَ ظباء فى قلوب أُسُود
جُدودهم شمسٌ أتت فى أهِلَّة * تَبَدَّت لِرَاءٍ فى نجوم سُعُود

فوصله الرشيدُ بِصلة ما وصل مثلها شاعرًا قط .

١٢ — مُسْلِمُ بن الوَلِيد (١)

أحد الشعراء المفلقين والبلغاء المبدعين

قال الشِّعْرَ فى صِباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفيًا بما يناله من قليل العطاء، ويُنفقه على ملاذّه مع إخوانه من خُلَعاء الشعراء، ثم انقطع الى يزيد بن مَزيد الشَّيْبانى قائد الرشيد، ثم اتّصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدَحه ومدَح البرامكة وحَسُن رأيهم فيه . ولما أصبح الحلّ والعقد بيد ذى الرِّياستين الفضلِ بن سَهْل وزير المأمون فى أوّل خلافته قرّبه وأدناه : لأنه كان من خاصته قبل وزارته، وولّاه أعمالا بجُرْجَان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزِم منزلَه الى أن أنفقها فى اللّذات ، وعاد إلى الفضل فقلّده الضياع بأصْبَهان فاكتسب منها ألف ألف أيضا . ولما قُتِل الفضل لزم منزلَه ونَسَك ولم يمدح أحدا إلى أن مات بجرجان .

ومسلمٌ أوّل من تكلّف البديع فى شعره واستكثر منه فى قوله ، وسبَقه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأْوَ مسلم فيه . وقد عدّ العلماءُ هذا التصنّع والتكلّف إفسادًا للشعر، إذ قد تبعه فى ذلك الشعراءُ مثل البحترىّ وأبى تمام وابن المعتزّ وغيرهم .

---

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الغوانى ، شاعر متقدّم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومولده الكوفة . وهو فيما زعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمّام الطائى ، فانه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه ، ومسلم كان متفننا متصرفا فى شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعرا حسن النمط ، جيد القول فى الشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أوّل من عقد هذه المعانى الظريفة واستخرجها . وقال القاسم بن مهرويه : أوّل من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذى سماه الناس البديع ثم جاء الطائى بعده فتفنن فيه . توفى بجرجان سنة ٢٠٨ﻫ وله ديوان مطبوع فى ليدن سنة ١٨٧٥م . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمّنه المعانى اللطيفة ، وكساه الالفاظ الظريفة، فله جزالة البدويين، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبا نُواس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سَقَط، قال له : فما تحفظ من ذلك؟ قال : قل أنت ماشئت حتى أريك سَقَطك فيه، فأنشد :

ذَكَر الصَّبُوحَ بسُحْرة فارتاحا * وأمَلَّه ديكُ الصَّباح صِياحا

فقال له مسلم : فلِمَ أمَلَّه وهو الذى أذكره وبه ارتاح؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى شيئا من شعرك ليس فيه خَلَل، فأنشده مسلم :

عَاصَى الشبابَ فرَاح غير مُفَنَّد * وأقام بين عزيمة وتجلُّد

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقيما فى حالة واحدة وبيت واحد ، فتشاغبا وتَسَابّا ساعةً . وكلا البيتين صحيح المعنى .

اجتمع أصحاب المأمون عنده يوما، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء، فقال له بعضهم: أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلا :

أرادوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عدوّه * فطِيبُ تراب القبر دَلّ على القبر

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إذ ضَنّ الجوادُ بها * والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحَتْ مَناظرُه فحين خَبَرْتَه * حَسُنَتْ مناظره لِقُبْح المَخْبَر

وتغازل فقال :

هَوًى يجدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لَقًى بينهما معذَّب

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم فى ذكره .

قال يزيد بن مَزْيَد : أرسل الىّ الرشيد يوما فى وقت لا يرسل فيه الى مثلى ، فأتيتُه لابسًا سلاحى مستعدًا لأمرٍ إن أراده منّى ، فلما رآنى ضحك الىّ ثم قال : يا يزيد ، خبّرنى من الذى يقول فيك :

تراه فى الأَمْن فى دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ * لا يأمَنُ الدهرَ أن يُدْعى على عَجَلِ
ضافِى العِنانِ طَموحَ العينِ همّتُـه * فَكّ العُنَاة وأَسْرُ الفاتك الخَطِلِ

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال : سَوْءَةً لك من سـيّد قومٍ يُمْدَح بمثل هـذا الشعر ولا يعرف قائلَه ، وقد بلغ أميرَ المؤمنين فرواه ووَصل قائلَه ، وهو مسلم بن الوليد! فانصرفتُ فدعوتُ به ووصلتُه ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد ، من الذى يقول فيك :

لا يَعْبق الطِّيبُ خدّيْه ومَفْـرِقَه * ولا يُمَسِّـح عينيه من الكُحُل
اذا انتضى سـيفَه كانت مسالكُه * مسالكَ الموتِ فى الأبدان والقُلَل
وإن خَلَتْ بحـديث النفس فِكْرَتُه * حَىَّ الرجاءُ ومات الخوف من وجَل
كالليث إن هِجْتَـه فالموت راحتُه * لا يسـتريح الى الأيام والدُّوَل

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثـل هذا الشـعر ولا تعرف قائلَه ! فخرج من عنده خجلا ، فلمـا صار الى منزله دعا حاجبه فقـال له : من بالباب من الشعراء؟ قال : مسلم بن الوليد ، قال : وكيف حجبتَه عنى ، فلم تُعلمنى بمكانه ! فقال : أخبرته أنك مُضَيّق ، وأنه ليس فى يديك شىء تعطيه إياه ، وسألتُه الإمساك والمُقام أياما الى أن تتّسع ، فأنكر ذلك وقال : أَدْخله ، فأدخله اليه ، فأنشده قوله فيه :

أُجْرِرْتُ(١) حبلَ خليعٍ فى الصِّبـا غَزِلِ * وشَمَّـرَتْ هِمَمُ العُـذّال فى عَـذَلى
هاجَ البكاءَ على العينِ الطَّمُوحِ(٢) هَوًى * مُفَـرَّقٌ بيـن توديـعٍ ومُحْتَمَل
كيف السُّـلُوّ لقلبٍ راح مُخْتَبَلا * يَهْـذِى بصاحب قلبٍ غير مُخْتَبَل

(١) أجررت فلانا رسنه : تركته وشأنه ، والخليع : الذى خلع عذاره فى الصبا . (٢) الطموح : المرتفعة فى النظر الى الأحبة . ومفرق : مقسم .

عاصى العزاءَ غداةَ البين مُنهمِلٌ * من الدموع جرى فى إثر منهمِل

لولا مُداراةُ دمع العين لانكشفتْ * منّى سرائرُ لم تظهر ولم تُخَل (١)

أما كفى البينَ أن أُرمى بأسهُمِه * حتى رمانى بلحظ الأعين النُّجُل

مما جنَى لى وإن كانت مُنًى صدَقت * صَبابةٌ خُلَسُ التسليم بالمُقَل

ماذا على الدهر لو لانت عريكتُه * ورَدّ فى الرأس منّى سَكْرةَ الغَزَل

جُرْمُ الحوادث عندى أنها اختلست * منّى بناتِ غذاءِ الكَرْم والكِلَل (٢)

ورُبّ يومٍ من اللذّات مُحتضَرٍ (٣) * قصّرتُه بلقاء الراح والخُلَل

وليلةٍ خُلِستْ للعين من سِنَةٍ * هتكتُ فيها الصِّبا عن بَيْضة الحَجَل

قد كان دهرى وما بى اليومَ من كِبَرٍ * شُرْبَ المدام وعزفَ القَيْنةِ العُطُل

إذا شكوتُ إليها الحبَّ خفّرها (٤) * شكواى فاحمرّ خدّاها من الخجل

كم قد قطعتُ وعينُ الدهر راقدةٌ * أيامَه بالصِّبا واللهو والجَذَل

وطيّبِ الفرع أصفانى مودّته * كافأتُه بمديحٍ فيه مُنتخَل (٥)

وبلدةٍ لمطايا الرَّكب مُنضيةٍ (٦) * أنضيتُها بوَجيف الأَيْنق الذُّلُل

فيمَ المُقامُ وهذا النجم مُعترِضًا (٧) * دنا النَّجاءُ وحان السَّير فارتحِل

يا مائلَ الرأس إن الليث مُفترِسٌ * ميلَ الجماجم والأعناق فاعتدِل

حَذارِ من أسدٍ ضِرغامةٍ بطلٍ * لا يُولِغُ السيفَ إلا مهجةَ البَطَل

لولا يزيد لأضحى المُلك مُطّرِدًا (٨) * أو مائلَ السَّمْك أو مُسترخِىَ الطِّوَل

سَلّ الخليفةُ سيفًا من بنى مَطَرٍ * أقام قائمُه من كان ذا مَيَل

كم صائلٍ فى ذُرا تمهيد مملكةٍ * لولا يزيدُ بنى شيبان لم يَصُل

---

(١) أى لم تظن بى . (٢) يريد الخمر والجوارى . (٣) محتضر، أى حضرته اللذات . والخلل : جمع خلة وهى الصديقة . (٤) خفرها ، أى ولد عليها الخفر وهو شدة الحياء . (٥) أى مختار . (٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والذلل : الضامرات . (٧) يريد بالنجم : الثريا . ومعترضا : منتصبا . (٨) مطردا ، أى مخذولا . وضرب السمك والطول مثلا .

ناب الإمامُ الذى يَفتَرُّ عنه اذا * ما افترّتِ الحربُ عن أنيابها العُصُل
من كان يَختِل قِرْنا عند موقفه * فإن قِرنَ يزيد غيرُ مُختتَل
سدّ الثغورَ يزيدٌ بعد ما انفرجت * بقائم السيف لا بالخَتْل والحِيَل
كم قد أذاق حِمامَ الموت من بَطَل * حامى الحقيقةِ لا يُوَقى من الوَهَل
أغرُّ أبيضُ يَغشى البِيضَ أبيضَ لا * يرضى لمولاه يومَ الرَّوْع بالفَشَل
يَغشى الوغى وشِهابُ الموت فى يده * يرمى الفوارسَ والأبطالَ بالشُّعَل
يَفترّ عند افترار الحرب مبتسِما * اذا تغيّرَ وجه الفارس البطل
مُوفٍ على مُهَج واليومُ ذو رَهَج * كأنه أجَلٌ يسعى الى أمل
ينال بالرِّفق ما يَعيا الرجالُ به * كالموت مستعجِلا يأتى على مَهَل
لا يُلقِحُ الحربَ إلا رَيْثَ يُنتِجُها * من هالك وأسيرٍ غيرِ مختتَل
إن شِيم بارقُه حالت خلائقُه * بين العطيّة والإمساك والعِلَل
يُغشى المنايا المنايا ثم يُفرِجُها * عن النفوس مُطِلّات على الهَبَل(١)
لا يَرحل الناسُ إلا نحوَ حُجرته * كالبيت(٢) يُضحى اليه مُلتقَى السُّبُل
يَقرِى المنيّةَ أرواحَ الكُماة كما * يَقرِى الضيوفَ شُحومَ الكُوم والبُزُل(٣)
يكسو السيوفَ دماء الناكثين به * ويجعل الهامَ تيجانَ القَنا الذُّبُل
يغدو فتغدو المنايا فى أسِنّته * شوارعا تتحدّى الناسَ بالأجَل
إذا طغَت فئةٌ عن غِبّ طاعتها * عَبّى لها الموتَ بين البِيض والأسَل
قد عوّد الطيرَ عاداتٍ وثِقنَ بها * فهنّ يَتْبَعنه فى كل مُرتحَل
تراه فى الأمن فى دِرع مُضاعَفة * لا يأمنُ الدهرَ أن يُدعى على عَجَل
ضافِى العِنان طموحَ العين همّته * فَكّ العُناة(٤) وأسرُ الفاتك الخَطِل
لا يَعبَق الطِّيبُ خدّيه ومفرِقَه * ولا يمسح عينيه من الكُحُل

(١) الهبل : الفقدان . (٢) يعنى البيت الحرام . (٣) الكوم : العظام الأسنمة واحدها كوماء . والبزل : جمع بازل وهو ماله تسعة أعوام . (٤) جمع عان وهو الأسير . والخطل : ذو الخطل وهو الخطأ .

اذا انتضى سيفَه كانت مسالكُه • مسالكَ الموت فى الأبدان والقُلَل
وإن خلت بحديث النفس فكرتُه • حىَّ الرجاء ومات الخوف من وَجَل
كالليث إن هجته فالموت راحتُه • لا يستريح الى الأيام والدُّوَل
إن الحوادث لما رُمن هَضْبته (١) • أزمعن عن جار شيبان بمُنْتَقَل
فالدهر يَغبِط أولاه أواخرَه • اذ لم يكن كان فى أعصاره الأُوَل
اذا الشَّرِيكِىّ (٢) لم يفخر على أحد • تكلم الفخرُ عنه غير مُنْتَحِل
لا تُكذَبنّ فإن الحلم مَعْدِنه • ورِاثةٌ فى بنى شيبان لم تَزَل
سَلّوا السيوف فأغشوا من يحار بهم • خَبْطا بها غير ما نُكْلٍ ولا وُكُل
الزائدون قومٌ فى رماحهمُ • خوفُ المُخِيف وأمْنُ الخائف الوَجِل
كبيرُهم لا تقوم الراسياتُ له • حِلْما وطفلهمُ فى هَدْى مُكْتَهِل
إسْلَم يزيدُ فما فى الدين من أَوَد • اذا سلِمتَ وما فى الملك من خَلَل
أثبتَ سُوق بنى الإسلام فاطّادتْ (٣) • يومَ الخليج وقد قامت على زَلَل
لولا دفاعُك بأسَ الروم اذ بكرتْ • عن عِرّة الدين (٤) لم تأمن من الثَّكَل
ويوسُفَ البَرْم (٥) قد صبّحتَ عسكره • بعسكر يلفِظ الأقدارَ ذى زَجَل
غافصتَه (٦) يوم عَبْر النهر مُهْلَتَه • وكان محتجزا فى الحرب بالمُهَل
والمارقَ ابن طريف (٧) قد دَلَفتَ له • بعسكر للمنايا مُسْبِل هَطِل
لما رآك مُجِدّا فى مَنِيّته • وأن دَفْعك لا يُسْطاع بالحيل
شام النِّزال فأبرقت اللقاءَ له • مقدِّم الخَطْو فيها غيرَ مُتّكِل
ماتوا وأنت غليل فى صدورهمُ • وكان سيفُك يَشْتَفى من الغُلَل

(١) هذا مثل ، يريد لما رامت الحوادث من استجار به . (٢) نسبة الى شريك ، وهو أحد أجداد يزيد .
(٣) هكذا فى الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (اتطدت) أى ثبتت . وهى وزان افتعل من وطد . وكانت اوتطد ثم قلبت فاء الافتعال تاء وأدغم المثل فى المثل . (٤) عرّة الدين : جماعة الاسلام .
(٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافصه : فاجأه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشارى .

لو أنّ غـيرَ شريكىٍّ أطاف به * فاز الوليدُ بقِـدح الناضل الخَصـِـل[1]

وقمتَ بالدينِ يوم الرَّس[2] فاعتدلت * منـه قوائمُ قـد أوفتْ على ميَـل

ماكان جمعُهـمُ لما لقيتَهـمُ * إلا كمثـل نَعَام رِيـع مُنْجَفِـل

تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبهـمُ * لآبَ جيشُـك بالأسرى وبالنَّفَـل

كم آمنٍ لك نائى الدار مُمتنـع * أخرجته من حصون المُلك والخَـوَل

يأبى لك الذمَّ فى يوميك إن ذُكرا * عَضْبٌ حُسـامٌ وعِرض غير مُبتذَل

ومارقين غُزاةٍ من بيوتهـمُ * لا يَفكُّون ولا يؤتَـون من نَكَل

خلّفتَ أجسادهم والطيرُ عاكفةٌ * فيها وأقفلتَهـم هاما مع القَفَـل

فافخرْ فما لك فى شيبان من مثَـل * كذاك ما لبنى شيبان من مثَـل

كم مشهَـدٍ لك لا تُحصى مآثِرُه * قسمتَ فيـه كرزق الإنس والخَبَـل

لله من هاشم فى أرضـه جَبَـل * وأنت وابنُك رُكْنا ذلك الجبـل

قـد أعظموك فما تُدعى لِهَيِّنـة * إلا لمُعْضِـلة تَستنّ[3] بالعَضَـل

يا ربّ مكرمة أصبحت واحدها * أعيَتْ صناديدَ راموها فلم تُنَـل

تَشاغَل النـاسُ بالدنيـا وزُخرفها * وأنت من بَذْلك المعـروفَ فى شُغُل

أقسمتُ ما ذُبّ عن جدْواك طالبُها * ولا دفعتَ اعترام الجِـدّ بالهـزَل

يأبى لسانُك منْـعَ الجـود سائلَه * فما يُلَجْلج بين الجـود والبَخَـل

صَدّقْتَ ظَنّى وصدّقت الظنـونَ به * وحطّ جودُك عَقْدَ الرَّحْل عن جمَـلى

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها واعذر ؛ فخرج الحاجب فقال لمسلم : قد أمرنى أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك وخمسون ألفا لنفقته ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد، فأمر ليزيد بمائتى ألف درهم وقال : اقض الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزده مثلها ، وخذ

(١) الناضل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرس : وادى أذربيجان . (٣) تستن بالعضل : تتابع بالعسر . والمعضلة : الداهية .

مائة ألف لنفقتك، فاقْتَكَ ضَيْعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى . ولما أنشده : «لا يعبق الطيب» البيت . قال لجاريته : حرّم علينا مسلم الطِّيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المُهَلَّبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا، فيقصدونه لذلك اليوم ويُنشدونه، فوجّه اليه مسلم راويته بقصيدته التى أولها : «لا تَدْعُ بى الشوق» فقدِم عليه يومَ جلوسه للشعراء ولِحقه بعَقِب خروجهم عنه ، فتقدّم الى الحاجب وحَسَر لثامه عن وجهه ، ثم قال له : آستأذن لى على الأمير؛ قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد آنصرم وقتُك وآنصرف الشعراء وهو على القيام؛ فقال له : ويحك! إنى قد وفدتُ على الأمير بشعر ما قالت العرب مثلَه ، وكان مع الحاجب أدَبٌ يفهم به ما يسمع ، فقال : هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك اليه ؛ فأنشده بعض القصيدة ، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدِم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله ؛ فقال : أدْخِل قائله ؛ فلما مَثَل بين يديه سَلّم وقال : قدمت على الأمير — أعزه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيرى ممّن آمتدحه ؛ فقال : هات ، فلما آفتتح القصيدة وقال : « لا تدع بى الشوق » آستوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجلُ على آخر الشعر، ثم رفع رأسه اليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ؛ قال : فى كم قلته يا فتى؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله ؛ قال : لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا ، وقد اتهمتك ، لجودة شعرك وخمول ذكرك ، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنْظَرْتُك أربعة أشهر فى مثله ، وأمرت بالإجراء عليك ، فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير ، قال : قد أقلتك ؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ؛ فقال : أنا آبن حاتم ، إنك لما آفتتحت شعره فقلت : «لا تدع بى الشوق إلى غير معمود» سمعت كلام مسلم ينادينى ، فأجبت نداءه وآستويت جالسا ؛ ثم قال : ياغلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وآحمل الساعة الى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هى القصيدة :

لا تَدْعُ بي الشَّـوقَ إنى غير معمـــود * نَهَى النُّهى عن هـوى الهِيف الرَّعاديد (١)
لو شئتُ لاشتُ راجعتُ الصِّبا ومشتْ * فىّ العيونُ وفاتَتْنى بِجُلُّود (٢)
سَلْ ليلةَ الخَيْف هل أمضيتُ آخرَها * بالرّاح تحت نسيم الخُردِ الغِيد
شَجَجْتُها بلُعاب المُزن فاغـتَرَلَتْ (٣) * تَنْسجَيْن من بين محـلول ومعقـود
كِلا الجَدِيدين قد أُطعِمتُ حَبْرَته (٤) * لَـوْ آل حىٌّ الى عُمْـر وتخليـد
أهـلا بوافـدة للشيب واحـدةٍ * وإن تَرَاءتْ بشخص غير مودود
لا أجمعُ الحلمَ والصهباءَ قـد سكنتْ * نفسى الى الماء عن ماء العناقيـد
لم يَنْهَنى فنَـدٌ (٥) عنها ولا كبر * لكن صحوتُ وغُصنى غير مَخْضود
أوفى بى الحـلمُ واقتاد النُّهى طلَقا * شأوى وعِفتُ الصِّبـا من غير تفنيـد
اذا تجافَت بِىَ إلهامات عن بـلد * نازعت أرضًا ولم أحفِـل بتمهيـد
لا تَطَّبِينى (٦) المُـنَى عن جَهْـد مُطَّلَب * ولا أحُـول لشىء غـير موجـود
ومَجْهَـلٍ كاطِّـراد السيف مُحْتِجزٍ * عن الأدِلّاء مسـجُور الصَّياخيد
تمشى الرِّياحُ به حَسْـرى مُوَلَّهـةً * حـيْرى تلوذ بأطـراف الجلاميـد
مُوَقَّف المَتْن لا تمضى السَّبيـلُ به * إلا التخلُّـلَ رَيْثًا بعـد تَجْهيـد
قَرَيْتُـه الوَخْدَ من خَطّـارةٍ (٧) سُرُح * تَفْـرى الفـلاةَ بإرْقال وتَوْخيـد
اليـك بادرتُ إسفارَ الصباح بهـا * من جُنْح ليل رحيبِ الباع ممـدود
وبـلدةٍ ذات غَـوْلٍ لا سبيل بهـا * إلا الظنونُ وإلّا مَسْرَح السِّيد
كأن أعلامهـا والآلُ يركبُهـا * بُدْنٌ تَـوَافى بهـا نُذْرٌ الى عيـد

(١) لا تدع بى الشوق، أى لا تدعنى مشتاقا . وسأله دعبل عن معنى ذلك فقال : لا تدعنى صريع الغوانى فلست كذلك، وكان لهذا اللقب كارها . ومعمود : عاشق . والهيف : الضامرات الخصور . (٢) أى ذهبت بجلدى . (٣) اغتزلت : اختلطت، ويريد بالتسجين : ما ولى الماء من الخمر أسرع فيه الماء فحله، وما ولى منها القاع بقى على حاله لم يحله الماء بعد . (٤) الحبرة : النعيم .
(٥) الفند : اللوم . والمخضود : الواهن . (٦) أى لا تدعونى الى نفسها . (٧) الخطارة : الناقة تحرك ذنبها . والسرح : الخفيفة .

كلفتُ أهوالها عيناً مؤرّقة * اليك لولاك لم تُكحل بتسهيد
حتى أتتك بىَ الآمالُ مُطّلعا * لليُسر عندك فى سربال محسود
من بعد ما ألقتِ الأيامُ لى عرَضا * مُلقىً رهين (١) لحدّ السيف مصفُود
وساورتنى بناتُ الدهر فامتحنت * ربعى بممحلة (٢) شهباء جارُود
الى بنى حاتم أدّى ركائبنا * خوضُ الدجى وسُرى المهرية القُود
تطوى النهارَ فإن ليلٌ تمخّطها (٣) * باتت تمخّط هامات القراديد
مثلَ السُّمام (٤) بعيدات المَقيل اذا * ألقى الهجيرُ يدًا فى كل صيخود
حلّت بداوُدَ فامتاحتْ وأنجلها * حذوَ النعال على أينٍ وتحريد (٥)
أعطى فأفنى المُنى أدنى عطيّته * وأرهقَ الوعد نُجحًا غير منكود
واللهُ أطفأ نار الحرب إذ سُعِرتْ * شرقًا بموقدها فى الغرب داودِ
لم يأبِ أمرا ولم يظهر على حدث * إلا أُعين بتوفيق وتسديد
موحّدُ الرأى تنشق الظنونُ له * عن كل مُلتبس منها ومعقود
تُمنَى الأمورُ له من نحو أوجُهها * وإن سلكن سبيلا غير مورود
اذا أباحت حِمى قوم عقوبتُه * غادى له العفوُ قومًا بالمراصيد
كالليث بل مثله الليثُ الهصور اذا * غنّى الحديدُ غناءً غير تغريد
يلقى المنيّةَ فى أمثال عُدّتها * كالسيل يقذف جلمودا بجلمود
إن قصر الرمحُ لم يمش الخطا عددا * أو عرّد السيف لم يهمم بتعريد
اذا رعى بلدا دانى مناهله * وإن بنين على شحط وتبعيد
جرى فأدرك لم يُعنف بمهلته * واستودعَ البُهرُ (٦) أنفاس المجاويد

(١) الرهين : الأسير . والمصفود : الموثق بالحديد . (٢) المحلة : السنة الجدبة . والجارود : المتجردة من النبات . (٣) تمخطها : سال بها . والقراديد : جمع قردد، وهو المرتفع من الجبال .
(٤) السمام : طائر يشبه القطا . والصيخود : شدة الحر . (٥) التحريد من الحرد، وهو داء يصيب الإبل فى قوائمها . والأين : التعب . (٦) البهر : هو ما يعترى الانسان عند العدو من اللهث وتتابع النفس .

آلُ المُهلّبِ قومٌ لا يزال لهم * رِقّ الصَّريع (١) وأسلابُ المَذاوِيد
مُظَفَّرون تُصيب الحربُ أنفُسَهم * اذا الفِرارُ تَمطَّى بالمَحايِيد (٢)
تَجَلُّ مَناجيبَ لم يَعدَم تِلادُهُم * فتًى يُرَجَّى لنَقضٍ أو لتوكيد
قومٌ اذا هُدْأةٌ (٣) شامَتْ سيوفَهُمُ * فإنها عُقُلُ الكُوم المَقاحِيد
نفسى فِداؤك يا داود إذ عَلِقت * أيدى الرَّدى بنواصِى الضُّمَّر القُود
داويتَ من دائها كَرْمان وانتصفت * بك المتونُ لأقوامٍ مَجاهيد
ملأتَها فزَعًا أخلى معاقِلَها * من كل أبلَخَ (٤) سامى الطرف صِنْديد
لما نزلتَ على أدنى بلادهمُ * ألقى إليك الأقاصى بالمَقاليد
لَمستَهم بيد للعفو متَّصِلٍ * بها الرَّدى بين تَليِينٍ وتشديد
أتيتَهم من وراء الأمن مُطَّلِعا * بالخيل تَردِى بأبطالٍ مَناجيد
وطار فى إثْر من طار الفِرارُ به * خوفٌ يعارِضه فى كل أُخْدود
فاتوا الرَّدى وظُباتُ الموت تَنشُدُهم * وأنتَ نَصْب المنايا غيرُ مَنشود
ولو تلَبَّث دَيَّانٌ لها رَويَتْ * منه ولكن شآها (٥) عَدْوُ مَزْءُود
أحْرَزه أجَلٌ ما كاد يُحرِزه * قَرٌّ يَطْوِى على أحشاء مَفْئُود (٦)
ورأسُ مِهرانَ قد ركَّبتَ قُلَّته * لَدْنًا كَفاه مكانَ اللِّيت والجِيد
قد كان فى مَعْزِل حتى بعثتَ له * أمَّ المنيَّة فى أبنائها الصِّيد
أجُنّ أم أسْلمَتْه الفاضحات الى * حَدٍّ من السيف من يَعلَق به يُود
ألحقتَه صاحبيه فاستمرّ بهم * ضربٌ يفرِّق ضَبَّات (٧) القَماحِيد

(١) رق الصريع، أى استعباد الحر . والمذاويد : الأنجاد واحده مذود . (٢) المحاييد : الجبناء، جمع محياد . (٣) الهدأة : الفترة . (٤) الأبلخ : المتكبر .

(٥) شآها : سبقها . ومزءود : مرعوب . (٦) المفئود : الذى أصيب فؤاده . (٧) الضبات : أوصال الرأس . والقماحيد : جمع قمحودة وهى العظم الناتئ فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أعذَر[١] مَنْ فرّ من حرب صَبَرتَ لها ٭ يوم الحُصَيْن شعارٌ غير مجحود
يومَ آستَضَبَّتْ سجِسْتانٌ[٢] طوائفَها ٭ عليك من طالبٍ وِترًا ومحقود
ناهضتَهم ذائدَ الإسلام تقرَعُهُم ٭ عنه ثُلاثَ ومَثْنَى بالمواحيد
تجود بالنفس إذ أنتَ الضَّنِين بها ٭ والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود
تلك الأزارق إذ ضَلّ الدليلُ بها ٭ لم يُخطِها القصدُ من أسياف داوُد
كان الحُصَيْن يُرَجّى أن يفوز بها ٭ حتى أخذتَ عليه بالأخاديد
ما زال يَعنُفُ بالنُّعمى ويَغمِطها ٭ حتى آستقلّ به عودٌ على عود
وضعتَه حيث تُرتابُ[٣] الرياحُ به ٭ وتحسُد الطيرَ فيه أضبُعُ البيد
تغدو الضَّوارى فتَرميه بأعيُنِها ٭ تستنشق الجوَّ أنفاسًا بتصعيد
يَتبعن أفياءه[٤] طَورًا وموقعَه ٭ يَلَغْنَ فى عَلَقٍ منه وتجسيد
فكان فارطَ قومٍ حانَ مَكرَعُهُم ٭ بأرض زَادانَ شتّى فى المَوارِيد
يومَ جُرَاشةَ إذ شيبان مُوجِفَةٌ[٥] ٭ يَنجُون منك بشِلوٍ منه مَقدود
زَاحفتَه بابن سُفيانٍ فكان له ٭ شاءٌ يوم بظهر الغيب مشهود
نجا قليلا ووافَى زَجْرُ عائفه ٭ بيومه طيرَ منحوسٍ ومسعود
ولّى وقد جَرَعَتْ منه القنا جُرَعا ٭ حَىَّ المخافةِ مَيْتا غير مَودود
زالت حُشَاشتُه عن صدرِ مُعتدِل ٭ دانِى الكعوب بعيد الصَّدر أُملود[٦]
إذا السيوفُ أصابته تقطّع فى ٭ سُرادِقٍ بحَوامى الخيل ممدود
يَفدِى بما نَحَلتْه من خلائقه ٭ حُشَاشةَ الركض من جَرداء قَيدود[٧]
حَلّ اللِّواء وخالَ الخِدر عائذَه ٭ فعاذ بالخِدر تِربُ الكاعب الرُّود

---

(١) أعذر : جاء بما يعذر عليه . (٢) أى أغرت طوائفها . (٣) ترتاب : أى تستنكر .

(٤) الأفياء : جمع فئ، وهو الظل آخر النهار . والجسد : الدم . (٥) موجفة : سريعة .

(٦) أملود : أملس . (٧) الجرداء : قصيرة الشعر . والقيدود : الناقة الطويلة الظهر .

وإن يكن شَبها حرباً وقــد خمدت ٭ فنائيًا حيث لا هَيْــدِ ولا هِيــد[1]
كلُّ مَثَلت به فى مثــل خُطَّتــه ٭ قتْــلا وأضجعتَــه فى غير ملْحــود
عافُوا رِضاك فعاقبْتَــهم بعقوتهــم[2] ٭ عن الحياة مناياهــم لِموعــود
وأنتَ بالسِّــند اذ هاج الصَّريخ بهــا ٭ وآستنفدتْ حربُها كيدَ المكايــد
وآستغزر القوم كأسا من دمائهــمُ ٭ وأحدقَ المــوت بالكُرّار والحِيــد
رددتَ أهمالها[3] القصــوى مخيّســة ٭ وشمت بالبيض عورات المراصيــد
كنت المهلّب حتى شكّ عالمهــم ٭ ثم انفـردتَ ولم تُسبَق بتســويد
لم تقبــل السِّــلْمَ إلا بعدَ مقــدرة ٭ ولا تألفت إلا بعــد تبــديد
حــتى أجابوك من مستأمنٍ حــذرٍ ٭ راجٍ ومنتظــرٍ حتفا ومتمــود
أهــدى اليك على الشحناء أُلفتهــم ٭ مــوتٌ تفــرّق فى شــتى عباديد
وفى يديك بقــايا من سَراتهــمُ ٭ هــمُ لديك على وعــد وتوعيــد
إن تعفُ عنهــم فأهلُ العفو أنت وإن ٭ تُمضِ العقــاب فأمر غــير مردود
اِسمــع فإنك قد هيّجت ملْحَمــة ٭ وقــدتَ منهــا بأرواح الصــناديد
اِقْــذف أبا مالك فيهــا يكُن بهــا ٭ ويَنْــعَ فيهــا بجَــدّ منك مجــدود
يمضى بعــزمك أو يجــرى بشأوك أو ٭ يَفْرى بحدّك كلّ غير محــدود
لا يعــدمنْك حمى الإسلام من مَلِكٍ ٭ أقمتَ قُلّتــه من بعــد تأويد
كفيتَ فى المُلك حــتى لم يقف أحد ٭ على ضَيــاع ولم يحزن لمفقــود
أعطيتَهــم منــك نُصحا لا كِفاء له ٭ وأيّدوك بركن غــير مهــدود
لم يبعث الدهر يوما بعــد ليلتــه ٭ إلا آنبعثت لــه بالبأس والجــود
أجرى لك اللهُ أيام الحيــاة عــلى ٭ فعــلٍ حميــد وجَدّ غير منكــود

(١) كلمتان يزجر بهما الإبل . (٢) بعقوتهم ، أى بفنائهم . (٣) الأهمال : جمع همل ، وهو الشيء المسيب ، ويراد به الصعب . ومخيسة : مذللة .

لا يفقد الدين خيلا أنت قائدها ٭ يُعْهدنَ فى كل ثغر غير معهود
مُحَمّلاتٍ اذا آبتْ غنائمَها ٭ ومُقْدَمات على نصر وتأييد
هناك أنك مَغْدَى كلّ ملتمس ٭ جُودا وأنك مأوى كل مطرود
تستأنف الحمد فى دهر أوائلُهُ ٭ موسومة بفَعال منك محمود
اذا عزمتَ على أمر بطشتَ به ٭ وإن أنلتَ فنيلا غيرَ تصريد
عوّدت نفسك عادات خُلقت لها ٭ صِدْقَ الحديث وإنجازَ المواعيد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل، إنى أجلّك عن الشعر فسل حاجتك؛ قال : بل تستتم اليد عندى بأن تسمع، فأنشده :

دمُوعها من حِذار البين تنسكب ٭ وقلبُها مغرم من حَرّها يجب
جَدّ الرحيلُ به عنها ففارقها ٭ لبينه اللهو واللذات والطرب
يهوى المسيرَ الى مَرْو ويحزنه ٭ فراقُها فهو ذو نفسين يرتقب

فقال له الفضل : إنى لأجلك عن الشعر؛ قال : فأغنى بما أحببت من عملك، فولّاه البريدَ بجُرْجان (١) .

هجا مسلم قريشا وفخر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحية من نواحى العصبية بين القبائل وهو يعتبر، الى حدّ ما، من الشعر السياسى، فقال :

قل لمن تاه إذ بنا عز جهلا ٭ ليس بالتِّيه يفخَر الأحرارُ
فتناهَوْا وأقصِرُوا فلقد جا ٭ رت عن القصد منكم الأبصار
أيُّكم حاط ذا جِوارٍ بعِزٍّ ٭ قبل أن تحتويه منّا الدار
أو رَجا أن يفوت قوما بوتر ٭ لم تزل تمتطيهمُ الأوتار
لم يكن ذاك فيكمُ فدعُوا الفخـ ٭ ـر بما لا يسوغ فيه افتخار
ونِزَارا ففاخِروا تفضُلُوهم ٭ ودعوا من له عبيدٌ نزار

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرقى منه .

فبنا عزّ منكمُ الذلُ والدهـ ◦ ـرُ عليكم بريبه كرّار
حاذروا دولة الزمان عليكم ◦ إنه بين أهله أطوار
فـتُرَدّوا ونحن للحالة الأو ◦ لى وللأوحد الأذلّ الصَّغار
فاخرتنا لما بسطنا لها الفخـ ◦ ـر قريش وفخرها مستعار
ذكرتْ عزّها وما كان فيها ◦ قبل أن تستجيرنا مُستجار
إنما كان عزّها فى جبال ◦ ترتقيها كما ترقّى الوبار
أيها الفاخرون بالعز والعـ ◦ ـزُّ لقوم سواهمُ والفخار
أخبرونا من الأعزّ أألمنـ ◦ ـصور حتى اعتلى أم الأنصار
فلنا العز قبل عزّ قريش ◦ وقريشٌ تلك الدهورَ تِجار

فانبرى له ابن قنبر يجيبه فقال :

ألا اَمثُل أميرَ المؤمنين بمُسْلِمِ ◦ وأفلق به الأحشاءَ من كل مُجْرِمِ
ولا ترجعنْ عن قتله باستتابة ◦ فما هو عن شتم النبيّ بمُحْرِم
ولا عن مُساواة له ولقومه ◦ قريشا بأصداءٍ لِعادٍ وجُرْهُم
ويفخَر بالأنصار جهلا على الذى ◦ بنُصرته فازوا بحظٍّ ومَغْنَمَ
وسُمّوا به الأنصار لا عزّ قائل ◦ أراد قريشا بالمَقام المُذَمّم
ومنهم رسول الله أزكى مَن انتمى ◦ الى نسبٍ زاكٍ ومجدٍ مقدَّم
وما كانت الأنصار قبل اعتصامها ◦ بنصر قريش فى المحلّ المعظَّم
ولا بالأُلى يعلُون أقدار قومهم ◦ صُداءٍ وخَوْلانٍ ولَخْم وسِلهِم
ولكنّهم بالله عاذوا ونصرِهم ◦ قريشًا ومن يستعصم الله يَعصِم
فعَزّوا وقد كانوا وقِطْيَوْنُ فيهم ◦ من الذل فى باب من العزّ مُبْهَم
يسومهم الفِطْيون مالا يُسامه ◦ كريم ومن لا ينُكر الظلمَ يَظْلِم
وإن قريشا بالمآثر فُضّلت ◦ على الخلق طرّا من فصيح وأعجم

فما بال هذا العِلج ضلّ ضلالُه • يمُدّ اليهم كفّ أجذمَ أغتَم
يُسامى قريشًا مسلمٌ وهُمُ هُمُ • بمولى يمانىّ وبيتٍ مهدّم
اذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم • مقامٌ به من لؤم مَبنًى ومَدْعَم
جَعاسيسُ[1] أشباه القرود لو انّهم • يباعون ما ابتِيعوا جميعا بدرهم
وما مسلمٌ من هؤلاء ولا ألَى • ولكنه من نَسل علج مُلكّم
تولى زمانا غيرَهم ثمت ادّعى • اليهم فلم يَكرُم ولما يُكرَّم
فإن يك منهم فالنّضير ولِفُّهم • مواليه لا من يدّعى بالترغّم
وإن تَدعُه الأنصارُ مولى أُميّهم • بقافية تستكرِه الجِلد بالدّم
عِقابا لهم فى إفكهم وادّعائهم • لأقلفَ منقوش الذراع مُوشّم
فلا تدعوه وانتفوا منه تسلَموا • بنَفيكموه من مَقال ومأثم
وإلّا فغضّوا الطرف وانتظروا الرّدى • اذا اختلفت فيكم صَوَاردُ أسهمى
ولم تجِدوا عنها مِجنًّا يُجنّكم • اذا اطّلعتْ من كل فج ومَعلَم
وأنتم بنو أذناب من أنتمُ له • ولستم بأبناء السّنام المُقدّم
ولا ببنى الرأس الرفيع محلُّه • فيسمو بكم مولى مُسامٍ وينتمى
فكيف رضيتم أن يُسامى نبيُّكم • ببيتكم الرّثّ القصير المهدّم
ساحطِم من سامَى النبىّ تطاوُلا • عليه وأكوى مُنتماه بميسمى
أيُعدَل بيتٌ يثربىّ بكعبة • توَبّها قريش فى المكان المحرّم
قريشٌ خِيار الله واللهُ خصّهم • بذلك فاتعَس أيها العِلج وارغَم
ومن تدعى منه الولاء مؤخّر • اذا قيل للجارى الى المجد أقْدِم

وكان مسلم قال قصيدته فى قريش وكتمها، فوقعت إلى ابن قَنْبَر وأجابه عنها، فاستعلى عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عند مسلم فى هذا جواب أكثر من الانتفاء منها

(١) الجعاسيس : اللئام فى الخَلق والخُلق

ونسبتها الى ابن قنبر والادّعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال يتنفى من هذه القصيدة :

دعوتَ امـــير المؤمنين ولم تكن * هنـاك ولكن من يَخَفْ يَتَجشّمِ
وإنك اذ تدعـــو الخليفـــة ناصِرا * لـكالْمُترَقِّى فى السماء بسُـلّمِ
كذاك الصّدى تدعوه من حيث لاترى * وإن تتوهّمـــه تَمُتْ فى التوهّمِ
هجـوتَ قـريشا عامدا وتَحلتَـــنِى * رُوَيدك يظهــر ما تقـول فيُعْـلمِ
اذا كان مثــلى فى قَبيــلى فإنه * على ابن لُوَىٍّ قَصْرَةً غير مُتّهَـمِ
سيكشفك التعـــديل عمـا قذفتَنى * بـــه فتأخر عارفا أو تقـدّمِ
فإن قــريشا لا يُغَـادر وُدُّها * ولا يُستمال عهــدُها بالترحّـمِ
مضى سلفٌ منهـم وصلّى بِعَقْبهــم * لنا سلف فى الأوّل المتقـدّمِ
جروْا بجَــرينا سابقين بسبقهم * كما اتّبعت كفٌّ تَـواشرَ مِعْصمِ
و إن الذى يسـعى ليقطع بيننا * كملتمس اليربـــوع فى جحـر أرقمِ
أضـلّك قــرعُ الابدات طريقَها * فأصبحت من عَمْيائها فى تَهَيُّمِ
وخانتـــك عند الجرى لما اتّبعتها * تمـيمٌ لخاوات العُـلا بالتقحّـمِ
فأصبحت ترميـنى بسهمى وتتّـقى * يدى بيــدى أصليْت نارَك فاضْرِمِ

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قُل لعبـــد النّضير مُسْلِمِ للوغـ * ـد الدّنِيء اللئيم سِنْخ النّصاب
اِخْسَ يا كلب اذ نبحتَ فإنى * لستُ ممن يجيب نبحَ الكلاب
أفأرْضَى ومَنصِبى منصب العـ * ـزّ وبيتى فى ذِروة الأحساب
أن أُحطّ الرفيع من سَمْك بيتى * بمُهاجاة أَوْشَبِ الاوشاب
من اذا سِيل من أبوه بدا منـ * ـه حياءٌ يَحْميه رَجْعَ الجواب

وإذا قيل حين يُقبِل من أنـ * ـتَ ومن تَعْتَرِيه فى الأنساب
قلتَ هاجِى ابن قنبر فتسربلـ * ـتَ بذكرى فخراً لدى النُّسّاب

وهى قصيدة طويلة فلم يجبه عنها مسلم بشىء فقال فيه ابن قنبر أيضا :

لستُ أنفيك إن سواى نفاكا * عن أبيك الذى له منتماكا
ولماذا أنفيك يابن الوليد * من أبٍ إن ذكرتُه أخزاكا
ولو انى طلبتُ ألأم منـه * لم أجده إن لم تكن أنت ذاكا
لو سواه أبوك كان جعلنا * ه اذا الناسُ طاوعونا أباكا
حاك دهرا بغير حذق لـبُرد * وتَحُوكُ الأشعارَ أنت كذاكا

ثم هجاه بشعر أقذع فيه، فمشى اليه قوم من مشايخ الأنصار واستعانوا بمَشْيَخَة من قُرّاء تميم وذوى الفضل والعلم، فمشوا معهم اليه، فقالوا: ألا تستحى من أن تهجوَ من لا يجيبك! أنت بدأت الرجلَ فأجابك، ثم عدت فكفّ، وتجاوزتَ ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميها ويذبّ عنها ويصونها لغير حال أحلّت ذلك منهم، فما زالوا به يعظونه ويقولون له كلّ قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإنى وإسماعيل يوم وداعـه * لكالغمد يوم الرَّوع فارقه النَّصلُ
أما والحِبالات المُمِرّات بيننا * وسائل أدّتها المودّة والوصل
لما خنتُ عهدا من إخاء ولا نأى * بذكرك ناى عن ضميرى ولا شُغل
وإنّى فى مالى وأهـلى كأننى * لنأيك لا مالٌ لدىّ ولا أهل
يُذكّرنيك الدينُ والفضل والحجا * وقيل الخنا والحلم والعلم والجهل
فألقاك عن مذمومها متنزّها * وألقاك فى محمودها ولك الفضل
وأحمد من أخلاقك البخلَ إنه * بعرضك لا بالمال حاشا لك البخل
أمتجعا مَرْوا بأثقال همّة * دَعِ الثقل واحمل حاجة ما لها ثقل

ثناءً كعَرف الطيب يُهدى لأهله * وليس له إلا بَنى خالد أهـــل
فإن أغشَ قوما بعدهم أو أزورهم * فكالوحش يَستدْنيه للقنص المَحْل

وله يرثى يزيد بن مزيد :

أحَــقٌّ إنه أودى يزيـــد * تأمَّلْ أيها الناعى المُشِيدُ
أتدرى من نَعَيْتَ فكيف فاهت * به شَفَتاك كان به الصَّــعيد
أحامِى المجدِ والإسلامِ أودى * فما للأرض ويحك لا تَميــد
تأمل هل ترى الاسلامَ مالت * دعائمُـــه وهل شاب الوليــد
وهل شِيمتْ سيوفُ بنى نِزار * وهل وُضعت عن الخيل اللُّبود
وهل تَسقى البلادَ عِشارُ مُزْن * بِدِرَّتها وهــل يَخضرّ عــود
أما هُــدّت لمصرعــه نِزار * بلَى وتقــوّض المجــد المَشيد
وحلّ ضريحَــه إذ حلّ فيــه * طريفُ المجــد والحَسَب التليد
أما والله ما تَنفــكّ عيــنى * عليــك بدمعها أبدا تجــود
فإن تجمُد دموع لئيم قــوم * فليس لدمع ذى حسبٍ جمــود
أبَعْــد يزيد تختزِن البواكى * دمــوعا أو تُصان لها خدود
لِتبكك قُبّــةُ الإســلام لما * وَهَتْ أطنابُها ووهى العمــود
ويبكك شاعرٌ لم يُبْــقِ دهرٌ * له نَشَبا وقد كَسَد القصــيد
فمن يدعــو الإمامُ لكل خَطْب * ينوب وكل مُعْضِلة تَئُود
ومن يحمى الخميس اذا تعايا * بحيــلة نفســه البطلُ النَّجيد
فإن تَهلِك يزيدُ فكلّ حىّ * فريسٌ للمنيّــة أو طــريد
ألم تعجَبْ له أن المنايا * فتكْن بــه وهنّ له جنــود
لقــد عزّى ربيعــةَ أن يوما * عليها مثل يومك لا يعــود

١٣ — العباس بن الأحنف [1]

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يحبَّ سامعُه أن يسكت ، وكان فصيحا جميلا ظريف اللسان ، لو شئتَ أن تقول كلامُه كلُّه شعرٌ لقلتَ .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب خُرَاسان ومنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدّمه على كثير من المُحْدثين ، ولا تزال قد ترَى له الشىءَ البارع جدّا حتى تُلْحقه بالمحسنين .

وقال الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحذقُ الناس وأشعرُهم ، وأوسعُهم كلاما وخاطرا ، ما قدَر أن يُكْثِرَ شعرَه فى مذهبٍ واحد لا يجاوزُه ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسّب ولا يتصرّف ، وما نعلم شاعرا لزِم فنّا واحدا لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحِرْمازِىّ للعباس بن الأحنف :

لا جَزَى اللهُ دمعَ عينىَ خيرًا * وجزَى اللهُ كلَّ خيرٍ لسانِى
نَمّ دمعِى فليس يكتُم شيئا * ورأيتُ اللسانَ ذا كتْمانِ
كنتُ مثلَ الكتابِ أخفاه طَىٌّ * فاستدلُّوا عليه بالعُنْوانِ

ثم قال : هذا والله طِرَازٌ يطلبُ الشعراءُ مثلَه فلا يقدرون عليه .

---

(١) كان العباس شاعرا غزلا مطبوعا من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف ، ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى . وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدّمونه ، قال : وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقا ، وكان ظاهر النعمة ملوكىّ المذهب شديد الظرف ، وذلك بيّن فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحا . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مطروح بالآستانة سنة ١٢٩٨ ﻫ وتجد أخباره وأشعاره فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهُذَيل العَلّاف يُبْغِضه ويلعنه لقوله :

اذا أردتُ سُلُوًّا كان ناصرَكم ❊ قلبي وما أنا من قلبي بمنتصِرِ
فأكثِروا أو أقِلّوا من إساءتكم ❊ فكلّ ذلك محمولٌ على القَــدَرِ

فكان أبو الهُذَيل يلعنه ويقول : يَعْقِد الكفرَ والفجورَ فى شعره، فقال العباس — وقال محمد بن يحيى : وأظن أنه يهجو به أبا الهُذَيل وما سمعتُ للعباس هجاءً غيره — :

يامَنْ يكذّب أخبارَ الرسـول لقد ❊ أخطأتَ فى كلّ ما تأتى وما تَذَرُ
كذّبتَ بالقدَر الجارى عليك فقد ❊ أتاك منّى بمـا لا تشتهى القَـدَرُ

قيل للأصمعى : ما أحسنُ ما تحفَظ للمحدَثين؟ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكّن رَوْعتى ❊ أمَلِى رِضَاكِ وزُرْتُ غيرَ مُرَاقِبِ
لكن مَلِلْتِ فلم تكن لِىَ حِيــلَةٌ ❊ صَدُّ الملُولِ خلافُ صدّ العاتبِ

ومما أنشده له ابراهيم بن العباس :

قالت ظَلُومُ سَمِيّةُ الظُّــلْمِ ❊ مالى رأيتُــكَ ناحلَ الجسمِ
يامن رَمَى قلبى فأقْصَــده ❊ أنت العلِيمُ بموضع السهمِ

ولشعره الغزَلِىّ وقعٌ فى النفس، فانهم كانوا يغنّون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبــة لسكّن روعتى ❊ أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لى حيــلة ❊ صــدّ الملولِ خلاف صدّ العاتب

وأنشد له الأصمعى :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم ❊ فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لا يُضْمِر السوءَ إن طال الجلوسُ به ❊ عفّ الضميرِ ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هــذا الفتى يُدْخل يدَه فى جِرَابه فلا يُخْرِج شيئا حتى أدخلها فأخرج هــذا، ومن أدمن طلبَ شىء ظفر ببعضه .

وقال سَعيد بن جُنَيد : ما أعرف أحسنَ من شعر العباس فى إخفاء أمره حيث يقول :

أُرِيدُكِ بالسلام فأتّقيهم * فأعمِدُ بالسلام الى سِواكِ
وأكثِرُ فيهم ضحكى ليَخْفَى * فسِنِّى ضاحكٌ والقلبُ باكِ

ومما تمثّل به الواثقُ فى شرٍّ كان بينه وبين بعض جواريه :

عدلٌ من الله أبكانى وأضحكها * فالحمد لله عَدْلٌ كلُّ ما صنَعا
اليومَ أبكى على قلبى وأندُبه * قلبٌ ألحّ عليه الحبُّ فانصدَعا

ومما تمثّل به أيضا فى مثل ذلك :

أما تَحْسَبينى أَرَى العاشقين * بَلَى ثُمّ لستُ أرى لى نَظِيرا
لعلّ الذى بيديْه الامور * سيجعل فى الكُرْه خيراً كثيرا

وقال الزُّبير : اِبن الأحنف أشعرُ الناس فى قوله :

تعتلُّ بالشغل عنا ما تكلّمنا * الشغلُ للقلب ليس الشغل للبدنِ

ويقول : لا أعلم شيئا من أمور الدنيا خيرِها وشرِّها إلا وهو يصلُح أن يتمثّل فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إسحاق : لقد ظَرُف ابنُ الأحنف فى قوله — يصف طولَ عهده بالنوم — :

قِفا خبرانى أيها الرجلان * عن النوم إن الهجرَ عنه نهانى
وكيف يكون النومُ أم كيف طعمُه * صِفَا النومَ لى إن كنتُما تصفانِ

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن ابراهيم : رأيت سَلَمة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف ، وقلت مثلك أعزك الله يحمل هذا! فقال : ألا أحمِلُ شعرَ من يقول :

أساتُ إذ أحسنتُ ظنّى بكم * والحزمُ سوءُ الظن بالناس
يُقْلِقُنى الشوقُ فآتيكُمُ * والقلبُ مملوءٌ من الياس

وقال أحمد بن ابراهيم : أتانى أعرابىٌّ فصيحٌ ظريف ، فجعلتُ أكتب عنه أشياءَ حِسَانًا ، ثم قال : أنشدْنِى لأصحابكم الحَضَرِيِّين ، فأنشدته للعباس بن الأحنف :

ذكرتُكِ بالتُّفاح لما شَمِمْتُه * وبالراح لما قابلتْ أَوْجُهَ الشَّرْبِ
تذكرتُ بالتفاح منكِ ســوالفًا * وبالراح طعمًا من مقبَّلِكِ العَذْبِ

فقال : هذا عندك وأنت تكتب عنّى ! لا أنشدك حرفا بعد هذا .

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل : ما أعرف فى العراق أحسن من قول ابن الأحنف :

سبحانَ ربِّ العلا ما كان أغفلنى * عمـا رمتْنِى به الأيامُ والزمنُ
من لم يَذُقْ فرقةَ الأحباب ثم يرى * آثارَهم بعــدهم لم يَدْرِ ما الحَزَنُ

قال حُسَين بن الضحَّاك : لوجاء العباس بقولٍ ماقاله فى بيتين فى أبياتٍ لعُذِر ، وهوقوله :

لعَمْرُكَ ما يســتريح المحبُّ * حتى يبوحَ بأسرارِهِ
فقد يكتُم المرءُ أسرارَه * فتظهرُ فى بعض أشعارِه

ثم قال : أما قوله فى هذا المعنى الذى لم يتقدمه فيه أحد فهو :

الحبُّ أملكُ للفؤاد بقهـــرِه * من أن يُرَى للسترِ فيه نصيبُ
واذا بدا سرُّ اللبيب فإنه * لم يَبْـــدُ إلا والفتى مغلوبُ

وقال أبو العتاهية : ما حسدتُ أحدا إلا العباسَ بن الأحنف فى قوله :

اذا امتنع القريبُ فلم تَنَــلْه * على قربٍ فــذاك هو البعيدُ

وقال الكِنْدِىّ : العباس بن الأحنف مَلِيحٌ ظريف حكيم جَزْلٌ فى شعره ، وكان قليلا ما يُرْضِينى الشعر ، فكان يُنْشِد له كثيرًا :

ألا تَعْجَبُون كما أعجبُ * حبيبٌ يُسِىء ولا يُعْتِبُ
وأبغى رضـاه على سُخْطه * فيأبى علىّ ويستصعبُ
فياليت حظى اذا ما أسا * تَ أنك ترضَى ولا تغضَبُ

وكان ابراهيم الموصلى مشغوفا بشعر العباس فيغنّى فى كثير من شعره، فمما غنى فيه :

وقد مُلئتْ ماءَ الشباب كأنها * قضيبٌ من الرَّيحان ريَّان أخضرُ
همُ كتموني سيرهم حين أزمعوا * وقالوا اتّعدْنا للرَّواح وبكَّروا

ومنه :

تمنّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنما * تمنيتُ أن أشكو اليك وتسمعا
أرى كلَّ معشوقَين غيرى وغيرَها * قد آستعذبا طولَ الهوى وتمتّعا

ومنه :

بكتْ عينِى لأنواعِ * من الحزن وأوجاعِ
وإنى كلَّ يومٍ عندكم يحظى بى الساعِى
أعيش الدهرَ إن عشتُ * بقلب منكِ مُرتاعِ
وإن حلَّ بىَ البعد * سينعَانى لكِ الناعِى

وقال الواثق لجلسائه : أريد أن أصنعَ لحنًا فى شعر معناه أن الإنسان كائنًا مَنْ كان لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون فى هذا شيئا؟ فأنشدوه ضروبًا من الأشعار، فقال : ما جئتم بشىء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبى الى ما ضرَّنى داعى * يكثِرُ أسقامِى وأوجاعِى
كيف احتراسِى من عَدُوِّى اذا * كان عدوّى بين أضلاعِى
أسلمنى للحبِّ أشياعى * لما سَعَى بى عندَها الساعى
لقلّما أبقى على كلِّ ذا * يُوشِكُ أن ينعانىَ النّاعى

ومما غنِّى فيه من شعره :

أبكِى الذين أذاقُونى مودّتَهم * حتى اذا أيقظُونى للهوى رقدُوا

وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاما محدَثا أجزلَ فى رقة ، ولا أصعبَ فى سهولة، ولا أبلغ فى إيجاز، من قول العباس بن الأحنف : .

تعالَىْ نجدِّدْ دارسَ العهد بيننا * كِلانا على طول الجفاء مَلومُ

وأنشد ابراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعلْ وإن سِيلَ لم * يَبْـذُلْ وإن عوتب لم يُعْتِبِ
صبٌّ بعصْـيانى ولو قال لى * لا تشربِ البـاردَ لم أشْربِ
اليك أشـكو ربِّ ما حلّ بى * من صَدّ هذا المذْنب المُغْضِبِ

ثم قال : هـذا واللهِ الكلامُ الحسـنُ المعني ، السَّهْل المَوْرد ، القريب المتناوَل ، المليح اللفظ ، العَذْب المستمَع .

وممـا غُنِّى فيه من شعره :

نام مَنْ أهدَى لىَ الأرَقا * مستريحـا سَامَنى قَلقـا
لو يبيت النـاس كلُّهم * بسُهَادِى بَيَّضَ الحَـدَقا
كان لى قلبٌ أعيشُ به * فاصطلَى بالحبِّ فاحترَقا
أنا لم أرْزَق مودّتَـكم * إنمـا للعبـد ما رُزِقَا

وقال ابن المعتزّ : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعرُ العباس بن الأحنف :

قد سحَبَ الناسُ أذيالَ الظُّنون بنا * وفـرَّق النـاسُ فينا قولَهم فِرَقا
فكاذبٌ قد رَمى بالحبّ غيرَكُمُ * وصادقٌ ليس يَدْرِى أنه صدَقا

وممـا تمثّل به الفضلُ بن الرَّبيع فى أمرٍ كان بينَه وبين إحدى جواريه :

تحمَّلْ عظيمَ الذنب ممن تحبُّـه * وإن كنتَ مظلوماً فقل أنا ظالمُ
فإنك إلّا تغفر الذنبَ فى الهوى * يفارقْكَ من تهوى وأنفُك راغمُ

أنشد مَخْلَد المَوْصلىّ قصيدتَه التى يقول فيها :

كلُّ شيءٍ أقْوَى عليه ولكن * ليس لِى بالفراقِ منك يدانِ

فجعل يستحسنُه ويردّدُه ، فقال له عبد الله بن رَبيعة الرَّقِّى : أنت الفِداءُ لمن ابتدأ هـذا المعنى فأحسنَ فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتْنى من السرور ثيابا * وكسَتنى من الهموم ثيابَا
كلما أغلقتُ من الوصلِ بابًا * فتحتْ لى الى المنيّة بابَا
عذّبتنى بكل شىء سوى الصدّ فما ذقتُ كالصُّدود عذابَا

قال الرِّياشى — وقد ذُكِر عنده العباسُ بن الأحنف — : والله لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفيًا :

أُحْرَم منكم بما أقولُ وقد * نال به العاشقون من عَشِقُوا
صِرتُ كأنى ذُبالةٌ نُصِبتْ * تُضِىء للناس وهى تحترِقُ

ألِف الرشيدُ العباسَ بن الأحنف ، فلما خرج الى خُرَاسان طال مقامُه بها، ثم خرج الى أرْمِينِيَة والعباسُ معه ، فاشتاق الى بغداد، فعارضه فى طريقه ، فأنشده :

قالوا خراسانُ أقصَى ما يُراد بنا * ثم القُفُولُ فقد جئنا خراسانَا
ما أقدر اللهَ أن يُدْنِى على شَحَطٍ * سكانَ دِجْلَة من سكانِ جَيْحَانَا
مضى الذى كنتُ أرجوه وآمُلُه * أما الذى كنتُ أخْشاه فقد كانَا
عينُ الزمان أصابتْنا فلا نظرتْ * وعُذِّبتْ بصُنُوفِ الهَجْر ألوانَا

فقال له الرشيد : قد اشتقتَ يا عباس ، وأذنتُ لك خاصة ، وأمر له بثلاثين ألفَ درهم .

وقال مُصْعَب الزُّبيرى : العباسُ بن الأحنف وعمر بن أبى ربيعة ما ابتذلا شعرَهما فى رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحَبّاه ، فلزِما فنًّا واحدا لو لزمه غيرُهما ممن يكثِرُ إكثارَهما لضعُف فيه .

١٤ — ابن مُنَاذِر[1]

كان يَنْحُو نَحْوَ عَدِىّ بن زَيْد فى شِعْرِه، ويميلُ إليه ويقدّمه، وقد مدح آل بَرْمَك وغيرهم . ولما نُكِبتْ البرامكةُ وآلتْ الوزارةُ إلى عَدُوِّهم الفَضْلِ بن الرَّبيع أصبح شعراءُ البرامكة فى خطرٍ، فأراد ابنُ مُنَاذِر أن يتقرب إلى الرشيد طَلَباً للرزق، فاغتنم ذهابَه إلى الحجّ وتقدّم إليـه يومَ التَّرْوِيَةِ بقصيدةٍ، فَلاحَ البِشْرُ فى وجه الرشيد، فقال الفضـلُ بن الربيع للرشـيد : هذا شاعرُ البرامكة ! فعَبَسَ الرشيدُ، فقال الفضلُ : مُرْه أن يُنشدَك قولَه فيهم : أتانا بنو الأملاك من آل برمك، فأمره، فاعتذر، فألح عليه، فأنشده هذه القصيدةَ التى يُطْرِى بها البرامكةَ :

أتانا بَنُو الأملاك من آل بَرْمكٍ ٭ فَيَاطِيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
إذا وردوا بَطْحَاءَ مَـكّةَ أشرقتْ ٭ بيَحْيَى وبالفَضْل بن يحيى وجعفر
فتُظْلِمُ بغـداد ويجلُو لنـا الدُّجى ٭ بمـكّةَ ما حَجُّـوا ثلاثةُ أقْمُـر
فمـا صَلَحَتْ إلا لجُودٍ أكفُّهُم ٭ وأرجُلُهُـم إلا لأعـوادِ منبَر
إذا راضَ يحيى الأمرَ ذلّتْ صِعابُه ٭ وحَسْبُكَ مِنْ رَاعٍ له ومُدَبِّر
تَرى النـاسَ إجلالًا له وكأنّهـم ٭ غَرانيـقُ[2] مَاءٍ تحت بَازٍ مُصَرْصِرِ[3]

ولما فَرَغ منها أتْبَع ذلك قوله : « كانوا أولياءَك يا أميرَ المؤمنين لما مدحتُهم » فأمر الرشيدُ أن يُلطَم، فلطَموه، وأمر أن يسحب، فسحبوه وخرج لا يَلْوِى على شىء؛ فلقيه

---

(١) هو محمد بن مناذر، مولى لبنى يربوع، ويكنى أبا جعفر، شاعر فصيح، مقـدّم فى العلم باللغة وإمام فيها، حتى أخذ عنه أكابر أهلها . وكان فى أول أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفى عنها الى الحجاز، فمات هناك سنة ١٩٨ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣) . (٢) الغرانيق : جمع غرنوق، وهو طائر مائى أسود وقيل أبيض يشبه الكركى . (٣) مصرصر : صائح بشدة .

أبو نواس فدفع اليه صُرَّةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : استعنْ بهذه وٱعذرنى . ولم يعُد ٱبنُ مناذر يرى خيرًا بعد البرامكة .

قال الحسن بن على كنّا عند باب سفيان بن عُيَيْنة وقد هَرَب منا وعنده الحسنُ بن على التَّختاخ ورجلٌ من أصحاب الرشيد ، فخلا بهم وليس يأذَن لنا ، فجاء ٱبنُ مناذر فقرُب من الباب ثم رفع صوتَه فقال :

بعمرو وبالزُّهرىّ والسَّلَف الأُلى * بهم ثَبَتَتْ رِجلاك عنـد المقادم
جعلتَ طَوالَ الدهرِ يومًا لصالح * ويوما لصَبّاح ويوما لحاتم
ولحسن التَّختاخ يوما ودونهـم * خَصَصْتَ حسينًا دون أهل المَواسم
نظرتُ وطالَ الفكرُ فيـك فلم أجدْ * رَحاك جَرَتْ إلا لأخـذ الدراهم

فخرج سفيان وفى يده عصا وصاح : خذوا الفاسقَ ؛ فهرب ٱبن مناذر منه وأذِن لنا فدخَلْنا .

كان الرشيدُ قد وصَلَ ٱبنَ مناذر مرّاتٍ صِلاتٍ سنيّةً ، فلما مات الرشيدُ رثاه بقوله :

من كان يبكى للعُـلا * مَلِكًا وللهِمَم الشريفـه
فلْيبكِ هارونَ الخليـ * ـفةَ للخليفـة للخليفـه

قال علىُّ بن محمد النَّوفلىّ : رأيتُ ٱبنَ مناذر فى الحَجّ سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفَّ بصرُه تقوده جُوَيْرِيَةٌ حرة وهو واقف يشترى ماءَ قِرْبَة ، فرأيتُه وَسِخَ الثوب والبدن ، فلما صِرنا الى البصرة أتتنا وفاتُه فى تلك الأيام .

كان يحيى بن زِياد يُرمَى بالزندقة ، وكان من أظرف النـاس وأنظفهم ، فكان يقال : أظرف من الزِنديق ، وكان الحارثىّ ، واسمه محمد بن زياد ، يُظْهِر الزندقةَ تَظارُفًا ، فقال فيه ٱبن مناذر :

يا ٱبنَ زِيادٍ يا أبا جعفـر * أظهرتَ دِينا غير ما تُخْـفى
مُزَنْدَقُ الظاهرِ باللفظ فى * باطنِ إسلامِ فتًى عَفّ
لستَ بِزنديقٍ ولكنّما * أردتَ أن تُوسَم بالظَـرْف

ومن قوله يرثى سفيان بن عيينة :

يجْـنِي من الحكمة نُوَّارَهـا ٭ ما تشتهى الأنفس ألوانا
يا واحدَ الأمّـةِ فى علمـه ٭ لقيتَ من ذى العرش غُفرانا
راحوا بسفيان على نعشـه ٭ والعِـلمُ مكْسُوِّين أكفانا
إن الذى غُـودر بالمُنْحَنَى ٭ هَـدَّ من الإسـلام أركانا
لا يُبْعِـدَنْك الله من مَيّتٍ ٭ وَرَّثـا عِلْمًـا وأحـــزانا

خطب أبو أُمَيّة امرأةً من ثَقِيف فَرُدَّ عنها، وتصدّى للقاضى أن يُضَمِّنَه مالًا من أموال اليتامى فلم يُجِبْه الى ذلك ولم يَثِق به، فقال فيه ابنُ مناذر :

أبَا أُمَيّـــةَ لا تغضَبْ علىّ فما ٭ جَزاءُ ما كان فيما بيننا الغَضَبُ
إن كان رَدّك قـــومٌ عن فَتَاتِهمُ ٭ ففى كثيرٍ من الخُطّابِ قد رَغِبوا
قالوا عليك ديونٌ ما تقومُ بها ٭ فى كل عامٍ بها تُسْتَحدثُ الكُتُبُ
وقـــد تَقَحّم من خمسين غايتَها ٭ مع أنه ذو عِيالٍ بعدُ ما انْشَعبوا
وفى التى فعل القاضى فلا تَجِدَنْ ٭ فليس فى تلك لى ذَنْبٌ ولا ذَنَبُ
أردتَ أمـوالَ أيتـام تُضَمَّنُها ٭ وما يضَمَّنُ إلا من له نَشَبُ

قال له جعفر بن يحيي قُلْ فِىّ وفى الرشيد شعرا تصِفُ فيه الألفة بيننا، فقال :

قـد تُقْطَعُ الرَّحِمُ القريبُ وتُكْفَرُ النُّـ ٭ ـعْمَى ولا كتقارُبِ القلْبَيْن
يُدْنِى الهوى هـــذا ويدنى ذا الهوى ٭ فاذا هُمَـا نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْن

١٥ — صالح بن عبد القدّوس [١]

كان متهما بالزندقة، فبلغ الى المهدىّ خبرُ زندقته، فبعث اليه يستقدمه من دِمَشْق، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن فى السنّ، فلما جاء بغدادَ ومَثَلَ بين يدى المهدىّ قال له المهدىّ: ألستَ القائل:

والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسه

قال: بلى يا أمير المؤمنين! قال: وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت؛ فأمَرَ به، فقُتِلَ وصُلِب على جِسْر بغداد سنة ١٦٧ هـ. وأكثر شعره فى الحِكَم الفلسفية.

ومن أحاسن أقواله القصيدة التى منها ذلك البيت، وهو يقول فيها:

لا يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ * ما يَبْلُغُ الجاهلُ من نَفْسه
والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسه
إذا ٱرْعَوَى عادَ الى جهله * كذى الضَّنَا عاد الى نُكْسه
وإنّ من أدّبْتَه فى الصِّبَا * كالعُود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسه
حتّى تراه مُورِقا ناضِرًا * بعد الذى أبصرتَ من يُبْسه

وقوله:

لا يُعْجِبَنَّك من يَصُون ثِيابَه * حَذَرَ الغُبار وعِرْضُه مَبْذُول
ولربما ٱفْتَقَرَ الفَتَى فرأيتَه * دَنِسَ الثِّيابِ وعرضه مَغْسول

---

(١) هو صالح بن عبد القدّوس بن عبد الله بن عبد القدّوس، من حكماء الشعراء، متهم بالزندقة، قوىّ الحجة، له منزلة سامية عند أهل مذهبه. نشأ فى البصرة، وكان يقص على الناس و يعظهم. توفى سنة ١٦٧ هـ. وتجد أكثر أخباره فى فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميرى (ج ١ ص ٢٦).

وكان فيه ميل الى العُزلة والانقطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله :

أنِسْتُ بوَحْدَتى ولزِمتُ بيتى * فتمّ العزُّ لى ونما السرورُ
وأدّبنى الزمانُ فليت أنّى * هُجِرتُ فلا أزارُ ولا أزُور
ولست بقائلٍ ما دمتُ حيًّا * أقام الجُندُ أم نزَل الأمير

وهو القائل :

اذا لم تستطع شيئا فدعْهُ * وجاوِزْه الى ما تستَطِيع

وله قصيدة حكمية أخلاقية بديعة، وهى التى يقول فيها :

المرءُ يجمعُ والزمانُ يُفرّق * ويظلّ يرقَعُ والخطوبُ تُمزّق
ولأن يُعادِىَ عاقلا خيرٌ له * من أن يكون له صديقٌ أحمق
فاربأ بنفسك أن تصادق أحمقًا * إن الصديق على الصديق مُصدّقُ
وزِنِ الكلامَ اذا نطقتَ فإنما * يُبدى عقولَ ذوى العقول المَنطِق
ومن الرجال اذا استوت أخلاقُهم * من يُستشار إذا استُشير فيُطرِقُ
حتى يَحُلّ بكل وادٍ قلبُه * فيرى ويعرِفُ ما يقول فينطق
لا ألفينّك ثاويا فى غربة * إن الغريب بكل سَهْمٍ يُرْشَق

وله منها :

ما الناس إلا عاملان فعاملٌ * قد مات من عطَش وآخر يغرَق
والناسُ فى طلب المَعاش وإنما * بالجَدّ يُرزق منهمُ من يُرزق
لو يُرزقون الناسُ حَسْبَ عقولهم * ألفيتَ أكثرَ مَنْ ترَى يتصدق
لكنه فضْلُ المليك عليهمُ * هذا عليه مُوسّع ومُضيَّق
واذا الجنازةُ والعروسُ تلاقيا * ورأيتَ دمعَ نوائحٍ يترقرق
سكَتَ الذى تبِع العروسَ مُبهتًا * ورأيتَ من تبِعَ الجنازة ينطق
بَقِىَ الذين اذا يقولوا يَكذِبوا * ومضَى الذين اذا يقولوا يَصْدُقوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينبية :

وابدأ عدوك بالتحية ولتكن * منه زمانك خائفا تترقب
واحذره إن لاقيته متبسما * فالليث يبدو نابه إذ يغضب
إن العدو وإن تقادم عهده * فالحقد باقٍ فى الصدور مغيب
وإذا الصديق لقيته متملقا * فهو العدو وحقه يتجنب
لا خير فى ود امرئ متملق * حلو اللسان وقلبه يتلهب
يلقاك يحلف أنه بك واثق * واذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة * ويروغ منك كما يروغ الثعلب
وصل الكرام وإن رموك بجفوة * فالصفح عنهم والتجاوز أصوب
واختر قرينك واصطفيه تفاخرا * إن القرين إلى المقارن ينسب
إن الغنى من الرجال مكرم * وتراه يرجى ما لديه ويرهب
ويبش بالترحيب عند قدومه * ويقام عند سلامه ويقرب
والفقر شين للرجال فإنه * حقا يهون به الشريف الأنسب
واخفض جناحك للأقارب كلهم * بتذلل واسمح لهم إن أذنبوا
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا * إن الكذوب يشين حرا يصحب
وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن * ثرثارة فى كل ناد تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه * فالمرء يسلم باللسان ويعطب
والسر فاكتمه ولا تنطق به * إن الزجاجة كسرها لا يشعب
وكذاك سر المرء إن لم يطوه * نشرته ألسنة تزيد وتكذب
لا تحرصن فالحرص ليس بزائد * فى الرزق بل يشقى الحريص ويتعب

وَٱرْعَ الأمانةَ والخِيانةَ فاجتنِبْ * وَٱعْدِلْ ولاتَظلِمْ يَطِبْ لكَ مَكْسَب
وإذا أصابك نَكْبة فاصبِرْ لها * مَنْ ذا رأيت مُسَلَّما لا يُنْكب
وإذا رُميت من الزَّمان بِرِيبةٍ * أو نالك الأمْرُ الأشقُّ الأصْعَب
فاضرَعْ لربك إنه أدنى لمن * يدعوه من حبل الوريد وأقْرَب
وٱحذَرْ مصاحبةَ اللئيم فإنه * يُعدِى كما يُعْدِى الصَّحِيحَ الأجْرَب
وٱحذَرْ من المظلوم سَهْمًا صائبا * وٱعْلَمْ بأن دُعاءَه لا يُحْجَب
ولقد نصحتك إن قَبِلْتَ نَصيحتى * وٱلنُّصح أغلى ما يُباع ويُوهب

---

١٦ — سَعِيدُ بنِ وَهْب (١)

كان شاعرًا مطبوعًا ومات فى أيام المأمون، وأكثرُ شعره فى الغَزَل والتشبيب بالمُذَكَّر، وكان مشغوفا بالغِلْمان والشراب، ثم تَنَسَّك وتابَ وحَجَّ راجِلًا على قَدَمَيْـه وماتَ على تَوْبة وإقلاع ومذهبٍ جميل، ومات وأبو العتاهية حَىٌّ وكان صديقه فرثاه .

أخبرَنا علىّ بن سليمان الأخفش عن محمـد بن مَزْيد قال : حُدِّثْتُ عن بعض أصحـاب أبى العتاهية قال : جاء رجلٌ الى أبى العتاهية ونحنُ عنده، فسارّه فى شىء، فبكى أبو العتاهية، فقُلْنا له : ما قال لك هـذا الرجلُ يا أبا إسحاق فأبكاك ؟ فقال — وهو يحدّثنا لا يريد أن يقول شعرا — :

قال لى ماتَ سَعِيدُ بنُ وَهْبٍ * رَحِمَ اللهُ سَعِيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبكيتَ عَيْـنِى * يا أبا عثمانَ أوجعتَ قلـبى

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدّث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سـعيدُ بن وهب الشاعرُ البصرىّ مولىً بنى سامة قد تابَ وتزهّـد وترك قولَ الشعر، وكان له عَشَرة من البنين وعَشْر من البنـات، فكان إذا وَجَد شيئا من شعره خرّقه وأحرقه ، وكان آمرأً صِدْق، كثيرَ الصَّلاة، يزكّى فى كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه لَيزكّى عن فضّة كانت على آمرأته .

وكان سعيدُ بن وهب يتعشّق غلاما يتشطّر يقال له سعيد، فبلغه أنه توَعّده أن يجرحه، فقال فيه :

---

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بنى سامة بن لؤى بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصرة ثم صار الى بغـداد فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته ، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدّم عندهم . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَذيرِى مِنْ سَمِىّ * مَنْ عَذيرِى مِنْ سَعِيدْ
أنا بالفم أجاه(١) * ويجانى بالحديد

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتّاب السلطان فى أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كان فى الدنيا له شارةٌ * فنحنُ من نَظّارة الدنيا
نَرْمُقُها من كَثَبٍ حَسْرَةً * كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنَى
يعلو بها الناسُ وأيامُنا * تذهبُ فى الأَرْذَل والأَدْنَى

وحدّث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيدُ بن وهب لى صديقا، وكان له ٱبن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه فى كلّ حال، لشدّة شغفه به ورقّته عليه، فمات وله عَشْر سنين، فجزع عليه جزعا شديدا وٱنقطع عن لذّاته، فدخلتُ إليه يوما لأعاتبه على ذلك وأستعطفَه، فحين رأى ذلك فى وجهى فاضتْ دموعه، ثم ٱنتحب حتى رحمتُه، وأنشدنى :

عَيْنِ جُودِى على أبى الخطّاب * إذ تولى غَضًّا بماءِ الشباب
لم يُقارب ذنبًا ولم يَبْلُغ الحِنْـ * ـثَ مُزَكًّى مُطَهَّرَ الأثواب
فَقَدَتْه عَيْنِى إذا ما سَعَى أَتْـ * ـرابُهُ من جماعة الأتراب
إن غَدَا مُوحِشًا لدارِى فقد أصْـ * ـبح أُنْسَ الثَّرَى وزَيْنَ التراب
أحْمَدُ اللهَ يا حبيبى فإنّى * بكَ راجٍ منه عظيمَ الثواب

ثم ناشدنى ألّا أذاكره بشىء مما جئتُ إليه، فقمتُ ولم أخاطبه بحرف .

دخل سعيدُ بن وهب على الفضل بن يحيى فى يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت الى سعيد بن وهب كالمستنطق؛ فقال له : أيها الوزير، إنى ما كنت ٱستعددتُ لهذه الحال، ولا تقدّمتْ لها عندى مُقدّمةٌ فأعرفها،

---

(١) وجاه يوجاه ويجاه : ضربه باليد أو بالسكين . وخففت الهمزة ها هنا للشعر .

ولكن قد حضرنى بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة، فقال : هاتِهما، فربّ قليل أبلغ من الكثير، فقال سعيد :

مَدَح الفَضْلُ نفسَه بالمَعَالِى * فعَــلَا عن مَديحنا بالمقَـال
أمَرُونى بمَـدْحه قلتُ كلّا * كَبُرَ الفضلُ عن مديح الرجال

قال : فطرب الفضــل وقال له : أحسنتَ والله وأجــدتَ، ولئن قلّ القول ونَزُر، لقــد اتّسع المعنى وكَثُر، ثم أمر له بمثــل ما أعطاه كلَّ مَنْ أنشده مديحا يومئذ، وقال : لا خير فيما يجئ بعد بيتَيك، وقام من المجلس، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحدّث الحُرَيْمى قال : كان الفضــل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وينافسه جعفر، وكان أنَس بن ابى شيخ خاصًا بجعفر، ينادمه ويأنس به فى خَلَوَاته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل ، فدخلتُ يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدّثه وأنشده ونادر له ، وحكى عن المتنادرين وأتى بكلّ ما يسرّ ويُطْرِب ويُضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك ، فلما خرج سعيد من عنـده تجاهلتُ عليه وقلت له : مَن هــذا الرجلُ الكثير الهَذَيان ؟ قال : أوَ ما تعرفُه ؟ قلتُ : لا، قال : هــذا سعيد بن وهب صـديق أخى أبى العباس وخُلْصانه وعشيقه، قلت : وأىّ شىء رأى فيــه ؟ قال : لا شىء والله إلا القَذَر والبَرْد والغَثَـاثة، ثم دخلتُ بعد ذلك إلى الفضــل ، ودخل أنس بن أبى شيخ فحــدّث ونَدَر وحكى عن المُضحكين وأتى بكل طريفة ، فكانت قصةُ الفضــل معه قصةَ جعفر مع سعيد، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : مَن هذا المُبْرِم؟ قال : أوَلا تعرفُه؟ قلت : لا، قال : هذا أنس بن أبى شيخ صديق أخى الفضل وعشيقه وخاصّته، قلت : وأى شىء أعجبه فيه؟ قال : لاأدرى والله إلا القَذَر والبَرْد وسوء الاختبار، قال : وأنا والله أعْرَف بسعيد وأنس من الناس جميعا، ولكنى تجاهلتُ عليهما وساعدتُهما على هواهما .

وحدّث عمــرو بن بانة قال : كان فى جِوارى رجلٌ من البرامكة ، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حَسْناء، يدخل إليها الشـعراء ويسالونها عن المعـانى، فتأتى بكلّ

مُسْتَحسنٍ من الجواب ؛ فدخل اليها سعيد بن وهب يوما وجلس اليها فحادثها طويلا ثم قال لها بعد ذلك :

حَاجَيْتُكِ يا حَسْـنا ءُ فى جِنْسٍ من الشِّعْرِ
وفيما طُـولُه شِـبْرٌ وقد يُوفى على الشِّـبْرِ
له فى رأسِـهِ شَـقٌّ نَطُوفُ بالنَّـدَى يَجْرِى
اذا ما جَفَّ لم يَجْـرِ لَدَى بَرٍّ ولا بَحْـرِ
وإنْ بُلَّ أتى بالعَـ ـجَبِ العاجِبِ والسِّحْرِ
أجِيبِـي لم أُرِدْ فُحْشًا ورَبِّ الشَّـفْعِ والوِتْرِ
ولكنْ صُغْتُ أبياتًا لها حَـظٌّ من الزَّجْرِ

قال : فغضب مولاها وتغيّر لونه وقال : أتُفحِش على جاريتى تخاطبها بالخَنَى؟ فقالت له : خَفِّضْ عليك، فما ذَهَبَ الى ما ظَنَنْتَ وإنما يَعْنِى القلم؛ فسُرِّىَ عنه، وضحك سعيد وقال : هى أعلمُ منك بما سمعتُ..

١٧ — الحسن بن وهب [1]

حدّث ميمون بن هارون : قال : كنّا عند الحسن بن وهب فقال لِبَنَان : غَنّينى :

أتأذنونَ لصَبٍّ فى زيارتكم * فعندكم شَهَواتُ السمع والبصرِ
لايُضمِرُ السوءَ إن طال الجلوسُ به * عَفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظر

قال فضحكت، ثم قالت : فأىّ خير فيه إن كان كذا أو أىّ معنى ؟ فخجل الحسن من بادرتها عليه، وعَجِبنا من حدّة جوابها وفِطْنتها .

وحدّث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن ابن وهب، وعنده بنان جارية محمد بن حمّاد، وهى نائمة سَكْرَى وهو يبكى عندها، فقال له : مالك ؟ قال : قد كنتُ نائما فجاءتنى فأنبهتنى وقالت : اجلس حتى تشربَ فجلستُ ، فوالله ما غنّتْ عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلا ، فتذكّرت قولَ أشعر الناس وأظرفهم العبّاس بن الأحنف :

أبكى الذين أذاقونى مودّتَهم * حتى اذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا

فانا أبكى وأُنشد هذا البيت .

وحدّث محمد بن موسى بن حمّاد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال له : اركب وأجيئك عشيًّا فلا تنتظرنى بالغداة، فأبطأ عليه، وأسرع الحسن فى شربه فسكر ونام، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدَواة وكَتَبَ :

رُحْنا اليك وقد راحت بك الراحُ * وأسرعت فيك أوتارٌ وأقداحُ

وحدّث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو مخمور فقال له :

عيناك قد حكَتا مَبِيـ * ـتَكَ كيف كنتَ وكيف كانا
ولربَّ عينٍ قد أرتـ * ـكَ مَبِيتَ صاحبها عِيانا

(١) كان الحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة ، جيد اللسان ، حلو البيان كأخيه سليمان ، وكان موته بالشام . وتجد طرفا من أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ٢٦ وج ٢٠ ص ٥٤) وزهر الآداب (ج ٣ ص ٤٤) .

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتا وطالبه بمثلها ، فكتب اليه أربعةَ أبيات وطالبه بأربعين بيتا . وأبيات إبراهيم :

أأبا عليٍّ خــيرُ قولك ما * حصّلت أنجعه ومُختَصره
ما عندنا فى البيع من غَبَنٍ * لمستقلّ بواحد عشــرَه
أنا أهلُ ذلك غيرُ محتشِمٍ * أرضَى القديمَ وأقتفى أثَرَه
ها نحن وفّيناك أربعــةً * والأربعون لديك منتظرَه

وقال عبيــد الله بن سليمان : لعمــرى ما فى الكُتّاب أشــعرُ من أبى إسحاق وأبى علىّ (يعنى عمّه الحسن بن وهب) .

حدّث علىّ بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكىّ : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكىّ مملوكا كم كان يساوى؟ فقال : أخبرك عن ذلك ، انصرفت ليــلةً من دار الواثق ، فاجتزتُ بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لى الحسن بن وهب : وكم يساوى أحمد لو كان مملوكا؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنّى صوتا ، فقال لى الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أضعفها . قال : ثم تغنى صوتا آخر ، فقلت للحسن : يا أبا علىّ أضْعِفْها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غنِّنى :

لولا الحياءُ وأن الســتر من خُلُقِى * اذًا قعــدتُ اليــك الدهرَ لم أقُمِ
أليس عنــدك شُكْرٌ للتى جعلت * ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحُمَمِ

فغنّاه أحمد بن يحيى المكىّ فأحسن فيــه كلّ الإحسان ، فلمـا قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا علىّ ، أضْعِف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذى أسْمعُكما تقولانه ولستُ أدرى ما معناه ؟ قال نحن نَبِيعُك ونَشتريك منذ الليلة وأنت لا تدرى .

وحدّث محمــد بن موسى قال : كان أبو تمــام يَعشَق غلاما خَزَريّا للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشق غلاما روميا لأبى تمام ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بغلامه ، فقال له :

والله ان أعنقتُ(١) الى الروم لتركُضن الى الخزر، فقال له الحسن: لو شئتَ حكّمتنا واحتكمتَ، فقال له أبو تمام: أنا أشبّهك بداود عليه السلام وأشبّه نفسى بخصمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا منظوما خِفْناه، فأمّا وهو منثورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقةَ له، فقال أبو تمام:

أبا علىٍّ بصَرْفِ الدهرِ والغِيَرِ * وبالحوادث والأيام فاعتَبِرِ(٢)
أذكَرْتنى أمرَ داودٍ وكنتُ فتًى * مصرَّفَ القلبِ فى الأهواء والفِكَرِ
أعندكَ الشمسُ لم يَحظَ المَغيبُ بها * وأنت مُضطَرِبُ الأحشاءِ للقَمَرِ
إن أنتَ لم تترِكِ السيرَ الحثيثَ الى * جآذِرِ الروم أعنقْنا الى الخَزَرِ
إن القَطُوبَ له منّى محلُّ هوًى * يَحلّ منى محلّ السمع والبصر
وربّ أمنعَ منه جانبًا وحِمًى * أمسى وتكّتُه منّى على خَطَرِ
جرّدتُ فيه جنودَ العزم فانكشفتْ * عنه غَيابتُه عن نجْرةٍ هَدِرِ
سبحان من سبّحتْه كلُّ جارحةٍ * ما فيك من طمحانِ العَيْنِ بالنظرِ
أنت المقيمُ فما تغدُو رواحلُهُ * وفعلُه أبدا منه على سَفَرِ

وحدّث وهب بن سعيد قال: جاء دِعْبِل الى الحسن بن وهب فى حاجة بعد موت أبى تمام، فقال له رجل فى المجلس: يا أبا علىّ، أنت الذى تطعَن على مَن يقول:

شهدتُ لقد أقوتْ مغانيكُمُ بعدى * ومَحَتْ كما مَحّتْ وشائعُ من بُرْدِ
وأنجدتُم من بعد إتهام داركم * فيادمعُ أنجِدْنى على ساكنى نَجْدِ

فصاح دِعْبِل: أحسن والله! وجعل يردّد:

* فيادمعُ أنجدْنى على ساكنِي نَجْدِ *

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لى شيئا من شِعْره لقلتُ: إنه أشعر الناس.

---

(١) أعنقت: أسرعت. (٢) وردت هذه الأبيات فى الأغانى وفيها بعض ألفاظ تخل بالآداب، فأثبتناها هنا كما وردت فى ديوان أبى تمام.

وحدّث أحمد بن عُبَيـد الله بن ناصح قال : قلت لدعْبِل وقد عَرَض علىّ قصيدة له يمدح بها الحسن بن وهب أولها :

* أعاذِلتِي ليس الهَوَى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك :

أين محلُّ الحىّ يا حادى * خبِّرْ سَقاكَ الرائحُ الغادى

وبعد قولك :

قالت سَـلامةُ أين المـالُ قلتُ لها * المـال ويحكِ لاقَى الحمدَ فاصطحبا

وبعد قولك :

فعلى أيمانِنا يَجْرِى النَّدَى * وعلى أسيافنا تَجْرِى المُهَجْ

والله إني أراكَ لو أنشـدتَه إيّاها لأمر لك بصَفْع ؛ فقـال : صدقتَ والله، ولقـد نَبهتَني وحذّرتني، ثم مزّقها .

وحدّث محمد بن موسى قال : أنشـدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا يَرْثِي بها سَكْرانة أمّ ابنه عمر، وجعل الحسن يتعجّب من جودتها ويقول :

يقولُ لى الخُلّانُ لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غيرُ الفـؤادِ لها قبرُ
على حين لم أُحْدُثْ فأجهلَ قدرَها * ولم أبلغِ السِنّ التى معها الصبْرُ

وحدّث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ«سُرَّمَن رأى» ، فتأخر الحسن بن وهب عن محمد بن عبـد الملك الزيات ، وهو يومئـذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ، فكتب اليه الحسن يقول :

أوجب العـذرَ فى تراخى اللقاءِ * ما توالَى من هـــذه الأنواءِ
لستُ أدرى ماذا أقول وأشكو * من سمـاء تَعُـوقُنِى عن سماءِ
غيرَ أنى أدعو على تلك بالثُّكْـ * ـلِ وأدعـو لهـــذه بالبقـاءِ
فسـلامُ الإله أهـــديه غَضًّا * لك منى ياســيدَ الوزراءِ

وحدّث محمد بن موسى قال : اعتلّ الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياماً كثيرة، فلم يأته رسولُه، ولا تعرّف خبرَه، فكتب إليه الحسن قوله :

أيُّهـذا الوزيرُ أيدكَ اللـ * ـه وأبقاكَ لى بقاءً طويلَا
أجميلًا تراه يا أكرم النا * سِ لكيما أراه أيضًا جميلا
إننى قد أقمتُ عشرا عليلا * ما ترى مُرسِلا إلىّ رسولا
إنْ يكن موجبُ التعمّدِ فى الصـ * ـحّة منّا علىّ منكَ طويلا
فهو أولى ياسيّدَ الناسِ برًّا * وافتقادًا لمَنْ يكونُ عليلا
فلماذا تركتنى عرضةَ الظـ * ـنّ من الحاسدين جيلا بجيلا
الذنبٍ؟ فماعلمت سوى الشكـ * ـرِ قرينًا لنيّتى ودخيلا
أم ملالٍ؟ فما علمتُك للصا * حب مثلى على الزمان ملولا
قد أتى اللهُ بالشفاء فما أعـ * ـرِف ممّا أنكرت إلا قليلا
وأكلتُ الدُّرّاجَ وهو غِذاءٌ * أفلت علّى عليه أفولا
بعد ما كنتُ قد حملتُ من العلـ * ـة عبًّا على الطّباع ثقيلا
ولعلّى قدمتُ قبلك آتيـ * ـك غدا إن وجدتُ فيه سبيلا

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع اللهُ عنك نائبةَ الدهـ * ـر وحاشاكَ أن تكون عليلَا
أشهدُ اللهَ ما علمتُ وما ذا * كَ من العُذر جائزًا مقبولا
ولعمرى أن لو علمتُ فلازمـ * ـتك حولا لكان عندى قليلا
إننى أرتجى وإن لم يكن ما * كان مما نقمتَ إلا جليلا
أن أكونَ الذى إذا أضمر الإخـ * ـلاصَ لم يلتمسْ عليه كفيلا
ثم لا يبذُلُ المودّةَ حتى * يجعلَ الجهدَ دونها مبذُولَا
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيدا من طبعه أن يقولا

فاجعلنْ لى إلى التعلُّق بالعُـذْ * ـرِ سبيلا إن لم أجِدْ لى سبيلا
فقــديما ما جاد بالصفح والعفـ * ـوِ وما سَامَحَ الخليـلُ الخليـلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهــدٌ ولا خَبَرٌ * ما ذا تراه دهـاه قلتُ أيــلولُ
شهرٌ تَجُــدُّ حبالُ الوصل فيه فما * عَقْدٌ من الوصل إلا وهو محـلولُ

وكان محمد قد ندَبه لأن يخرُجَ فى أمرٍ مهمّ فأجابه الحسن فقال :

إنى بحولِ آمرئٍ أعليتَ رتبَتَـهُ * فحظُّه منــك تعظيمٌ وتبجيـــلُ
وأنت عُـدَّتُه فى نَيْل همتـــهِ * وأنت فى كلّ ما يهـــواه مامولُ
ما غالنى عنــك أيلولٌ بــلذّته * وطيبــه ولنعم الشهر أيــلولُ
الليــلُ لا قِصَرٌ فيـــه ولا طولُ * والجوُّصافٍ وظهرُ الكاسِ مَرْحولُ
والعُودُ مُستنطَقٌ عن كُلِّ مُعْجِبَةٍ * يضحى بها كلُّ قلبٍ وهو متبولُ
لكن توقُّعُ وَشْـك البينِ عن بلدٍ * تحــلُّهُ فوكاءُ العينِ محــلولُ
مالى إذا شمَّرتْ بى عنـك مبتكرا * دُهْمُ البغالِ أو الهُــوجُ المراسيلُ
إلّا رعاياتُك اللاتى يعـــود بهـا * حدُّ الحوادثِ عنّى وهو مَفْــلولُ

وكان الحسَن بن وهب يُساير محمـدا على مُسَنّاة[١]، فعدل عن المُسَنّاة لئلا يَضيق لمحمد الطريقُ، فظنّ محمد أنه أشفق على نفسه من المسناة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه، وظن بنفسه أن يُصيبَها ما يُصيبه، فقال له محمد :

قـــد رأيناك إذ تركتَ المُسَنّا * ةَ وحاذيتَنى يسارَ الطـــريقِ
ولَعَمْرى ما ذاك منك وقد جَـدْ * دَ بك الجـدّ من فِعَال الشفيق

فقال له الحسن :

إنْ يكنْ خوفَ الحتوفَ أرانى * أنْ ترانى مشبّها بالعقُــوقِ
فلقد جارت الظنونُ على المُشْـ * ـفِق والظنُّ مُولَعٌ بالشّــفيق

(١) المسناة : ما يبنى فى وجه السيل .

عـــذر السيّد الأجلّ وقد سا ٭ رَ على الخوف من يمين الطريق
فأخذت الشّمال بُقْيا عـلى السيّـد إذ هالنى سلوك المضـيق
إن عنـدى مودّةً لك حازتْ ٭ ما حَوَى عاشقٌ من المعشوق
طَودُ عِزٍّ خُصصتُ منـه ببِرٍّ ٭ صار قدرى به مع العَيُّوق
وبنفسى وإخـوتى وأبى البـرّ وعمّى وأسرتى وصـديق
مَنْ إذا ما رُوِّعْتُ أمّنَ رَوْعى ٭ وإذا ما شَرِقْتُ سوّغ ريقى

وحدّث المبرّد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم وهو مع المعتصم، فسقاه وكتب إليه :

لم تلقَ مثـلى صاحباً ٭ أندى يَدًا وأعمّ جُـودا
يَسقِى النـديمَ بقفرةٍ ٭ لم يَسقِ فيها الماءُ عُودا
صـفراءَ صافيـةً كأ ٭ نّ بكأسها دُرًّا نَضيـدا
وأجودُ حين أجود لا ٭ حَصِرًا بذاك ولا بليـدا
وإذا آستقلّ بشكرها ٭ أوجبتُ بالشكر المزيدا
خُذها إليـك كأنّما ٭ كُسيتْ زُجاجتُها عقودا
وآجعل عليك بأن تقو ٭ مَ بشكرها أبدا عُهـودا

ومن جيّد شعره قولُه :

بأبى كرهتُ النارَ لمّا أوقدتْ ٭ فعرفتُ ما معنـاكِ فى إبعادها
هى ضَرّة لكِ بالتماع ضيائها ٭ وبحسن صـورتها لدى إيقادها
وأرى صنيعَكِ بالقلوب صنيعَها ٭ بسَـيَالها وأراكِها وعَرَادها
شَرِكَتْكِ فى كل الأمور بحسنها ٭ وضيائها وصـلاحها وفسادها

ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب :

مضى مذ مضى عزُّ المعالى وأصبحتْ ٭ لآلى الحِجا والقـولِ ليس لها نظمُ
وأضحى نجىُّ الفكر بعـدَ فِراقه ٭ إذا همّ بالإفصاح منطقـهُ كَظْم

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شكرك على درجةٍ رفعتَه إليها ، أو ثروةٍ أقدرتَه عليها ، فإنّ شكرى لك على مُهْجةٍ أحييتَها ، وحُشاشة أبقيتَها ، ورَمَقٍ أمسكت به ، وقمتَ بين التلف وبينه ؛ فلكلّ نعمة من نعم الدنيا حدٌّ تنتهى إليه ، ومدًى يُوقف عنده ، وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْف ، خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف ، وأطالت الشكرَ وتجاوزتْ قَدْرَه ، وأتت من وراء كلّ غاية ؛ رددتَ عنّا كيدَ العدوّ ، وأرغمتَ أنفَ الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظلٍّ ظليل ، وكَنَفٍ كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جُهْدَه المجتهدُ ؟ — .

١٨ — أشجع السلمى[١]

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة ، منها قوله فى يحيى بن خالد وكان قد غاب :

قد غاب يحيَى فما أرى أحدًا * يأنَس إلا بذكره الحسنِ
أوحشتِ الأرضُ حين فارقها * من الأيادِى العظام والمِنَنِ
لولا رجاءُ الإيابِ لانصدعتْ * قلوبُنا بعده من الحَزَنِ

وقال أيضا :

رأيتُ بُغاةَ الخيرِ فى كل وجهةٍ * لغَيْبةِ يحيى مُسْتَكِينِين خُشَّعا
فإن يُمسِ مَنْ فى الرَّقتين مُؤمِّلا * لأوبةِ يحيى نحوَها متطلِّعا
فما وجهُ يحيى وحدَه غاب عنهمُ * ولكنَّ يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

اذا غاب يحيى عن بلادٍ تغيَّرتْ * وتُشْرِقُ إن يحتلَّها فتطيبُ
وإن فَعَالَ الخيرِ فى كل بلدةٍ * إذا لم يكن يحيى بها لغريبُ

وقال فيه حين اعتل :

لقد قرعتْ شَكَاةُ أبى علىّ * قلوبَ معاشرٍ كانت صِحَاحَا
فإن يدفعْ لنا الرحمنُ عنه * صروفَ الدهرِ والأجلَ المُتَاحَا

---

(١) هو أشجع بن عمرو من ولد الشريد بن مطرود السلمى ، وكان يكنى أبا الوليد ، شاعر إسلامىّ عباسىّ ، نشأ بالبصرة ، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عدّ من الفحول ؛ وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر ، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس . وانقطع الى البرامكة ومدحهم واختص بجعفر فأصفاه مدحه ، فأعجب به جعفر ووصله الى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله فى أيامه ، وتقدم عنده ، وله فيه المدائح المختارة ، والقصائد السائرة . وتجد أشعاره وأخباره فى الأغانى (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢) .

فقـد أمسى صـلاح أبي علىّ * لأهل الأرض كلّهم صـلاحَا
اذا ما الموت أخطاه فلَسْـنَا * نبالى الموتَ حيث غدا وراحَا

وهو القـائل :

ليس لحـاجاتِ إلّا * من له وجهٌ وَقاحُ
ولسـانٌ طِـرْمذَارٌ(١) * وغـدوٌ ورَوَاحُ
إن أكنْ أبطأ بِـالحا * جةُ عنّى فالنّجاحُ
فعلىّ الجهـدُ فيها * وعـلى الله النجاحُ

ويستجاد له فى مدح الرشيد :

وصلتْ يداك السيفَ يوم تقطّعت * أيدى الرجالِ وزلّتِ الأقـدامُ
وعلى عدوّك يا ابْـنَ عم محمـدٍ * رَصَدَانِ ضوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبّـه رُعْتَـه وإذا غفَـا * سلّتْ عليـه سيوفَك الأحلامُ

ويُستجاد له أيضا قولُه :

غدًا يتفـرّق أهلُ الهـوى * ويكثر باكٍ ومسترجع
وتختلف الأرضُ بالظاعنين * وجوهًا تُشَـذُّ(٢) ولا تُجمَعُ
وتَفنى الطلولُ ويبقى الهوى * ويصنَع ذو الشوقِ ما يصنَعُ
وأنت تُبـكّى وهم جـيرةٌ * فكيف يكون اذا ودّعوا
أتطمَع فى العيش بعد الفراق * فبئس لعَمْـرُك ما تطمـعُ

وفيها يقولُ فى جعفر بن يحيى :

بديهتُــه مثـلُ تدبيرِه * متى هِجْتَـه فهـو مستجمِع
إذا هـمّ بالأمرِ لم يَثْنِـه * هُجُوعٌ ولا شادنٌ أفرَعُ
ففى كفّه للغِنَى مطلَبٌ * وللسـر فى صدره موضعُ

(١) الطرمذار : المتكثر بما لا يفعل . (٢) تفرق .

وكم قائلٍ إذ رأى بهجتى ٭ وما فى فُضُولِ الغنَى أصنعُ
غدا فى ظلالِ نَدَى جعفرٍ ٭ يجُرّ ثيابَ الغنى أشجعُ
وما خلفَه لامرئٍ مطمعٌ ٭ ولا دونَه لامرئٍ مَقْنَعُ

وهو القائل فى محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنعَى فتَى الجودِ الى الجودِ ٭ ما مثلُ من أنعَى بموجودِ
أنعَى فتًى أصبح معروفُه ٭ منتشرا فى البِيضِ والسودِ
أنعَى فتًى مصّ الثّرَى بعدَه ٭ بقيةَ الماء من العودْ
قد ثَلَم الدهرُ به ثُلمةً ٭ جانبُها ليس بمسدودِ
أنعَى فتًى كان ومعروفُه ٭ يملأُ ما بين ذُرَى البِيدِ
فأصبحَا بعد تساميهما ٭ قد جُمعا فى بطن ملحودِ
ألآنَ نخشَى عثراتِ الندى ٭ وعَدْوةَ البخلِ على الجود

ويُستجاد له قولُه فى إبراهيم بن عثمان بن نَهيك وكان صاحبَ شُرط الرشيد وكان جبارا عَبُوسا :

فى سيف إبراهيمَ خوفٌ واقعٌ ٭ بذوى النِّفاق وفيه أمنُ المسلمِ
ويبيت يَكلأُ والعيونُ هواجعٌ ٭ مالَ المُضيع ومهجةَ المستسلِمِ
جعل الخطامَ بأنف كلِّ مخالفٍ ٭ حتى آستقام له الذى لم يُخْطَمِ
لا يُصلِح السلطانَ إلا شدّةٌ ٭ تَغْشَى البرئَ بفضل ذنبِ المجرمِ
ومن الوُلاة مقحّم لا يتّقِى ٭ والسيفُ تقطُر شَفْرتاه من الدمِ
منعتْ مهابتُك النفوسَ حديثَها ٭ بالأمر تكرهُه وإن لم تعلَمِ

وقال لأخيه :

أبتْ غَفَلاتُ قلبِك أن تَرُوحا ٭ وكأسٌ لا تزايلُها صَبُوحَا
كأنك لا تَرَى حسناً جميلًا ٭ بعينِك يا أخى إلّا قبيحَا

ويُستجاد له قولُه فى الرشيد :

لا زلت تنشُر أعيادًا وتَطوِيها ٭ تَمْضِى بها لك أيامٌ وتَثْنِيها
مستقبِلًا جِدَّة الدنيا وبهجَتَها ٭ أيامُهـا لكَ نظمٌ فى لياليها
العيدُ والعيـد والأيام بينهما ٭ موصـولةٌ لك لا تَفْنَى وتُفْنِيها
ولْيَهْنِك النصرُ والأيامُ مقبـلةٌ ٭ إليـك بالفتح معقودًا نواصيها

ويستجاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظرٌ لا يَغمُض الأمرُ دونَه ٭ تكاد سُتورُ الغيب عنـه تَمَزَّقُ

وهو القائل :

وما ترك المُـــدَّاح فيك مقالةً ٭ ولا قال إلّا دون ما فيك قائلُ

وقال أيضا :

مضى آبن سعيد حين لم يبق مشرق ٭ ولا مغــرِبٌ إلا له فيـه مادحُ
وما كنتُ أدرى ما فواضلُ كفه ٭ على النـاسِ حتى غيَّبته الصفائحُ (١)
فأصبح فى لحدٍ من الأرض ميّتـا ٭ وكانت به حيًّـا تضيق الصَّحاصِحُ (٢)
سأبكيك مافاضتْ دموعى فإن تَغِضْ ٭ فحسْبُك منّى ما تُجِنّ الجوانحُ (٣)
فما أنا من رُزْءٍ وإن جل جازعٌ ٭ ولا بسرورٍ بعــد موتك فارحُ
كأن لم يَمُتْ حىٌّ سِــواكَ ولم يقُمْ ٭ على أحدٍ إلا عليــكَ النــوائحُ
لئن حَسُنَتْ فيك المراثى وذكْرُها ٭ لقد حسنتْ من قبلُ فيك المدائحُ

---

(١) الصفائح : أحجار عراض تغطى بها القبور . (٢) الصحاصح : جمع صحصح : وهى الأرض الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوانح : الضلوع .

١٩ – علىّ بن الجَهْم (١)

كان علىّ بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبّه عند المتوكل فحبسه المتوكل . فقال على بن الجهم فى حبسه عدّة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى خُرَاسان . فقال أوّل ما حُبِس قصيدةً كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

توكَّلْنا على ربّ السماء * وسلّمنا لأسباب القضاء
وَوَطَّنَّا على غِيَرِ الليالى * نفوسًا سامحتْ بعد الإباء
وأفنيةُ الملوك محجَّباتٌ * وبابُ الله مبذُول الفِناء
هى الأيّامُ تَكْلِمُنا وتأسو * وتأتى بالسعادة والشقاء
وما يُجْدِى الثراءُ على غَنِىٍّ * إذا ما كان محظورَ العطاء
حَلَبْنا الدهرَ أشطُرَه ومرّتْ * بنا عُقَبُ الشدائد والرخاء
وجرّبْنا وجرّب أوّلونا * فلا شىءٌ أعزّ من الوفاء
ولم نَدَعِ الحياءَ لمسّ ضرّ * وبعضُ الضرّ يَذْهب بالحياء
ولم نحزنْ على دُنْيا تولّتْ * ولم نُسْبَق الى حسن العزاء
تَوَقَّ الناسَ يابنَ أبى وأمّى * فهم تَبَعُ المخافة والرجاء

(١) هو عربى قرشىّ شاعر فصيح مطبوع، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه فكان اذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه و يثلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه الى خراسان بعد أن حبسه مدّة . وكان مذهبه فى الشعر مذهب مروان بن أبى حفصة فى هجاء آل أبى طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى * إمام، خاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال فى الغزل والعتاب وفى الوصف، توفى سنة ٢٤٩ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يَغْرُرْك من وَغْدٍ إخاءٌ * لأمرٍ ما غدَا حَســنَ الإخاء
ألم تر مظهِرين علىّ عتباً * وهم بالأمسِ إخوانُ الصَّـفاء
فلمـا أن بُليتُ غَدَوْا وراحُوا * علىّ أشـدّ أسـباب البـلاء
أبتْ أخطارُهم أن ينصرونى * بمـالٍ أو بجـاه أو ثـراء
وخافوا أن يقـالَ لهم خَذَلتم * صـديقًا فادّعَوْا قِدَمَ الجفـاء
تَظَافرتِ الروافض والنصارى * وأهـل الإعتزال على هِجَائى
وعابونى وما ذنبى إليهـم * سـوى علمى بأولاد الزناء
فبختيشوع يشهد لابن عمرو * وعَزُّونٌ لهـارون المُرائى
وما آلحذْماء بنت أبى سَمـيرٍ * بحـذماء آللسان على الخنـاء
إذا ما عُدّ مثلكُمُ رجالًا * فما فضلُ الرجال على النساء
عليكم لعنـةُ آلله آبتـداءً * وعَوْدًا فى الصـباح وفى المساء
إذا سُمّيتُمُ للنـاس قالـوا * أولئك شرُّ مَن تحت السماء
أنا المتـوكلىّ هَـوًى ورأيًا * وما بالواثقيّـة من خفـاء
وما حَبْسُ الخليفـة لى بعـارٍ * وليس بمؤيسى منـــه التّنائى

كان سبب حبس آلمتوكل علىّ بن الجهم أن جماعة من الجلساء سَعَوْا به اليه وقالوا له: إنه يحْش الخـدم ويغمِزهم، وإنه كثير الطعن عليك والعيبِ لك والإزراء على أخلاقك، ولم يزالوا به يُوغِرون صـدرَه عليه حتى حَبَسه، ثم أبلغوه عنه أنه هجـاه، فنفاه الى خراسان وكتب بأن يُصْلَب اذا وردها يومًا الى الليل، فلما وصـل الى الشاذِيَاخ حبسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها، ثم أُخرج فصُلِب يوما الى الليل مجرّدا ثم أنزل، فقال فى ذلك:

لم يَنْصِبوا بالشاذِياخ عشيّةَ الإثنين مسـبوقًا ولا مجهـولا
نَصَبُوا بحمـد الله مِلْءَ قلوبهم * شَرَفا ومِلْءَ صدورهم تبجيـلا
ما آزداد إلا رفعةً بنكـوله * وآزدادت الأعداء عنه نُكولا

هل كان إلا الليثَ فارق غِيلَه * فرأيتَــه فى محمل محمــولا
لا يأمَنُ الأعداءُ من شَـدَاته * شـدًّا يفصِّل هامَهم تفصيلا
ما عابه أنْ بُزَّعنه لباسُــه * فالسيفُ أهولُ مايُرى مسلولا
إن يُبتَذَلْ فالبدرُ لا يُزرى به * ان كان ليـلةَ تِمِّـه مبـذولا
أو يَسْلُبوه المالَ يُحزِنِ فقدُه * ضـيفا ألمّ وطـارقًا ونزيلا
أو يحبِسوه فليس يُحبَس سائرٌ * من شعره يَدَعُ العزيزَ ذليـلا
إن المصائب ما تعدّت دِينَـه * نِعَمٌ وإن صَعُبتْ عليـه قليلا
واللهُ ليس بغـافلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرًا ووكيلا
ولتَعلمنّ إذا القلوب تكشّفت * عنها الأكِنّةُ من أضلُّ سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علىّ بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إنى عن خُراسانَ راحلُ * ومُستَخبَرٌ عنها فما أنا قائل
أَأَصدُقُ أم أكني عن الصدق أيّما * تَخيّرتُ أدّته اليـك المحافل
وسارت به الركبانُ واصطفقتْ به * أكُفُّ قِيانٍ واجتبته القبائل
وإنى بعـالى الحمـد والذمّ عالمٌ * بمـا فيهما نامى الرميّة ناضـل
وحقًّا أقولُ الصدقَ إنى لمـائلٌ * اليـك وإن لم يَحظَ بالودّ مائل
أَلَا حرمةٌ تُرْعَى أَلَا عقـدُ ذمّةٍ * لجارٍ أَلَا حِـلٌ لقـولٍ مُشاكلُ
أَلَا منصفٌ إن لم تَجِدْ متفضّلًا * علينا أَلَا قاضٍ من الناس عادلُ
فلا تقطعَنْ غيظًا علىّ أنامــلًا * فقبلَكَ ما عُضّتْ علىّ الأناملُ
أطاهرُ إن تُحسِنْ فإنّىَ محسنٌ * إليك وإن تبخَــلْ فإنّىَ باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإنى لا أفعـل بك إلا ما تحب، فوصـله وحمله وكساه .

وقال عليّ بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك ! ألا حرمةٌ * تجود بعفوك أن أُبعَدا
لئن جلّ ذنبٌ ولم أعتمد * لأنت أجلُّ وأعلى يدا
ألم تر عبدًا عدا طوره * ومولًى عفا ورشيدًا هدى
ومُفسِدَ أمرٍ تلافيتَه * فعاد فأصلح ما أفسدا
أقِلْنى أقالك من لم يزل * يَقيكَ ويَصرِف عنك الرّدى

وأحسن شعر قاله فى الحبس قصيدته التى أولها :

قالوا حُبِستَ فقلتُ ليس بضائرى * حَبْسى وأىّ مهنّدٍ لا يُغمَدُ
أوَ ما رأيتَ الليثَ يألف غِيلَه * كِبرًا وأوباشُ السِّباع تَرَدَّدُ
والشمس لولا أنها محجوبةٌ * عن ناظرَيْكَ لَمَا أضاء الفرقدُ
والبدرُ يُدرِكه السِّرار فتنجلى * أيامُه وكأنه متجدّد
والغيثُ يحصُره الغمامُ فما يُرَى * إلاّ وريِّقُه يراع ويرعُدُ
والزاعبيّةُ لا يُقيم كعوبَها * إلا الثِّقاف وجَذوةٌ تتوقَّدُ
والنارُ فى أحجارها مخبوءةٌ * لا تُصطلَى إن لم تُثِرها الأزنُدُ
والحبس ما لم تغشَه لدنيّةٍ * شنعاء نعم المنزلُ المتودّد
بيت يجدّد للكريم كرامةً * ويُزارُ فيه ولا يَزور ويُحمَدُ
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه * لا يستذلّك بالحجاب الأعبُد
كم من عليلٍ قد تخطّاه الردى * فنجا ومات طبيبُه والعُوَّدُ
يا أحمدُ بنَ أبى دُوادٍ إنما * تُدعَى لكل عظيمةٍ يا أحمد
أبلغْ أميرَ المؤمنين ودونه * خَوضُ الرّدى ومخاوفٌ لا تنفَدُ
أنتم بنو عم النبىّ محمدٍ * أوْلَى بما شرَعَ النبىّ محمد
ما كان من كرمٍ فأنتم أهلُهُ * كرُمتْ مغارسكم وطاب المحتِدُ

أمِنَ السَّوِيّةِ يابن عم محمد * خَصْمٌ تُقَرِّبُهُ وآخرُ تُبْعِد
إن الذين سَعَوْا اليك بباطل * حسادُ نعمتِكَ التى لا تُجْحَدُ
شَهِدُوا وغِبْنَا عنهمُ فتحكّموا * فينا، وليس كغائبٍ من يشهد
لو يجمع الخُصَماءَ عندك مجلسٌ * يوما لبَانَ لك الطريقُ الأقصد
فبأىّ جُرْمٍ أصبحتْ أعراضُنا * نَهْبا تَقَسَّمها اللئيمُ الأوغد

خرج علىّ بن الجهم إلى الشام فى قافلة فخرجت عليهم الأعراب فى خُساف(١)، فهرب مَنْ كان فى القافلة من المُقاتِلة وثَبَتَ علىّ بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وثاب الناس اليه فدفعهم ولم يَحْظَوْا بشىء . فقال فى ذلك :

صَبَرْتُ ومثلى صبرُه ليس يُنْكَرُ * وليس على ترك التَّقَحُّم يُعْذَرُ
غريزةُ حرّ لا آختلاقُ تكلُّفٍ * إذا خام(٢) فى يوم الوغى المتصبِّرُ
ولما رأيت الموتَ تهفو بنودُه * وبانت علاماتٌ له ليس تنكر
وأقبلتِ الأعرابُ من كل جانبٍ * وثار عَجَاجٌ أسودُ اللون أكدر
بكل مُشيح(٣) مستميتٍ مشمّر * يجول به طِرْفٌ أقبُّ مشمّر
بأرض خُسافٍ حين لم يك دافعٌ * ولا مانعٌ إلا الصفيحُ المذكَّر
فقلّ فى عينى عظيمَ جموعهم * عزيمةُ قلبٍ فيه ما جَل يصغُرُ
بمعتَرَكٍ فيه المنايا حواسرٌ * ونارُ الوَغَى بالمَشْرَفِيّة تُسْعَرُ
فما صُنْتُ وجهى عن ظُبَاتِ سيوفهم * ولا آنحرتُ عنهم والقَنَا تتكسّر
ولم أكُ فى حرّ الكَرِيهة مُحجِما * إذا لم يكن فى الحرب للوِرْد مَصْدَر
اذا ساعدَ الطِّرْفُ الفتى وجَنَانُهُ * وأسمرُ خَطّىٌّ وأبيضُ مِبْتَر
فذاك وإن كان الكريم بنفسه * إذا آصطلت الأبطالُ فى النقع عسكر

---

(١) برية بين بالس وحلب . (٢) خام : نكص وجبن .
(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن .

منعتُهُمُ من أن ينالوا قُلامةً * وكنتُ شجاهم والأسنّةُ تقطُرُ
وتلك سجايانا قديمًا وحادثًا * بها عُرِف الماضى وعزّ المؤخّر
أبتْ لى قرومٌ أنجبتنى أن أرى * وإن جلّ خطبٌ خاشعًا أتضجّر
أولئك آلُ الله فِهرُ بن مالكٍ * بهم يُجْبَرُ العظمُ الكسير ويُكسَر
هم المَنكِبُ العالى على كل منكبٍ * سيوفُهم تُفْنِي وتُغني وتُفقِر

كان علىّ بن الجهم يعاشر جماعةً من فتيان بغداد لما أُطلق من حبسه وردّ من النفى، وكانوا يتقاينون ببغداد ويلزمون منزل مغنٍّ بالكرخ يقال له المفضّل، فقال فيه علىّ بن الجهم:

نزلنا بباب الكرخ أطيبَ منزلٍ * على مُحْسِناتٍ من قيانِ المفضّل
فلابن سُرَيجٍ والغَرِيضِ ومَعْبَدٍ * بدائعُ فى أسماعنا لم تبدّل
أوانس ما للضيف منهنّ حشمةٌ * ولا ربهنّ بالجليل المبجّل
بسرّ اذا ما الضيفُ قلّ حياؤه * ويَغفل عنه وهو غير مُغفَّل
ويُكثِر من ذمّ الوقار وأهلِه * اذا الضيفُ لم يأنس ولم يتبذّلِ
ولا يدفع الأيدى المريبة غَيرة * اذا نال حظًّا من لَبوسٍ ومأكل
ويُطرِق إطراقَ الشُّجاع مهابةً * ليُطلِقَ طرْفَ الناظر المتأمل
أشِرْ بيدٍ واغمِزْ بطَرْفٍ ولا تخفْ * رقيبًا اذا ما كنتَ غير مُبخَّل
وأعرِضْ عن المصباح والهجْ بمثله * فإن خمَد المصباحُ فادنُ وقبّل
وسَلْ غيرَ ممنوعٍ وقُلْ غيرَ مسكَتٍ * ونَمْ غيرَ مذعورٍ وقمْ غير مُعْجَلِ
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جمّةً * وكنتَ مَلِيًّا بالنبيذ المعسّل
فبادرْ بأيام الشباب فإنها * تَقَضّى وتَفْنَى والغَوايةُ تنجلى
ودع عنك قولَ الناس أتلفَ ماله * فلانٌ فأضحى مُدبِرًا غير مُقبِلِ
هل الدهرُ إلا ليلةٌ طرحتْ بنا * أواخرُها فى يوم لهوٍ معجّل
سقى الله بابَ الكرخ من مُتَنزّهٍ * الى قصر وضّاحٍ فبِركة زَلزَلِ

مَسَاحِبَ أذيالِ القِيانِ ومَسْرَحَ الـ * ـحِسانِ ومَثْوَى كلِّ خِرْقٍ مُعَذَّلِ
لو أنّ امرأَ القَيسِ بنَ حُجْرٍ يحلّها * لأقصرَ عن ذكرِ الدَّخُولِ وحَوْمَلِ
إذًا لَرَأى أن يمنحَ الودَّ شادنا * مُقَصَّرَ أذيالِ القَبا غيرَ مُسْبِلِ
إذا الليلُ أدنى مَضْجَعِي منه لم أَقُلْ * "عَقَرْتَ بعيرى يا امرأَ القيسِ فانزِلِ"

دخل علىّ بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر فى غداة من غَدَوات الربيع وفى السماء غيم رقيق، والمطر يجىء قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبوح فغاضبته حَظِيّة له، فتنغّص عليه عزمه وفتر، فخُبِّر علىّ بن الجهم بالخبر وقيل له: قل فى هذا المعنى لعله ينشط للصبوح؛ فدخل عليه فأنشده:

أَمَا تَرَى اليومَ ما أحلى شمائلَه * صَحْوٌ وغيمٌ وإبراقٌ وإرعاد
كأنه أنت يا من لا شبيهَ له * وصلٌ وهجرٌ وتغريبٌ وإبعادُ
فباكِرِ الراحَ واشربها مُعَتَّقةً * لم يَدَّخِرْ مثلَها كِسْرى ولا عادُ
واشرَبْ على الروض إذ لاحتْ زخارفُه * زهرٌ ونَورٌ وأوراقٌ وأورادُ
كأنما يومُنا فعلُ الحبيبِ بنا * بَذْلٌ وبُخْلٌ وإيعادٌ وميعادُ
وليس يذهَبُ عنّى كلّ فعلِكُمُ * غَيٌّ ورُشْدٌ وإصلاحٌ وإفساد

فاستحسن الأبياتَ وأمر له بثلثمائة دينار وحَمَله وخلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر علىّ بن الجهم من الحبس أقام معه بالشّاذياخ مدّة، فخرجوا يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرْج كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال علىّ بن الجهم يصف ذلك:

وَطِئنا رياضَ الزعفرانِ وأمسكتْ * علينا البُزاةُ البِيضُ حمرَ الدَّرَارِج (١)
ولم تَحْمِها الأدغالُ منا وإنما * أَبَحْنا حِماها بالكلابِ البوارِج
بمستَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها * على الأرض أمثالَ السِّهامِ الزوالِج (٢)

(١) واحده دُرّاج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه ألطف .

(٢) الزالج من السهام : الذى يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهـوادى كأنهـا * وما عُقِفتْ منها رؤوسُ الصَّوَالج
ومن دالعاتٍ ألسُنًا فكأنهـا * لِحًى من رجال خاضـعين كَوَاسِج
قَلَبْنا بهـا الغِيطانَ قَلْبًا كأنهـا * أناملُ إحدى الغانيـات الحَوَالج
فقل لبُغاة الصَّـيْد هل من مُفاخِرٍ * بصيد وهل من واصف أو مخارج
قَرَنَّا بُزاةً بالصـقور وحَوَّمتْ * شـواهينُنا من بعد صـيد الرَّوامج (١)

لمـا فُلج ابن أبى دواد شَمِت به علىّ بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يبقَ منك سـوى خَيالك لامعًا * فوق الفِراش ممهَّـدًا بوِسَاد
فرِحَتْ بمَصْرَعك البريَّةُ كلّهـا * مَنْ كان منهم مُوقِنًا بمَعَاد
كم مجلس لله قـد عطّلتَـه * كى لا يُحَـدث فيـه بالإسـناد
ولكم مصابيـح لنـا أطفأتَهـا * حتى تزول عن الطريق الهـادى
ولكم كريمةِ مَعْشرٍ أرملتهـا * ومحـدّث أوثقتَ فى الأقيـاد
إن الأَسارى فى السجون تفرّجوا * لمـا أتتـك مواكبُ العوّاد
وغدًا لمصرعك الطبيبُ فلم يجـد * شيئا لدائك حيـلة المرتاد
فذُقِ الهوانَ معجّلًا ومؤجّلًا * والله ربّ العرش بالمرصـاد
لا زال فالجُك الذى بك دائبًـا * وفُجِعْتَ قبـل الموت بالأولاد

ومن جيد شعره قوله :

نطق الهوىً بجوى هو الحقّ * وملكتنى فليَهْنِـكَ الرِّقُّ
رِفقًـا بقـلبى يا معـذِّبَه * رِفقًـا وليس لظالم رِفـقُ
وإذا رأيتُـك لا تُكلِّمُنى * ضاقت علىّ الأرضُ والأُفق

وله أيضا :

يا رحمـةً للغريب بالبلد النَّـا * زِحِ مَا ذَا بنفســه صَنَعَـا
فَارَقَ أحبابَه فمـا انتفعـوا * بالعيش من بعده وما انتفعا

(١) الزماج : الملواح الذى يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير .

٢٠ — على بن جَبَلَة (١)

قال المأمونُ يوما لبعض جلسائه : أُقسِم على مَنْ حضر ممّن يحفظ قصيدة علىّ بن جَبَلَة الأعمى فى القاسم بن عيسى إلا أنْشَدنيها ؛ فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أميرُ المؤمنين ولا بدّ من إبرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندى ؛ قال : قم فجئنى بها ، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها ، وهى :

ذاد ِوْدَ الغىّ عن صَدَرِهْ * وٱرعَوَى واللهوُ من وَطَرِهْ
وأبَتْ إلا البكاءَ له * ضَحِكَاتُ الشَّيْب فى شَعَرِهْ
ندمِى أن الشبابَ مضَى * لم أُبَلِّغْه مَدَى أَشَرِهْ
وٱنقضتْ أيامهُ سَلَمًا * لم أجِدْ حَوْلًا على غِيَرِهْ
حسرتْ عنّى بشاشتُه * وذوَى المحمودُ من ثَمَرِهْ
ودمٍ أهدرتُ من رَشَإٍ * لم يُرِد عَقْلًا على هَدَرِهْ
فأتَتْ دون الصِّبا هَنَةٌ * قلبتْ فُوقى على وَتَرِهْ
جارتَا ليس الشبابُ لمن * راح مُحنيًا على كِبَرِهْ
ذهبتْ أشياءُ كنتُ لها * صَارَها (٢) حلمى الى صُورَهْ

(١) هو على بن جبلة الأنبارى والعكوّك لقبه ، وهو من الموالى أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد فى الحربية منها ونشأ فيها ، وكان ضريرا منذ ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزله ، لطيف المعانى ، مداح حسن التصرف ، وقد ٱستنفد شعره فى مدح أبى دلف العجلى وأبى غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، وزاد فى تفضيلهما وتفضيل أبى دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوك فى أبى دلف منها :

كل من فى الأرض من عرب * بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة * يكتسيها يوم مفتخره

توفى سنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أخباره فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠)

(٢) صارها : أمالها .

دَعْ جدًا قحطان أو مُضَرٍ * في يمانيه وفي مُضَرِهْ
وامتدح من وائلٍ رجلًا * عُصُرُ الآفاق في عُصُرِهْ
المنايا في مناقبه * والعطايا في ذرا حُجَرِهْ
ملكٌ تندى أناملُه * كانبلاج النَّوْءِ عن مَطَرِه
مُستهِلٌ عن مواهبه * كابتسام الروض عن زَهَرِه
جبلٌ عزّتْ مناكبه * أمنتْ عدنان في ثُغَرِه
إنما الدنيا أبو دُلَفٍ * بين مَبْدَاه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دلفٍ * ولّت الدنيا على أثَرِه
لستُ أدري ما أقول له * غير أنّ الأرض في خَفَرِه
يادواء الأرض إن فسدتْ * ومديلَ اليُسْرِ من عُسُرِه
كل من في الأرض من عربٍ * بين باديه الى حَضَرِه
مستعيرٌ منك مكرمة * يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وفيها يقول :

وزُحُوفٍ في صَواهله * كصياح الحشر في أثره
قُدْتَه والموت مكتمنٌ * في مَذاكيه ومُشْتَجَرِه
فرمتْ حَقْوَيهِ منه يدٌ * طوتِ المنشورَ من نظره
زرته والخيل عابسةٌ * تحمل البُؤْسَى على عُقُرِه
خارجاتٍ تحت رايتها * كخروج الطير من وُكُرِه
وعلى النعمان عُجْتَ به * عَوْجةً ذادتْه عن صَدَرِه
غمط النعمانُ صَفْوَتَها * فرددتَ الصفو في كَدَرِه
ولقرقور أدرتَ رحًا * لم تكن ترتدّ في فِكَرِه

قــد تأنيْتَ البقاءَ له ◦ فأبى المحتومُ من قَـدَرِه
وطَــغَى حتى رفعتَ له ◦ خُطّةً شنعاءَ من ذِكَرِه

فغضب المأمون واغتاظ، وقال: لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه.

وكان يمدح حُمَيد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هـذا فى أبى دلف قال: أى شىء بَقّيتَ لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال:

إنما الدنيا حُمَيدٌ * وأياديه الجِسامُ
فاذا ولّى حميـدٌ * فعلى الدنيا السلامُ

وهو القائل فى حميد:

دِجلةُ تسقى وأبو غانم * يُطعِم مَنْ تَسقِى من الناس
والناسُ جسمٌ وإمامُ الهدى * رأسٌ وأنت العينُ فى الراس

وقال للحسن بن سهل:

أعطيتَنى يا ولىّ الحق مبتـدئا * عطيّةً كافأتْ مدحى ولم تَرَنِى
ما شِمْتُ برقَك حتى نِلتُ رَيّقَه * كأنما كنتَ بالجَدْوَى تُبادِرنى

وهو القائل فى حميد:

إلى أكرم قَحْطانٍ * وَصَلْنا السُّهْبَ بالسُّهْبِ
الى مجتمع النيـل * ومُلْقَى أرحُلِ الرَّكْبِ
حُمَيْـدٌ مَفْزَعُ الأمّـ * ـة فى الشرق وفى الغرب
كأنّ الناسَ جسمٌ وهْـ * ـو منه موضعَ القلب
اذا سَالَمَ أرضـاً غَـ * ـنِيَتْ آمنـةَ السِّرْبِ
وإن حارَبها حلّت * بها راغِيَـةُ السَّقْبِ
اذا لاقى رَعِيـلَ المو * تِ بالشطبة والشُّطْب
وبالماذيّة الخُضْـرِ * وبالهنـدية القُضْب

غـــدا مجتمعَ القلبِ * له جندٌ من الرُّعْبِ
فيـافوزَ الذى وَالَى * ويا بؤسى أخى الذنب
أيا ذا الجود فاسلَمْ ما * جرتْ حُقُبٌ الى حُقُبِ
فأنت الغيثُ فى السِّلمِ * وأنت الموتُ فى الحرب
وأنت الجـامعُ الفـار * قُ بين البعـد والقرب
بـك الله تلافى النـا * س بعد العَثْرِ والنَّكْبِ
وردّ البِيضَ والبِيضَ * الى الأغمـاد والحُجْب
بإقدامك فى الحـرب * وإطعـامِك فى اللَّزْب
فكم أمّنتَ من خوفٍ * وكم أشعبتَ من شَعْب
وكم أصلحتَ من خَطْبٍ * وكم أيمتَ من خِطْبِ
وما تمّهـــرها إلا * دِرَاكَ الطَّعْن والضرب
تناهتْ بك قحطانٌ * الى الغـاية والحَسْبِ
ففاتتْ شَرَفَ الأحيـا * ء فَوْتَ الرأس للعَجْبِ (١)

ومما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفرَ قوله فى أبى دلف :

أنت الذى تُنْزِلُ الأيامَ منزلَها * وتنقُلُ الدهرَ من حالٍ الى حال
وما مَدَدتَ مَدَى طَرْفٍ الى أحدٍ * إلا قضيتَ بأرزاق وآجال
تَزْوَرُّ سخطاً فتُمسِى البِيضُ راضيةً * وتستهِلُّ فتبكى أوجُـهُ المـال

وقال فيهـا :

كأنّ خيلَك فى أثنـاء غَمْرتها * أرسالُ قَطْرٍ تَهَامَى فوق أرسال
يخرجن من غمرات الموت سامية * نَشْرَ الأنامل من ذى القِرّة الصالى

(١) العجب : أصل الذنب .

وقال أيضا :

جـلاء مشـيب نَزَلْ ٭ وأُنْسُ شـبابٍ رَحَـلْ
طـوى صـاحبٌ صاحبًا ٭ كذاك اختلافُ الدُّوَل
أعاذلـتى أقصِـرِى ٭ كفاكِ المشيبُ العَـذَلْ
بـدا بـدلًا بالشبا ٭ ب ليتَ الشبابَ البدل
جـلالٌ ولكنه ٭ تحاماه حُـورُ المُقَـلْ

وقد كان حميد ركب يوم عيد فى جيش عظيم لم يُرَ مثلُه ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غـدا بأمـير المؤمنين ويُمْنـه ٭ أبو غانم غَدْوَ النَّدَى والسحائب
وضاقتْ فِجاجُ الأرض عن كل موكِبٍ ٭ أحاطَ به مستعليًا للمواكب
كأنّ سمو النَّقع والبِيضَ فوقهم ٭ سماوةُ ليـل قُرِّنتْ بالكواكب
فكان لأهـل العِيد عيدٌ بنسكهم ٭ وكان حُمَيدٌ عيدَهم بالمواهب
ولو لا حميـد لم تبلّج عن النَّدَى ٭ يمينٌ ولم يُدرِكْ غِنًى كَسْبُ كاسب
ولو مَلَكَ الدنيـا لما كان سائلٌ ٭ ولا اعتامَ فيها صاحبٌ فضلَ صاحب
له ضَحكةٌ تستغرق المالَ بالنَّدَى ٭ على عَبْسةٍ تُشْجِى القَنَا بالترائب
ذهبتَ بأيام العُـلَا فارِدًا بها ٭ وصَرَّمتَ عن مَسْعاك شأوَ المطالب
وعدّلت مَيْلَ الأرضِ حتى تعدّلت ٭ فلم ينأ منها جانبٌ فوق جانب
بلغت بأدنى الحزمِ أبعدَ قُطْرِها ٭ كأنك منها شاهدٌ كلَّ غائب

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان ، وقد مدحه فأجزل صلته ، واستأذنه فى الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان برّه يتصل عنده ، فلما طال مُقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده :

راعه الشَّيبُ إذ نَزَلْ ٭ وكَفَاه من العَـذَلْ
وانقضتْ مدة الصِّبَا ٭ وانقضى اللهوُ والغَـزَلْ

قد لعمرى دَمَلتُه ◦ بخضابٍ فما اندمل
فابكِ للشَّيب إذ بَدَا ◦ لا على الرَّبع والطَّلَل
وصل الله للأمير ◦ رِعُرى الملك فاتّصل
ملكٌ عزمُه الزما ◦ نُ وأفعالُه الدول
كسرويٌّ بمجده ◦ يضربُ الضاربُ المثل
وإلى ظلّ عزّه ◦ يلجأ الخائف الوَجِل
كلّ خلقٍ سوى الإما ◦ مِ لإنعامه خَوَل
ليته حين جادَ لى ◦ بالغِنى جاد بالقفَل

فضحك وقال : أبَيْتَ إلا أن تُوحشنا ، وأجزل صِلَتَه وأذن له .

دخل على بن جبلة العَكَوَّك على حُميد الطوسى فى أول يوم من شهر رمضان ، فأنشده :

جعل الله مَدْخَلَ الصوم فوزًا ◦ لحُميدٍ ومُتعةً فى البقاء
فهو شهر الربيع للقُرّاء ◦ وفراقُ النَّدمان والصَّهباء
وأنا الضامنُ المَلِئُ لمن عا ◦ قَرها مُفطِرًا بطول الظّماء
وكأنى أرى النَّدامَى على الخسـ ◦ ـف يرجُّون صبحَهم بالمساء
قد طَوَى بعضُهم زيارةَ بعض ◦ واستعاضوا مَصاحفًا بالغناء

وفيها يقول :

بحُميدٍ – وأين مثلُ حميدٍ – ◦ فخرتْ طيِّئٌ على الأحياء
جودُه أظهر السماحةَ فى الأر ◦ ض وأغنى المُقوِى عن الإقواء
ملكٌ يأمُلُ العبادُ نَداه ◦ مثلَ ما يأملونَ قطرَ السماء
صاغه الله مُطعِمَ الناس فى الأر ◦ ض وصاغ السحابَ للإسقاء

فأمر له بخمسة آلاف درهم ، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك ؛ ثم دخل اليه ثانى شوّال فأنشده :

عللانى بصفو ما فى الدِّنان * واتركا ما يقـوله العاذلانِ
واسبقا فاجـعَ المنيّـة بالعيـ * ـشِ فكلٌّ على الجـديدين فانى
عـللانى بشَربة تُذهب الهـ * ـمَّ وتَنْـفِى طـوارقَ الأحزان
والقِيَا فى مَسَامع ســدها الصو * مُ رُقَى المَوْصِـلِىّ أو دَحْمان
قــد أتانا شــوّالُ فاقبل العيـ * ـشُ وأعـدى قَسْرًا على رمضان
نِعْمَ عونُ الفــتى على نُوَب الدهـ * ـرِ سماعُ القِيـانِ والعيــدان
وكؤوسٌ تجــرى بمــاء كروم * ومطىُّ الكؤوس أيدى القِيـان
من عُقارٍ تُميت كلّ احتشامٍ * وتَسُرّ النَّــدْمانَ بالنــدمان
وكأنّ المِـزَاج يقـدح منهـا * شررًا فى ســبائك العِقْيان
فاشربِ الراحَ واعصِ مَنْ لامَ فيها * إنهـا نِـعْم عُـدّة الفتيان
واصحَبِ الدهرَ بارتحـالٍ وحِلٍّ * لا تخَفْ ما يجـرّه الحادثان
حَسْبُ مستظهرٍ على الدهر ركنًا * بمُجَيـد رِدْءًا من الحدثان
ملك يقتــنى المكارمَ كنزًا * وتراه من أكرم الفتيان
خُلقتْ راحتَـاه للجُـود والبأ * سِ وأموالُه لشكر اللسان
مَلّكته على العباد مَعَـدٌّ * وأقرّت له بنــو قحْطان
أريحىُّ النـدَا جميـلُ المُحَيّـا * يَدُه والسماحُ معتقدان
وجهــه مُشْرِقٌ الى مُعتفيــه * ويداه بالغيث تنفجران
جعل الدهرَ بين يوميه قسمين * بعُـرْف جَزْلٍ وحرّ طِعان
فاذا سـار بالخميس لحـربٍ * كَلّ عن نَصّ جَرْيه الخافقان
واذا ما هززته لنـوالٍ * ضاق عن رحب صدره الأُفْقان
غيثُ جدبٍ إذا أقامَ ربيعٌ * يتغشّى بالسَّـيْب كلّ مكان
يا أبا غانم بقيتَ على الدهـ * ـرِ وخُلِّدت ما جرى العصران

ما نُبالِي إذا عَدَتك المنايا * مَنْ أصابتْ بكَلْكَلٍ وجِرَان
قد جعلنا اليك بعثَ المطايا * هَرَبًا من زماننا الخوّان
وحملنا الحاجاتِ فوق عِتاقٍ * ضامناتٍ حوائجَ الركبان
ليس جودٌ وراء جودك يُنتا * بُ ولا يَعتفِي لغيرك عانى .

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم فخففت وخففنا، وهذه للفطر فقد زدتنا وزدناك .

ولما مات حُميد الطوسىّ رثاه بقصيدته العينية المشهورة التى تُعَدّ من نادر الشعر وبديعه، وهى :

أللدهرِ تبكى أم على الدهر تجزعُ * وما صاحبُ الأيامِ إلا مُفَجَّعُ
ولو سَهُلت عنك الأسَى كان فى الأسَى * عزاءٌ معزٍّ للبيب ومَقنعُ
تَعَزَّ بما عَزَّيتَ غيرك إنها * سِهامُ المنايا حائماتٌ ووُقَّعُ
أُصِبنا بيومٍ فى حُمَيدٍ لَوَ أنّه * أصاب عروشَ الدهرِ ظلّتْ تَضَعضَعُ
وأُدِّبنا ما أدّب الناسَ قبلَنا * ولكنه لم يبق للصبر موضعُ
ألم تَرَ للأيام كيف تصرّمت * به، وبه كانت تُذادُ وتُدفَعُ
وكيف التقى مثوًى من الأرض ضيّقٌ * على جبلٍ كانت به الأرضُ تُمنَعُ
ولما انقضتْ أيامُه انقضت العُلا * وأضحى به أنفُ الندَى وهو أجدعُ
وراحَ عدوّ الدينِ جذلانَ ينتحى * أمانىَّ كانت فى حَشاه تقطَّعُ
وكان حُميدٌ مَعقِلًا ركعتْ به * قواعدُ ما كانت على الضيم تركعُ
وكنت أراه كالرزايا رُزِئتُها * ولم أدر أن الخلقَ تبكيه أجمعُ
حِمَامٌ رماه من مواضع أمنه * حِمَامٌ، كذاك الخطب بالخطب يُقدَعُ
وليس بغَروٍ أن تُصيب منيّةٌ * حِمَى أختها أو أن يَذِلّ المُمَنَّعُ
لقد أدركتْ فينا المنايا بثأرها * وحلّتْ بخطبٍ وهْيُه ليس يُرقَعُ

نَعاءِ حُمَيدًا للسرايا إذا غدتْ * تذاد بأطراف الرماح وتُوزَعُ
وللْزَهِق المكروبِ ضاقتْ بأمره * فلم يدر فى حوماتها كيف يصنعُ
وللبيض خلّتها البعولُ ولم يدع * لها غيرَه داعى الصباح المفزّعُ
كأنّ حميدا لم يقُدْ جيشَ عسكرٍ * إلى عسكر أشياعُه لا تروّعُ
ولم يبعثِ الخيلَ المغيرةَ بالضحى * مِراحًا ولم يرجِعْ بها وهى ظُلّعُ
رواجعَ يحملن النِّهابَ ولم تكن * كتائبُه إلا على النّهب ترجِعُ
هوى جبلُ الدنيا المنيعُ وغيثُها الـ * ـمَريعُ وحاميها الكمىُّ المشيَّعُ
وسيفُ أميرِ المؤمنين ورمحُه * ومفتاحُ بابِ الخطبِ والخطبُ أفظعُ
فأقنعه من مُلكه ورِباعه * ونائلِه قَفْرٌ من الأرض بَلْقَعُ
على أى شجوٍ تشتكى النفسُ بعده * إلى شجوه أو يذخَرُ الدمعَ مَدْمَعُ
ألم تر أن الشمس حالَ ضياؤها * عليه وأضحى لونُها وهو أسفعُ
وأوحشتِ الدنيا وأودَى بهاؤها * وأجدبَ مَرْعاها الذى كان يَمْرَعُ
وقد كانت الدنيا به مطمئنّةً * فقد جعلت أوتادُها تتقلّعُ
بكى فقدَه روحُ الحياة كما بكى * نَداه النَّدَى وابنُ السبيل المُدَفَّعُ
وفارقتِ البيضُ الخدورَ وأُبْرِزتْ * عواطلَ حَسْرَى بعده لا تَقَنَّعُ
وأيقظ أجفانًا وكان لها الكرى * ونامت عيونٌ لم تكن قبلُ تَهْجَعُ
ولكنه مقدارُ يومٍ ثَوَى به * لكل امرئٍ منه نِهالٌ ومَشْرَعُ
وقد رأَبَ اللهُ الملا بمحمد * وبالأصل يَنْمِى فرعُه المتفرّعُ
أغرُّ، على أسيافه ورماحه * تُقَسَّم أنفالُ الخميسِ وتُجمَعُ
حَوَى عن أبيه بَذْلَ راحتِه النَّدَى * وطعنَ الكُلَى والزاعبيّةُ شُرَّعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٢٣٥٠)